

كتاب الرّؤسيتين
في

أَخْبِلِ الدُّوْلَتَيْنِ
النُّورِيَّةَ وَاصْلَاحِيَّةَ

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

محقّقه وعلّقه عليه
إبراهيم النسيبي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

كتاب الرّؤسيتين
في

أَخْبِلِ الدُّوْلَتَيْنِ
النُّورِيَّةَ وَاصْلَاحِيَّةَ

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

محقّقه وعلّقه عليه
إبراهيم النسيبي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کتاب الرضتين
في
أخبار الدولتين
النورية وصلاحية
١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للنّاشر

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م



للطباعة والنشر والتوزيع

وطني المصيرية

شارع حبيب أبي شهلا

بناء المسكن

تلفاكس (٩٦١١)

١٠٢٢٢ - ٢١١٠٢١ - ٨١٥١١٢

ص.ب. ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت - لبنان

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112 - 319039 - 603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

<http://www.resalah.com>

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

يعد كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة من أهم الكتب وأشهرها التي أرخت لدولتي نور الدين وصلاح الدين، وما تخللها من حروب مع الصليبيين، وقد امتاز هذا الكتاب بمنهج واضح، وحسن استخدام للموارد، فأبو شامة بحسه التاريخي المرهف ساق مقتبساته بانسجام جعلها تبدو وكأنها قطعة واحدة من أسلوبه.

وبرأيي أن الذي جعل كتاب الروضتين ينبض بسحر التاريخ هو موقف مؤلفه الفكري الواضح، والذي تجلّى من خلال اختياره لعنوانه «كتاب الروضتين»، فأبو شامة الذي كاد يدرك عصر صلاح الدين^(١) عاش في فترة مضطربة، يتقاتل فيها الإخوة باستماتة على الحكم، رأى في دولتي نور الدين وصلاح الدين روضتين في صحراء هذه الفوضى المتراصة، بل أحسن - وهو المفجوع بعصره - كأن ثمة شياً بين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وبين نور الدين وصلاح الدين، فتحمس لإنشاء هذا الكتاب، مستجيباً لنداء ظامئ إلى العدل والاستقرار، مخاطباً ملوك عصره وكل عصر: لن أكتب لكم عن العمرين فقد بُعدَ زمانهما، وتشعرون بعجز عن التشبه بهما، حسناً، هاكم سيرة ملكين من عصركم، وهما من بعض ملوك دهركم، ولن تعجزوا عن التشبه بهما.

فأبو شامة لم يكتب تاريخه ليقدمه إلى السلطان طمعاً في نوال أو ثناء، بل كتبه منهجاً في الإدارة العملية من خلال حكم ملكين عادلين، ومن ثم جاء كتابه بهذا الاتساق الرائع والبناء المحكم، وبلغه يفهمها الخاص والعام - على حد تعبيره - وفي أكبر جوامع دمشق - الجامع الأموي - راح يقرؤه الناس.

وكما انطلق أبو شامة في تأليف كتابه من موقف فكري واضح ننطلق نحن من الموقف ذاته في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً دقيقاً.

(١) بين وفاة صلاح الدين وولادة أبي شامة عشر سنوات.

ففي صراعنا مع الصهيونية الآن تكتسب الكتب التي تحدثنا عن الحروب الصليبية أهمية خاصة، للتشابه الواضح بين الصليبيين والصهيونيين...

إننا نقدم للباحثين نصوصاً عن تلك الفترة يمكن أن يطمثنوا إلى صحتها، من أجل أن تقوم دراستهم على أسس سليمة علمياً، فالذين لا يؤمنون بمقولة: «التاريخ يعيد نفسه» يستبعدون الاستفادة من تاريخنا في صراعنا الآن مع الصهيونية. وبرأيي أن التاريخ لا يعيد نفسه تماماً، فلكل عصر ظروفه وأحواله، ولكن ثمة ثوابت ومتغيرات في كل عصر، ثوابت نلتقي فيها مع العصور الأخرى، ومتغيرات ننأى بها عن العصور الأخرى أيضاً، فإذا استطعنا إدراك الثوابت التي مكنت أجدادنا من الانتصار على الصليبيين نكون قد وضعنا قدمنا على أول طريق التحرير...

إن الصهيونيين أنفسهم يدركون هذا التشابه بين احتلالهم لأرضنا واحتلال الصليبيين لها من قبل، ويقومون بدراسة موقف أجدادنا ويحللونه من جذوره كي يتفادوا نهاية كنهاية حطين وما بعد حطين، وثمة فرقٌ عمل كاملة في الجامعة العبرية تتخصص في هذا الموضوع^(١)...

فلم لا نستفيد نحن من تاريخنا في إدراك هذه الثوابت كي نصنع حطين أخرى؟..

طبعنا الكتاب

هذا الكتاب الهام والمشهور تم طبعه منذ مئة وإحدى وعشرين سنة هجرية في مطبعة وادي النيل بمصر (١٨٧١ م - ١٢٨٨ هـ) عن نسخة خطية فرغ من نسخها سنة (٧٣٤ هـ)^(٢).

هذه الطبعة - على ما فيها من أوهام وتحريفات وتصحيقات - ظلت عمدة الباحثين في تاريخ تلك الفترة حتى نشر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد من مصر سنة (١٩٥٦ م) القسم الأول من الجزء الأول، ثم نشر سنة (١٩٦٢ م) القسم الثاني من الجزء الأول. وتوقف منذ ذلك التاريخ إصدار تنمة الكتاب، وتراوحت استفادة الباحثين بين الطبعة القديمة ونشرة الدكتور محمد حلمي الناقصة. بل ظن بعض الباحثين أن نشرة الدكتور محمد حلمي هي الكتاب تماماً.

هكذا بقي الكتاب موزعاً بين جزئه الأول المحقق، وجزئه الثاني الذي هو بحاجة إلى تحقيق.

(١) انظر «من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس» للدكتور شاكِر مصطفى مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان: ١٠٥ - ١٠٦ (١٩٨٧).

(٢) هي نسخة القاهرة لم تتمكن - رغم محاولتنا - من الوقوف عليها.

وهذا الجزء الأول المحقق والذي نشره الدكتور محمد حلمي أسوأ من طبعة وادي النيل، فعدا التصحيقات والتحريفات التي وقع بها في قراءته للنص، وقع بخطأ أفدح - كانت طبعة وادي النيل بنجوة منه - وهو شرحه لبعض المفردات وتعريفه ببعض الأماكن مجانباً الصواب فيما يشرح.

ولم أتبع هذا الضرب من أخطائه في تحقيقي للجزء الأول، وحسبي أن أشير إلى نموذجين منه هنا^(١):

يقول محمد بن نصر القيسراني في قصيدة له:

وعسكرك الذي استولى مسيحاً على ما بين فامية وسيح

يقول المحقق في الحاشية: «سبح اسم ماء، وسبح الغمر، وسبح النعامة وسبح البردان مواضع باليمامة. معجم البلدان: ١٩٢/٥. أي أن ملكه امتد واتسع وشمل ما بين هاتين المنطقتين»^(٢).

هكذا ببساطة مذهلة يقرر أمراً تاريخياً، مبنياً على خطأ في قراءته، وهو أن ملك نور الدين امتد من أفامية حتى اليمامة في الجزيرة العربية - وهي مسافة شاسعة، ومتى؟ قبل سنة (٥٤٨ هـ) لأن القيسراني الشاعر توفي في هذه السنة.

والبيت على الصحيح هو:

وعسكرك الذي استولى مشيحاً على ما بين فامية وشيح

مشيحاً: يعني مُجِدّاً. وشيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية^(٣).

أي أن جيش نور الدين استولى مُجِدّاً على ما بين فامية وشيح؛ هذه القرية القريبة من أنطاكية.

أو كقوله تعليقاً على خبر نور الدين: «وأقام بحلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من الزيك...»:

الزيك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش. السلوك ١٠٥/١ حاشية ٣، Dozy^(٤).

وما أدري كيف يجدد نور الدين طلائع الجيش ولم يفقد منه إلا النفر اليسير؟

(١) وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٣٩ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) انظر كتاب الروضتين ق ١/ج ١٥٥/١ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

(٣) انظر «الأعلاق الخطيرة»: ج ١/ق ١٢٦/١، وص ٢١١ من هذا الجزء.

(٤) انظر كتاب الروضتين: ق ١/ج ١٤٣/١ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

والصواب هو «البرك» بفتح الراء وسكونها، وهو المتاع والثقل والسلاح^(١).
هذا النوع من الأوهام يشعر القارئ بحق أن المحقق غريب عن النص، غريب عن
روحه وأماكنه وحوادثه^(٢).

تجزئة الكتاب

قسم أبو شامة كتاب الروضتين إلى جزأين:

يبدأ الجزء الأول من مقدمة الكتاب وينتهي في آخر حوادث سنة (٥٧٣ هـ).
ويبدأ الجزء الثاني من سنة (٥٧٤ هـ) حتى آخر حوادث سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم
الكتاب.

وقد ارتأيت تسهيلاً لإخراج الكتاب أن أجزئه إلى أربعة أجزاء:

- ١ - الجزء الأول يبدأ من أول الكتاب وينتهي سنة (٥٦٠ هـ).
- ٢ - الجزء الثاني يبدأ من سنة (٥٦١ هـ) وينتهي سنة (٥٧٣ هـ).
- ٣ - الجزء الثالث يبدأ من سنة (٥٧٤ هـ) وينتهي سنة (٥٨٣ هـ).
- ٤ - الجزء الرابع يبدأ من سنة (٥٨٤ هـ) وينتهي سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم الكتاب^(٣).

وصف المخطوطات

اعتمدت في تحقيق الجزء الأول - حسب تجزئة المؤلف - على ثلاث نسخ
خطية^(٤).

١ - نسخة كوبنهاجن، ورقمها

وهي أقدم نسخ الكتاب، نقلت عن نسخة بخط المؤلف، وقوبلت بالأصل الذي

(١) انظر أيضاً «تكملة المعاجم العربية» (الترجمة العربية): ٣٠٤/١، و«الخزانة الشرقية» لحبيب
الزيات: ١٦٩/٤ - ١٧٠، وص ١٩٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر نقد الدكتور صلاح الدين المنجد للقسم الأول من الجزء الأول من الكتاب في مجلة معهد
المخطوطات العربية المجلد الخامس، الجزء الأول: ١٥١ - ١٥٤.

(٣) ثم ألحق أبو شامة به مذيلاً سماه «المذيل على الروضتين» ذكر فيه ما فات ذكره ابتداء من سنة
(٥٩٠ هـ) - وهي السنة التي تلت وفاة صلاح الدين - حتى سنة (٦٦٥ هـ) - وهي سنة وفاته - وقد
اتبع فيه نظام الحوليات كذلك، وسنصده بإثر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

(٤) أرجأت الحديث عن وصف بقية المخطوطات التي اعتمدتها في تحقيق الجزء الثاني - حسب تجزئة
المؤلف - إلى مكانه في مقدمة الجزء الثالث، إن شاء الله تعالى.

نقلت منه. إذ جاء في آخر الجزء الأول: «آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى...».

وقد كتب في هامشها: بلغ مقابلة بأصله.

«ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وست مئة...»
أي: بعد وفاة المؤلف بأحد عشر عاماً.

ويبدو أن ناسخها قد قابلها أيضاً على نسخة أخرى منقولة عن أصل المؤلف بخطه ومقروء عليه، وهي نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي^(١)، كما ذكر الناسخ في الحاشية التي سترد ص ٤٣٠ تعليق رقم (٥).

وهذه النسخة تقع في (٢١٩) ورقة، لم يعرف ناسخها، وخطها مقروء، ولم تخل — على جودتها — من عيب، إذ بها خرمان، الأول يقع في ثلاث ورقات يبدأ من ص (٣٠/١) وينتهي في ص (٣٢/ب) والثاني يقع في ورقتين، يبدأ من ص (٢١٢/أ)، وينتهي ص (٢١٤/أ)، وقد استعيض عنهما بأوراق مكتوبة بخط حديث^(٢).

وقد جعلتها أصلاً لي في التحقيق، فإياها أعني حين أقول: في الأصل. ما عدا الأوراق المخرومة، فنسخة (ل) كانت أصلاً في تحقيقها.

٢ — نسخة بودليان بأكسفورد، ورقمها

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط نسخي مضبوط، تقع في (٢٥٠) ورقة، أرجح أنها مكتوبة في القرن الثامن الهجري، وفي هامشها استدراكات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، وعلى صفحة العنوان تملك يعود تاريخه إلى سنة (٨٠٨ هـ)، فيها خرم في آخرها يقع في ورقة واحدة، ذهب بآخر خبر الجزء الأول وباسم الناسخ وتاريخ النسخ^(٣)، وعلى الصفحة الأخيرة ترجمة لأبي شامة مكتوبة بخط متأخر.

وقد رمزت لها بالحرف (ل).

(١) وعلى نسخة يوسف هذه اعتمدنا في تحقيق الجزء الثاني — حسب تجزئة المؤلف — وسيأتي وصفها في مقدمة الجزء الثالث.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦، وحاشيتنا رقم ١ ص ١٣٤ من هذا الجزء. وحاشيتنا رقم ٩ ص ٤٥١ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٤٨١ من الجزء الثاني.

٣ - نسخة ميونخ ورقمها ٤٠٤ :

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط مقروء، تقع في (٣٨٣) ورقة، وأرجح أنها كتبت في القرن العاشر في هامشها استدراقات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، على صفحة العنوان مطالعة يعود تاريخها إلى سنة (١٠٨١ هـ) وفي الصفحة الأخيرة طُمِسَ تاريخ نسخها، تختلف هذه النسخة عن نسختي الأصل و (ل) بأنها تتم في أثناء حوادث سنة (٥٧٣ هـ)، وبينها وبين تنمة الجزء ورقتان تقريباً^(١).

وقد رمزت لها بالحرف (م).

وهذه النسخة - على تأخرها - كثيراً ما هدتني إلى الصواب فيما ضنت به عليّ نسختنا الأصل و (ل).

منهج التحقيق

١ - اعتمدت نسخة كوبنهاجن أصلاً في التحقيق كما ذكرت، واتكأت فيما عرض لها من تصحيف أو تحريف على نسختي (ل) و (م)، وغالباً ما كنت أثبت في المتن ما اتفقت عليه نسختان إن استقام المعنى.

وأثبت في الهامش فروق قراءات النسخ، حتى تلك الفروق الطفيفة - على قلتها - خوفاً من أن يكون ما تركت أملك في المعنى مما أثبت.

٢ - وثقت الأخبار من مواردها التي أجمع إليها المؤلف، والتي أمكنني الوقوف عليها، ونبهت على بعض ما وقع فيها من تصحيف وتحريف لا يحسن السكوت عنه، أو خطأ في تعليق محقق حتى لا يظن أنني أوافقه فيما ذهب إليه.

٣ - ما ورد في الكتاب من الأعلام عرفت بهم على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر العلم مرات قليلة عرفت به على نحو يكشف صلته بما يحيط به من خبر، وحددت أهم التواريخ في حياته، وأهم صفاته، ثم أحلت على أهم المصادر التي ذكرت ترجمته.

(ب) إذا كان العلم كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له ترجمة وافية في كشاف الأعلام^(٢).

(١) انظر ص ٤٦٨ من الجزء الثاني.

(٢) هذه الكشافات ستكون كتاباً مستقلاً، أوطىء فيه لدراسة ذلك العصر من نواحيه كافة، أرجو أن يسرّه الله لي.

(ج) لم أعرف بالأعلام الذين يدور عليهم موضوع الكتاب .
(د) ما عرف به المؤلف من الأعلام اكتفيت بما ذكره عنهم ، مع الإحالة على أهم المصادر التي ترجمت لهم .

٤ - ما ورد في الكتاب من الأماكن عرفت بها على النحو التالي :
(أ) إذا ذكر المكان مرات قليلة عرفت به على نحو يبين موقعه القديم ، ثم موقعه الحالي ، مع عزو ذلك إلى المصادر التي استقيت منها المعلومات .
(ب) إذا كان اسم المكان كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له تعريفاً وافياً في كشف الأماكن .
(ج) لم أعرف بالأماكن المشهورة .

٥ - ما ورد في الكتاب من مصطلحات - وأعني بالمصطلح كل ما يخص ذلك العصر من أسماء السلاح والوظائف وما يتبعهما من ألقاب - عرفت بها على النحو التالي :
(أ) إذا ذكر المصطلح مرات قليلة شرحت معناه بإيجاز مع الإحالة على المصادر التي استقيت منها الشرح .

(ب) إذا كان المصطلح كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوقه إشارة إلى أن له شرحاً وافياً في كشف المصطلحات .

٦ - خرجت ما ورد في الكتاب من شعر من دواوين الشعراء التي استطعت الوقوف عليها ، وقربت معانيه بشرح ما غُمَّ من مفرداته بالاعتماد على كتب اللغة ، خاصة «لسان العرب» وثمة أبيات - لا سيما في شعر ابن منير - بقيت مشكلة لم أهدأ إلى ضبطها ، تركتها كما هي عسى أن تسفر لي يوماً عن وجهها ، فأستدركها في آخر الكتاب ، ووراء غموضها منهج أبي شامة في اختياره للشعر ، فإنه - وهو المؤرخ - لم يكن يثبت منه إلا ما له دلالة تاريخية تعينه على تصوير حادثة ما ، مما أخلَّ بترتيب الأبيات ، وجعل بعضها مقطوع المعنى عما سبقه ، إضافة إلى ما قد يعتري الناسخ من سبق نظر في أثناء أدى إلى تلفيق أبيات من صدور وأعجاز مختلفة .

وللقاضي الفاضل والعماد الكاتب كتب ورسائل أغرباً في بعض كلماتها ، لم ألترم بشرحها خوفاً من إثقال الحواشي ، واكتفيت بضبطها ليهتدي إلى معناها من يبحث عنها .

٧ - لم أتبع ما وقع في مطبوعتي الروضتين من أوهام وتصحيف وتحريف - وهو كثير - إذ لم أجد فائدة في تشييت ذهن القارئ بذكر ما تعثر الآخرون بقراءته .

٨ - صنعتُ فهرساً شاملاً للكتاب يضم فهرسة الأعلام والأماكن والمصطلحات والشعر والوقائع والحوادث .

٩ - أرجأت الدراسة عن حياة أبي شامة ومؤلفاته إلى حين الانتهاء من تحقيق الكتاب ،

وسأدرجها في مقدمة «المذيل على الروضتين»، إن شاء الله تعالى.

١٠ - أبقيت لغة الوثائق والرسائل والحوارات على حالها دون تغيير - كما تركها أبو شامة من قبل - وإن كان فيها تساهل لغوي أو نحوي، لأنها تمثل أسلوب ذلك العصر من بعض جوانبه.

١١ - أثبت في الهامش أرقام صفحات طبعة وادي النيل لاشتهارها، ولتسهيل الرجوع إلى طبعتنا لمن كانت عنده تلك الطبعة.

وقد تكرر علي أستاذي العلامة أحمد راتب النفاخ، ملاذنا في حل المعضلات، فقرأ معظم ما ورد في هذا الجزء من الشعر، فبصرني بما أشكل علي، وأقام مناده، فله مني أعمق الشكر وأجزله، والله يتولى عني حُسن جزائه^(١). وبعد..

أرجو أن أكون قد وفقت في إخراج الكتاب محققاً تحقيقاً علمياً، يرضى عنه الباحثون، وحسبي أني بذلت غاية جهدي، وإن كان جهدي دون أملي.

والله أسأل أن يوفقني لما يحب ويرضى، ويجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم. هو وليي في الدنيا والآخرة ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

إبراهيم النريسي

دمشق في

٢٨ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ.

٤ شباط ١٩٨٩ م.

(١) وقد اختاره الله تعالى إلى جواره وهو يتلو الزهراوين صباح يوم الجمعة ١١ شعبان ١٤١٢ هـ، الموافق ١٤١٢ شباط ١٩٩٢ م، ونحن أحوج ما نكون إليه، فقد كان جيل علم راسخ، ما رآه أحد إلا ذكر أبا عمرو بن العلاء، وابن جني، وأبا علي الفارسي.. دقة وفهما وعمقا وأصالة، وبمثله قيل: قد نزل الناس بموته درجة، فرحمك الله أبا عبد الله.. وأكرم مثواك.

بسم الله الرحمن الرحيم
 وما نؤمن الا بالله رب العالمين
 الحمد لله الذي انطقه تصدق الاعمال وكرمه وجعله تلك الامال وعلى من مشيئة سقم
 النفع والامانة شجرة الاحوال اليه المصير والرجوع وللمال سبحانه هو المأمور
 بالزوال المتروك عن الاحوال والانتقال عالم الحب والسهوة الحبيب المتقال ذو
 العرش والمخرج والطول والاکرام والجلال الحمد على ما اسبق من الانعام
 والافضل ومنزلة من الاحسان والفعال حمد الابواب من الجبال مثل السموات
 والارض وعلى كل حال وبصل على رسوله وبنبيه وخيرته من خلقه وصفه وجماله
 ووليه وحبيبه المقضال سيدنا لمي التفسير محمد عيسى بن عبد الله ذي الشرف الباذح
 والعلم اللامع والفضل السامع والجمال والجمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
 والانس والبرية وعترتهم الطيبين اقل ذوب وطلع هلال وعلى آل محمد وصحبه
 خير صبيحة الكرم آل وعلى ثابتيهم باحسان وجمع الاولاد والابدان وغنا عن المقربين
 من امتهم في الدنيا والآخرة وحسن ثابتيهم في زمرة متمسكين بعرصة معتد من سنة
 معتد من الحرب من الامثال مرد حنن تحت لوائه في جملة اوليائه يوم لا راس فيه ولا خلال
 امسا بعد ما كان من طهر عري ومعلم فكري في اقتباس الفوائد العريضة واقتناص
 الفرايد الادبية عن كل من اضرقت العلم الناري من بعضه واجوز به للسنة العلم
 وفرضه احدا تيسر من معنى من عالمه رضى فقال امام من اولاده الا يحكي عنه واحجار من
 سلفه عوايد جمه منهم اما من انوار السانف في رضى الله عنه قال مصعب بن عمير
 ما رايت احدا اعلم نايام الناس من السانف في رضى الله عنه انما قام على تعلم امام الناس والادب
 عشر سنة وقال ما لودت بذلك الا الاستعانة على الفقه قلب والملا عن ظم
 انبايك طيننا الحبيب من باب الله على رسته رسول صلى الله عليه وسلم من اجناس
 الائمة السانف واما القرض الحاقه مما قد عبرت لذي للجهان ولست قد اذ لم
 يوم تنبى السانف لاسدع قال وهو اصدق لقائلين ولا تنقص عليك من انبا
 انما ما نثبت في قولك قال في هذه الحق وموعظة وذلك في المومنين وقال
 مستحانه ولقد جازم من الانبا ما فيه من ركة بالحكمة فاعني التذرن وجرب
 التي صلوات الله عليه وسلم عرش ام زرع وغيره ما جرى في الحاقه ليلها واليام الاسرائيلية

الحاكمه المسعده لاصبه كاف السدر يدن الى الموت الا آل صه
والانسان المولى بخطها دهن الحاشده وقيه حمت له السعان باحتمه له للشهان
الاسما وهو خارج كرمته الى هت الله قال الله سبحانه ومن يخرج من هذه مهاجرا الى
الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله
ان النساءه على تشد وريما كان السرد ما كرهت جديرا
ان الوزر ووزر ال محمد اودى عن شئناك فان دز سدا

وهذا ان السنان قيا في أي سلمه الحلال اول زهر لى العاسر فليس وبلغنى العاقل
ان يشدك واحسن نيل الوزان للفق حقه تزه مصرع القدر
قال العاقل كان صا الدين لاسمهم دوى مدر من الرساله الى اعداد وترتف
ووقف المصلح لكونه الوزر ودايق وصوله الى الوصل وفاه لزعجه للماضى على الامر
اهم للماضى كسا للاسمهم دوى كان شابا واجا هاب الفاضل بذكر ذلك فدهن
يدلى لمن عشرين في كبره وتنشع صاحبها رابع اعتط الولدع
نضاره الشباب المعتدل وعمره لوالدع زبول المسبب المشغل
ليعلم ان السبب ليس سلع وان الشباب العظم ليس نمانح ولعلوا العبد حذرا
من بختات الاحال في هذا العمل والله طيب ليل العزم فاطال له في القدر

آخر الجزء الاول من الفصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى
سلكه ان ساله عن الجزء الثاني
مرفق خلاصه منه لدع وسبعين
وعشر كايه مال العاقل كان خمس الدين
القديم من اذابر الاقتران
ووافق الفراع منه في سابع سده ما تحبس من سبوق سعاد سماه عول السدا
لوفه وهاه وصاحبه المسعده ولا طلع عليه جمع المسلمين من الله على سائر الامم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَلَّغَنِي نَصْلَ الْأَعْمَالِ وَبَكَّرَنِي جُودَهُ تَدْرُكُ الْأُمَامَ وَعَلَى وَفْقِ شَيْئِهِ
 تَتَصَرَّفُ الْأَعْمَالُ وَمَا رَأَيْتُ تَتَغَيَّرُ الْأَحْوَالُ وَإِلَيْهِ الْحَبِيرُ وَالْمَرْجِعُ وَالْمَالُ سَحَابُهُ يَسُوءُ
 الْبَاقِي لَا ذُرْوَالٍ الْمُنْزَعُ عَنِ اللَّوَلِ وَالْآخِرِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُسْتَعَاذُ وَالْعَرَبُ
 وَالْمُفَارِجُ وَالطَّرِيقُ وَالْأَكْرَامُ وَالْجَلَالُ نَحْمَدُهُ عَلَى مَا اسْبَغَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالْأَفْضَالِ وَمَنْ بِهِ
 مِنَ الْإِحْسَانِ وَالنِّوَالِ جَمْدُ الْأَتَوَازِهِ لِحَالِ كُلِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَلَى كُلِّ دَالٍ
 وَفَعَلَى عَالَمِيَّةٍ وَرَسُولِهِ وَخَيْرِيهِ مِنْ خَلْقِهِ وَصَفِيهِ وَطَاطِلِهِ وَفَوَيْهِ وَجَبِيهِ الْمُنْفَضِ
 سَيِّدِنَا أَيُّهَا النَّاسُ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الشَّرَفِ الْبَادِخِ وَالْعِلْمِ الرَّاسِخِ وَالْفَضْلِ الشَّامِخِ وَأَبْنَاءُ
 وَكُلِّ كَالِ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَعَمَّتْهُمُ الطِّبْيَةُ
 مَا أَقْلَ كَرِّكَ وَطَلَعَ هَلَالُكَ وَعَلَى آلِكَ مُحَمَّدٌ وَحُجَّةٌ خَيْرُ حُجَجٍ وَأَكْرَمُ أَرْوَاحٍ وَعَلَى مَا لِي بِهِمْ بِأَحْسَنِ
 وَجْهِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ الْوَاقِعِ الْغَضَائِي مِنَ الْقَضَاءِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ الْحَشَرِ الْبَاقِ
 وَأَمْرِهِ مِنْ مَسْئَلَةٍ شَرَعَتْهُ مَقْتَدِرُ سَيِّدِهِ مُتَعَطِّلٌ نَاصِرٌ مِنَ الْإِمْتِنَانِ مِنْ دَحْمِنِ نَحْتِ
 أَوَائِهِ فِي حُجْلِهِ أَوَّلِيَّاهُ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُفُ إِلَّا هُوَ أَمَّا بَعْدُ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
 عَلَى غَمَرٍ وَمُعْظَمُ فُلُكِي فِي أَقْبَانِ الْفَوَائِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَقْبَانِ الْفَوَائِدِ الدِّينِيَّةِ عَزَّ
 لَنَا أَصْرُكَ إِلَى عِلْمِ النَّارِخِ بَعْضُهُ فَاحْزَنُكَ سَيِّدُ الْعِلْمِ وَفَرَسُهُ أَفْدَا سَيِّدُ
 نَحْنُ مِنْ كُلِّ عَالَمٍ تَرْضَى مَقْتَدِرُ إِمَامٍ مِنْ آلِهِ الْأَوْحَى عَنْهُ مِنْ أَجَابٍ مِنْ سَلَفٍ مُرَادٍ
 مِنْهُمْ لِيَأْمَنُوا بِوَعْدِ اللَّهِ الشَّافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ الزُّبَيْرِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا
 أَيْدِيَهُ يَأْمَنُ الْفَتَانِينَ مِنَ الشَّافِعِي وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى تَعْلِيمِ النَّاسِ وَالْحَدِيثِ عَشْرَ سَنَةٍ
 وَقَالَ مَا رَأَيْتُ نَذْلَكَ إِلَّا الْهَسْتَفَانَةَ عَلَى الْقَدِّهِ قُلْتُ وَكَانَ عَظِيمُ النَّبَا بِجَلِيلِ
 الدَّيَّانِيهِ وَفِي دِيَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَيِّدُهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجَابِ السَّالِفَةِ
 عَمَّا نَزَلَتْ مِنَ الْخَالِفَةِ مَا فِيهِ عِبَرٌ لِدَوَى الْبَصَائِرِ وَاسْتَعْدَادِ النَّاسِ إِلَى السِّرَارِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

عن جليل القاضى عن السلطان بياولده الافضل اعزازه لاهل الفضل
على عافيه وارادوا ان يكون خبيب الادب عند اهله وما ايجنا اذ قال
ابن الصبايل وخطب من اسرار المحاي كرام الحقايل واخاين السيف
العلم والدين في موكبه العلم والعلم ومن كتاب اخر فى المعنى والميزان
والدين والدين

قالوا انما الانسان عن مرفعه ما ضل من شربه لا الى الفضل
قالوا انما هو خرج السلطان للصديق في الحجة نحو دار افشكون صري وعبد
الشيخ في بيت عز الدين في حاشه محي عرند فسا منها ان لا يزور الا انها اجبروا
والتاريخ في كتابه من الحجة التي وصفها ابو الطيب المنبتي في كتابه في كماله
وليده اولها ٥ بمنك دأبها بذلك اليسار وكذلك صوبها من الدار
وذلك من مالوك الارض طرا امير له اليه من اليسار
وانك البحر في ثب العوايا وانما الجود في بلاد الوقار ومنها في وصفه

وذايرہ کر لیس لاجبا فلیس تزورا آ فی التہار

۱۰۸
تاریخ الامم و الملوک

ایں اعلیٰ زوجہ استیفاء لے ظہر ما ادا ری من ادا ری

ایہ عرفت فی علی سے جوابت بھی لکھتے ہیں سب سے علی حصار

بسم الله الرحمن الرحيم

تسلی ہے کہ یہ سب کچھ ہمارے لئے ہے۔

بسم الله الرحمن الرحيم

الصفحة الأخيرة من نسخة بودليان

المجلد الأول من تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين
 الشيخ الإمام العلامة المشهور بابي شافعه رحمه

صالح في هذا الكتاب
 اصفى الزمان الفقير
 عبد الله بن الهيثم
 ١٠٨١

روضتين

المجلد الاول

في أخبار الدولتين

والصلاحة

بسم الشيخ الإمام والعلامة العالم

عبد الرحمن بن أبي بكر

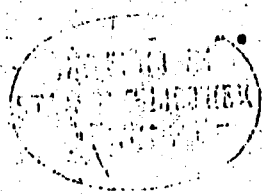
الشافعي رحمه الله

رحمه واسكنه

جوده

المشهور بابي شافعه

رحمه



الحمد لله الذي بلطفه تصلح الاعمال وتكرمته وجوهه وتذكر
 الامال وعمل وفق مشيئة تتعرف الافعال وبارادته تتغير
 الاحوال واليه المصير والرجوع والماكان سبحانه لمواهبه في بلا
 زواله المنزه عن الحول والانتقال عالم الغيب والشهادة
 الكبير المتعال ذو العرش والمعارج والطول والاکرام والجلال
 محمد بن عبد الله صلى الله عليه واله من به من الاحسان
 والبنوة حمد لا تنوزل له لجمال ملك السموات والارض والحي
 كل جلال ونصلي على رسوله وبنبيه وخيرته من طهه وضيقه
 وخليفه ووليه وحبيبه المفضال سيدنا ابي القاسم
 محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والفضل المشايخ والعلم
 الدارس والجمال والكمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
 والانبيا والمرسلين وعزهم الطيبين ما افلك كوكب وطلع
 هلاله وعلى آل محمد وصحبه جبرئيل وصحب والدم الك وعلى تابعهم
 باحصان وجميع الانبياء والائمة والايمان وعفا عن المعصية من
 ائمة اولي الكسب والامانة واخترنا في زمرة منسكين
 بشرعته مقتدرين بسنة متعطين بمصروف من الامان من دجيم
 تحت لواءه من جملتنا ولنا به يوم لا بيع فيه ولا خلال
مناجاة فانه بعد ان صرفت جل عري وموظم
 فكري في اقناس العوارب الشريعة واقننا من العراجل
 الادوية وعزنا ان امرفل علم النافع بفضله فاحول بدلان

بنوا الرب مثل فرلين الجدة وانت لها كثرها البطون
 اخفت الشرك حتى الذعر منهم بركي قبل الولاء في الجبن
 ويوم الرملة المرموب باسائه تركت الشرك منزع الظاهر
 وكنت بعسكر الاسلام هفاه اوي منه الى حصن حصين
 وقد عجز العرج سطا له ماء واوانا رها عن العفان
 وانت بكت دون الدين نجي حماه اوان ولي كل دون
 قال — وانتم الشيطان بعد ذلك بافاضه
 الجوده وتغريق الموجد وافتقاده الناس بالنفود
 والسنايا الصادقه الوعوده وجبر الكسيره وفك
 الاسير ونق فخر العدده وتكثير المدد ونقص
 ما وقع من الدواب فسلوا ما ناههم ولم باسوا على ما لما
 فخر الجوز والاوكل من كتاب الروضات

في اخبار الدولتين بيلو ان شالتر تعالى

في الجوز والاقاني قال ابن ابي طي

والحمد لله وحده وصلواته

على محمد وآله وصحبه

وسلم سلماتكم

وليبارك

End

وما توفيقني إلا بالله رب العالمين

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تُدرك الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغير الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزه عن الحلول والانتقال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ذو العرش والمعارج والطول^(١) والإكرام والجلال؛ نحمده على ما أسبغ من الإنعام والإفضال، ومن به من الإحسان والنوال، حمداً لا توازنه الجبال، ملء السموات والأرض وعلى كل حال، ونصلي على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه وخليله ووليّه وحبيبه المفضل؛ سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ، والعلم الراسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وعترتهم الطيبين، ما أفل كوكب وطلع هلال، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياء والأبدال، وعفا عن المقصّرين من أمته أولي الكسل والمآل، وحشرنا في زمرة، متمسكين بشرعته، مقتدين بسنته، متعظين^(٢) بما ضرب من الأمثال، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه، يوم لا بيع فيه ولا خيال.

(١) الطول: القدرة. «اللسان» (طول).

(٢) في الأصل: مغتبطين، والمثبت من (ل) و(م).

أما بعد، فإنه بعد أن صرفت جُلَّ عُمري ومُعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عَنَّ لي أن أصرفَ إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سُنَّةَ العلم وفرضه؛ اقتداءً بسيرة مَنْ مضى، مِنْ كُلِّ عالمٍ مُرتَضَى. فَقَلَّ إِمَامٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ إِلَّا وَيُحْكِي عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ سَلَفَ فَوَائِدُ جَمَّةٍ؛ مِنْهُمْ إِمَامُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِي: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِأَيَّامِ النَّاسِ مِنَ الشَّافِعِيِّ. وَيُرَوَّى عَنْهُ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى تَعْلُمِ أَيَّامِ النَّاسِ وَالْأَدَبِ عَشْرِينَ سَنَةً، وَقَالَ: مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الْفِقْهِ.

قُلْتُ: وَذَلِكَ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ، جَلِيلُ الْعَائِدَةِ. وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَنْبَاءِ الْقُرُونِ الْخَالِفَةِ مَا فِيهِ عِبْرٌ لَذَوِي الْبَصَائِرِ، وَاسْتِعْدَادٌ لِيَوْمِ تُبْلَى السَّرَائِرِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بِالْعَمَةِ فَمَا تُغْنِي﴾^(٢) النَّذْرُ^(٣).

وَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بِحَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ^(٤)، وَغَيْرِهِ مِمَّا جَرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَيَّامِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ. وَحَكَى عَجَائِبَ مَا رَأَاهُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ وَعَرَجَ، وَقَالَ: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»^(٥). وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ سِمَاكِ بْنِ

(١) سورة هود: ١٢٠.

(٢) كذا في النسخ الخطية، والرسم العثماني بحذف الياء.

(٣) سورة القمر: الآيتان ٤، ٥.

(٤) حديث أم زرع هو ما قالته إحدى عشرة امرأة في أزواجهن، انظر الحديث في «صحيح البخاري» كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل. وقد أفرد القاضي عياض شرحاً له سماه «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» طبع في المغرب سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م بتحقيق صلاح الدين الإدلبي ورفاقه.

(٥) الحديث في «صحيح البخاري» باب ما ذكر عن بني إسرائيل، و«سنن الترمذي» أبواب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، و«المسند» لابن حنبل: ٤٦/٣.

حَرْبٌ قَالَ: قُلْتُ لَجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتَ تَجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا؛ كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ الصُّبْحُ أَوْ الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيُضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُونَ^(١)، ﷺ.

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو^(٢)، رضي الله عنهما، قال: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَحَدِّثُنَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى يُصْبِحَ، مَا يَقُومُ إِلَّا إِلَى عَظَمِ صَلَاةٍ^(٣).

قُلْتُ: وَلَمْ يَزَلِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَفَاوَضُونَ فِي حَدِيثِ مَنْ مَضَى، وَيَتَذَكَّرُونَ مَا سَبَقَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَانْقَضَى، وَيَسْتَنْشِدُونَ الْأَشْعَارَ، وَيَتَطَلَّبُونَ الْأَثَارَ وَالْأَخْبَارَ؛ وَذَلِكَ بَيِّنٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِمَنْ أَطَّلَعَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ، وَهُمْ السَّادَةُ الْقُدْوَةُ، فَلَنَا بِهِمْ أُسُوةٌ. فَاعْتَنَيْتُ بِذَلِكَ وَتَصَفَّحْتُهُ، وَبَحِثْتُ عَنْهُ مَدَّةً وَتَطَلَّبْتُهُ^(٤)، فَوَقَفْتُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - عَلَى جُمْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالتَّالِيِينَ؛ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْخُلَفَاءِ وَالسُّلَاطِينِ، وَالْفُقَهَاءَ وَالْمُحَدِّثِينَ، وَالْأَوْلِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَالشُّعْرَاءَ وَالنُّحَوِيِّينَ، وَأَصْنَافَ الْخَلْقِ الْبَاقِينَ. وَرَأَيْتُ أَنَّ الْمُطَّلِعَ عَلَى أَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَأَنَّهُ قَدْ عَاصَرَهُمْ أَجْمَعِينَ، وَأَنَّهُ عِنْدَمَا يَفْكُرُ فِي أَحْوَالِهِمْ أَوْ يَذْكُرُهُمْ كَأَنَّهُ مُشَاهِدُهُمْ وَمَحَاضِرُهُمْ؛ فَهُوَ قَائِمٌ لَهُ مَقَامُ طَوْلِ الْحَيَاةِ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَجِّلُ الْوَفَاةِ. قَالَ

(١) «صحيح مسلم»: ٤٦٣/١، رقم الحديث (٦٧٠) وفيه «يصلي» بدل «صل».

(٢) في الأصل و (ل) عمر، وهو تصحيف، وهو في (م) على الصواب.

(٣) كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل رقم الحديث (٣٦٦٣). وعظم الشيء:

أكبره؛ كأنه أراد لا يقوم إلا إلى الفريضة. «النهاية»: ٢٦٠/٣.

(٤) وقع في الأصل: وبَحِثْتُ عَنْهُ مَدَّةً كَشَفَهُ وَتَطَلَّبْتُهُ. والمثبت من (ل) و (م).

نُعِيم بن حَمَاد: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ^(١) يَكْثُرُ الْجُلُوسَ فِي بَيْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تَسْتَوْحِشُ؟ قَالَ: كَيْفَ أَسْتَوْحِشُ وَأَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ! وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: قِيلَ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، تَكْثُرُ الْقُعُودُ فِي الْبَيْتِ وَحَدَّكَ! فَقَالَ: أَنَا وَحْدِي؟! أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - يَعْنِي النَّظَرَ فِي الْحَدِيثِ. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: وَأَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ!

قُلْتُ: وَقَدْ أُنْشِدْتُ لِبَعْضِ الْفُضَلَاءِ:

كِتَابٌ أَطَالَعُهُ مُؤَنَسٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْإِنْسَةِ
وَأَدْرُسُهُ فِيرِنِي الْقُرُونُ حُضُوراً وَأَعْظُمُهُمْ دَارِسَهُ

وَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَنَا أَنْ نَكُونَ آخِرَ الْأُمَمِ، وَأُطْلِعَنَا عَلَى أَنْبَاءِ مَنْ تَقَدَّمَ، لِنَتَعَطَّ بِمَا جَرَى عَلَى الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٢) وَلِنَقْتَدِيَ بِمَنْ تَقَدَّمَنا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْأُئِمَّةِ الصُّلَحَاءِ، وَنَرْجُو بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَجْتَمِعَ بِمَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْهُمْ، وَنَذَاكِرُهُمْ بِمَا نُقَلِّ إِلَيْنَا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ عَلَى رَغَمِ أَنْفٍ مِنْ عَدِمِ الْأَدَبِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَرْبٌ، بَلْ أَقَامَ عَلَى غَيِّهِ وَأَكْبَّ، وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ.

هَذَا، وَإِنْ الْجَاهِلُ بَعْلَمَ التَّارِيخَ رَاكِبٌ عَمِيَاءَ، خَابِطٌ خَبِطَ عَشَوَاءَ؛ يَنْسُبُ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ أَخْبَارَ مَنْ تَأَخَّرَ، وَيَعْكُسُ ذَلِكَ وَلَا يَتَدَبَّرُ، وَإِنْ رُدُّ عَلَيْهِ وَهْمُهُ لَا يَتَأَثَّرُ، وَإِنْ ذُكِّرَ فَلِجَهْلِهِ لَا يَتَذَكَّرُ؛ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ صَحَابِي وَتَابِعِي، وَحَنَفِي وَمَالِكِي وَشَافِعِي، وَلَا بَيْنَ خَلِيفَةٍ وَأَمِيرٍ، وَسُلْطَانٍ وَوَزِيرٍ؛ وَلَا يَعْرِفُ مِنْ سِيرَةِ نَبِيِّهِ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَبِيُّ مُرْسَلٍ، فَكَيْفَ لَهُ بِمَعْرِفَةِ أَصْحَابِهِ وَذَلِكَ الصَّدْرُ

(١) كَانَ مِنْ كِبَارِ الْخَفَازِ، مُجَاهِداً عَاقِلاً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَنَفَ كِتَاباً فِي الْجِهَادِ، تَوَفَّى سَنَةَ (١٨١هـ) مُنْصَرَفاً مِنْ غَزْوِ الرُّومِ. انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي «الْحَلِيَّةِ»: ١٦٢/٨ - ١٩٠، وَ«الرِّسَالَةُ الْمُسْتَطَرَفَةُ»: ٤٨.

(٢) سُورَةُ الْحَاقَّةِ: الْآيَتَانِ ١٢، ٨.

الأول! الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البؤس. ولقد رأيت مجلساً جَمَعَ ثلاثة عشرَ مدرّساً، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم - وأنا أسمع - ذِكْرُ مَنْ تحرّم عليه الصدقة؛ وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعُهُم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب. وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجّبْتُ من جهلهم؛ حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب، ولم يهتدوا إلى أن المطلب هو عمُّ عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كلِّ لائم، إذ هذا أصلٌ من أصول الشريعة قد أهملوه، وبابٌ من أبواب العلم جهلوه، ولَزِمَ مِنْ قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأنفَتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محجّتها؛ فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها. وهوبابٌ واسعٌ غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زِلْتُ فيه قدّم كثيرٍ من نَقْلَةِ الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردتُ أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصّلتُهُ، وأتقنُ فيه ما خبرتُهُ، فعمدْتُ إلى أكبر كتابٍ وُضِعَ في هذا الفن على طريقة المحدثين، وهو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله عزّ وجل»؛ الذي صنّفه الحافظ الثقة أبو القاسم عليُّ بنُ الحسن العسّاكري^(١) رحمه الله، وهو ثمانِي

(١) لم أرَ فيمن ترجم لابن عساكر من نسبه هذه النسبة، وقد اشتهر بابن عساكر مع أنه لم يعرف أحد من أجداده بهذا الاسم. قال أبو شامة: وإنما هي تسمية لعلها جاءتهم من قبل أمهات بعضهم. انظر «المذيل على الروضتين» ترجمة فخر الدين ابن عساكر، في وفيات سنة ٦٢٠ هـ و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٢١٥/٧، وقد تبنى مجمع اللغة العربية بدمشق طبع هذا السفر العظيم، وأخرج منه حتى الآن عدة مجلدات، وطبعت دار الفكر بدمشق مختصره لابن منظور.

مئة جُزء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائد من كتبٍ أخرى جليلة، وأتقنته، ووقفَ عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه، وتغيَّر خِلاله. ثم وقفتُ بعد ذلك ٤/١ في غير هذا الكتاب على سيرة سيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتُهما في المتأخرين، كالعُمَرَيْن - رضي الله عنهما - في المتقدمين؛ فإنَّ كلَّ ثانٍ من الفريقين حذا حَذُو من تقدَّمه في العَدَل والجِهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيَّ اجتهد. وهما مليكا بلدتنا، وسُطانا خُطتنا، خَصَّنَا الله تعالى بهما، فوجِبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهِما. فعزمتُ على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حُجَّة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين، ومن حذا حَذُوهُمْ من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعْجَزَ عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وَفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسَدَّد. وأخذتُ ذلك من قول أبي صالح شُعيب بن حَرْب المَدائني رحمه الله - وكان أحد السادة الأكابر في الحِفْظ والدين - قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثَّوري يومَ القيامة حُجَّة من الله تعالى على هذا الخَلْق؛ يُقال لهم: إن لم تدرِكوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟! وهكذا أقول: هذان حُجَّة على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِلَّهِ دَرْهُمَا مِنْ مَلِكَيْنِ تعاقبا على حُسْنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كلَّ عِيٍّ، وظهرت بهما من خالفهما العناية، فتقاربا^(١) حتى في

(١) في الأصل: متقاربان، والمثبت من (ل) و(م).

العمر ومدة الولاية، وهذه نكتة قلَّ من فطن لها ونبَّ عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها؛ وذلك أن نور الدين رحمه الله، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة^(١)، وتوفي سنة تسع وستين^(٢)، وولد صلاح [الدين]^(٣) رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة^(٤)، وتوفي سنة تسع وثمانين^(٥). فكان نور الدين أسنَّ من صلاح الدين بسنةٍ واحدةٍ وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق [أن]^(٦) بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسعٍ وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة^(٧) سنة، تُمحي فيها السيئة وتُكتب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدةٍ معينةٍ لملكين متعاقبين، مع قُرب الشبه بينهما في سيرتهما، والفضل للمتقدِّم؛ فكان زيادة مدة نور الدين كالتنبية على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محلِّه، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّد الأمور بَعْدَله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفَتَح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَنْ بعده على الحقيقة، سلوكُ تلك الطريقة، لكن صلاح [الدين]^(٨) أكثرُ جهاداً، وأعم بلاداً، صبرَ وصابر، ورابط وثابر،

(١) في هامش الأصل: سنة ٥١١.

(٢) تحتها في الأصل: ٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في هامش الأصل: سنة ٥٣٢.

(٥) تحتها في الأصل: ٨٩.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في الأصل: تسعة عشر، وفي (ل) تسعة عشرة، وكلاهما وهم، والمثبت من (م).

(٨) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وَذَخَرَ [اللَّهِ] ^(١) له من الفتح أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة. فرضي الله
عنهما فما أحقهما بقول الشاعر:

كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ ^(٢)

وَأَلْبَسَ اللَّهُ هَاتِيكَ الْعِظَامَ، وَإِنْ بَلَيْنَ تَحْتَ الثَّرَى عَفْوَاً وَغُفْرَانَا
سَقَى ثَرَى أُوْدِعُوهُ رَحْمَةً مَلَأَتْ مَشْوَى قُبُورِهِمْ رَوْحاً وَرَيْحَانَا ^(٣)

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء، والأكابر الفضلاء.
فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في «تاريخه» ^(٤)
ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زُنكي رحمه الله، ولأجله تَمَّ ذلك
الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في «مذيل التاريخ
الدمشقي» ^(٥) قطعةً صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل) والمثبت من (م). وعلى هامش الأصل: أي
حفظ.

(٢) هذا عجز بيت، صدره: «يقول من تقرر أسماعه»، وهو لأبي تمام في «ديوانه»:
١٦١/٢.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذان البيتان من قصيدة لأسامة بن منقذ،
يأتي بعضها في أخبار سنة اثنتين وخمسين، قالها في مرثية رهطه لما هلكوا بشيزر عام
الزلازل المتتابعة، والله أعلم».

قلت: هما في «ديوانه»: ٣٠٩ مع اختلاف في ترتيب البيتين، وانظر ص ٣٣٦ من هذا
الجزء.

(٤) يعني «تاريخ دمشق»، انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٢٥، من هذا الجزء.

(٥) وقف فيه عند حوادث سنة (٥٥٥ هـ) لأنها سنة وفاته، نشره المستشرق أمدرود وطبع
في بيروت سنة ١٩٠٨ م بمطبعة الآباء اليسوعيين، وأعاد نشره الدكتور سهيل زكار،
وطبعه في دمشق سنة ١٩٨٣ م. انظر «وفيات الأعيان»: ١٤٤/٧، و «معجم
المطبوعات»: ٢١٩.

وخمس مئة^(١).

وصنّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن [محمد بن]^(٢) عبد الكريم الجَزَرِي - عُرف بابن الأثير - مجلّدة في الأيام الأتابكية كلها^(٣)، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصّلاحية لتعلّق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرّعة عنها^(٤).

وصنّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي - عُرف بابن شدّاد - قاضي حلب مجلّدة في الأيام الصّلاحية، وساق ما تيسّر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى^(٥).

وصنّف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما «الفتح القدسي»^(٦)، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين

(١) في هامش الأصل: «حاشية، فيبقى من مدة سلطنته رحمه الله تعالى تسع وعشرون سنة، والله سبحانه أعلم».

قلت: ما أدري كيف تستقيم هذه الحاشية، ومدة سلطنة نور الدين ثمانية وعشرون سنة، فيبقى من مدة سلطنته حتى وفاته أربع عشرة سنة.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «سير أعلام النبلاء»: ٣٥٤/٢٢ - ٣٥٤.

(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: مع نور الدين.

(٤) سماه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل» حققه عبد القادر أحمد طليمات، وطبع في القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م.

(٥) سمي ابن شداد كتابه بـ «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» طبع الكتاب غير مرة، آخرها بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، وطبع في القاهرة ١٩٦٤ م، وقد ترجم أبو شامة لابن شداد في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ). وهو من شيوخه.

(٦) طبع في ليدن سنة ١٨٨٨ م، ثم طبع في القاهرة غير مرة، ثم حققه وشرحه محمد محمود صبح: نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، بلا تاريخ، وكان العماد =

وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسة مئة. والثاني «البرق الشامي»^(١)، ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمسة مئة إلى سنة ٥١١ وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية. إلا أن^(٢) العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف، يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلاً منها، استحسنتها في مواضعها، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما استراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار، من [بين]^(٣) تلك الرسائل الطوال، والأسجاع المفضية إلى الملل، وأردت أن يفهم الكلام الخاص العام. واخترت من

= قد سمي كتابه «الفتح القدسي» وعرضه على القاضي الفاضل، فقال له: سمى «الفتح القسي» في الفتح القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته، لكن الفيروزآبادي الذي اختصره سماه «الفيح القسي» في الفتح القدسي. انظر «الفتح القسي»: ٥٧ - ٥٨، و«معجم المؤرخين الدمشقيين»: ٦٠.

(١) في سبعة مجلدات، وقد فقد الكتاب ما عدا المجلدين الثالث والخامس، فهما في مكتبة بودليان بأكسفورد برقم Marsh 425, Bruce 11، وطبع المجلد الثالث في عمان سنة ١٩٨٧ بتحقيق الدكتور مصطفى الحيارى، وطبع المجلد الخامس بتحقيق رمضان ششن في استانبول ١٩٧٩ م، ثم أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسين، وطبع في عمان سنة ١٩٨٧، وقد اختصر الكتاب الفتح بن علي البنداري في مجلدين سماه «سنا البرق الشامي» طبع المجلد الأول منه، وهو يحوي حوادث سنوات (٥٦٣هـ - ٥٨٣هـ) حقق الدكتور رمضان ششن منه جزءاً حتى حوادث سنة (٥٧٦هـ) وطبع في دار الكتاب الجديد - بيروت، سنة ١٩٧١، ثم نشرته كاملاً الدكتورة فتحية النبراوي، وطبع في القاهرة سنة ١٩٧٩، وهي نشرة سقيمة تعوزها الأناة والدقة. أما المجلد الثاني والذي يحوي حوادث سنة (٥٨٤هـ - ٥٩٧هـ) فلم يصلنا بعد.

(٢) في الأصل: لأن، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ممّا يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلّدات من «الرسائل الفاضلية»^(١)، وعلى جُملةٍ من الأشعار العمادية مما ذكره في «ديوانه» دون «برّقه»^(٢)، وعلى كتبٍ أُخرٍ^(٣) من دواوين وغيرها، فالتقطت منها أشياء ممّا يتعلّق بالدولتين أو بإحدهما، وبعضه سمعته من أفواه الرّجال الثقات، ومن المدرّكين لتلك الأوقات. فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدّث في مُدَّتِهِما من وفاة خليفة أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قَدَرٍ خطير، وغير ذلك. فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته «كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين». والله دُرٌّ حبيب بن أوس حيث يقول:

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونُ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ^(٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك وهو أبو سعيد^(٥) زَنُكِي بن قسيم الدّولة آق سُنُقَر

(١) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، أخباره مبثوثة في أثناء الكتاب، وسترّد ترجمته في ٤/٤٧٢، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣/١٥٨ - ١٦٣.

(٢) أي «البرق الشامي».

(٣) من هذه الكتب «السيرة الصلاحية» لابن أبي طي، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني، وص ١٥٦ من هذا الجزء.

(٤) البيت في «ديوانه» بشرح الخطيب التبريزي: ٣/١٥٢.

(٥) وكذلك كناه العظيمي فيما نقله عنه ابن العديم في «بغية الطلب» ٨/٣٨٤٦ وابن

التركي. ويلقب زُنكي أيضاً بلقب والده قَسِيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم «وستكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدمت من إجمال أحواله ما يُستدل به على أفعاله:

ذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» أنه وُلد سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وأن جدّه آق سُنْقَر وَلِي حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زُنكي بالعراق، ثم ولي ديار المَوْصِل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شَيْزَر* حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها*، والمَعرة*، وكَفَر طاب*، وغيرها من الحصون الشامية، واستنقذها من أيدي الكُفَّار. فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمس مئة. ثم [قصد نور الدين حلب فملكها] وخرج غازياً في أعمال تل باشر*، فأفتتح حصوناً كثيرة من جملتها قلعة عَزَّاز*، ومَرَعش*، وتل خالِد*، وكَسَر إبرنس أنطاكية، وقتله وثلاثة آلاف فرنجي معه، وأظهر بحلب السُّنة وغير البِدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها وحصن سُورها، وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طُرُقها، ووسَّع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البَطِيخ*، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرها. وعاقب على شرب الخمر، واستنقذ من العدو ثغر بانياس* والمُنَيَّطرة* وغيرهما. وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صَليب^(١) الضُّرب، يقدّم أصحابه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بَطُون السَّبَاع وحواصل الطير، ووقف رحمه الله تعالى وقوفاً على المرضى ومُعَلِّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطع

عساكر في «تاريخ دمشق» (خ) س: ١٤٧/١٦ ب، وكنى ابن خلكان آق سنقر بأبي سعيد، وعماد الدين بأبي الجود، وفي «بغية الطلب» ٣٨٤٥/٨ كنى ابن العديم عماد الدين بأبي المظفر. انظر «وفيات الأعيان»: ٢٤١/١، ٣٢٧/٢. (١) شديد. «القاموس المحيط» (صلب).

أمراء العرب لثلا يتعرَّضوا للحُجَّاج، وأمر بإكمال سُور المدينة^(١) واستخراج العَيْن التي بأُحد، وبنى الرُّبُط* والجُسور والخانات*، وجدَّد كثيراً من قُنْي السَّبِيل. وكذا [صنع]^(٢) في غير دمشق من البلاد التي ملَّكها. ووقَّف كُتُباً كثيرة، وحَصَلَ في أسره جماعةٌ من أمراء الفرنج، وكسر الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم*، وكان عِدَّتُهُم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتح الدِّيَار المِصْرِيَّة وكان العدو قد أشرف على أخذها، ثم أظهر بها السُّنَّة وانقَمعت البِدْعَة. وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكتب الدينية، متَّبِعاً للآثار النبويَّة، مُواظِباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدٌ في الإنفاق، متحرِّياً في المطاعم والملابس، لم تُسمع منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمة حقَّ يسمَعُها أو إرشاد إلى سُنَّةٍ يتَّبَعُها^(٣).

وقال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدِّمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشِدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريراً للعدل والإنصاف منه. قد قَصَرَ ليلَه ونهاره على عدلٍ ينشره، وجهادٍ يتجهَّز له، ومَظَلَمَة يُزيلُها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يُؤليه، وإنعامٍ يُسديه. ونحن نذكر ما نعلم^(٤) به محلَّه في أمر دنياه وأخراه، فلو كان في أُمَّة لا فتخَرَّت به، فكيف بيتٌ واحد؟

أما زهده وعبادته وعِلْمُه فإنَّه كان مع سَعَة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا مِنْ مِلْك كان له قد اشتراه ٦/١

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/١٤٧ ب - ١٤٨ ب.

(٤) في الأصل مهمله، والمثبت من (ل) و(م)، وفي «الباهر»: ١٦٣ «تعلم».

من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المُرصدة لمصالح المسلمين؛ أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحلِّه، ولم يتعدَّه إلى غيره البتَّة، ولم يلبس قط ما حرَّمه الشرع من حريرٍ أو ذهبٍ أو فضَّة. ومنع من شُرْب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يحُدُّ شاربها الحدَّ الشرعي، كُلُّ الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديقٌ لنا بدمشق كان رضيعَ الخاتون ابنة معين الدين^(١)؛ زوجة نور الدين^(٢)، ووزيرها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختصُّ به، وتقوم في خدمته لا تتقدَّم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختصُّ بها، ويتفرَّد^(٣) هو، تارةً يطالعُ رِقايع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتابٍ أتاه ويحبب عنهما. وكان يصلي فيطيل الصَّلَاة، وله أورادٌ في النهار، فإذا جاء الليل وصَلَّى العِشاء ونام، يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكرة، فيظهر للركوب ويشتغلُ بمهامِّ الدولة. قال: وإنها قلَّت عليها^(٤) النفقة، ولم يكفها ما كان قرَّره^(٥) لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها. فلما قلْتُ له ذلك تنكَّر واحمرَّ وجهه، ثم قال: من أين أعطيها؟ أما يكفيها مالُها! والله لا أخوضُ نارَ جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مُرَصَّدة^(٦) لمصالحهم، ومُعَدَّة لفتقٍ إن كان

(١) هو معين الدين أنر، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر أخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، وانظر ص ٢٢٢، منه.

(٢) تزوجها نور الدين سنة (٥٤١هـ)، ثم بعد وفاته تزوجها صلاح الدين سنة (٥٧٢هـ). وتوفيت سنة (٥٨١هـ). انظر ص ١٨٠ من هذا الجزء و ٤٣١/٢، و ٢٤٣/٣ من هذا الكتاب.

(٣) في (ل) و (م) ينفرد.

(٤) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «الزوجة».

(٥) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «نور الدين».

(٦) الضبط من الأصل.

من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة^(١) دكاكين ملكاً وقد وهبتها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدر قليل^(٢).

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله، لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصالحين^(٣)، كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين ي كاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه أن نور الدين يُدمنُ اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيلَ لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبَطَرُ، إنما نحن في ثَغْرٍ العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَمَاماً^(٤) لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها [أيضاً]^(٥) بسرعة الانعطاف في الكرّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامُها وتعود سرعة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني^(٦) على اللعب بالكرة^(٧).

(١) في الأصل: ثلاث، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الباهر»: ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: اسم هذا الشيخ محمد بن العوام، مسجده يلاصق الباب الجديد المعروف قديماً بباب النبوة، والله أعلم».

(٤) الجمام: الراحة، وجم الفرس يجم جماً وجماماً وأجم: ترك فلم يركب، فعفا من تعبته وذهب إعياءه. «اللسان» (جم).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (م) و«الباهر» يبعثني.

(٧) «الباهر»: ١٦٤ - ١٦٥.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعلُه بنيةً صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القُرَبات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنيةً صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين^(١).

قال: وحكي لي عنه أنه حُمل إليه من مصر عِمامة من القَصَب الرفيع مُذهبة، فلم يحضرها عنده، فَوُصِفَتْ له فلم يلتفت إليها. وبينما هم معه في حديثها، وإذا قد جاءه رجل صوفي، فأمر بها له، فقليل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أَعُوْض عنها في الآخرة. فسُلِّمَتْ إليه، فسار بها إلى بغداد، فباعها بست مئة دينار أميري أوسبع مئة دينار^(٢).

قلت: قرأت في حاشية هذا المكان^(٣) من كتاب [ابن]^(٤) الأثير بخط ابن السُّعْطَى إياها قال: أعطائها لشيخ الصُّوفية عماد الدين أبي الفتح بن حَمَوِيهِ^(٥) بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى هَمْدَانَ، فبيعت بألف دينار.

قال ابنُ الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين عليُّ بن الشُّكْرِي^(٦) — وكان خصباً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصُّبَا وأنس به، وله معه انبساط،

(١) في (م) العالمين، وانظر «الباهر»: ١٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في الأصل: الكتاب، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٥) هو شيخ الشيوخ عمر بن علي بن محمد بن حمويه، من جوين، ناحية في نيسابور، قدم دمشق سنة (٥٦٤ هـ)، فولاه نور الدين خواقن الشام، وكان يحبه ويحترمه، توفي سنة (٥٧٧ هـ)، وله أربع وستون سنة. انظر «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٧ هـ) و «العبر» للذهبي ٢٣٢/٤، وص ٢٦٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٦) في «الباهر» الشكري.

قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها* والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدَّمتنا الظِّل، فلما عُدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا؛ تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها^(١).

قلتُ: رضي الله عن ملكٍ يفكر في مثل هذا. وقد أنشدتُ بيتين في

هذا المعنى:

مَثَلُ الرُّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ
أَنْتَ لَا تَدْرِكُهُ مُتَّبِعاً فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبَعَكَ
قال ابن الأثير: وكان - يعني نور الدين - رحمه الله، يصلي كثيراً من

الليل، ويدعو ويستغفر ويقرأ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب.

جَمَعَ الشُّجَاعَةَ والخُشُوعَ لِرُبِّهِ مَا أَحْسَنَ المَحْرَابَ^(٢) فِي المَحْرَابِ^(٣)
قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه،

ليس عنده تعصُّب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك أتباع سُنَّةِ العَدْل

والإنصاف، وترك المحرَّمات من المأكَل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم^{٧/١} كانوا قبله كالجاهلية: هم^(٤) أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٥).

(١) «الباهر»: ١٦٥ وانظر عن الأمير علي أيضاً ص ١٨٦، ١٩٢ منه.

(٢) رجل محراب: شديد الحرب، شجاع. «القاموس المحيط» (حرب).

(٣) «الباهر»: ١٦٥.

(٤) في (ل) و(م): همة.

(٥) هو حديث للنَّبِيِّ ﷺ ورد بألفاظ مختلفة، انظر تخريجه في «صحيح ابن حبان»،

برقم (٣٣٠٨) تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط.

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيّد الزاهدين في زمانه. ونبيّنا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق، وهو على الحقيقة سيّد الزاهدين. قال: وإنما الزهد خلوّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها^(١).

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً؛ فمن عدله أنه لم يترك في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مكساً ولا عُشراً، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً، [فأطلقها و]^(٢) هذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ ولا أمير. فلا جرّم سار ذكره في شرق الأرض وغربها^(٣).

قال: ومن عدله أنه كان يُعظّم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن شِخَنٌ^(٤) لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه [أحكامها]^(٥) أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنساناً يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي

(١) «الباهر»: ١٦٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «الباهر».

(٣) «الباهر»: ١٦٦.

(٤) جمع شحنة، انظر معناها في كشف المصطلحات.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

ليحضره إلى مجلس الحُكم يحاكمني على المِلك الفلاني. فعاد إليه ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يَكْتُمُه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجُوكان* من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو حينئذٍ كمال الدين بن الشَّهْرزُوري^(١)، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً، فاسلك [معي مثل]^(٢) ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى خصمه وخصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبت المِلك لنور الدِّين، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلك الذي قد حاكمني عليه، وهوله دوني، وقد كنت أعلم أن لا حقَّ له عندي، وإنما حضرتُ معه لئلا يظن بي أنني ظلمتُه، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبته له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة إلى الحق، الموافقة معه^(٣).

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انتقاد إلى الماضي إلى مجلس الحُكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في «التاريخ الكبير»^(٤)، وفيه عن عبد الله بن

(١) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترّد ترجمته ٤٢٦/٢

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) التاريخ الكبير هو التاريخ الذي اختصره أبو شامة وهذبه وزاد فيه من تاريخ ابن عساكر، وهو في خمسة عشر مجلداً، وله أيضاً مختصر أصغر منه في خمسة مجلدات، انظر ترجمة أبي شامة في «المذيل على الروضتين» حين يعدد مؤلفاته. منه جزء في برلين ٩٧٨٢ وباريس أول ٢١٣٧، انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) ١٦/٦. وص ٢٥ من هذا الجزء.

طاهر^(١) قريب من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمضِ إليه . وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجباً، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعاً، ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حَفَرٍ جُبَّ بعض الحشوش واستخراج ما فيه، فوَكَّلَ مِنْ ثَمَّ وكيلاً، وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع .

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم [يكن]^(٢) يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظَّنة والتُّهمة، بل يطلب الشهود على المُتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تَعَدٍّ. فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظَّنة، وأمنت بلاده مع سَعَتِها، وقُلَّ المفسدون ببركة العَدْل، واتباع الشرع المُطَهَّر^(٣).

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادلُ عنه فقولوا له

(١) كان من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولي إمرة الشام مدة، وولاه المأمون خراسان، وظهرت فيها كفايته، توفي سنة (٢٣٠هـ)، وقصة عبد الله بن طاهر مع خصمه في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٢٢٢/٩ ب - ٢٢٣ أ، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٨٣/٣ - ٨٩، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ كالطبري والكمال وغيرهما.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٦٧.

عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرةً أخرى، [فراه]^(١)، فأنكر على الثَّوَاب، وقال: ألم أقل لكم: يُعاد هذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قولَ كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً^(٢).

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته – وهو من أعجب ما يُحكى – أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لورأيتنا ٨/١ وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيّة وإلاً خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل – وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه – فطُيّب قلبه ووهبَ شيئاً وأنصفه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عدلٍ فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنه تعلّمناه^(٣).

قلتُ: ومن عدله أن بنى دار العدل*. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف، وسَمَّاهَا دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه – وفيهم أسد الدين شيركُوه، وهو أكبر أميرٍ معه، وقد عَظُم شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م).

(٢) «الباهر»: ١٦٧.

(٣) المصدر السابق.

الملك - واقتنوا الأملاك وأكثروا، وتعذّي كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأمر حينئذ ببناء دار العدل*، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلّموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ ووالله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي طريق^(١) أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شيركوه. فعرفه الحال، فسجد شكراً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا^(٢).

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنها، وإلى هذه الهيئة ما أعظمها، وإلى هذه السياسة ما أسدّها^(٣)، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته^(٤). قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبر

(١) في (ل) و(م) و«الباهر»: شيء.

(٢) «الباهر»: ١٦٨.

(٣) في «الباهر»: ما أسدّها، وهي تصحيف.

(٤) «الباهر»: ١٦٨.

الناس في الحرب وأحسنهم مكيدهً ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يُضرب المثل في ذلك. سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خُلِقَ عليه لا يتحرك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛ لم يرْ جُوكانه* يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا تُرى والجُوكان فيها، بل تكون في كُمِّ قَبَائِهِ استهانةً باللعب. وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشَيْن*، وباشر القتال بنفسه، وكان يقول: طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين التَّيسَابُورِي^(١) الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عماذهم، ولئن أُصِبتَ – والعياذ بالله – في معركة لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا؟! قبلي من حَفِظَ البلاد والإسلام؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو^(٢).

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج – خذلهم الله تعالى – وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون* ملك الأَرَمَن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه [ويستميله]^(٣)، حتى جعله في خدمته سَفْراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعسيرة^(٤) المسلك،

(١) قدم دمشق سنة (٥٤٠ هـ)، ووعظ بها، ثم عاد إلى دمشق سنة (٥٦٨ هـ). توفي سنة

(٥٧٨ هـ)، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ١٩٦/٥ – ١٩٧، و «سير أعلام النبلاء»

١٠٦/٢١ – ١٠٩ وانظر ص ٢٦٣ من الجزء الثاني.

(٢) «الباهر»: ١٦٨ – ١٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): وعرة.

وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمَتنا وساعدنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرَه [غيرَ] (١) هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مליح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرق واسع لا يُمكن رقعَه (٢).

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً (٣) عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. ٩/١
وكان أيضاً يثبت أسماء أجناده كلَّ أميرٍ في ديوانه وسلاحهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد، ويقول: نحن كل وقت في النُفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عياناً (٤).

قال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثيرٌ عظيم؛ من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل)، وفي (م) «وسلك من بعده غير هذا الطريق».

(٢) «الباهر»: ١٦٩.

(٣) في الأصل: شيئاً، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) «الباهر»: ١٦٩.

وقلاعها، فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين*، وشيَزر*،
ومَنبج*، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها وأحكم بناءها، وأخرج
عليها من الأموال ما لا تسمَحُ به النفوس. وبنى أيضاً المدارس بحلب،
وحماة، ودمشق، وغيرها للشافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع
البلاد، فجامعُه في المَوْصلِ إليه النهاية في الحُسْنِ والإتقان^(١)، ومن أحسن
ما عمل فيه أنه فَوَّضَ أمرَ عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلَأ^(٢)
رحمه الله؛ وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا
العمل. فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتّاب أعلم أنه
يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْمِ رجل مسلم، وإذا وليت هذا
الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليّ. قال:
وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على
نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدّد في غيرها من عمارة
الجوامع ما كان قد تهدم؛ إما بِزَلْزَلَةٍ أو غيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد؛
ومن أعظمها البيمارستان* الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً.
بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كلفة المسلمين من غنيّ وفقير^(٣).
قلت: وقد وقفتُ على كتاب وقَّفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا
كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليقع ما قدّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء
للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار

(١) يقع في محلة حمام المنقوشة، وتسمى أيضاً باسمه محلة الجامع الكبير. وقد هدم هذا
الجامع سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦، وشيد من جديد على أسلوب هندسي رائع، وبقيت
مئذنته القديمة، وهي مرتفعة ارتفاعاً يلفت الأنظار، لكنها غير مستقيمة. انظر «العراق
قديماً وحديثاً» لعبد الرزاق الحسني، ص ٢٢٠. و«تاريخ الموصل» للديوه جي: ١/ ٣٣٥.
(٢) هو عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصل، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر
المَلَأ، لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، له «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد
المرسلين»، توفي سنة (٥٧٠ هـ) وسيرد ذكره في ٢/ ١٦٥، ١٧١، ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١
من هذا الكتاب. انظر «الأعلام» للزركلي: ٦٠/ ٥ - ٦١. (٣) «الباهر»: ١٧٠.

وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقَفَ على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي. وروى^(١) أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارستان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي^(١)، والله أعلم.

وبلغني^(٢) في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه، فكلُّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لثلا يعلم أصحابه، وتسلمَّ المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع لهم الحُسنيين، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان، ومنعَ المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات* في الطرق، فأمنَ الناس وحُفِظَتْ أموالهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ^(٣) من البرد والمطر. وبنى أيضاً الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأوا من العدوَّ أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس جذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من اللطف الفِكَر وأكثرها نفعاً^(٤).

(١ - ١) ما بينها ساقط من (ل).

(٢) أي «أبوشامة».

(٣) أي في ستر. «اللسان» (كنن).

(٤) «الباهر»: ١٧١.

قال: وبني الرُّبُط* والخانقاها* في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدَّر عليهم الإذارات الصالحة، وكان يُخَضِّرُ مشايخهم عنده، ويقرِّبهم، ويدنيههم ويسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تَقَعَ عينه عليه، ويعتقه ويجلسه معه على سَجَّادته، ويُقْبِلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر؛ فقصده من البلاد الشَّاسعة، من خُرَّاسان وغيرها. وبالجُملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أُمَراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعَدُّ ذنوبه^(١).

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْبَ الدين التَّيْسَابُوري^(٢)؛ الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَّمه من خُرَّاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوماً عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حَسَنَةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكراها؛ وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حَسَنَةٌ تغفراها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُكَ عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صَحَّتْ - مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّكَ، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب ١٠/١

على العيون بماء الذهب^(٣).

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث*، ووقفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ١٧١ - ١٧٢.

علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلّميهم الجرايات الوافرة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعلٌ لم يُسبق إليه. بلغني من عارفٍ بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا - وهو سنة ثمانٍ وست مئة - كل شهر تسعة آلاف دينار صورية^(١)، ليس فيها ملكٌ غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث ثمنه^(٢)، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه^(٣).

قال: وأما هيئته^(٤) ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان، كما قيل: «شديد في غير عُنفٍ، رقيق في غير ضَعْفٍ». واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية، وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقربُ الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إنَّ هؤلاء لهم في بيت المال حقٌّ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المِنَّة علينا. وكان مجلسه كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تُؤنَّ فيه الحرَم^(٥). وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا

(١) انظر حاشيتنا رقم (٥) ص ٣٢٨ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: وورث ثمنه، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٧٢.

(٤) في الأصل: هيئته، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) أي لا يُذكرُ بقبیح. «النهاية»: ١٧/١.

العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا. بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللُغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حَدَّ عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مُدَّة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرَّر من صلاح الدين الطلب له، فحضر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نَزَّهْتُ نفسي عن مجلسك، فإنني رأيتك كبعض مجالس السُّوقَة؛ لا يُسْتَمَعُ إلى قائل، ولا يُرَدُّ جواب متكلِّم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا - كما قيل - كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيئة والوقار، فإذا تكلَّم أنصتنا، وإذا تكلَّمنا استمع لنا. فتقدَّم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرَّت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطةً محفوظةً^(١).

وأما حفظ أصول الديانات، فإنه كان مراعيًا لها لا يهملها، ولا يُمكن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مُقدِّم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته. وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لُصٍّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل^(٢)!

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يُعرف بيوسف بن آدم، كان يُظهر

(١) والباهر: ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) المصدر السابق.

الزُّهد والنُّسك وقد كَثُرَ أتباعه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه. فطيف به في البلاد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء مَنْ أظهر في الدين البِدْع. ثم نفاه من دمشق، فقصد حَرَّان*، وأقام بها إلى أن مات.

قال: ويسوق الله القِصَار الأعمار إلى البلاد الوَخِمة^(١).

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه «البرق الشامي» أنه قَدِمَ دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمس مئة في دولة الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعفَ الملوك وأنقاهم، وأثبهم رأياً وأنقاهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدتهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلأً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيباً، والقلوب بمهابته ومحبة ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية، وأموره مقبلة، وأوامره ممثلة، وجده منزّه عن الهزل، ونوابه في أمن من العزل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة^(٢) مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعه ناصرة، والإنصاف صافٍ، والإسعاف عاف، وأزر الدين قوي، وظمأ الإسلام روي، وزند التُّجج وري، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مؤلّى، والظلم معزول، والتوحيد منصور والشُّرك مخذول، وللتقى شروق، وما للفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب

(١) المصدر السابق.

(٢) أي مُمَطَّرَة، من الصوب: نزول المطر. انظر «اللسان» (صوب).

١١/١ الكفر، وبلغ الضر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدد سلوكهم، وصان الثغور منهم، وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأئمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات* للصوفية، وكثرتها في كل بلد وكثر وقوفها، وقرر معروفها، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها، وأجدد الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق^(٣)، وأمر في الطرقات ببناء الربط* والخانات*، وضافت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها^(٢).

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين - وهي السنة التي توفي فيها نور الدين - قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقي سوى الجزية والخراج، وما تحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج. قال: وأمرني بكتابة مناشير لجميع أهل البلاد، فكتبت أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصدقة أن يحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة، ويسألهم عن يعرفون في جوارهم

(١) مفردا حقيقة، وهي ما يحق عليه أن يحمي، وكانت العرب تقول: فلان يسوق الوسيقة، وينسل الوديقة، ويحمي الحقيقة. الوسيقة: الطريدة من الإبل، وينسل: يسرع، والوديقة: شدة الحر. يقال هذا للرجل المشمر القوي، أي ينسل نسلانا في وقت الحر نصف النهار. انظر «اللسان» (حقق) و (ودق).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ٥٥/١ - ٥٦، و«الباهر»: ١٧٤ - ١٧٥.

[من] ^(١) أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان يرسم نفقة الخاص * في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس *، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خيَّاطه، وجامكية * طباخه، ويستفضل منه ما يتصدق به في آخر الشهر. وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه، لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرج به إلى مجلس القاضي يحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة. وتقدم بإحصاء ما في محالّ دمشق ^(٢)، فأناف على مئة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعيّن له وقوفاً.

قال: ولواشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم يبلغ ^(٣) إلى أمد. ومُشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته تغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان [فضلاً] ^(٤) عن الرُّبط * والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة للإنذار والاعتاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين التيسابوري ^(٥)، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر ^(٦)، وبسط له في كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي من المساجد المهجورة، انظر «سنا البرق الشامي»: ١٤٤/١.

(٣) في (ل) و(م)، أبلغ.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل) والمثبت من (م)، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١٤٤/١.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٦) هو أبو الرضا عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، قدم دمشق قاصداً زيارة بيت المقدس، فتوفي بها سنة (٥٦٧هـ). انظر «التكملة» للمنذري: ٢٧٧/٢، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٦٥/٢.

شَوْرُوهُ^(١)، وما أيمن تلك الأيام، وأبرك تلك الشّتوة^(٢).

قال^(٣): ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشّحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين بن الشّهْرزُوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس على الشريعة. قال: ولم يكن لمال المواريث الحشّرية^(٤) حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفّره نوابه

= أما أبوه أبو النجيب فهو عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، من أئمة الشافعية والصوفية في بغداد، قدم دمشق سنة (٥٥٨ هـ) قاصداً زيارة بيت المقدس، فلم تنفق له الزيارة لانفساخ الهدنة مع الصليبيين، فأقام في دمشق مدة يسيرة التقى خلالها بنور الدين، فأكرمه واحترمه، وسمع منه ابن عساكر، وترجم له في «تاريخه» (خ) س: ٢٠٩/١٠ ب، توفي في بغداد سنة (٥٦٣ هـ). انظر «تاريخ إربل»: ق ١٠٧/١، و«وفيات الأعيان» ٢٠٤/٣ - ٢٠٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٤٧٥/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ١٧٣/٧.

وعبد القاهر هذا هو عم شهاب الدين عمر بن محمد صاحب كتاب «عوارف المعارف» المطبوع غير مرة، وقد نسب خطأ في طبعة بيروت ١٩٦٦ م إلى أبي النجيب عبد القاهر. انظر «وفيات الأعيان»: ٤٤٦/٣ - ٤٤٨، وترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ).

(١) في هامش الأصل: «حاشية»، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصهباني الحنفي، ولقبه شوروه؛ بشين معجمة مفتوحة، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين، وآخرها هاء، والله أعلم.

قلت: قدم دمشق سنة (٥٦٩ هـ)، ولعله صاحب كتاب «أطباق الذهب» وهو في الوعظ والنصيحة، طبع الكتاب غير مرة، إحداها في مصر سنة (١٣٢٤ هـ). انظر «الجواهر المضية» ٤٧٧/٢ - ٤٧٨، و«كشف الظنون» ١١٦/١، و«معجم المطبوعات» ١٣٠٠.

(٢) أحب نور الدين أن يقضي الشتاء في دمشق، وكان قد سار إلى شمالي حلب لقتال قلع أرسلان، وذلك سنة (٥٦٨ هـ)، انظر «سنا البرق الشامي»: ١٣٩/١.

(٣) في هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

(٤) أي المحشورة، وهي المجموعة، انظر «المصباح المنير»: (حشر). أي الأموال التي توفي عنها صاحبها وليس له وارث، تكون لبيت المال كما هو مقرر في كتب الفقه. وانظر «صبح الأعشى» ٤٦٠/٣.

وكثره، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرفَ بالمعروف. وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلتُ: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن [الحسن بن] هبة الله^(١) أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك. فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم، اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن.

ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر* في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس. وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام. يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

(١) هوزين الأمناء ابن عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٧ هـ)، وما بين حاصرتين منه.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً في زمانه من بين سائر الملوك^(١)، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها. قرأت في «تاريخ إربل»^(٢) لشرف الدين بن المُستوفي رحمه الله: قال المتجب الواعظ — هو أبو عثمان المتجب بن أبي محمد البحري الواسطي، ورد إربل، ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زُنكي بن آق سُفَر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملةً من مال فلم يقبلها وردّها عليه. أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدةً عملها في نور الدين، وحلف أنه سمعها من لفظه —:

مَثْلُ وَقُوفِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ	يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إِنْ قِيلَ نَورُ الدِّينِ رَحْتَ مُسَلِّمًا	فَاحْذَرِ بَأْنَ ^(٣) تَبْقَى وَمَالِكَ نَورُ
أَنْهَيْتَ عَنْ شُرْبِ الْخُمُورِ وَأَنْتَ مِنْ	كَاسِ الْمَظَالِمِ طَافِحٍ مَخْمُورُ
عَظَلْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفًا	وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ
مَاذَا تَقُولُ إِذَا نُقِلْتَ إِلَى الْبَلَى	فَرْدًا وَجَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وَتَعَلَّقْتَ فِيكَ الْخُصُومُ وَأَنْتَ فِي	يَوْمِ الْحِسَابِ مُسْحَبٌ مَجْرُورُ
وَتَفَرَّقَتْ عَنْكَ الْجُنُودُ وَأَنْتَ فِي	ضَيْقِ اللَّحُودِ مُوسَّدٌ مَقْبُورُ

- (١) في (م) سقط يبدأ من هنا، وينتهي حتى «ونقلت من خط صاحب...».
- (٢) هو في أربع مجلدات كما ذكر ابن خلكان في ترجمته، طبع منه الجزء الثاني في بغداد سنة ١٩٨٠م بتحقيق سامي الصقار، والمجلد الرابع في شستريتي (٤٠٩٨) كما ذكر الزركلي في ترجمته، وابن المستوفي: هو المبارك بن أحمد بن المبارك، شرف الدين اللخمي الإربلي، كان عالماً بالحديث واللغة والأدب والتاريخ، تولى استيفاء الديوان بإربل ثم الوزارة، ثم تحول عنها حين استولى عليها التتار سنة (٦٣٤هـ) توفي في الموصل سنة (٦٣٧هـ)، وهو من شيوخ المنذري وابن خلكان وياقوت الحموي. انظر «التكملة» للمنذري: ٥٢٢/٣، و«معجم البلدان»: ١/١٣٨، و«وفيات الأعيان»: ١٤٧/٤ — ١٥٢، و«الأعلام» للزركلي: ٢٦٩/٥.
- (٣) في الأصل: وإن، والمثبت من (ل).

وَوَدِدْتَ أَنْكَ مَا وَلَّيْتَ وَلَايَةً يَوْمًا وَلَا قَالَ الْأَنَامُ: أَمِيرُ
وَبَقِيَتْ بَعْدَ الْعَزِّ رَهْنٌ حُفِيرَةٌ فِي عَالَمِ الْمَوْتَى وَأَنْتَ حَقِيرُ
وَحُشِرَتْ عُريَانًا حَزِينًا بَاكِيًا قَلَقًا وَمَالِكَ فِي الْأَنَامِ مُجِيرُ
أَرْضِيَتْ أَنْ تَحْيَا وَقَلْبُكَ دَارِسُ عَافِي الْخَرَابِ وَجِسْمُكَ الْمَعْمُورُ
أَرْضِيَتْ أَنْ يَحْظَى سَوَاكَ بِقُرْبِهِ أَبَدًا وَأَنْتَ مُبْعَدُ مَهْجُورُ
مَهْدٌ لِنَفْسِكَ حُجَّةٌ تَنْجُو بِهَا يَوْمَ الْمَعَادِ لَعَلَّكَ الْمَعْدُورُ

قلت: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفق من رام الاقتداء به^(١).

ونقلت من خَطِّ الصَّاحِبِ* العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جَرَّادَة^(٢) في كتاب «تاريخ حلب»^(٣) الذي صنفه،

(١) إلى هنا ينتهي السقط في (م).

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٦٠ هـ). وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٣) هو «بغية الطلب في تاريخ حلب» في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها، ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، رتبه على حروف المعجم، وبلغ حوالي أربعين مجلدًا، لم يصلنا منه سوى عشرة مجلدات موجودة في مكتبات استانبول: واحد في مكتبة أيا صوفيا برقم (٣٠٣٦)، وثمانية في مكتبة أحمد الثالث برقم (٢٩٢٥)، ومجلد في مكتبة فيض الله برقم (١٤٠٤)، ومنه أجزاء مفردة في باريس أول برقم (٢١٣٨)، والمتحف البريطاني أول برقم (١٢٩٠)، ومنه انتزع ابن العديم كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» ورتبه على السنين، نشره المعهد الفرنسي في دمشق في ثلاثة أجزاء ما بين سنة ١٩٥١م - ١٩٦٨م بتحقيق الدكتور سامي الدهان. ثم نشر د. سهيل زكار هذه المجلدات العشرة في دمشق سنة (١٩٨٨)، وترجمة نور الدين فيه مما فقد من الكتاب.

انظر «مقدمة زبدة الحلب»: ٥٠/١ - ٥٧، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ٧٦ - ٧٥/٦.

وسمعتُ من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جَعْبَر*، وقُتِلَ عليها، قصد حلب وصعدَ قلعتها، وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وأحسن إلى الرعية، وبث العدل، ورفع الجور، وأبطل البدع، واشتغل بالغزو، وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له، منهم: أبو [محمد]^(١) عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المِصْري. روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد^(٢)، وأبي البركات الحسن^(٣)، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي^(٤).

قال: ووقفتُ على رُقعة بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القَيْسَرَانِي* كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلتُ جميع ما فيها من خطيهما. قال: وكان رحمه الله كتب رُقعة يطلب من ابن القَيْسَرَانِي أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله. ونسخة الورقة بخطِّ خالد: أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلغه آماله في نفسه ودُرَيْتِه، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرُقعة، وتضاعف دعاؤه

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م)، وكان أبو محمد قاضياً بالجيزة فقيهاً، ماهراً بالفرائض، ثم ترك القضاء، واشتغل بالعبادة حتى وفاته سنة (٥٦١هـ). انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للسبكي: ١٢٤/٧.

(٢) هو تاج الأمان أبو الفضل أحمد بن الحسن بن بني عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٠هـ).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٤) هو فخر الدين ابن عساكر، كان شيخ الشافعية بالشام، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٠هـ).

وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهّل له السلوك إلى رضاه، والقُرْب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير. وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده [الله] ^(١) شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبك، الْمُعْتَصِم بِقُوَّتِكَ، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زُنكي بن آق سُنقر، ناصر أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا تزْيُد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرُقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي ألا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم! الذي كتبت جيد هو، اكتب به نسخ حتى نسيّره إلى جميع البلاد. وكتب في آخر الرُقعة: ثم يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفقه؛ من هذا الجنس. ١٣/١

قال: وحدثني والذي ^(٢) قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم ^(٣) وشرف الدين بن أبي عَصْرُون ^(٤) إلى الميدان الأخضر ^(٥) * وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حِمص. فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير، دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) هو أحمد بن هبة الله بن أبي غانم ابن أبي جرادة، أبو الحسن، ابن العديم، ولد سنة (٥٤٢ هـ)، كان يخطب بالقلعة في حلب أيام نور الدين، تولى القضاء سنة (٥٧٥ هـ) حتى عزل سنة (٥٧٨ هـ) زمن صلاح الدين لأنه حنفي المذهب، والدولة شافعية، توفي سنة (٦١٣ هـ) انظر «معجم الأدباء»: ٣٥/١٦ - ٣٦.

(٣) هو محمد بن هبة الله بن أبي غانم، ولد سنة (٥٤٠ هـ)، كان يخطب بجامع حلب، توفي سنة (٦٢٨ هـ). انظر «معجم الأدباء»: ٣٤/١٦ - ٣٥، و«الجواهر المضية»: ٣٨٧/٣. وفيه ولادته سنة (٥٤٦ هـ).

(٤) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد توفي سنة (٥٨٥ هـ) وسترّد ترجمته في ١٠٨/٤ - ١٠٩.

(٥) في حلب.

شرف الدين بن أبي عَصْرُون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحدٍ بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر، فمات بها، وخُلِّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً. فكتب بعضُ مَنْ بحلب إلى نور الدين يذكر له أن قد مات ها هنا رجل تاجرٌ موسر، وخُلِّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين. وحسَّن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصَّغير، ويُرضى منه بشيء، ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رُقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمَّره الله، وأما الساعي فلعه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً.

وحدثني الحاج عمر بن سُنُقَر عتيق شاذبخت النُّوري قال: سمعت الطَّواشي* شاذبخت الخادم^(١) يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسُنُقَرجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكِّر فكيراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض. فتعجَّبنا من فكره وقلنا: تُرى في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فُطِنَ بنا، فرفع رأسه فقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً. فقال: بحياتي قولا لي. فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والي وليَّته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم – وإلا فخبزي* عليكم حرام – لا تريان قصَّة ترفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعها إليَّ.

وسمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن

(١) هو جمال الدين شاذبخت الهندي، كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من الجزء الثاني.

تميم^(١) قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلَأ^(٢) شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قَدِمَ المَوْصِل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلَأ. قال: وكان نور الدين لما صارت له المَوْصِل قد أمر كُشْتِكِينَ؛ شِحنة* المَوْصِل ألا يعمل شيئاً إلا بالشَّرْع إذا أمره القاضي به، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلَأ. قال: فكان لا يُعمل بالسياسة، وبطلت الشحنة*. فجاء أكابر الدَّولة وقالوا لكمشتكين: قد كَثُرَ الدُّعَارُ وأربابُ الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصُّلْب، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلتَ له في ذلك. فقال لهم: أنا لا أكتبُ إليه في هذا المعنى، ولا أجسر على ذلك، فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضرُوا عنده، وذكرُوا له ذلك، فكتبَ إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعَارَ والمفسدين وقُطَاعَ الطريق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مالُ إنسانٍ في البرية مَنْ يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعةً، وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرَّعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرَّعه، فما لنا حاجةٌ إلى زيادةٍ على ما شرَّعه الله تعالى^(٣). قال: فجمع الشيخ عمر المَلَأ أهلَ المَوْصِل، وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزَّاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزَّاهد!

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢، ص ٤٥، من هذا الجزء.

(٣) في هامش (م) بخط مغاير «قلت: ويشبه هذا ما ذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر بن

عبد العزيز» رضي الله عنه، قال: عن يحيى بن يحيى الغساني قال: لما ولاني عمر بن

عبد العزيز الموصل، فوجدتها من أكثر البلاد سرقاً ونهباً، فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز =

وسمعت صقر المُعَدَّل^(١) يقول: سمعت مقلداً - يعني الدُّولعي - يقول: لما مات الحافظ المُرادي^(٢)، وكُنَّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمننا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون، وكان بالمَوْصِل، ومننا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن نستدعي القُطْبَ النَّيْسَابُورِي، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العَجَم، فوقع بيننا كلامٌ بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجذ الدين - يعني ابن الدَّاية - عن لسانه وقال: نحن ما أردنا بيناء المدارس إلا نَشَرَ العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين بن أبي عَصْرُون، وقُطْبَ الدين النَّيْسَابُورِي. فاستدعاهما جميعاً، وولَّى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النَّفَرِي * لقُطْبَ الدين.

[قال]^(٣): وعلقتُ أيضاً من خَطِّ فقيهٍ كان معيداً* بالنَّظَامِيَةِ* يقال

أعلمه حال البلد، وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضر بهم على التهمة أو آخذهم بالبيئة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إلي أن آخذ الناس بالبيئة وما عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيى: ففعلت ذلك، فمأخرجت من الموصل حتى كانت أصلح البلاد، وأقلها سرقاً ونهباً.

قلت: انظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي: ٩٧.

(١) هو صقر بن يحيى، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، في وفيات سنة (٦٥٣ هـ).

(٢) هو علي بن سليمان بن أحمد المُرادي، القرطبي الشافعي، فقيه محدث، كان رفيق ابن عساكر في رحلته، قدم دمشق في حدود سنة (٥٤٠هـ) فنزل على الحافظ ابن عساكر، فسر بقدومه لما كان معه من مسموعاته، ندب للتدريس في حاة، ثم في حلب، وتوفي فيها سنة (٥٤٤هـ)، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨٧/٢٠ - ١٨٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٢٤/٧ - ٢٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

له: أبو الفتح بَنْجِير بن أبي الحسن [بن]^(١) بَنْجِير الأَشْثَرِي^(٢) - وكان وَرَدَ دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة - قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل* للنظر في أمور الرعية وكشف الظلّامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزائنه، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، ١٤/١ وطلباً للثواب والزُلفى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجزُ الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فيجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشرّعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشرّعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروفٌ إلى مصالح الناس، [و]^(٣) النظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرُّبُط* والمدارس والمساجد حتى إن بلاد الشّام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصُّوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والرُّبُط وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل و(ل): بنجه، في الموضعين، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وهو بنجير بن علي، أخذ عن الإمام أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكروخي الهروي المتوفى سنة (٥٤٨ هـ)، توفي بنجير سنة (٥٧٩ هـ)، انظر «توضيح المشتبه»: ٢٣٦/١، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٧٥/٢٠.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أُوْعِدَ عفا، وإذا تحدّث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى. ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعةٍ يُعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعةٍ من الصُوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القُدس للزيارة حكايةً عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سرٌّ؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جُنْدِه وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤله، وما يردُّ يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدّثنا الشيخ داود المَقْدِسي، خادم قبر شُعَيْب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرتُ في دار العدل* في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين، فقام رجلٌ وأدعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخصني، فإنني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحضِر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمّة الخير معروف بالسُّداد والصَّلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو

الشيخ أبي البَيَّان^(١). وكان قد أُودِعَ عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالرَّدِّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حُكْمَ الشَّرْعِ أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنُّ عليه [و]^(٢) يقول: إنه حلف كاذباً. ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التَّنَمُّسِ^(٣) وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومَنْ الذي يقدر أن يقول في حقي هذا. ويتعرَّض بالتماسه من الملك العادل التَّقَدُّمَ بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جَعْبَتِهِ من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك العادل: أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٤)؟ فإذا كان [هو]^(٥) يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز، فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إمَّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس* كان ستونَ منها بدينار، فصار سبعةً وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملك العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر، تارةً ستين بدينار، وتارةً

(١) أبو البيان هو نابن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الخوراني، صديق الشيخ رسلان الدمشقي، سترد ترجمته ص ٣٣٠ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي النميمة، الاحتيال، انظر «تاج العروس» (نمس).

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

سبعة وستين دينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدينانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية. فسكت ساعة وقال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته. قال: فأني شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حُجر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن ١٥/١ الشيخ أبي سعد الصوفي؛ وهو رجل زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مئة وخمسون قرطاساً*. وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فرق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيهِ كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي^(١) قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردي^(٢) قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحضر

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٦ هـ).

(٢) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف. والمثبت من (ل) و(م). وهو من أئمة الحنفية، أصله من كردر - وزن جعفر - وهي ناحية من نواحي خوارزم أو ما يتاخها من نواحي الترك، تولى قضاء حلب لنور الدين، ودرس بها في مدرسة الحدادين، وله عدة تصانيف في المذهب، توفي سنة (٥٦٢ هـ).

انظر «معجم البلدان»: ٤/٤٥٠، و«الجواهر المضية»: ٢/٤٤٣ - ٤٤٤، و«الفوائد البهية»: ٩٨ - ٩٩، و«كشف الظنون»: ١١٤، ٣٤٦، ٥٦٢، و«إيضاح المكنون»: ١/٤٢٥، وفي كليهما «عبد الغفار» وهو تحريف.

الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعض التجار، وأدعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكردي^(١) لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخزندار* فوجده، فتقدم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي - وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين - وقد أنفدني تاج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى [فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين الكردي وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى]^(٢) إلى مجلس الحكم! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزائه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾^(٣). ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين، وسلم عليه وقل له: إني جئتُ إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشرع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيل يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء الله. قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين، فقال الكردي^(١): قد توجهت اليمين فليحضر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

(١) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) سورة النور: الآية ٥١.

سمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك
النَّاصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد
الدين شيركوه - وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته - فقال: امضِ وقل لأسد
الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس.
وخذُ رأيي في ذلك. قال: فجئتُ إليه وأنهيته إليه ما قال لي. فقال: امضِ
وقل له: يا مولانا إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من
أين تعطيتهم، وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر؟ فقال السلطان صلاح
الدين: فقلت لعمي: هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فسأعذه عليه. فصاح فيَّ
وقال: امضِ إليه وقل له ما أقول لك. قال: فعدتُ إلى نور الدين، فأنهيته إليه
ما قال لي عمي، فقال: امضِ إليه [وقل له]^(١): إذا كنا نغزو من هذه الجهات
نتركها ونقعد ولا نخرج. قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال. فقال: قل
له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبَّطه عن^(٢) ذلك، فصاح فيَّ
وقال: امضِ إليه وقل له ما أقول لك. قال: فجئتُ إليه وقلت له ذلك، فترك
ذلك مُدَّة، ثم أمضى ما كان عَزَمَ عليه.

قال لي صقر بن يحيى^(٣): بلغني أن موفق الدين خالداً* رأى في النوم
كأنَّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقصص منامه على نور الدين، فتمعَّر^(٤)
وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل،
فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد
واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعتُ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل: «في» والمثبت من (ل) و(م).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٦١، من هذا الجزء.

(٤) أي تغير وعلته صفرة. «اللسان» (معر).

عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبت عليكم ما أثبتته الله تعالى عليكم. قال: فكتبَ موقف الدين توقيعاً^(١).

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه^(٢) يقول: سمعت أبي يقول: لما كسر نور الدين؛ يعني كسرة البقية، تكلم البرهان البلخي^(٣) فقال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والطبول والزمر! كلا. وكلاماً مع هذا^(٤). فلما سمعه نور الدين قام، ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم* وكسر الإفرنج.

وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه — يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً*، ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس.

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال الكاتب: وقفت أنا على هذا التوقيع بخط موقف الدين ورأيت». قلت: سلف هذا الخبر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) ولد بحلب سنة (٥٥٣هـ) على أحد الأقوال، وهو شيخ ابن العديم، وتلميذ أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» (ط)، توفي خليفة في حلب سنة (٦٣٨هـ)، انظر «الجواهر المضية»: ١٧٦/٢ و «الفوائد البهية»: ٧١.

(٣) سترد ترجمته ص ٢٩٢، من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: مع هذا، مكررة، وفي هامشه: «حاشية، قال المؤلف: لم تكن هذه كسرة البقية، فإنها كانت سنة ثمان وخسين على ما يأتي، ومات البلخي قبلها بعشر سنين، وإنما هذه كسرة أخرى متقدمة ستأتي في أخبار سنة ثلاث وأربعين، وكان البلخي تلك السنة بحلب ينشر السنة بها على ما ذكرناه في ترجمته في «التاريخ»، فتكلم بهذا الكلام، والله أعلم».

قلت: كُسر نور الدين في يغرا ثم انتصر بعد، وذلك سنة (٥٤٣هـ). انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سِير نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أُطلق وبمقدار ما أُطلق، ويسأله أن يتقدّم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا^(١) من التُّجّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه؛ يعني من أموالهم، فتقدّم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

١٦/١ حدثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأخذ شَيْزُر* خرج أبو غانم بن المنذر صحبته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحرّان* وسنجار* والرّحبة* وعزاز* وتل باشر* وعدّاد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما تقربّ به إلى الله سبحانه وتعالى^(٢) صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علِمَ ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أحرَبته أيدي الكُفّار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رافةً بالمسلمين المثاغر^(٣)، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خصّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمريّة، وأقرها في الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظلّة المتقدّمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور،

(١) في الأصل: يستحلّوا، والمثبت من (ل) و (م)، وقد وردت هذه اللفظة ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: تعالى سبحانه، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) أي سكان الثغور.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٠.

وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقره. لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١)، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢). ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيلٍ غير مُقَاد، وهاربٍ ممنوع الرقاد، ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾^(٣). عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى مُلكه الزائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارة إذا انقطعت المواد، وجادة واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٤). فصّح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على كل متناولٍ إليها، ومتهافٍ عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه - اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه [محمد] ﷺ^(٥) - في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين^(٦) ألف دينار، جهة ذلك: حلب خمسون ألف دينار، عَزَاز* - عن مكس جدّدته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين - عشرة آلاف دينار، تل باشر* أحد وعشرون ألف دينار، المعرة* ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة - لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٢.

(٣) سورة ص: الآيات ٣٨ - ٤٠.

(٤) سورة الانفطار: الآية ١٩.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في الأصل، و(ل) خسون، والمثبت من (م).

سنة، وهو رسم يسمونه الفسة^(١) - عشرون ألف دينار، حصص ستة وعشرون ألف دينار، حران* خمسة آلاف دينار، سنجار* ألف دينار، الرحبة* عشرة آلاف دينار، عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدق به وأجراه في سبل الخيرات ووجوه البر والصّدقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأتمتها ومدرسيها وفقهائها، وما وقفه على آذر^(٢) الصوفية والرّبط* والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل^(٣) في طريق الحجاز، وما وقفه على فكّك الأسرى، وتعليم الأيتام، ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعبّاسيين، وما ملّكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدّم ذكرها، فإنّه يضاهاى هذا المبلغ وزيادةً عليه، جعل ذلك ذريعةً عند الله تعالى وتقرباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد، واستئصال شأفة الكفر والعناد، من خزانته المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة، طلباً لما عند الله ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٤) فالواجب على كلّ إمامٍ عادلٍ وسلطانٍ قادرٍ أن يمدّه ويؤدّه، ويشدّ عضدّه، ويقوّي عزمه، وينفّذ حكمه، وعلى كل مسلمٍ أن يواصله بالدعاء، آتاء الليل وأطراف النهار، وكتب خادماً دولته وغذّي نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا

(١) كلمة عامية تعود إلى ذلك العصر، وسيرد خبر إبطالها في دمشق ص ٢٢٣ من هذا

الجزء.

(٢) جمع دار، على القلب، انظر «اللسان» (دور).

(٣) في (م) السبل.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

المتعبدين، وكافة التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدّد إلى أغراض الخير تفويقهّم، ليشعروا بذلك من حضرهم من التّجار، والمتردّدين إليهم من السّفار، ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١)، ويمدّوه بأدعيتهم ويبرؤوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثّواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرؤوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً، ووعدّه بإقطاع حسن، واتفق موته بعد ذلك^(٢).

قلت: ونقلت من خطّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن الحسين بن عبّان الأزدي الدّمّشقي^(٣): وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التي من قبله بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطيب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة*، جامع قلعة دمشق*، مدرسة الحنفية التي جدّدها نور الدين^(٤)، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية*، مسجد ابن ليبد بالفسقار*، مسجد سوق الرّمّاحين*، المسجد المعلّق بسوق الصّاغة*، مسجد دار البطيخ^(٥) المعلّق*، مسجد العبّاسي بسوق الأحد*، مسجد جدّده نور الدين جوار بيعة

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) في هامش الأصل: «حاشية: إلى هنا انتهى ما نقله المؤلف من خط ابن العديم، والله أعلم». قلت: انظر ص ٥٦ من هذا الجزء، وفيها بداية ما نقله.

(٣) ولد سنة (٥٢٠هـ)، وتوفي بدمشق سنة (٥٨٤هـ)، انظر «التكملة» للمنذري: ٩٣/١ - ٩٤، وفيه: «أبو الحسين»، و«تلخيص مجمع الآداب»: ج ٤/ ق ١٩٥ - ١٩٦، وفيه: «أبو عبد الرحمن»، ولم يسمه.

(٤) انظر في كشف الأماكن ما كتب عن المدرسة النورية الصغرى.

(٥) في الأصل و(م): بطيخ، والمثبت من (ل).

اليهود*، جامع الصالحين بجبل قاسيون*. يتناح بذلك طيب وعود ويُفَرَّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزء واحد، تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق* يوم الخميس تاسع عشر صَفَر سنة أربع وخمسين وخمس مئة القاضي زكي الدين أبوالحسن علي بن محمد بن يحيى القُرشي^(١)، والفقهاء: الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد^(٢)، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن

(١) ولد سنة (٥٠٧هـ)، تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة (٥٥٥هـ) فأعفي، فخرج إلى مكة حاجاً، وعاد إلى بغداد في صفر سنة (٥٦٣هـ) فأقام بها يحدث، حتى توفي سنة (٥٦٤هـ)، ودفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل. وهو والد أبي المعالي محمد بن علي المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها. انظر «وفيات الأعيان»: ٢٣٦/٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٥١٩/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٣٥/٧، و«قضاة الشافعية» للنعمي: ٤٦ المنشور في قضاة دمشق لابن طولون. وانظر ص ٣٨٨، من هذا الجزء.

(٢) هو الخضر بن شبل بن الحسين، المعروف بابن عبد، ولد سنة (٤٨٦هـ) ودرّس الفقه وأفتى سنة (٥١٨هـ)، وكان شديد الفتوى، درس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرس بالمدرسة المجاهدية الجوانية (مسجد السادات جانب باب العمارة الجوانية الآن)، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج (سميت بعد بالعمادية وقد درست). سمع منه القاسم بن عساكر، ولزم درسه مرة، وعلق عنه من مسائل الخلاف، توفي سنة (٥٦٢هـ). انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٣٢٥/٥ (وترجمته فيه من زيادات القاسم على تاريخ أبيه)، و«مرآة الزمان»: ١٦٨/٨ - ١٦٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٥٩٢/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨٣/٧، وسيرد له ذكر في ١٧/٢ من هذا الكتاب، وانظر «تهذيب ابن بدران»: ١٦٢/٥.

الماسح^(١) الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهّاب بن عيسى المالكي^(٢)، وشرف الإسلام نجم بن عبد الوهّاب الحنبلي^(٣)، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي؛ رئيس دمشق^(٤)، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء؛ متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصّائِن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وفقاً عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره،

(١) أحد أئمة المذهب، ولد سنة (٤٨٨هـ)، كان فرضياً نحوياً، وله حلقة كبيرة بالجامع الأموي للإقراء والفقه والنحو، توفي سنة (٥٦٢هـ). والماسح: هو الذي يتصدى لقياس أرض الزراعة، انظر: «إنباه الرواة»: ٢٤١/٢ - ٢٤٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٤٦٧/٢٠ - ٤٦٨، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢١٤/٧، وانظر «صبح الأعشى»: ٤٦٦/٥.

(٢) أصله من المغرب، قدم دمشق وهو شاب سنة (٥٣٥هـ) وكان يختلف إلى مدرسة الفقيه أبي البركات بن عبد، ثم اعتنى به الأمير معين الدين أنر، فدرس في الجامع الأموي تحت قبة النسرة، سمع من الحافظ ابن عساكر، رمم له نور الدين داراً بحجر الذهب (محلة كانت قريبة من البيمارستان النوري، تسمى اليوم الحريقة) توفي سنة (٥٥٤هـ) انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٣٠٦/١٠ ب. قلت: هي المدرسة النورية المالكية.

(٣) ولد سنة (٤٩٨هـ)، كان شيخ الحنابلة بالشام في وقته، أفنى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، ما حاسبى في دين الله أحداً، ولم يل ولاية من جهة السلطان، وكان الشيخ الموفق وأخوه أبو عمر ابني قدامة إذا أشكل عليهما شيء سألوه، توفي سنة (٥٨٦هـ)، ودفن بسفح قاسيون. وشرف الإسلام هو لقب والده عبد الوهّاب بن عبد الواحد، المتوفى سنة (٥٣٦هـ). انظر «التكملة» للمنزري: ١٣٢/١، و«سير أعلام النبلاء»: ١٠٣/٢٠، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ٣٦٨/١ - ٣٦٩.

(٤) رُدّت إليه رياسة دمشق سنة (٥٤٨هـ) بعد قتل الوزير حيدرة، انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والسّاكت منكم مُصَدِّقٌ للناطق ومصوّبٌ لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصّحابة رضي الله عنهم، يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين. فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان، وقُني السّبيل وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضرٍ من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان^(١)، فقال الصائين وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من وقف الجامع؛ لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصَدَّقَهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالح أيضاً ما في زيادة الجامع القبليّة، وزيادة باب البريد* في الصف القبلي والشّامي^(٢) من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء* من قبلة الجامع، والفرن المستجد بها، ودار الخيل* والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخواصين* في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتاً^(٣) متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة* إلى سوق علي* وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف

(١) النوري، انظره في كشف الأماكن.

(٢) قال عبد القادر بن بدران في «تهذيب تاريخ ابن عساكر»: ٢١٩/١ «اصطلح المتقدمون على تسمية الجهة الشمالية بالشامية هرباً من أن يطلقوا على أهلها أنهم من أهل الشمال».

(٣) الحانوت يذكر ويؤنث. انظر «اللسان» (حنت).

الشامي من سوق علي بلسق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار* في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقاعي^(١)، وحوانيت اللّبادين*، والتي بحضرة الفوّارة*، وتحت اللّبادين، وقيسارية* العقيقي بسوق الأحد* وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرَب التّمارين*، وحانوت بقنطرة الشّماعين* في الصف الشّامي بحضرة البيطرة*، وقطعة جوار المأمونية* من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهمّ المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والقيل^(٢) والخندق لصيانة المسلمين وحریمهم وأموالهم. فصوّبوا ما أشار إليه، وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوهّاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون الشّافعي: لا يجوز أن يُصَرَفَ وقفٌ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في

١٨/١

(١) نسبة إلى عمل الفقاع وبيعه؛ وهو شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد. «اللسان» (فقع) و«اللباب»: ٢١٩/٢.

(٢) القيل: الحائط القصير، انظر «القاموس المحيط» (قلل). وفي (م): الفصل: وهو أيضاً حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد. «القاموس المحيط» (فصل).

المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبي عصرون نورَ الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلَّاسة* من شامِ الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر^(١) بالجامع، وعلى الرِّصَاص المعمول على سطح الرواق الشَّامي من الجامع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان^(٢) إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنفَقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين^(٣)* من غربي الجامع المعمور للذين كانا مخزينين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري^(٤).

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرتُ المجلس المذكور - عمره الله وَزَيْنَهُ بالعدل أبداً ما عاش صاحبه - وشهدت على ما تضمَّنَه من المشورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلُّ بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيِّدته بالحاجة وفراغ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عبد الوهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

(١) أي تحت قبة النسر. انظر كشف الأماكن.

(٢) أي ابن أبي عصرون.

(٣) في الأصل: المشهد، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) كان ابن أبي عصرون متولياً لنظر الأوقاف، وقد اتهم في أمانته، فهو هنا يدفع عن نفسه هذه التهمة، انظر «منامات الوهراني» ص ٦٧ - ٧١، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٥٨ من هذا الجزء.

فصل

وقد مُدح نور الدين رحمه الله بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مُدح به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسين^(١) أحمد بن منير^(٢)، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةً منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أقدم منها شيئاً هنا.

قرأتُ في «ديوان محمد بن نصر القيسراني»: كتب إلى نور الدين: سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على مَنْ عصم ثغر العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيئته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مملكته^(٣)، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصّر، وممالك الإسلام متوجةً بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزيمة القهر، ومن رأى الحكَم دارسة فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة^(٤)، فأمكن من صهواتها فوارسها؛ ومن عمر ربّع^(٥) السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن مَنْ كان منها على شفى، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان.

(١) في الأصل و (ل) أبو الحسن، والمثبت من (م).

(٢) سترد ترجمتها في وفيات سنة (٥٥٤٨هـ)، ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٣) أي عبيده. «اللسان» (ملك).

(٤) أي جاحة. «اللسان» (شمس).

(٥) الربع، المنزل والدار والوطن. «اللسان» (ربيع).

ذو الجِهَادَيْنِ مِنْ عَدُوٍّ وَنَفْسٍ
 أَيُّهَا الْمَالِكُ الَّذِي أَلْزَمَ النَّاسَ
 قَدْ فَضَّحْتَ الْمُلُوكَ بِالْعَدْلِ لَمَّا
 قَاسَمًا مَا مَلَكَتْ فِي النَّاسِ حَتَّى
 شِيمَ الصَّالِحِينَ فِي جُنَنِ^(١) التُّر
 أَنْتَ حِينَئِذٍ تَقَاسُ بِالْأَسَدِ الْوَرُ
 صَاعَكَ اللَّهُ مِنْ صَمِيمِ الْمَعَالِي
 وَكَأَنَّ الْقَبَاءَ مِنْكَ لَمَّا ضُمَّ
 أَنْتَ إِلَّا تَكُنْ نَبِيًّا فَمَا فَ
 رَافَةً فِي شَهَامَةٍ وَعَفَافٍ
 وَجَمَالٍ مَمْنُوقٍ بِجَلَالٍ
 وَإِذَا مَا الْمُلُوكُ خَافَتْ سَهَامُ الذِّ
 عَجَبَ النَّاسِ مِنْكَ أَنْكَ فِي الْحَرِّ
 وَكَأَنَّ السَّيْفَ مِنْ عَزْمِكَ الْمَا
 وَلَعَمْرِي لَوْ اسْتَطَاعَ فَذَاكَ الـ
 وله فيه:

فَهُوَ طَوِيلُ الْحَيَاةِ فِي هَيَجَاءِ
 سَنَ سُلُوكِ الْمَحْجَّةِ الْبَيْضَاءِ
 سِرَّتْ فِي النَّاسِ سِيرَةَ الْخُلَفَاءِ
 لَقَسَمْتَ التَّقَى عَلَى الْأَتْقِيَاءِ
 كَ وَكَمْ مِنْ سَكِينَةٍ فِي قَبَاءِ
 دِ وَحِينَئِذٍ تُعَدُّ فِي الْأَوْلِيَاءِ
 حَيْثُ لَا نِسْبَةَ سِوَى الْآلَاءِ
 (م) مِنَ الطُّهْرِ مَسْجِدٌ بِقُبَاءِ^(٢)
 تَكَ إِلَّا^(٣) خَلَائِقُ الْأَنْبِيَاءِ
 فِي اقْتِدَارٍ وَسَطُورَةٍ فِي حَيَاءِ
 وَكَمَالٍ مُتَوَجِّعٍ بِبِهَاءِ
 (م) مَّ زَرَّتْ عَلَيْكَ دَرَعُ الشَّنَاءِ
 بِ شَهَابُ الْكِتَابَةِ الشَّهَاءِ
 ضِي أَفَادَتْ مَا عِنْدَهَا مِنْ مَضَاءِ
 قَوْمٌ بِالْأَمَّهَاتِ وَالْأَبَاءِ

١٩/١

طُبِعَتْ مَضَارِبُهُ عَلَى الْقَهْرِ
 إِلَّا انْجَلَتْ عَنْ مَعْقِلٍ بِكُرٍ
 لِلَّهِ عَزْمُكَ أَيَّ سَيْفٍ وَغَى
 مَا زُفَّتِ الْحَرْبُ الْعَوَانُ^(٤) بِهِ

(١) مفردا جُنَّةً، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).

(٢) قباء: قرية على ميلين من المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكة، فيها مسجد التقوى بناه الصحابة المهاجرون ومن نزل إليهم من الأنصار قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، فلما قدم عليه السلام قباء صلى بهم فيه. انظر «معجم البلدان»: ٣٠٢/٤.

(٣) في هامش الأصل و(ل): «حاشية: إلا: أي قسماً».

(٤) الحرب العوان: التي كان قبلها حرب. انظر «اللسان» (عون).

صَدَعَ الدُّجَى عَنْ خَجَلَةِ الْبَدْرِ
أَبْدَأُ أَمَامَ جِيوشِهِ تَسْرِي
شَغَلْتُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْفِكْرِ
فَالْقَوْمُ قَبْلَ الْأَسْرِ فِي أَسْرِ
تَجْلُو الطُّبَى ثَغْرًا عَلَى الثُّغْرِ
نَهَضْتُ سَرَايَا الْخَوْفِ وَالذُّعْرِ
حَتَّى اسْتَكَانَ الصَّخْرُ بِالصَّخْرِ
هَلْ غَيْرُ مَفْرِقٍ هَامَةٍ الْفَجْرِ
أَنْ يُخَيِّي الْعُمَرَيْنِ بِالذُّكْرِ
عَقَدْتُ عَلَيْهِ تَمَائِمَ الْأَجْرِ
أَلَّا يَبِيَّتَ مَجَاوِرَ الْبَحْرِ
وَتَنَاوَهَ أَبْدَأُ عَلَى ظَهْرِ

هَلْ وَجْهٌ نَوَّرَ الدِّينَ غَيْرَ سَنَى
مَلِكٌ مَهَابَتُهُ طَلِيعَتُهُ
كَمْ فَلَّ كَيْدَهُمْ بِصَاعِقَةٍ
تَرَكْتُ حَصُونَهُمْ سَجُونَهُمْ
عَصَمَ الْعَوَاصِمَ فِيهِ ضَاكِكَةٌ
وَإِذَا سَرَايَا خَيْلِهِ قَفَلَتْ
وَرَمَى الْقِلَاعَ بِمِثْلِ جَنْدَلِهَا
يَا سَائِلِي عَنْ نَهْجِ سِيرَتِهِ
عَذْلٌ حَقِيقٌ مَنْ تَأَمَّلَهُ
وَشَهَامَةٌ فِي اللَّهِ خَالِصَةٌ
وَنَدَى يَدٍ مَا ضَرَّ وَارِدَهَا
هَذَا الْمَخِيْمُ فِي ذُرَا حَلَبٍ

وله [فيه] (١) وقد وصف داره:

مِنْ حُسْنِهَا وَالشَّمْسُ مِغْيَارُ (٢)
غَيْرَ سِيوفِ الْهِنْدِ أَظْفَارُ
وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ لَهُ جَارُ
جَائِرٍ مَا يَهْوَى وَيَخْتَارُ
نَشْرُ لَهُ فِي الرُّوضِ إِسْفَارُ
كَأَنَّمَا رَاوِيهِ عَطَّارُ
أَجَابَهَا مَاضٍ وَخَطَّارُ (٣)

دَارَ تَغَارُ الشَّمْسُ فِي أَفْقِهَا
يَزَارُ فِيهَا ضَيْغَمٌ مَا لَهُ
تَمْسِي وَتَضْحِي وَهُوَ جَارُ لَهَا
لَسِيفِهِ الْبَاتِرِ مِنْ دَهْرِهِ الْـ
قَدْ مَلَأَ الْأَسْفَارَ مِنْ ذِكْرِهِ
حَمْدٌ يَضُوعُ الْجَوُّ مِنْ طِيهِ
إِنْ خَطَرَتْ فِي قَلْبِهِ خَطَرَةٌ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي شديدة الغيرة. «اللسان» (غير).

(٣) الرمح. «اللسان» (خطر).

سَيُوفُهُ لَبَّتَهُ أَقْدَارُ
لَهُ مِنَ التَّأْيِيدِ أَنْصَارُ
دُنْيَا لَهَا فِي الدِّينِ آثَارُ
غَيْرَ فُضَاءِ الْحَمْدِ مِضْمَارُ

وإن دعا داعيه يومَ الوغى
كأنما صارمه مُرْسَلُ
يا مالك الدُّنيا ولكنَّها
ويا جواداً ما لآلائه

وله فيه:

إِلَى أَنْ عَدَّه مِنْهُ مَعَدُّ
فَأَجْلَى الشَّرْكَ حَتَّى لَيْسَ ضِدُّ
وَمَالَ بِهَا عَنِ الْأَمْوَالِ زُهْدُ
فَاهْدَرَ قَبْلُ مَا أَنْشَاءَ بَعْدُ
وَقَدْ طُويَ الرِّوَاقُ وَمَنْ يَمُدُّ
لِدَوْلِيهِ دَعَاءَ لَا يُرَدُّ

تَدَارِكُ مَلَّةَ الْعَرَبِيِّ ذَبًّا
وَحَلَّ دُرَى الْعَوَاصِمِ وَهِيَ نُهْبَى
ثَنَى يَدَهُ عَنِ الدُّنْيَا عَفَافاً
رَأَى حَطَّ الْمَكُوسِ عَنِ الرُّعَايَا
وَمَدَّ لَهَا رِوَاقَ الْعَدْلِ شِرْعاً
وَبَاتَ وَعِنْدَ بَابِ الْعَرْشِ مِنْهَا

وله فيه:

وَشَبِيهَ بِمَالِكِ الْأَمْرِ جُنْدُهُ ٢٠/١
شَكَرَهُ فِي الْوَرَى وَيُدْرُسُ حَمْدُهُ
وَلَا فَاتَهُ مِنْ النُّصْرِ رِفْدُهُ

مَلِكٌ أَشْبَهَ الْمَلَائِكَ فَضْلاً
عَمَّ إِحْسَانُهُ فَأَصْبَحَ يُتْلَى
فَسَقَى اللَّهَ ذِكْرَهُ أَيْنَمَا حَلَّ (م)

وله:

قَسَمَاتُ نَوْرِ الدِّينِ خَيْرُ النَّاسِ
وَالْبَائِعُ الدُّنْيَا بَغَيْرِ مِكَاسِ
إِنْ الدُّعَاءُ يُعَدُّ فِي الْحُرَّاسِ
وَأَلَانَ مِنْ قَلْبِ الزَّمَانِ الْقَاسِي
وَأَقَامَ وَزْنَ الْعَدْلِ بِالْقِسْطَاسِ
فَحُمِيَ الرِّيَاسَةُ مِنْهُ طَوْدُ رَاسِي

ضَحَكَتْ تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ كَأَنَّهَا
الْمُشْتَرِي الْعُقْبَى بِأَنْفَسِ قِيَمَةٍ
وَسَرَى دَعَاءُ الْخَلْقِ يَحْرُسُ نَفْسَهُ
رَاضٍ الْخُطُوبِ الصُّمِّ بَعْدَ جَمَاحِهَا
وَأَعَادَ نَوْرَ الْحَقِّ فِي مِشْكَاتِهِ
وَاخْتَارَ مَجْدَ الدِّينِ ^(١) سَائِسَ مُلْكِهِ

(١) على هامش الأصل: «يعني ابن الداية».

فهو الخبيرُ بكلِّ داءٍ مُعْضِلٍ^(١)
وأذلَّ سُلْطانَ النِّفاقِ بعِزَّةٍ
وَعَرَّتْهُ أَقْرانُ الخُطوبِ فَصَدَّها
ولو أنَّ فَيْضَ النَّيلِ فائِضٌ نَيْلُهُ
سَكُنَتْ شَعْبَ الدَّهْرِ بعدَ تَخْمُطٍ^(٢)
وفتَحَتْ بابَ الحِظِّ بعدَ رِتاحِهِ
حتى مَنَحَتْ الخَلْقَ كُلَّ مَسَرَّةٍ
ولَهُ:

يأسو جراحَ زماننا ويواسي
خضعت لها الأساد في الأخياس^(٣)
ألوى^(٤) يمارسُها أَشَدَّ مِرَاسٍ
لم تفتقر مِصْرٌ إلى مِقياسٍ
وَأَلَنْتَ مِنْ عِظْفِيهِ بعدَ شِماسٍ
وَأَذَنْتَ لِلأَطْماعِ بعدَ الياسِ
فالنَّاسُ في عُرْسٍ مِنَ الأعراسِ

سام الشَّامَ ويا لها من صَفْقَةٍ
وَلَشَمَّرَتْ عنها الثُّغورُ وأصبَحَتْ
تلك التي جَمَحَتْ على مَنْ راضِها
وإذا سعادتك احتَبَّتْ في دولَةٍ
حَصَّنْ بِلادَكَ هِيَةً لا رَهْبَةً
هِيَهَاتَ يَطْمَعُ في مَحَلِّكَ طامِعٌ
كَلَّفَتْ هِمَّتَكَ السُّمُوَّ فَحَلَّقَتْ
وأظنَّ أَنَّ النَّاسَ لما لم يَرَوْا

لولاه ما عَنَّتْ^(٥) على يدِ سائِمٍ
فيها العواصم وهي غَيْرُ عواصِمٍ
ودَعَوَتْ فانْقَادَتْ بغيرِ شِكايمٍ^(٦)
قامَ الزَّمانُ لها مقامَ الخادمِ
فالدَّرْعُ من عُدَدِ الشَّجاعِ الحازِمِ
طالَ البناءُ على يمينِ الهادمِ
فكأنما هي دَعْوَةٌ في ظالمٍ
عَدَلًا كعدلك أَرْجَفُوا بالقائمِ^(٧)

(١) في الأصل: معطل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) مفردا خيس: موضع الأسد، وتأتي أيضاً بمعنى المجتمع من كل شجر. «اللسان» (خيس).

(٣) أي الشديد الخصومة. «اللسان» (لوى).

(٤) أي بعد اضطراب. انظر «اللسان» (خط).

(٥) في «خريدة القصر» ما أعيت.

(٦) مفردا شكيمة وهي في اللجام الحديدية المعترضة في فم الفرس. انظر «اللسان» (شكم).

(٧) القائم هو المهدي المنتظر، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام:

وله:

قَلْتُ بِقَوْلِ اللَّهِ لَا خَائِفًا
لَا رَاقِبَ النُّجْمِ وَلَا سَائِلًا
بَلْ غَرَّتْ لِلْإِسْلَامِ حَتَّى لَقَدْ
رُعْتُ^(٢) نَوَامِيسَ نَوَاقِيسِهَا
تَمَحَوُ تَصَاوِيرَ الدُّمَى عَنْ يَدِ
هَذَا وَكَمْ أَنْشَأَتْ مِنْ مَنَبَرِ
مَنْ نَالَ بِالْإِخْلَاصِ مَا نِلْتَهُ
يَا شَائِمًا بِالشَّامِ صَوَّبَ الْحَيَا^(٣)
هَذَا سُجُوفَ الْمَلِكِ مَرْفُوعَةً
أَوْضَحَ سُبُلَ^(٤) الْعَذْلِ مُفْتَنَةً
أَلْغَى حَقُوقًا كُلَّهَا بَاطِلُ
عُطْفًا وَرَفَقًا بِالرَّعَايَا وَإِنْ
كَمْ بَيْنَ مَنْ نَامَ عَلَى نَشْوَةٍ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَنِي سَيْفُهُ

مَعَ حَكَمِ الْقُرْآنِ حُكْمَ الْقِرَانِ^(١)
مَا فَعَلَ السَّعْدَانِ وَالنَّيْرَانُ
دَانٌ لَهُ مِنْ بَالِطَوَاغِيَتِ دَانُ
بَجَلْبَةِ^(٢) الْآذَانِ وَقَتَ الْآذَانِ^(٣)
تَبْنِي الْمَحَارِبِ خِلَالَ الْمَجَانِ^(٤)
فَارْسُهُ فَارَسُ سِحْرِ الْبَيَانِ
كَانَ مِنَ اللَّهِ مَكِينُ الْمَكَانِ
وَدَانِيًا مِنْ كُلِّ قَاصِرٍ وَدَانُ
عَنْ مَلِكٍ أَخْبَارِهِ كَالْعِيَانِ
فَلِلْبَرَايَا بِالِدُّعَاءِ افْتِنَانُ
إِلَى ضِمَانٍ حَطَّ مَالُ الضَّمَانِ^(٥)
أَصْبَحَ تَأْدِيبُ مَلُوكِ الزَّمَانِ
وَسَاهِدٌ فِي صَهْوَةٍ مِنْ حِصَانِ
بِبِلْدَةٍ بِكْرٍ وَأُخْرَى عَوَانُ

وَقَرَأْتُ فِي دِيوَانِ أَحْمَدَ بْنِ مَنِيرِ الطَّرَابُلُسِيِّ مِنْ قِصَائِدَ يَمْدَحُ بِهَا

نُورَ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

(١) القرآن هو كسوف الشمس بواسطة قرص القمر، وله معانٍ عند المنجمين.

(٢) في (ل): رغت.

(٣) سكنت اللام لضرورة الشعر.

(٤) مفردها مجن، وهو الترس، «اللسان» (جنن).

(٥) في الأصل: الجياد، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) سكنت الباء للضرورة.

يا محيي العَدْلَ ويا مُشِيرَهُ
وركنَ الأسلام الذي وَطَّده
وشارِعَ المعروفِ إذ لا شَفَةَ
مَحَوْتَ ما أثْبَتَهُ الجَوْرُ مَضَى
مِنْ كُلِّ مَكَّاسٍ يَظُلُّ قَاعِداً
كَانَتْ لَأَرْجاسِ اليهودِ دولةٌ
الملكِ العادلِ لَفْظُ طابَقَ الـ
خَيْرُ الثَّعَوْتَ ما جَرى الوَصْفُ على
عَدْلٍ جَنَيْتَ اليَوْمَ حُلُوَ رَبِّعِهِ
لا زَالَ لِلإسلامِ مِنْكَ عُدَّةٌ
النَّاسُ [أَنْتَ] ^(٤) والملوكِ شَرْطُ ^(٥)
مِثْلَكَ لا يَسْخُو بِهِ زَمَانُهُ
وله:

من بين أطباقِ البَلَى وقد هَمَدُ
طالَ وأرْسَى العِزَّ فِيهِ وَوَطَّدُ
تَجَنَّحُ لِلْقَوْلِ ولا تَشْمَخُ يَدُ
عليه إِخْلادُ اللَّيالي فَخَلَدُ
لِمَا يَسُوءُ المُسلمينَ بِالرُّصْدِ
أزالها مِنْكَ الهُصُورُ ذُو اللَّبْدِ
مَعْنَى وفي الوَصْفِ مُعَارُ ^(١) مُسْتَرَدُّ
صَفْحَتِهِ جَرَى النِّسِمِ في الوَمْدِ ^(٢)
وسوفَ يُجْنى لَكَ أحلى مِنْهُ عَدُ
تَقِيْمُ مِنْهُ كُلِّ زَيْغٍ ^(٣) وَأَوْدُ
تَعْدُ لَيْشاً وَيُعْدُونَ نَقْدُ ^(٦)
وَمِثْلَ ما أُوتِيَتْ لَمْ يُؤْتَ أَحَدُ

أَيَا نَوْرَ دِيْنٍ خَبَا نَوْرُهُ
رَأَى الصُّلَيْبُ صُلَيْبَ القَنَاةِ
تَهْمٌ فَتَسْلُبُهُ ما اقْتَنَى
رَبَّتْهُمْ ^(٨) أَمْسٍ عَنْ صَرْخَيْدٍ*

وَمُدُّ شاعَ عَدْلُكَ فِيهِ اتَّقَدُ
أَمِينَ العِشَارِ مَتِينِ العَمْدِ
وَتَذَاي ^(٧) فَتَشْكِلُهُ ما احْتَشَدُ
فَفَضُّوا كَأَنَّ نَعَاماً شَرَدُ

(١) في الأصل: معاد، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ندى يجيء من البحر في شدة الحر وسكون الريح. انظر «اللسان» (ومد).

(٣) في (ل): زوج.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) الشَّرْطُ: الدون من الناس. «اللسان» (شرط).

(٦) النقد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجه، يقال: هو أذل من النقد. انظر «اللسان» (نقد).

(٧) ذَاي يذَاي: مرَّ مرّاً خفيفاً سريعاً. «اللسان» (ذأي).

(٨) أي دفعتهم: «اللسان» (زبن).

وَيَوْمَ الْعُرَيْمَةِ^(١) أَقْبَلْتَهُمْ
جَنَّبَتْ^(٢) مَلِيكُهُمْ فِي الصَّفَادِ^(٣)
وَقَبْلُ أَرْزَتْهُمْ فِي الرُّهَاءِ*
بَقِيَتْ تَرْقُعُ خَرَقُ الزَّمَانِ
تَثْقُفُ مِنْ زِيغِهِ مَا التَّوَى
وله:

أَيَا مَلِكَ الدُّنْيَا الْحَلَّاجِ^(٥) وَالَّذِي
وَلَيْسَتْ بِدَعْوَى لَا يَقُومُ دَلِيلُهَا
أَخُو غَزَوَاتٍ كَالْعُقُودِ تَنَاسَقَتْ
لِسَانٍ بِذِكْرِ اللَّهِ يَكْشُو نَهَارَهُ
وَبِذْلٍ وَعَدْلٍ أَغْرَقَا وَتَأَلَّقَا
مَرَامُ سَمَائِيٍّ وَحَزْمُ مُسَدَّدٍ
وله:

أَبْدَأُ تَنَكُّبُ عَنْ ضَلَالٍ سَادِرًا
سُدَّتِ الْكُھُولَ مِنَ الْمُلُوكِ مَرَاهِقًا

عُرَامًا تَشْلَبُ مِنْهُ الْأَسَدُ
وَعَفُوكَ عَنْهُ أَعْمُ الصَّفَدِ^(٤)
مَوَازِقَ مَزَّقْنَ جُرْدَ الْجَرْدِ
قِيَامًا لِأَبْنَائِهِ إِنْ قَعَدُ
وَتَصِلُحُ مِنْ طَبْعِهِ مَا فَسَدُ

لَهُ الْأَرْضُ دَارٌ وَالْبَرِيَّةُ أَعْبُدُ
وَلَكِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ يُجْحَدُ
تَحُلُّ بِأَجْيَادِ الْجِيَادِ وَتُعَقَّدُ
بِهَاءٍ وَجَفْنُ فِي الدُّجَى لَيْسَ يَرْقُدُ
فَلَا الْوَرْدُ مَشْمُودٌ^(٦) وَلَا الْبَابُ مُوَصَّدُ
وَرَأَيْ شِهَابِيٍّ وَعَزَمَ مُؤَيَّدُ

بَثْقُوبِ زَنْدِكَ أَوْتَدَلُّ عَلَى هُدَى
وَشَاوَتْ^(٧) شِيْهِمُ الْبَوَازِلِ^(٨) أَمْرَدَا

(١) انظر ص ١٩٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) جنب الأسير: قاده إلى جنبه. «اللسان» (جنب).

(٣) ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).

(٤) الصفد: العطاء. «اللسان» (صفد).

(٥) السيد في عشيرته، الشجاع الركين في مجلسه. «اللسان» (حلل).

(٦) قليل. «اللسان» (ثمد).

(٧) سبقتهم. «اللسان» (شأي).

(٨) البوازل: الطاعنون في السن. من يزل البعير: إذا استكمل الثامنة وطعن في التاسعة،

وليس بعد البازل سن تسمى. انظر «اللسان» (بزل).

٢٢/١ إِنْ شِيدُوا صَرْحاً^(١) أَنَا فِ مَنَارَةٍ
وَإِذَا اسْتَهَزَّتْهُمْ قَلَانْدُ مَعْبِدٍ^(٢)
قَسماً لَشَامِ الشَّامِ مِنْكَ مُهَنْداً
وَتَمَسَّكَ الْإِسْلَامُ مِنْكَ بِعُرْوَةٍ
أَشْفَى فَكُنْتَ شَفَاءَهُ مِنْ حَادِثٍ
كُنْتَ الصَّبَاحَ لِلَّيْلِ لَمَّا دَجَا
لِلَّهِ يَوْمٌ أَطْلَعْتَكَ بِهِ النَّوَى
نَشْوَانُ غَتَّتْكَ الظُّبَى مَفْلُولَةً
فِي مَعْرِكٍ مَاقَامِ بِأُسْكَ دُونَهُ
وَلَكُم مَكْرٍ قُتِمَتْ فِيهِ مُعْلَمًا
يَوْمَ الْعَرِيمَةِ وَالْخَطِيمِ وَحَارِمٍ*
لَا يَعْدَمُ الْأَشْرَاكَ حَدَّكَ إِنَّهُ

أَوْ أَسْجَدُوا لِلْكَاسِ جَدَّدَ مَسْجِدَا
هَزَّتُهُ مَوْعِظَةٌ فَعَرَّفَ^(٣) مَعْبِدَا
أَرْضَاهُ مَشْهُوراً وَرَاعَ مُقْلَدَا
اللَّهُ أَبْرَمَ حَبْلَهَا فَاسْتَحْصَدَا^(٤)
غَادَاهُ عَارِضُهُ مُرْدَى بِالرَّدَى
وَالْغَيْثِ^(٥) كَفَّ لَظَاهُ حِينَ تَوَقَّدَا
تَجْتَابُ^(٦) مِنْ مُهْجِ الْأَصَاغِرِ^(٧) مِجْسَدَا^(٨)
وَأَمَالَ عِطْفِيكَ الْوِشَاحُ^(٩) مُقْصِدَا^(١٠)
إِلَّا أَقَامَ الْمَشْرُكِينَ وَأَقْعَدَا
أَرْضَى إِلَهَكَ وَالْمَسِيحَ وَأَحْمَدَا
وَشِعَابَ بَاسُوطَا* وَهَابَ* وَصَرَّخَدَا*
مَاسَّلُ فِيهِمْ حَاكِمًا إِلَّا اعْتَدَى

(١) أي قصرأ. «اللسان» (صرح).

(٢) هو معبد بن وهب، أبو عبيد المدني، من أكبر المغنين في العصر الأموي، توفي سنة (١٢٦هـ). انظر أخباره في «الأغاني» طبعة دار الكتب: ٣٦/١ - ٥٩ و«تاريخ الإسلام» للذهبي: ١٦٥/٥.

(٣) في (ل) تعرف.

(٤) استحكم، ومنه: حبل محصد: أي محكم مفتول. «اللسان» (حصد) وقد صحفت الكلمة في الأصل و(ل) إلى «فاستحصدا»، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل و(ل) الغوث، والمثبت من (م).

(٦) تقطع. «اللسان» (جوب).

(٧) يعني الصليبيين، وكان العرب يسمون الروم بني الأصفر. انظر «اللسان» (صفر).

(٨) القميص الذي يلي البدن. «اللسان» (جسد).

(٩) في الأصل و(م) الوشاح، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). والوشاح: السيف، القوس. انظر «اللسان» (وشح).

(١٠) مستويين غير مشرف ولا ناقص. انظر «اللسان» (قصد).

أَهْمَدْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا مَلَأُوا الْمَلَأَ (١)
 طَلَعَتْ نَجُومُ الْحَقِّ مِنْ آفَاقِهَا
 وَهَوَى الصَّلِيبُ وَحْزُهُ وَتَبَخَّرَ الدُّ
 سَبَقَ الْمَجْلَى لِلْخَطِيءِ فَرَفَعَهُ
 وله:

محمود المُرَبِّي على أسلافه
 مَلِكٌ إِذَا تُلِيَتْ مَآثِرُ قَوْمِهِ
 مَلَأَ الْفِرْنَجَةَ جَوْرُ سَيْفِكَ فِيهِمْ
 يَوْمًا يُزِيرُكَ جَوْنٌ عِرْقَةٌ * مُعَلِّمًا
 وَيَجْرُ فِي الْأَرْدُنِّ فَضْلَةٌ ذَيْلُهُ
 إِمَّا يَبِيحُ حَرِيمَ أَنْطَاكِيَّةِ
 عَفَى جِهَادَكَ رَسَمَ كُلِّ مَخُوفَةٍ
 وَمَحَا الْمِظَالَمَ مِنْكَ نَظْرَةً رَاحِمٍ
 غَضْبَانٌ لِلْإِسْلَامِ مَالٌ عَمُودُهُ

زَجَلًا (٢) فَهَلْ كَانَتْ سَيُوفُكَ مُرْقِدًا (٣)؟
 وَأَعَادَهَا كَرُّ الْعُصُورِ كَمَا بَدَأَ
 إِسْلَامٌ مِنْ بَعْدِ التَّسَاقُفِ أَغِيدَا
 نَسَقُ بَشْمٌ وَقَدْ رُفِعَتْ بِالْإِبْتِدَا

إِنْ زَادَ فِي حَسَبِ الْحَسِيبِ نِجَارُ
 كَسَدِ اللَّطِيمِ (٤) وَهُجْنِ (٥) النُّوَارِ (٦)
 فَلَهُمْ (٧) عَلَى سَيْفِ (٨) الْمَحِيطِ جُؤَارُ
 جَوْنٌ لَهُ خَلْفَ الدُّرُوبِ أَوَارُ
 نَقَعٌ بِأَكْنَافِ الْأَرْنَطِ (٩) مُثَارُ
 أَوْ يَفْجَأُ الدَّارُومَ * مِنْكَ دِمَارُ
 وَعَفَتْ بِصَفْوَةِ عَذْلِكَ الْأَكْدَارُ
 اللَّهُ فِي خَطَرَاتِهِ (١٠) أَسْرَارُ
 فَلِنُورِهِ مِمَّا عَرَاهِ نِوَارُ

(١) الفلاة. «اللسان» (ملا).

(٢) أي صوتًا. انظر «اللسان» (زجل).

(٣) المُرْقِد: شيء يشرب فينوم من شربه ويرقده. «اللسان» (رقد).

(٤) المسك. «اللسان» (لطم).

(٥) قُبْح. «اللسان» (هجن).

(٦) كالنور، وهو الزهر. انظر «اللسان» (نور).

(٧) في (م) فله، وهو وهم.

(٨) الساحل. «اللسان» (سيف).

(٩) في هامش الأصل و (ل) «حاشية: الأرنت: النهر المسمى بالعاصي».

(١٠) في (م) خطواته.

وَجَذَمْتُ^(١) كُلَّ يَدٍ تَسُورُ^(٢) عَلَى يَدٍ
 لَمْ يَبْقَ مَا كَسُ مُسْلِمٍ سِلْعاً وَلَا
 هَمَدُوا كَمَا هَمَدْتُ ثُمُودَ وَقَادَهُمُ
 الْعَارُ فِي الدُّنْيَا شَقُّوا بِلِبَاسِهِ
 كَمْ سِيرَةٍ أَحْيَيْتَهَا عُمَرِيَّةً
 وَنَوَافِلٍ صَيَّرْتَهُنَّ لَوَازِمًا
 لَا زِلْتَ تَقْفُو الصَّالِحِينَ مُسَابِقًا
 نَفْسَ السِّيَادَةِ زُهْدٌ مِثْلَكَ فِي الَّذِي
 وَمَتَّى ادَّعَى مَا تَدَّعِيهِ مُحَكَّمٌ^(٥)
 لِلَّهِ مَا ظَفِرْتُ^(٧) بِهِ مِنْكَ الْمُنَى
 وَسَقَى الْغَمَامُ ثَرَى أَبْيَكُ فَلِإِنَّهُ
 شَهِدَتْ نَضَارَةُ عُودِكَ الْغَضُّ الْجَنَى
 أَمَا نَهَارُكَ فَهَوَّ لَيْلٌ مُجَاهِدٌ
 فَلِذَلِكَ النُّصْرَ الْعَزِيزَ أَدْلَةُ

فَأَخَلَّتْ ذَاكَ الشُّورَ وَهُوَ سِوَارُ
 سَاعٍ لِمُظْلَمَةٍ وَلَا عَشَارُ
 لَخَسَارِهِمْ مِمَّا أَتَوْهُ قُدَارُ^(٣)
 وَلِبَاسُهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ النَّارُ
 رُفِعَتْ لَهَا فِي الْخَافِقِينَ مَنَارُ
 بِأَقْلَهَا تُسْتَعْبَدُ الْأَحْرَارُ
 لَهُمْ وَتَطْلُعُ خَلْقَكَ الْأَبْرَارُ
 فِيهِ تَفَانْتُ^(٤) يَغْرُبُ وَنَزَارُ
 أَوْهَى مَعَاقِدَ^(٦) دِينِهِ دِينَارُ
 وَتَكُنْفَتْ مِنْ رُكْنِكَ الْأَسْتَارُ
 أَزْكَى ثَرَى قَطَرْتُ عَلَيْهِ قِطَارُ^(٨)
 أَنَّ الَّذِي اسْتُخْلِصَتْ مِنْهُ نَضَارُ^(٩)
 وَاللَّيْلُ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ نَهَارُ
 أَنَّى^(١٠) اتَّجَهْتَ وَلِلْفُتُوحِ أَمَارُ^(١١)

٢٣/١

(١) قطعت. «اللسان» (جذم).

(٢) أي تنور. «اللسان» (سور).

(٣) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحمر ثمود، عاقر ناقة صالح عليه السلام. «اللسان» (قدر).

(٤) في (م) تفانن.

(٥) المحكم: الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. «اللسان» (حكم).

(٦) مفردها معقد، وهو موضع العقد من الحبل. انظر «اللسان» (عقد).

(٧) في (م) ظهرت، وهو تحريف.

(٨) القطار، جمع قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).

(٩) النضار: الخالص من كل شيء. وهو أيضاً اسم الذهب. انظر «اللسان» (نض).

(١٠) في الأصل: كيف، وعلى هامشه «أنى» في نسخة، وهي رواية (ل) و (م).

(١١) علامة. «اللسان» (أمر).

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى :

رَأَيْنَا الْمُلُوكَ وَقَدْ سَاجَلُوكَ
أَبَى لَكَ أَنْ يُذَرِكُوهَا أَبٌ
وَجَدُّ إِذَا جَدُّ يَوْمَ الرَّهَا
تَصُبُّ عَصَاكَ عَلَى مَنْ عَصَا
لَقَدْ أَلْبَسَ الشَّامَ هَذَا الْإِبَاءُ
نَدَارَكْتَ أَرْمَاقَهُ^(٢) وَالْقُلُوبُ
أَقَمْتَ جَثَاءً وَكَانَتْ جُثَى
وَكَمْ لَكَ مِنْ غَضَبَةٍ لِلْهَدَى
إِذَا قَطَبَ الْبَأْسُ كَانَتْ رَدَى
كَمُلْتَ فَوَقَيْتَ عَيْنَ الْكَمَالِ
وَجَادَ لَنَا بِكَ رَبُّ بَرَا
إِذَا مَا خُدِمْتَ فَمَوْلَى كَرِيمًا^(٥)
أَمَامَ الْمُحَارِبِ بَرًّا حَصُورًا^(٦)
تِبَارَكَ مَنْ شَادَ هَذِي الْخِلَا
وَأَلْفَ فِي مَعْقِدِ التَّاجِ مِنْ

تَمَنَّا مَنْوَنًا وَغَرُّوَا غُرُورَا
يَزِيرُ فَيْسِي الْأُسُودَ الزَّيْرَا
نِ أَبْقَى لَتَالِيهِ جَدًّا عَثُورَا
كَ يَوْمًا عَبُوسًا بِهَا قَمْطَرِيرَا^(١)
لَبُوسًا مِنَ الْأَمْنِ لَيْنًا وَثِيرَا
نَوَافِرُ^(٣) أَنْ تَسْتَجْنَ الصُّدُورَا
وَشِدَّتْ قُصُورًا وَكَانَتْ قُبُورَا
تَمِيتُ الْهَوَى وَتَجُبُّ^(٤) الذُّكُورَا
وَإِنْ ضَحِكَ الْعَفْوُ عَادَتْ نُشُورَا
تُبِيدُ السَّنِينَ وَتُفْنِي الْعُصُورَا
كَ لِلْكَفْرِ نَارًا وَلِلدِّينِ نُورَا
وَأَمَّا عَبَدَتْ فَعَبْدًا شَكُورَا
وَتَحْتَ الْحُرُوبِ هِزْبَرًا هُصُورَا
لِ فِي ظِلَّةِ الْمَلِكِ طُودًا وَقُورَا
كَ سَطُورًا سَعِيرًا وَعَفُورًا نَمِيرًا^(٧)

(١) يوم قمطير: مقبض ما بين العينين لشدته، وقيل: إذا كان شديداً غليظاً. «اللسان» (قمطر).

(٢) مفردها رمق: وهوبقية الحياة. «اللسان» (رمق).

(٣) في (م) توافر، وهو تصحيف.

(٤) تقطع. «اللسان» (جيب).

(٥) في (م) عظيماً، ومثلها على هامش (ل) رواية أخرى.

(٦) الحصور: الذي لا إربة له في النساء. انظر «اللسان» (حصر).

(٧) على هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

وله :

عَقَلَ الْحَقُّ أَلْسُنَ الْمُدْعِينَا وَأَسَدُ الْأَنَامِ قَوْلًا وَأَفْعَا
أَنْتَ أَسْنَاهُمْ إِبَاءً وَأَبَاً بَسَطَ الرُّزْقَ فِي الْبَسِيطَةِ كَفًّا
فَيْدُ تَحْسِمِ النَّوَائِبِ عَنَّا أَيُّهَا الْبَحْرُ لَوْ تَسَاحَلُكَ الْأَبْ
وَلَكَانَ الْمَحِيطُ مِنْهَا^(١) مُحَاطًا مَشْرَعًا مُتْرَعًا وَمِنَّا مُهْنًا
وَمُحِيًا طَلَقًا وَمَالًا طَلِيقًا بَيْنَ ذَبٍّ يَمِيتُ عَادِيَةَ الشَّرِّ
تَبَدَّى^(٢) مِنَ الْفُتُوحِ الْوَفَا كَلِمَا اجْتَبَتْ^(٤) ثَوْبَ نَصْرِ عَزِيزٍ
صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ صَرْفَ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَنْ طَبَّقَ الْبَسِيطَةَ آثَا
وَعَدَتْ حُصْنَهُ^(٦) عَلَى سَرَجِ هَذَا الدَّ (م) يَنْ مِنْ شِكَّةٍ^(٧) الْأَعَادِي حُصُونًا^(٨)
م فَأَعْلَى خَلْفَ الْخَلِيجِ الرَّنِينَا

(١) فِي (م) مِنْ.

(٢) فِي (ل) وَ (م) تَتَسَنَّا، لَعَلَّهَا مِنَ السَّاءِ: أَيِ الرِّفْعَةِ. انْظُرِ «اللسان» (سنا).

(٣) فِي الْأَصْلِ مَهْمَلَةٌ، وَفِي (ل) نَعْدُ، وَالثَّبْتُ مِنْ (م).

(٤) أَيِ لَبَسْتُ. «اللسان» (جوب).

(٥) الْمَاءُ الْمُتَغَيِّرُ الطَّعْمَ وَاللَّوْنَ. «اللسان» (أجن).

(٦) بِسَكُونِ الصَّادِ لِضْرُورَةِ الشَّعْرِ.

(٧) الشِّكَّةُ: السَّلَاحُ. «اللسان» (شكك).

(٨) فِي الْأَصْلِ: حَصُونًا، وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَالثَّبْتُ مِنْ (ل) وَ (م).

كَانَ صِنُو الرُّشِيدِ أَبْقَاكَ لِلْحِكْمِ سَمِعَ اللَّهُ فِيكَ دَعْوَةَ سَكْنٍ^(٢)
 سَمَةِ وَالْبَاسِ بَعْدَهُ^(١) الْمَأْمُونَا عَزَقْتَهُمْ^(٣) مُدَى^(٤) الْخُطُوبِ فَأَحْيِيهِ
 ٢٤/١ أَوْطَنُوا مِنْ حِمَاكَ حِصْنًا حَصِينَا لَبِسُوا عَذْلَكَ الْمَدْبُجَ فَاخْتَا
 تَ رُفَاتًا مِنَ التُّرَابِ دَفِينَا سَهَرَتْ عَيْنُكَ الْكَلُوءُ وَنَامُوا
 لَوْا بَنَاتٍ فِي وَشِيهِ وَبَنِينَا تَحْتَ أَكْنَافِ رَعِيهَا آمَنِينَا

قلتُ: فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه، مع أنَّهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمس مئة، قبل أن يفتح نور الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقى كل عام في ازدياد، من جهاد واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب [المدائح]^(٥) مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المُسلم بن الخَضِر بن [المسلم بن] قَسِيم الحَمَوِي^(٦) من قصيدة فيه:

تَبْدُو الشَّجَاعَةُ مِنْ طَلَاقَةِ وَجْهِهِ كَالرُّمَحِ دَلَّ عَلَى الْقَسَاوَةِ لَيْئُهُ

(١) في (م) من بعده، وبه يخلل الوزن.

(٢) جمع ساكن، يعني: رعاياه. «اللسان» (سكن).

(٣) من عرقت العظم وتعرقته إذا أخذت اللحم عنه بأسنانك نهشاً. وفي (ل) عزقتهم، بمعنى قتلتهم. انظر «اللسان» (عرق، عزق).

(٤) مفردها مدية وهي السكين والشفرة. «اللسان» (مدى).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) شاعر من طبقة القيسراني وابن منير، مدح عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين، مات شاباً سنة نيف وأربعين وخمس مئة، ولم تحدّد سنة وفاته، وما ذكره الصفدي من أنه توفي سنة (٥٤١ هـ) وهم، إذ إنّ العماد ساق له قصيدة يمدح فيها معين الدين أنر، وذلك سنة (٥٤٢ هـ). انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٢٣٢/١٦ - ٢٣٣ ب. وما بين حاصرتين منه. و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٤٣٣/١ - ٤٨٠.

[و] (١) وراء يقظته أناة مجرّب
 هذا الذي في الله صَحَّ جهاده
 هذا الذي بَخَلَّ الزَّمان بمثله
 مَلَك الورى مَلِكْ أَغْرُ متَوَجَّ
 إن حَلَّ فالشرف التليد أنيسه
 فالذهُر خاذل مَنْ أَرَادَ عِنَادَه
 والديُن يشهدُ إنه لَمُعِزُه
 مازال يُقَسِّمُ أن يبدد شمله
 فَتَحَ الرُّها* بالأمس فانفتحت له
 لله سطوة بأسيه وسكونه
 هذا الذي بالله صَحَّ يقينه
 والمُشمِخِرُ إلى العُلا عِزِّينُه
 لا غِذْرُه يُخشى ولا تلوينه
 أوسار فالظَّفَرُ الطَّرِيفُ قرينه
 أبداً وجَبَّارُ السَّماءِ مُعِينُه
 والشُّركُ يعلمُ إنَّه لمهينُه
 والله يَكْرَهُ أن تَمِينَ يمينُه
 أبوابُ ملكٍ لا يُذال مصُونُه (٢)

وممادُح (٣) نور الدين رحمه الله كثيرة (٤).

وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليلَ الابتهاج بالشُّعر (٥). ومات حادي
 عشر شوال سنة تسعٍ وستين وخمس مئة، ودُفِنَ بقلعة دمشق*، ثم نقل إلى
 قُبَّتِه بمدرستِه (٦) جوار الخَوَاصِين*.

قلتُ: وقد جُرِّبَ استجابة الدُّعاء عند قبره. وهذا ذِكرُ طرفٍ من مناقبه
 جُملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصَّلة مرتبة، وما جرى في
 زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) القصيدة بتمامها في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٢٣٣/١٦ أ - ٢٣٣ ب، و«خريدة
 القصر» قسم شعراء الشام: ٤٧٤/١ - ٤٧٥.

(٣) في الأصل: ومداح، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في الأصل: كثيرة رحمه الله تعالى، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٤٩/١٦ أ

(٦) هي المدرسة النورية الكبرى، انظرها في كشف الأماكن.

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سُنْقَر؛ جدُّ نور الدين، رحمه الله، فنذكره وما تَمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده زُنْكي وما تَمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زُنْكي، ثم نذكر ما بعده وهي الدولة الصَّلاحية الأيوبيَّة وما تَمَّ في أيامها فنقول:

كان آق سُنْقَر تركياً من أصحاب السُّلطان ركن الدين^(١) مَلِكُشاه بن أَلْب أرسلان - وهو عَمُّ دُقَاق بن تُتُش^(٢) بن أَلْب أرسلان الذي كان سُلطانَ دمشق، وقبره بَقْبَة الطواويس* بها، بَنَتْها^(٣) والمشهد والدته^(٤) - وكان السُّلطان مَلِكُشاه من جُملة الملوك السُّلجوقية المتغلِّبين على البلاد بعد بني بُوَيه بالعراق، فكان قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه، وممن رُبي معه في صغره، واستمرَّ في صحبته إلى حين كبره. فلما أفضت السلطنة إليه بعد أبيه جعله من أعيان أمرائه و[من]^(٥) أخصَّ أوليائه، واعتمد عليه في مهمَّاته، وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير، مع تحكمه على السُّلطان وتمكُّنه من المملكة. فأشار نظامُ الملك على السُّلطان أن يولي آق سُنْقَر مدينةَ حلب

(١) لم يشتهر بهذا اللقب كما ذكر ابن الأثير، والمعروف أنه جلال الدين، وسمي عهده بالعهد الجلاي. وقد تُلَقَّب أيضاً بركن الدين ابنه السُّلطان بركيارق.

انظر «الباهر»: ٤، و«وفيات الأعيان»: ٢٨٣/٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٥٤/١٩. وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ التي تتحدث عن فترته. وانظر «معجم الأنساب» لزماياور: ٣٣٣.

(٢) ولي دمشق بعد مقتل والده تتش سنة (٤٨٨ هـ)، وتوفي سنة (٤٩٧ هـ)، وهو أخو رضوان ملك حلب. انظر أخباره في «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ٢١٢ - ٢٣٣.

(٣) في الأصل و (ل): بنته، والمثبت من (م).

(٤) هي صفوة الملك، وكانت امرأة حازمة، توفيت سنة (٥١٣ هـ)، قال ابن القلانسي: ودفنت عند ولدها في القبة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الأخضر. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (م)، والمثبت من (ل).

وأعمالها؛ وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده بذلك يدًا. قال ابن الأثير: ومن الدليل على علو مرتبته تلقُّبه^(١) قسيم الدولة، وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلا لمستحقِّها^(٢).

وفي سنة سبع وسبعين وأربع مئة سیر السلطان مَلِكْشاه الوزير فخر الدولة بن جَهِير؛ وزير الخليفة^(٣) إلى ديار بكر لِيتمَلِّكها، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جَهِير - وكان زوج ابنة نظام الملك - إلى المَوْصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة آق سُنْقَر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أرتُق التُّركماني^(٤) - جد ملوك الحصن* وماردين* - فاستصحبوه معهم، فحاصروا المَوْصل، وصالحوا من بها وتسَلَّموها، وسار صاحبها إلى السلطان فردَّها عليه، وكانت يومئذٍ لأحد أمراء بني عُقَيْل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العُقَيْلي - وكان ملكه من السُّنْدية بالعراق على نهر عيسى إلى مَنبِج وما بينهما من البلاد الفُراتية كهيت والأنبار وغيرها، وملك المَوْصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينة حلب، وكان عادلاً حسن السيرة عظيم السياسة - واتفق أن وَقَعَ بينه وبين صاحب أنطاكية*؛ وذلك أن أنطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلاث^(٥) مئة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها

(١) في (م) تلقيبه.

(٢) في الأصل و(ل): لمستحقها، والمثبت من (م) و«الباهر».

(٣) كان وزيراً للقائم ولابنه المقتدي بأمر الله، ثم عزل عنها، فخرج سنة (٤٧٦هـ) إلى السلطان ملكشاه باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر. انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٧٥ وما بعدها، و«الكامل» لابن الأثير: ١٢٩/١٠ وما بعدها و«وفيات الأعيان»: ١٢٨/٥.

(٤) توفي سنة (٤٨٤هـ) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١٩١/١، وما كتبه عنه الدكتور عماد الدين خليل في «الإمارات الأرتقية»: ٥٧ - ٦٨.

(٥) في «الكامل» لابن الأثير: ٦٠٣/٨ ذكر استيلاء الروم عليها سنة (٣٥٩هـ) في المحرم، وهو المشهور، وما ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ٢٦٩/١ من أن الاستيلاء عليها سنة (٣٥٣هـ) هو وهم.

سليمان بن قُتْلَمِش؛ وهو جدُّ الملك غياث الدين كِيخُسرو^(١) صاحب قونية* وغيرها. وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها كل سنة، فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الرُّوم ويهدِّده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك، والخطبة والسَّكَّة لك^(٢)، ولست بكافرٍ حتى أُعطيك ما كنت تأخذه من الرُّوم. فلجَّ شرف الدولة في طلب المال، فالتقى، فقتل شرف الدولة، وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تَتَش بن ألب أرسلان أخو السلطان مَلِكشاه. فالتقى عسكر تَتَش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تَتَش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى مَلِكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذٍ بالرُّها* - وكان سببُ مسيره إليها أن ابن عَطِير^(٣) النُميري كان قد باعها من الرُّوم بعشرين ألف دينار وسلمها [إليهم]^(٤)، فدخلوها، وأخربوا المساجد، وأجلوا المسلمين عنها. فسار مَلِكشاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بُزَّان - فلما أتاه رُسل [أهل]^(٥) قلعة حلب بالتسليم سار إليهم، فلما بلغ

(١) ولي سنة (٥٨٨هـ)، ثم خلعه أخوه ركن الدين سليمان سنة (٥٩٢هـ) ثم عاد إلى الحكم سنة (٦٠١هـ) وبقي فيه حتى قتل سنة (٦٠٧هـ). انظر «الكامل» ١٢/٨٧ - ٩٠، و«صبح الأعشى»: ٣٦٠/٥، و«الدول الإسلامية»: ٣٢٣/١، و«معجم الأسرات الحاكمة»: ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) يعني لملكشاه، وهو يخاطب بذلك شرف الدولة لأنه في طاعة السلطان. انظر «الكامل» لابن الأثير ١٠/١٣٩ - ١٤٠.

(٣) في الأصل: عطية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م). وقد ذكر ابن الأثير تسلم ابن عَطِير الرُّها في حوادث سنة (٤١٦هـ) بعد قتل والده عَطِير، ثم سلمها للروم سنة (٤٢٩هـ)، وأورد ابن الأثير اسمه «ابن وثاب» ولعله تحريف. انظر «الكامل»: ٣٤٧/٩ - ٣٤٨، ٤٦٠.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب، وبالقلعة سالم بن [مالك بن] ^(١) بَذْران العُقَيْلي؛ وهو ابنُ عَمِّ شرف الدولة، فسَلَّمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جَعْبَر*، وكان قد ملكها في هذه السُّفْرة من صاحبها جَعْبَر النُّميري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي ^(٢).

فلما ملك السُّلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن مُنْقِذ الكِنَّاني؛ صاحب شَيْزَر*، ودخل في طاعته، وسَلَّم إليه اللّاذقية، وفامية*، وكفرطاب*.

ثم إن نظامَ المُلك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماة ومنبج* واللّاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سُنْقَر، فأقطعه الجميع، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة سبعٍ وثمانين وأربع مئة كما سيأتي ^(٣). وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سغان ^(٤).

ولما استقرَّ قسيمُ الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إنَّ السلطان استدعاه إلى العراق، فقَدِمَ إليه ^(٥) في تَجْمُلٍ عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ محلُّه عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (م) سالم بن مالك بدران، والمثبت من (ل).

(٢) انظر ص ٤١ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) انظر ص ١٠٢، من هذا الجزء.

(٤) كذا في النسخ الخطية أينما مرَّ، والمشهور في كتب التاريخ ياغي سيان، وانظر «زبدة

الحلب»: ٤٦٥/٢ حاشية رقم (١).

(٥) وذلك سنة (٤٨٤هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/١٩٩.

فلما مات السلطان مَلِكْشَاه سَيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تَكْرِيت* فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين^(١) قصد قسيم الدولة شَيْرَزَر* فنهبها وعاد إلى حلب.

وفي سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبُزَان وحصروا مدينة جَمُص فملكوها، ومضى ابنُ ملاعب^(٢) إلى مصر.

وفي سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية* من الشام، وملك الرَّحبة*.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قُتِلَ الوزير نظام الملك أبو علي الحسن^(٣) بن علي بن إسحاق، قتله صبيٌّ دَيْلَمِي بعد الإفطار وقد تفرَّق عن طعامه الفقهاء والأمرء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في مَحْفَةٍ* لِنَقْرَسٍ^(٤) كان به إلى خيمة الحَرَمِ، فلقيه صبيٌّ ديلمي مستغيثاً به، فقرَّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُتِلَ الصَّبِيُّ أيضاً. فَعَدِمَت الدنيا واحدًا الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى

(١) يعني وأربع مئة.

(٢) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هو خلف بن ملاعب الأشهبى، قتل ليلاً في سنة تسع وتسعين وأربع مئة، وكان قبيح السيرة والاعتقاد، والله أعلم». قلت: انظر «الكامل»: ٤٠٨/١٠ - ٤١٠، و«بغية الطلب»: ٣٣٥٤/٧.

(٣) في (م) الحسين، وهو تصحيف.

(٤) مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم، وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك. «المعجم الوسيط»: ٩٥٤/٢.

النبي ﷺ في المنام كأنه آتاه وأخذه من محفته فتبعه . فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي وإياه أطلب.

وبلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره . وكان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحبُّ أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حدائته مُدَّة .

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد [من شيء] ^(١) منها، حتى جزيرة ابن عمر* — التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها — بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين . وأعماله الحسنة وصنائه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا تَوْضُأً، ولا تَوْضُأً إلا صَلَّى . وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمه فيها المتفرِّغون للعبادة، حتى إنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان والد مَلِكْشَاه قبل أن يلي السُّلْطَنَة، في حياة عمه السُّلْطَان طُغْرُكْبَك ^(٢)؛ أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفي طُغْرُكْبَك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرَّت السلطنة له، وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان مَلِكْشَاه إلى أن قتل. وكان قد تحكَّم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه؛ لكثرة مماليكه

٢٦/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل: طغرلبكين أينما مر، والمثبت من (ل) و(م) وهو المشهور.

ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه لحسن سيرته وعذله.
هذا كلام أبي الحسن بن الأثير^(١).

وقرأت في كتاب «المعارف المتأخرة» - ويسمى «عنوان السير» -
لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمداني^(٢) قال: وزر نظام الملك
أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان ولولده
السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة^(٣)، وقُتِلَ بالقرب^(٤) من نهاوند* وعمره ست
وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من
فطوره. قال: وقيل: إن السلطان ملكشاه ولّف عليه مَنْ قتلَه لأنه سئم طول
عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام. وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا تقدّم
العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعَمَّ الناسَ بمعروفه، وبنى
المدارس لأصحاب الشافعي رضي الله عنه، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في
الحلم والدين على مَنْ تقدّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحدٌ منهم منزلته في
جميع أموره، وعبر جيحون* فوقّع على العامل بأنطاكية* بما يُصرف إلى
الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك الوفاً، وكان جمهور العساكر وشجعانهم
وفتاكه من مماليكه.

(١) انظر «الباهر»: ٩ - ١٠.

(٢) من كبار المؤرخين، وهو من شيوخ الحافظ ابن عساكر، طبع له «الذيل على تاريخ
الطبري» باسم «تكملة تاريخ الطبري» الجزء الأول منه بتحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ ضمن «ذبول تاريخ الطبري». توفي سنة
٥٢١هـ انظر «المنتظم» ٨/١٠.

(٣) هذا، لأن نظام الملك وزر للسلطان ألب أرسلان قبل أن يتولى السلطنة، وأما وزارته
منذ توليه السلطنة سنة (٤٥٥ هـ) وحتى مقتل نظام الملك، فهي نحو ثلاثين سنة وهو
ما نقله ابن العديم عن الهمداني من أنه وزر تسعاً وعشرين سنة، انظر «بغية الطلب»
٢٤٩٩/٥.

(٤) في قرية يقال لها سحنة، وهي إلى الشمال الغربي من نهاوند، ولا تزال تعرف بهذا
الاسم إلى اليوم، انظر «وفيات الأعيان»: ١٣٠/٢ مع تعليق المحقق.

قلت: وأنشد أبو سعد السَّمْعاني في «ذيل تاريخ بغداد» قال:
أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السَّمْعاني^(١) غير مرّة من
لفظه للأمير شبل الدولة؛ يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري^(٢):

كان الوزيرُ نظامُ الملكَ لؤلؤةً ثمينةً^(٣) صاغها الرحمنُ من شَرَفِ
عَزَّتْ ولم تعرفِ الأيامُ قيمتها فردّها غيرةً منه إلى الصَّدَفِ

فصل

عاش السلطان مَلِكُشاه بعد نظام الملك خمسةً وثلاثين يوماً، ومات في
منتصف شوال سنة خمسٍ وثمانين^(٤)، وعمره ثمانيةً وثلاثون عاماً ونصف
عام. وكانت مملكته قد اتَّسعت [اتساعاً]^(٥) عظيماً، وخطب له من حدود
الصَّين إلى الداروم* من أرض الشَّام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ
الخِراج من ملك القُسْطَنْطِينِيَّة، وأطاعه صاحب طِرَاز* وأسبيج* وكاشغَر*
وبلاسغون* وغيرها من الممالك البعيدة، ومَلَكَ سَمَرْقَنْدَ وجميعَ ما وراء
النَّهر^(٦). ثم إن صاحب كاشغَر عصى عليه، فسار السلطان إليه، فلما قارب
كاشغَر هرب صاحبُها منه، فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر [به]^(٧) وأحسن

(١) توفي سنة (٥٣٤هـ)، انظر ترجمته في «الأنساب»: ١٤٢/٧ - ١٤٣.

(٢) في الأصل: التكريتي، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م)، وهو من ولد أبي بكر

الصدّيق رضي الله عنه، كان نظام الملك قد زوجه ابنته، توفي في حدود سنة (٥٠٥هـ)،

انظر «وفيات الأعيان»: ١٣٠/٢، ٢٥٧/٥ - ٢٦٠، و«النجوم الزاهرة»: ٢٠٤/٥.

(٣) في «الكامل» لابن الأثير: ٢٠٦/١٠ يتيمة، وهي الأشبه، وفي «وفيات الأعيان»

و«النجوم الزاهرة»: نفيسة، وانظر ما كتبه السبكي في «طبقات الشافعية»:

٣٠٩/٤ - ٣٢٨ في ترجمة نظام الملك.

(٤) وأربع مئة.

(٥) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل.

(٦) كان ذلك في سنة (٤٨٢هـ)، انظر «الكامل»: ١٧١/١٠ وما بعدها.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

إليه، واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيراً؛ منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يُعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضاً. قيل: إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب^(١) وبلغ السبعية بقرب الواقعة^(٢)، وبنى هناك منارة نُزل في أثنائها قرون الطيبي وحوافر الحُمُر الوحشية التي اصطادها في طريقه.

وبعد موته تنازع ابنه: بَكْيَارُق^(٣) ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو اثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بَكْيَارُق، واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مدة تلك الحروب ظهرت الفرنجُ بالساحل، وملكوا أنطاكية* أولاً، ثم غيرها من البلاد. وكان السلطان قد أقطع أخاه تَتَش تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي مَلِكْشاه طَمِغ تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه^(٤)، وراسل بوزان^(٥)؛ صاحب حرّان*، وياغي سغان صاحب أنطاكية*، فسارا معه نحو الرّحبة* ونَصِيبين* فأخذهما، وراسل صاحب المَوْصل إبراهيم بن قُريش بن

(١) واد لبني تميم، من منازل حاج الكوفة بين القادسية والمغيثة. انظر «معجم البلدان»: ٩٢/٤.

(٢) منزل بطريق مكة بعد الفرعاء نحو مكة. انظر «معجم البلدان»: ٣٥٤/٥.

(٣) كذا في النسخ الخطية أينما مرّ، وفي «وفيات الأعيان»: ٢٦٨/١ بَرَكْيَارُوق: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف راء مضمومة، وواو ساكنة وقاف.

(٤) أي أن قسيم الدولة صالح تتش لما علم أنه لا يطيق دفعه عن حلب. انظر «الكامل»: ٢٢٠/١٠.

(٥) يرد أحياناً دون واو، وكلاهما صحيح، وأثبتناه بالواو أينما مرّ.

بدران يأمره بالخطبة له، وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع، فالتقى، فهزِمَ صاحبُ المَوْصل. وقُتِلَ وأخذت بلاده. وسار إلى مَيَّافَرِقين*، فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أَذْرَبِيجان*، فالتقى هو وابن أخيه بَكْيَارُق بن مَلِكْشاه، فانتقل قسيمُ الدولة وبوزان إلى بَكْيَارُق، فرجع تاجُ الدولة إلى الشَّام، ورجعا إلى بلادهما بأمرِ بَكْيَارُق ليمنعا تاجَ الدولة عن البلاد إن قصدھا. فجمع تاجُ الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيمُ الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بَكْيَارُق بالأمير كربوقا — وهو الذي صار فيما بعد صاحب المَوْصل — فالتقوا بالقرب من تَلِّ السُّلطان، وبينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيشُ قسيمِ الدولة وأخذ أسيراً، فقتله تاجُ الدولة صبراً^(١). ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاجُ الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين. وأرسل إلى حَرَّان* والرُّها* — وكانتا لبوزان — فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رِضْوَان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الأثير: وكان قسيمُ الدولة أحسنَ الناسَ سياسةً لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدلٍ عام ورُخص شامل وأمنٍ واسع، وكان قد شَرَطَ على أهل كلِّ قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفلاً أو أحدًا من الناس غَرَمَ أهلها جميعاً ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمينين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا؛ فأمنت الطرق وتحذت الرُّكبان بحُسن سيرته^(٢).

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربع مئة توفي الخليفة المقتدي

(١) وذلك سنة (٤٨٧ هـ)، انظر ما سلف ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٥.

بأمر الله فجأةً، وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع^(١) وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة^(٢) سنة وخمسة أشهر^(٣)، وأمُّه تركية^(٤). وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد بن القائم والد المقتدي بالله الذَّخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زَنْكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قُتِلَ قسيمُ الدولة آق سُنْقَر لم يخلف من الأولاد غير واحدٍ وهو عماد الدين زَنْكي؛ والد نور الدين، وكان حينئذٍ صبيًّا له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليكُ والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي^(٥)، وهو صبيٌّ أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة^(٦) سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وتوجَّه إلى حَرَّان* وقد اجتمع معه عسكريُّ صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين* فملكها، ثم إلى الموصل فملكها، وأزال^(٧) عنها عليَّ بن شرف الدولة العُقيلي، وسار نحو ماردين* فملكها، وعظَّم شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بَكْيَارُق. فلما ملك البلاد أحضر ممالك قسيم الدولة آق سُنْقَر، وأمرهم بإحضار

(١) في «الكامل»: ٢٣٠/١٠، ثمان.

(٢) في الأصل و (م) تسعة عشر، وهو وهم، والمثبت من (ل).

(٣) ولي في (١٣) شعبان سنة (٤٦٧هـ). انظر «الكامل»: ٩٤/١٠.

(٤) في «الكامل»: ٢٣٠/١٠: وأمّه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان.

(٥) هوزين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبوري، توفي سنة

(٥٦٣هـ)، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد بعضها في ٣٨/٢.

(٦) قتل تاج الدولة سنة (٤٨٨هـ)، انظر «الكامل»: ٢٤٤/١٠، وما بعدها.

(٧) في الأصل و (ل): وزال، والمثبت من (م).

عماد الدين زُنكي وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضره
عنده^(١)، فأقطعهم الإقطاعات السُّنية، وجمعهم على عماد الدين زُنكي،
واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا
معه، فتوجه بهم إلى آمِد*، وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد
بمعين الدين سُقمان بن أُرْتُق جَدَّ صاحب الحصن*، فكسرهم قِوَام الدولة
كربوقا، وهو أول مصافٍّ حضره زُنكي بعد قتل والده^(٢). ولم يزل [مع]^(٣)
كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربع مئة^(٤). وملك بعده موسى
التركماني^(٥) فلم تطل مدته وقُتِل. وملك المَوْصل شمس الدولة جكرمش^(٦)؛
وهو أيضاً من ممالك السلطان مَلِكشاه، فأخذ زُنكي فقرَّبه وأحبه واتخذه ولداً
لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمس مئة — فلا جَرَم أن
زُنكي رعى هذا لجكرمش لَمَّا ملك المَوْصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده
ناصر الدين كوري، فأكرمه وقَدَّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى
المنازل عنده، واتخذه صهراً — ثم ملك المَوْصل بعد جكرمش جاولي سقاوه،
فاتصل به عماد الدين زُنكي — وقد كَبَّرَ وظهرت عليه أمارات السَّعادة
والشَّهامة — ولم يزل معه حتى عصى على السُّلطان محمد. وكان جاولي قد
عبر إلى الشَّام ليملكه من الملك فخر الملك رِضْوان، فأرسل السلطان إلى

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الكامل»: ٣٩٠/١٠ وما بعدها، و«الباهر»: ١٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) في «الكامل»: ٣٤١/١٠ ذكرت وفاته في حوادث سنة (٤٩٥ هـ).

(٥) كان نائباً عن كربوقا بحصن كيفا، فراسله أعيان الموصل ليسلموها إليه، فسار إليها فقتل
سنقرجة — وكان كربوقا قد عهد إليه بالموصل — ثم قُتل موسى التركماني في السنة
نفسها. انظر «الكامل»: ٣٤٢/١٠ — ٣٤٣.

(٦) كان صاحب جزيرة ابن عمر، تسلم الموصل صلحاً بعد قتل موسى التركماني بيد غلزمان
قوام الدين كربوقا. انظر «الكامل»: ٣٤٣/١٠.

المَوْصل الأمير مودوداً، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمس مئة. فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زُنكي وغيره من الأمراء. فلما استقرَّ مودود بالمَوْصل، واتصل به زُنكي أكرمه، وشَهِدَ معه حروبه، فسار مودود إلى الغَزاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان - كانت للفرنج - وقتل من كان بها منهم. ثم سار إلى الرُّها* فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر* خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرَّة النُّعمان* فحصرها، ثم حضر عنده أتابك* طُغْتِكِين^(١)؛ صاحب دمشق، فسار إلى طبرية*، وحاصروها وقتلوا قتلاً شديداً، وظهر من أتابك زُنكي شجاعة لم يُسمع بمثلها؛ منها أنه كان في نفرٍ وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهويظن أنهم يتبعونه، فتخلَّفوا عنه، وتقدَّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقتلهم عليه، وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً.

ثم التقى الجمعان^(٢) فَهَزِمَ الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيقٍ دون طبرية*، فاحتماوا به، وجاءتهم نجدة، فأَذِنَ الأميرُ مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرَّقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلي الجمعة، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتِكِين وثب عليه إنسانٌ فضربه بسكينٍ معه، فجرحه أربع جراحات - وكان صائماً - فَحُمِلَ إلى دار طُغْتِكِين، واجتهدَ به ليفطِّر فلم يفعل، وقال:

(١) في الأصل: طغرلبكين أينما مرَّ، وإخاله تصحيفاً، والمثبت من (ل) و(م)، وهو المشهور في كتب التاريخ، ويرسم أيضاً طغديكين - بالبدال - وهو صحيح، والضبط من «وفيات الأعيان»: ٥٢٥/٢.

(٢) في سنة (٥٥٠٧)، انظر «الكامل»: ٤٩٥/١٠، وما بعدها، و«ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٥ وما بعدها.

لا لقيتُ الله إلا صائماً، فإني ميتٌ لا محالة سواء أفطرتُ أو صمتُ. وتوفي في بقيَّة يومه رحمه الله.

ف قيل: إن الباطنية بالشَّام خافوه فقتلوه، وقيل: بل خافه طُغْتِكِين فوضع عليه من يقاتله. وكان خيراً عادلاً حَسَنَ السيرة.

قال ابن الأثير: فحدَّثني والذي رحمه الله، قال: كَتَبَ ملك الفرنج إلى طُغْتِكِين: إن أمةً قتلت عَمِيدَها يومَ عيدِها في بيت معبودها لحَقِيقُ على الله أن يبيدَها^(١).

٢٨/١

فلما قُتِلَ الأمير مودود أقطع السُّلْطَانُ البلاد؛ المَوْصِلَ وغيرها، للأمير جيوش بك، وسَيَّرَ معه ولده الملك مسعود إلى المَوْصِل. ثم إنه جَهَّزَ آق سُنْقَرُ البُرْسُقي في العساكر، وسَيَّرَهِ إلى قتال الفرنج، وكتب إلى عساكر المَوْصِل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زَنْكِي؛ وكان يعرف في عساكر العجم بِزَنْكِي^(٢) الشَّامي. فسار البُرْسُقي إلى الرُّها* في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل مَنْ بها من الفرنج والأرمن، وضاعت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سُمَيْسَاط*؛ وهي أيضاً للفرنج، فأخرب بلدها وبلد سُرُوج*، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج. وأبلى زَنْكِي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدَّث بما فعله، وعاد البُرْسُقي إلى بغداد، وأقام زَنْكِي بالمَوْصِل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمس مئة^(٣)، وقد علا قدره وظهر اسمه.

(١) «الباهر»: ١٩، و«الكامل»: ٤٩٧/١٠، وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) في الأصل: زَنْكِي، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في النسخ الخطية: إلى سنة أربع وعشرين وخمس مئة، وهو وهم والمثبت من «الباهر»: ٢٠، وانظر ص ١١١ من هذا الجزء.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمس مئة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زُنكي رحمه الله تعالى .

وفيها غرقت سِنْجَار* من سَيْلِ المطر، وهلك منها خلق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل، فَعَلِقَ المهدي في شجرة، ونقص الماء، فَسَلِمَ ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .
وفيها أيضاً زلزلت إربل* وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي السُّلطان غياث الدين محمد بن مَلِكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحِجَّة سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، وقُطعت خطبته عِدَّة مرار^(١)، ولقي من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بَكْيَارُق^(٢)، فحينئذ استقرت له السُّلطنة، وصفت^(٣) له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتماعُ الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة^(٤) سنة وستة أشهر .

وكان عادلاً حسنَ السيرة شجاعاً، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد . ومن عَدَله أنه اشترى عِدَّة ممالك من بعض التُّجَّار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزِستان*، فأوصل إليه البعض ومطل بالباقي، فحضر

(١) في الأصل: عدة مراراً، والمثبت من (ل) و(م) .

(٢) توفي بكيارق سنة (٤٩٨هـ)، انظر «الكامل»: ٣٨٠/١٠ .

(٣) في الأصل: صفت له السلطنة، واستقرت له، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٢١ .

(٤) في الأصل: اثنتي عشر سنة، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م) .

التاجر مجلس الحُكم، وأخذ غلامَ الحاكم، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فَعَظَّمَ عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يُحْضَرَ عامل خُوزِستان ويُلْزَمَ بمال التاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحُكم، ولو فعلته لاقتدى بي غيري، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي؛ فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زُنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه^(١) - وقد تقدّم ذلك^(٢) - ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمنَ الناس وظهر العدل^(٣).

وولي بعد السلطان محمد ولده محمود^(٤)، وعمره يومئذ أربع عشرة^(٥) سنة، فقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر^(٦) حربٌ انهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد^(٧) فأكرمه وأقطعه من البلاد من حَدِّ خُرَاسان* إلى الداروم* بأقصى الشَّام؛ وهي من الممالك: هَمْدَان وأصبهان وبلد الجبال

(١) في الأصل: فعل ما ندم عليه السلطان محمد على تركه، وهي عبارة مضطربة، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٢١.

(٢) انظر ص ٣٩ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

(٤) في (م): ابن ابنه، وهو وهم.

(٥) في (م): أربعة عشر، وهو وهم.

(٦) توفي سنة (٥٥٢هـ)، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ لتلك الفترة، انظر «الكامل»: ٢٢٢/١٠، وسيرد ذكره ص ٣٥٩ من هذا الجزء.

(٧) في «الكامل»: ٥٥٣/١٠ أن محموداً سار إلى عمه سنجر بعد المصالحة بينهما، وجعله ولي عهده.

جميعه^(١)، وبلاد فارس وكرمان* وخوزستان* والعراق وأذربيجان* وأرمينية* وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مُضَر وديار ربيعة والشَّام وبلد الرُّوم الذي بيد [أولاد]^(٢) قليج أرسلان وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الأثير: ورأيتُ منشورَه بذلك^(٣).

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمس مئة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام. وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً.

ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خُطِبَ لهم ببغداد من السُّلجوقية؛ وهم أخو مَلِكشاه تاج الدولة تُتُش، وركن الدَّولة بَكْيَارُق بن مَلِكشاه، وأخوه غياث الدِّين محمد بن مَلِكشاه.

وكان المستظهر رحمه الله كريماً الأخلاق، لَيِّنَ الجانب، مشكوراً المساعي، يحبُّ العلم والعلماء، وصنَّفَ له التَّصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسنَ الخطِّ، جيدَ التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولَّاه المسترشد بالله، ودُفِنَ في حُجْرة كانت له يألُفها.

(١) في هامش الأصل: وبلاد مضر، صح، ثم ضرب عليها.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل) والمثبت من (م). والكلام مصروف إلى زمن ابن الأثير، وقليج أرسلان هو ابن مسعود عز الدين، توفي سنة (٥٨٨هـ)، وكان قبل وفاته قد فرق بلاده على أولاده، ثم ندم، انظر «الكامل»: ١٢/٨٧ وما بعدها. و«الدول الإسلامية»: ٣١٤. وسيرد ذكره ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء؛ ففي شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المُظفَّر الشَّامي^(١). وفي ذي القَعْدَةِ منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القَزويني المُعْتَزلي^(٢)، مصنّف «حدائق ذات بهجة»^(٣) في تفسير القرآن يزيد على ثلاث مئة مجلد. قال ابن الأثير: رأيتُ منه تفسير الفاتحة في مجلّد كبير^(٤). وفي ذي الحِجَّة منها توفي الإمام أبو نَصْر الحُمَيْدي^(٥) مصنّف «الجمع بين الصحيحين»^(٦). وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طِرَاد بن محمد الزَّيْنبي، وله نحو تسعين سنة^(٧) وفي سنة اثنتين وخمس مئة توفي أبو زكريا

٢٩/١

(١) ولد في حماة سنة (٤٠٠هـ)، ورحل إلى بغداد سنة (٤٢٠هـ)، وولي القضاء بها سنة (٤٧٨هـ)، وهو من أئمة الشافعية، لم يأخذ على القضاء رزقاً، وكان يسوي بين الوضيع والشریف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، وكان ورعاً زاهداً على حدة فيه. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨٥/١٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٠٢/٤.

(٢) ولد سنة (٣٩٣هـ)، وكان من أئمة المعتزلة في عصره، انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساکر» (خ) س: ١٦٣/١٠ ب، و«سير أعلام النبلاء»: ٦١٦/١٨ - ٦٢٠، وفيه مصادر ترجمته، وفي «الكامل»: ٢٥٣/١٠ ولد سنة (٤١١هـ) وهو وهم، وفي «طبقات المفسرين» للسيوطي: ١٩ توفي (٤٨٣هـ) وهو وهم أيضاً تابعه عليه الداودي في «طبقات المفسرين»: ٣٠٢/١.

(٣) العنوان مقتبس من الآية الكريمة: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (سورة النمل: الآية ٦٠).

(٤) قول ابن الأثير ليس في (م).

(٥) هو محمد بن فتوح بن عبد الله، تلميذ ابن حزم الأندلسي، ولد قبل سنة (٤٢٠هـ)، واستوطن بغداد، وتوفي بها، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢٠/١٩ - ١٢٧، و«طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي ٤٠٨/٣ - ٤١٣ بتحقيقي.

(٦) لم يطبع بعد.

(٧) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٧/١٩ - ٣٩.

التبريزي اللُّغوي^(١). وفي [ذي]^(٢) الحجَّة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن؛ صاحب الخطِّ الحسن المشهور^(٣). وفي سنة خمس وخمس مئة توفي الإمام أبو حامد الغزالي. وفي سنة سبع وخمس مئة توفي الإمام أبو بكر محمد بن أحمد الشَّاشي الفقيه^(٤)، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعوداً على المَوْصل مع أتاكبه جيوش بك، فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمس مئة، فحسَّن له^(٥) الخروج عن طاعته وطلَّب السلطنة، فأظهر العصيان وخطَّب للملك مسعود بالسلطنة. وكان زُنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذِّرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزَمَ عسكري مسعود، وأسر جماعةً من الأمراء والأعيان، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطُّغْرائي^(٦)؛ وزير مسعود^(٧) فقتله السلطان

(١) هو يحيى بن علي؛ شارح حماسة أبي تمام، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»:
٢٦٩/١٩ - ٢٧١.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) وقيل توفي سنة (٤٩٩هـ)، انظر ترجمته في «الكامل»: ٤١٥/١٠، ٤٧٤، و«وفيات الأعيان»: ١٩١/٢.

(٤) ولد سنة (٥٢٩هـ)، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي. انظر «سير أعلام النبلاء»:
٣٩٣/١٩ - ٣٩٤.

(٥) أي جيوش بك بتحريض من ديبس بن صدقة. انظر «الكامل»: ٥٦٢/١٠.

(٦) هذه النسبة إلى من يكتب الطُّغْرى، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وهي لفظة أعجمية. و«وفيات الأعيان»: ١٩٠/٢.

(٧) استوزره سنة (٥١٣هـ). انظر «الكامل»: ٥٦٣/١٠.

محمود وقال: قد صحَّ عندي فساد اعتقاده ودينه. وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسنَ الكتابة جيد الشعر^(١).

قلت: وقيل: إنه قُتِلَ سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثمانى عشرة وخمس مئة. وقيل: إنَّ الذي قتله هو السُّلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشاه. ذكر ذلك كلُّه أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه»^(٢) وسَمَّاه الحسين بن علي بن عبد الصمد الدِّيَلَمي، وأنشد له أشعاراً حسناً، منها:

إذا ما^(٣) لم تكن مَلِكاً مطاعاً فكن عبداً لِمَالِكِهِ مُطِيعاً
وإن لم تَمْلِكِ الدُّنْيَا جميعاً كما تَهَوَّاه فاتركها جميعاً
هما سبيان^(٤) مِنْ مُلْكٍ وَتُسْكٍ يَنِلانِ الْفَتَى الشَّرَفَ الرَّفِيعاً
وَمَنْ يَقْنَعُ مِنَ الدُّنْيَا بشيءٍ سِوَى هَذَيْنِ يَحْيَى بِهَا وَضِيعاً^(٥)

ثم استأَمَنَ مسعودٌ وأتابكه جيوش بك، فأَمَنَهما السُّلطان، وأخذ المَوْصلَ منهما، فأقطعها آق سُنْقَرُ البُرْسُقي مع أعمالها، كالجزيرة وسِنْجار* ونَصِيبين* وغيرها في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد الدين زَنْكي وتقديمه والوقوف عند إشارته، ففعلَ البُرْسُقي ذلك وزاد

(١) «الباهر»: ٢٣، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤٥٤/١٩، ومقدمة «الغيث المسجّم» للصفدي، وهو صاحب لامية العجم المشهورة، شرحها الصفدي بكتاب «الغيث المسجّم في شرح لامية العجم» طبع غير مرة، آخرها في دار الكتب العلمية بيروت سنة (١٩٧٥م)، وله «ديوان» مطبوع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة (١٣٠٠هـ).

(٢) هو «ذيل تاريخ بغداد»، وهو من الكتب التي لم تصلنا، منه مختصرات. انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان: ٦٣/٦ - ٦٤.

(٣) في (ل) و(م) إذا لم تكن، وهو وهم.

(٤) في الأصل غير معجمة، وفي (م) والديوان: سبان، والمثبت من (ل).

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٦٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

عليه؛ لمكان زُنكي من العقل والشجاعة وتقدّم والده في الأيام الرُّكنية^(١). وكانت سيرة مَلِكشاه عندهم كالشريعة المُتبعة، فأعظمُ النَّاسِ عندهم أكثرهم اتباعاً لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمس مئة أقطع أتابك* زُنكي مدينة واسط وشحنكية* البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عِظماً. وهاب الأمير دُبَيْس بن صَدَقَة الأسدي صاحبُ الحِلَّة* ناحيته، وجَرَتْ بينه وبين البُرْسُقي حروبٌ ومواقفات، وهم دُبَيْس بقصد بغداد، فسار البُرْسُقي إليه^(٢)، وتبعه الخليفة^(٣) المسترشد بالله بنفسه، فانهزم عسكر دُبَيْس، وقتل منهم وأسر خلق^(٤) كثير، وكان^(٥) لعماد الدين زُنكي أثرٌ حسنٌ في هذه الواقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك^(٦) في أول المحرم سنة^(٧) سبع عشرة. وأما دُبَيْس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السُّلطان محمد، وصار معه من خواص أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السُّلطان محمود.

وأمر السلطان محمود^(٨) البُرْسُقي أن يرجع إلى المَوْصل، فعاد واستدعى زُنكي^(٩) من البصرة ليسيّر معه إلى المَوْصل، فقال زُنكي لأصحابه: قد ضَجَرْنَا مما نحن فيه، كل يومٍ قد ملك البلاد أمير، ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالمَوْصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشَّام. فسار من البصرة إلى السُّلطان محمود فأقام عنده، وكان يقف

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٣ من هذا الجزء.

(٢ - ٢) ما بينهما خرم في (ل).

(٣ - ٣) ما بينهما خرم في (ل).

(٤ - ٤) ما بينهما خرم في (ل).

(٥) في الأصل: محمد، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (ل) و(م): بزُنكي.

إلى جانب تخت* السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده^(١) من بعده.

ثم أتى السلطان الخبر أن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زَنْكِي بالمسير إليها، وأقطعه إياها لِمَا بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك، فعظّم عند السلطان وزاد محله^(٢). وكان قد جرى بين يرناقش الزكوي شحنة* بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نُفْرَة، فتهذّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة^(٣) شاكياً من المسترشد^(٤)، وحذّر السلطان جانبه، وأعلمه^(٥) أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق^(٥). فسار السلطان إلى بغداد، وجرى^(٥) بينه وبين المسترشد حروبٌ ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية* بغداد والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولّى ذلك زَنْكِي مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمس مئة قُتِلَ آق سُنْقَرُ الْبُرْسُقِي بِالْجَامِعِ الْعَتِيقِ ٣٠/١
بِالْمَوْصِلِ بَعْدَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ ثَارَ بِهِ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ مَا يَزِيدُ عَلَى عَشْرَةِ
أَنْفُسٍ، فَقُتِلَ بِيَدِهِ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ، وَقُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَكَانَ عَادِلًا^(٦) لِّإِنِّ الْأَخْلَاقِ^(٦)
حَسَنَ الْعَشْرَةِ، وَكَانَ يَصَلِّي كُلَّ لَيْلَةٍ صَلَاةً كَثِيرَةً، وَلَا يَسْتَعِينُ فِي وَضُوئِهِ

(١) في (م): لعقبه.

(٢) في (م): وزاد محله عنده.

(٣) في «الكامل»: ٦٣٥/١٠ سنة عشرين.

(٤ - ٤) ما بينها خرم في (ل).

(٥ - ٥) ما بينها خرم في (ل).

(٦ - ٦) ما بينها خرم في (ل).

بأحد^(١). فقرّر السلطان^(١) ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال؛ وهي المَوْصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر* وغيرها. وكان شاباً عاقلاً، فضبط البلاد، ولم تطل أيامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصّغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي؛ وهو مملوك تركي من ممالك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زَنكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد
البرّسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين؛ وسبب ذلك أن عزّ الدين بن البرّسقي لما توفي، وقام بالبلاد بعده أخوه الصّغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود [يطلب]^(٢) أن يقرّ البلاد عليه؛ وكان المرسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشّهْرزُوي^(٣)، وصلاح الدين محمد الياغيساني^(٤). فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا^(٥) يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين

(١ - ١) ما بينهما خرم في (ل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) هو علي بن القاسم بن المظفر، توفي سنة (٥٥٣٢هـ)، سيرد ذكر وفاته ص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٤) في (م) الياغيساني، كان أمير حاجب البرسقي، ولي حماة ثم حمص، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، توفي سنة (٥٥٥٢هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/٦٤٣، وص (١٢٥، ١٦٨، ٣٠٢، ٣٦٠) من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(ل)، وكان، والمثبت من (م).

الصلاح وبين نصير الدين جَقَر^(١) مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبوا البلاد لعماد الدين زَنَكِي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشَّام قد استولى الإفرنج على أكثرها، وتمكَّنوا منها، وقويت شوكتُهُمْ، وكان البُرْسُقي يكفُّ بعضَ عاديَتهم، فمنذ قتل ازداد طمَعُهُمْ، وهذا ولده طفل صغير، ولا بدُّ للبلاد من شَهْمٍ شجاع يذبُّ عنها، ويحمي حوزَتها، وقد أُنهيينا الحال إليكم لثلاثي يجري خلل أو وُهْن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى^(٢)، واللوم من السلطان. فأُنهي^(٣) الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: مَنْ تريان يصلح لهذه^(٤) البلاد؟ فذكرا جماعةً فيهم^(٥) عماد الدين زَنَكِي، وعظُّما محلُّه أكثر من غيره. فأجاب السُّلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعها، وكتب منشوره بها، وسار من بغداد إلى البوازيج* ليملكها ويتقوَّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد. فلما استولى عليها، سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسَيَّرَه^(٦) إلى الرِّحبة* وأعمالها، وأقام [هو]^(٧) بالمَوْصل يصلحُ أمورها ويقرر قواعدها. فولَّى نصير الدين دُزْدَارِيَّة* قلعة المَوْصل، وفوَّض إليه أمرَ الولاية جميعها، وجعل الدُّزْدَارِيَّة في البلاد جميعها له، وجعل الصَّلاح محمد الياغبساني أمير حاجب* الدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحها من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظمَ النَّاسِ عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطاً معه وقرباً منه، ورتَّب الأمور على أحسن نظامٍ وأحكم قاعدة.

(١) جَقَر بن يعقوب، أعظم أصحاب زنكي منزلة، قتل سنة (٥٣٩هـ)، ويقال: جفر بالغين المعجمة. انظر «وفيات الأعيان»: ٣٦٤/١ - ٣٦٦، و«الباهر»: ٣٤، وص ١٤٩ من هذا الجزء.

(٢-٢) ما بينهما حرم في (ل).

(٣-٣) ما بينهما حرم في (ل).

(٤) في الأصل: فسير، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم^(١)، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرر شرهم، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين* وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد* ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين* ورأس عين*.

أما أهل الرقة* وحران* فقد كانوا معهم في دُل وهوان، وانقطعت الطُرق إلى دمشق إلا على الرحبة* والبر. ثم زاد الأمر وعظم الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة، يأخذونها منهم ليكنفوا أذيتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها^(٢) مناصفة أعمالها حتى في الرحا التي على باب الجَنان*، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها^(٣) عماد الدين زُنكي، فغزا الفرنج في عُقر ديارهم، وأخذ للموحددين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً^(٤)

(١) في (ل) عاديهم.

(٢) في (م): منهم.

(٣) في الأصل، و(ل): وولاها، والمثبت من (م).

(٤) في (م): حصونهم.

ومعاقل. وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

فصل

ثم شرع زُنكي رحمه الله في أخذ البلاد؛ فافتتح جزيرة ابن عمر*، ثم مدينة إربل* في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى الموصل. وسار في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار*، فتسلمها، وسير منها الشَّحَن* إلى الخابور، فملكه، ثم قصد الرُّحبة* فملكها قسراً، ثم افتتح نصيبين* وسار إلى حرَّان*. وكانت الرُّها* وسُروج* وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج - لعنهم الله - وأهل حرَّان معهم في ضيقٍ عظيم؛ فراسلوا زُنكي بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشَّامية والجزيرية^(١). وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، ومُلك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشَّامية. فلما عبر الفرات ملك مدينة مَنبِج* وحصن بزاعة*، وحاصر حلب، ثم فتحت له فرتب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها^(٢)، وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد* مع صاحب حصن كَيْفا* وغيرهما من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زُنكي، فلقبهم، فهزموهم وملك سَرْجَة* ودارا*. ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب*، وكان أضرب شيء على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً،

(١) في الأصل: والجزيرة، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الكامل»: ٦٥٨/١٠ - ٦٥٩، وفي «ذيل تاريخ دمشق» سنة (٥٥٢٤) وسيرد الخبر بعد أسطر.

فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدة طويلة. ثم رجع إلى الحصن فملكه عَنوةً، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارم* فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبدلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك؛ لأن عسكره كان قد كثرت فيهم^(١) الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسُيِّرَت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيهما استولى زَنكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذه ورجاله، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبَيْس بن صدقة بن مَزِيد أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زَنكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه^(٢). ذكر ذلك الرئيس أبويعلى^(٣).

وفي سنة خمس وعشرين وخمس مئة توفي السلطان محمود بهَمَذان*، وكان عمره نحو ثمانين وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنه داود بن محمود، وأخواه^(٤): مسعود وسلجُوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن مَلِكشاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان وأصفهان* والرِّي* وسائر بلاد الجبل.

(١) في (ل) و(م): فيه.

(٢) وذلك سنة (٥٢٥هـ) انظر «الكامل»: ٦٦٨/١٠ - ٦٦٩.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق» نشرة د. زكار: ٣٦١ - ٣٦٢، ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٤) في الأصل: وأخوه، والمثبت من (ل) و(م).

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى المَوْصل في ثلاثين ألف فارس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين^(١) استولى زَنْكي على سائر قلاع الحُميدية وولاياتهم؛ ومنها قلعة العَقْر* وقلعة شوش*، وحاصر مدينة آمِد* ثم مدينة دمشق.

وفيها توفيت^(٢) والدته بالمَوْصل.

وفي المحرَّم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشَاه، فخرج السُّلْطَان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكريين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبضَ عليه وعلى خواصّه^(٣)، وأنفذ السلطان شِحنة* إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه. وكتب السُّلْطَان إلى شِحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالرَّاشد.

وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهماً شجاعاً، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدّمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك

(١) في «الكامل»: ١٤/١١: في سنة (٥٢٨هـ)، ومثله في «الباهر»: ٤٨.

(٢) في الأصل و(ل) توفت، والمثبت من (م).

(٣) في (م): وقبض عليه خواصه، وهو وهم.

الدَّيْلَم واستيلائهم على العراق، فزالَت هِيبةُ الخِلافةِ بالمرَّةِ إلى انقراضِ دولةِ الدَّيْلَم^(١).

فلما ملك السِّلْجُقية جَدُّوا من هِيبةِ الخِلافةِ ما كان قد درس، لا سيما في وزارةِ نظامِ المُلْك، فإنه أعاد الناموس والهيبةَ إلى أحسنِ حالاتها، إلا أن الحُكْم والشَّحْنَ* بالعراق كان إلى السُّلطان، وكذلك العمداء وضُمانُ البلاد، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دَخْلَه.

وأما المسترشد فإنه استبدَّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان [محمود]^(٢) معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب.

وفي سنة ثلاثين وخمس مئة سار الرَّاشد إلى المَوْصل صحبة زَنْكي ملتجئاً إليه؛ وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلُّون في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدَّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئاً إلى زَنْكي، فسار به إلى المَوْصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الرَّاشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك، ولقب المقتفي لأمر الله.

وأما الرَّاشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك* يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أَذْرَبِيجان* ثم إلى هَمْدان*، فاجتمع إليه مُلُوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم^(٣)، فتصافوا، فانهزم الرَّاشد، وقصد أصبهان، ٣٢/١

(١) في (م): العراق، وهو تحريف.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م): عليهم، وهو وهم.

فقتله الباطنية^(١) بها في السَّابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مئة، ودُفِنَ بأصبهان*.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوّج زَنْكِي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل، وإخوته^١ بني تاج الملوك بوري بن [ظهير الدين]^(٢) طُغْتِكِين أتابك؛ وهي أخت الملك دُقاق لأمه^(٣) - وإليها يُنسب مسجد خاتون* الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشَّرَف القبلي* بأرض دمشق بأرض صنعاء^(٤) - وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زَنْكِي للفرنج

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم^(٥) من القُسْطَنْطِينِيَّة ومعه خَلْقٌ عَظِيمٌ لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصده الشَّام، فخافه النَّاسُ خوفاً عظيماً.

وكان زَنْكِي مشغولاً بما تقدَّم ذِكرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصِل، فقصده ملك الروم مدينة بزاعة* وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عَنوةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر* - وهي

(١) في «المنتظم»: ٧٦/١٠ ثلاثة أقوال في سبب موته، أحدها أنه سقي السم، والثاني أنه قتله قوم من الفراشين، والثالث: قتله الباطنية كما ذكر.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م) ..

(٣) توفيت زمرد خاتون سنة (٥٥٥٧هـ)، انظر «العبر» للذهبي: ١٦٢/٤.

(٤) صنعاء: قرية كانت بين المزة ودمشق، نزلها قوم من اليمانية في أول الفتح الإسلامي فسموها باسم عاصمتهم وهي اليوم تقع مكان الجامعة السورية - كلية الحقوق، وما حولها. انظر «معجم البلدان»: ٤٢٩/٣، و«غوة دمشق»: ٢٣٧، ومنازل القبائل العربية حول دمشق. للدكتور صلاح الدين المنجد. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٦٦/٣٠.

(٥) هو يوحنا كومنين، تولى ما بين (٥١٢هـ - ٥٣٨هـ). انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما ٣٣٢/٢ وما بعدها.

حصن منيع على مرحلة من [مدينة] (١) حماة - فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً (٢). وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن [علي بن مقلد بن نصر بن] (٣) مُنْقِذ إلى زُنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة (٤) والنَّهْب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زُنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شرِّكم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله، وهَوَّنُوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زُنْكي مع هذا يُرَاسِلُ فرنج الشام، ويحذِّرهم ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يرأسل ملك الروم يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق* وآلات الحصار بحالها، فسار زُنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقية العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعاه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (٥). وكان المسلمون بالشام قد اشتدَّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الاعتبار» طبعة حتى: ١١٣، وطبعة السامرائي: ١٣٣ - ١٣٥.

(٣) ما بين حاصرتين مثبت من «الباهر»: ٥٥.

(٤) في (م) للمسير، وهو تصحيف. (٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

حصن شَيْرْز* لا يبقى لمسلم معهم مقام، لا سيما [مدينة] (١) حماة لقربها.

ولما يَسَّرَ الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجدد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم [التنوخى] (٢) الحموي، له قصيدة، قد ذكرتها في ترجمته في «التاريخ» (٣)، أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم	تَذِلُّ لك الصَّعَاب وتستقيم
ألم تَرَ أَنَّ كلبَ الرومِ لَمَّا	تَبَيَّنَ أنه (٤) الملكُ الرَّحِيمُ
فجاء يطبِّقُ الفلواتِ خيلاً	كَأَنَّ الْجَحْفَلَ اللَّيْلُ البَهِيمُ
وقد نَزَلَ الزَّمانُ على رضاه	فكان لِخُطْبِهِ الخُطْبُ الجَسيمُ
فحين رَمَيْتَهُ بكَ في خميسٍ	تَبَيَّنَ أَنَّ ذلكَ لا يَدُومُ
وأبصر في المفاضة منك جيشاً	فأحَرَنَ (٥) لا يَسِيرُ ولا يُقيمُ
كَأَنَّكَ في العَجَاجِ شهابُ نورٍ	تَوَقَّدَ وهو شَيْطانُ رَجِيمُ
أراد بقاءَ مهجته فولَّى	وليس سوى الجَمَامِ له حَمِيمُ
يؤمِّلُ أن تجودَ بها عليه	وأنتَ بها وبالدُّنيا كَرِيمُ
أَيَلْتَمِسُ الفرنجُ لَدَيْكَ عَفْواً	وأنتَ بِقُطْعِ دابِرها زَعِيمُ
وكم جَرَعَتْهَا غُصَصُ المَنايا	يَومٍ فيه يَكْتَهِلُ الفَظِيمُ
ولمَّا أن طَلَبَتْهُمُ تَمْنَى الدِّ	مِنية جُوسِلِينَهُمُ (٦) اللَّثِيمُ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) يعني مختصره لابن عساكر، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩١ من هذا الجزء.

(٤) في أصل «الخريدة» يوافق ما في نسخنا، أبدلها المحقق من مطبوع الروضتين طبعة وادي

النيل بـ «أُنْكَ» ٣٢/١. وهي تحريف، والرحيم لقب يوحنا، إذ أطلق عليه رعاياه

Kaloioannes وتعني الصالح، وبهذا عرف عند ابن القلانسي «كيالياني» (ط. د. د. زكار).

ص ٤٠٦ وانظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما ٣٣٢/٢.

(٥) في الأصل و(م): فأحزن، وهو تصحيف، والمثبت من (ل).

(٦) هو صاحب الرُّها Joscelin II، انظره في كشف الأعلام.

أقام يطوّف الآفاق حيناً وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يُعادلُه مليكٌ وعاد وما يُعادلُه سقيم
إذا خَطَرَتْ سيوفُك في نفوسٍ فأول ما تفارقُها الجسوم^(١)

وله أيضاً من قصيدةٍ يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي ٣٣/١
التوتان صاحب حماة^(٢):

وما جاء كلبُ الرُّومِ إلا ليحتوي حماة وما يسطو على الأسدِ الكلبُ
أرادَ بها أن يملكَ الشَّامَ عَنوَةً وقد غلبت عنه الضُّراغمة الغلبُ
وما ذمَّ فيها العيش حتى صَدَمَتْهُ فمال جناحُ الجيشِ وانكسرَ القلبُ
فولَّى وأطرافُ الرُّماحِ كأنَّها نجومٌ عليه بالمنيّة تنصبُّ

ولابن منيرٍ من قصيدةٍ في مدح أتابك زُنكي رحمه الله، سيأتي
[بعضها]^(٣) عند ذكر فتحه لمدينة الرُّها* إن شاء الله تعالى:

وما يومُ كلبِ الرُّومِ إلا أخو الذي أَرَحَتْ به ما في الجَنَاجِنِ^(٤) من تَبَلٍ^(٥)
أتاك بمثل الرَّمْلِ^(٦) حشداً وإنه ليفضل^(٧) أضعافاً كثيراً عن الرَّمْلِ
فقاتَلَتْهُ بالله ثُمَّ بَعَزَمَةً تَعِلُّ^(٨) قلوبَ العاشقين بما يسلي

(١) القصيدة بتمامها مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفي ترتيب بعض الأبيات في «تاريخ
ابن عساكر» (خ) س: ٢٣٢/١٦ ب - ٢٣٣ أ، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام:
٤٧٠/١ - ٤٧٢.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م). وانظر ص ١٤٥ من هذا الجزء.

(٤) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الجناجن، بجيمين ونونين: عظام الصدر
والله أعلم». قلت: وقيل: رؤوس الأضلاع. انظر «اللسان» (جنن).

(٥) التبل: العداوة والحقد، والزحل. «اللسان» (تبل).

(٦) في الأصل و (ل) الروم، والمثبت من (م)، وهو الأشبه.

(٧) في (م) ليضعف.

(٨) في الأصل: تصل، وفي (م) تصك، والمثبت من (ل) وهو الأشبه.

تَوْهَمَ أَنَّ الشَّامَ مَرَعَى وَمَادَرَى بِأَنَّكَ أَمْضَى مِنْهُ فِي الشُّزْرِ وَالسَّحْلِ^(١)
فَطَارَ وَخَيْرَ الْمَغْنَمِينَ ذَمَّاهُ إِذَا رُدَّ عَنْهُ مَغْنَمُ الْمَالِ وَالْأَهْلِ

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يُحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الرُّومِ شَيْزَرُ* قال الأمير مرشد بن علي؛ أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفاً، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق مَنْ أنزلته عليه إن قضيتَ بمجيءِ الروم فاقبضني إليك. فتوفي بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته^(٢).

ولما عاد الرُّومُ إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عِرْقَة*؛ وهو من أعمال طرابُلُس، فحصره وفتحهُ عَنوةً، ونهب ما فيه وأسر مَنْ به من الفرنج وأخربه، وعاد سالماً غانماً.

وفيهما ملك قلعة دارا* من حسام الدين تمرتاش.

وفيهما توفي^(٣) / [ل / ٣٣] بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُورِي؛ قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده^(٤).

وفيهما ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بِتَكْرِيت*.

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الشزر: إحكام القتل وإبرامه، والسحل: دون ذلك، أي أمضى منه في الأمور الكبار والصغار. والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم».

(٢) «الباهر»: ٥٧.

(٣) من هنا يبدأ خرم في الأصل يقع في ثلاث ورقات ينتهي بنهاية صفحة [٣٢/ب] كتب بخط متأخر، استدركناه من نسخة (ل) و(م)، وسنشير في المتن إلى رقم ورقة (ل) إضافة إلى رقم الأصل في الهامش.

(٥) دفن في صفين، وهو عم القاضي كمال الدين المتوفى سنة (٥٧٢هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٣٢٩/٢، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٢٨/٧. وص ١١٦ من هذا الجزء.

فصل

في فتح شَهْرُزُور^(١) * وَبَعْلَبَك وَحِصَار دِمَشَق

قال ابن الأثير: كانت شَهْرُزُور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان مالكةا^(٢) نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً؛ فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرّضوا لها لحصانتها، فَعَظُم شأنه وازداد جَمْعُه.

فلما كان سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك* عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده؛ فهزم عسكره، وملك بلاد شَهْرُزُور* وغيرها، فأضافها إلى بلاده، وأصلح أحوال أهلها، وخَفَّفَ عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشَّام؛ فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً؛ إمّا لردِّ عدوِّ يقصده، وإمّا لقصد بلاد عدوِّ، وإمّا لغزو الفرنج وسد الثغور. وكانت مياثر^(٣) السُّروج آثر عنده من وثير المهادر، والسَّهر في حراسة المملكة أحبَّ إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذَّ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كلَّه عناء.

وفي هذه السنة — وهي سنة أربع وثلاثين — ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي^(٤). وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرُزُور* إلى مدينة دمشق،

(١) في «معجم البلدان»: ٣/٣٧٥ بفتح الراء، وفي «وفيات الأعيان»: ٤/٧٠ بضمها، وعليه أغلب المصادر.

(٢) في (م): مالكةا لها.

(٣) مفردتها مِثْرَة: وهي فراش صغير يحشى بقطن أو صوف يجعل تحت السرج.

(٤) هو ابن أخ السلطان صلاح الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد ذكر وفاته

في ٤/٢٩٠، كان والده شاهنشاه قد قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة

(٥٤٣ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٢/٤٥٢. وص ١٩٧ — ١٩٨ من هذا الجزء.

فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وكان محكوماً [عليه] (١)، والغالب على أمره معين الدين أُنُر؛ مملوك جده طُغْتِكِين. وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشَّهْرُزُورِي بمكاتبة جماعة من مقدِّمي أحداثها (٢) وزناطرتها (٣) واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلوات. ففعل ذلك، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرِّقين إلى كمال الدين، وجدَّد عليهم العهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشَّهيد إلى البلد لِيَفْتَحُوا له الباب ويسلِّموا البلد إليه. فأعلم [ل ٣٣/ب] كمال الدين الشَّهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً؛ فإنَّ البلد ضيق الطُّرُق والشُّوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكَّنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم؛ لأنَّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك، فيطمع فينا أهلُه. وعاد / عن ذلك العزم بحزمه وحذره. [٣٠/ب]

ومن العجب أن محمد بن بُوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أُنُر الأمور وساس البلد، فلم يتغيَّر بالنَّاس حال، وأرسل إلى بَعْلَبَك، فأحضر ولده مجير الدين أبق بن محمد بن بُوري، وربَّه في الملك مكان أبيه، فمشى الحال بتمكين (٤) معين الدين أُنُر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زُنكي دمشق كما سيأتي (٥).

(١) ما بين حاصرتين ليس في (ل) والمثبت من (م) و«الباهر»: ٥٨.

(٢) الأحداث هم القوى الشعبية التي تعبر عن الإرادة الذاتية للمدينة تجاه الحكام. انظر عن أصلها كتاب «الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق في العهد الفاطمي» للدكتور شاكر مصطفى.

(٣) هم السكان المولعون بتحريك الفتن والقلاقل. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٦٠٧/١.

(٤) في (م): بتمكن.

(٥) انظر ص ٣٠١ - ٣٠٧ من هذا الجزء.

ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بَعْلَبَك مُعِين الدين أُنْر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عِدَّة شهور، فملكها عَنوةً، وترك بها نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين دُزْدَارًا*، وعزم على العُود عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خُطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه^(١).

قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي: وأتفق أن الأمراء لَمَّا نزلوا من بَعْلَبَك أفسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زَنكي، وقتل بعضهم وصلبهم، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني. فحكى أنه أحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولدٌ له أَمْرَد كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لثلا أراه يعالج سكرات الموت. وبكى، وكان نجم الدين أيوب واقفًا، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفًا من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك، وسأله في الشَّيخ وولده، وقصَّ عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بَعْلَبَك.

وقيل: إنَّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك، فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولّاه بعلبك، وكتب له ثُلُثها ملكًا، واستقرَّ فيها هو وأهلُه، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زَنكي، فأخرجَه منها على ما سنذكره^(٢).

(١) انظر «الباهر»: ٥٧ - ٥٩، وليس ثمت ذكر للخطبة له في دمشق عند القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٢٤ - ٤٢٨، و«الكامل»: ٧٣/١١ - ٧٥، أما حصار دمشق فكان بعد فتح بعلبك كما في المصدرين السابقين. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٢٢ - ٤٢٣، و«الكامل»: ٦٨/١١.

(٢) انظر ص ٣١٨ من هذا الجزء.

ثم إن أتاك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق، فنزل البقاع، فوردت [ل/٣٤أ] هدية صاحب دمشق، وطلب العود، ويعطيه خمسين ألف / دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زُنكي بقبول ذلك، وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلدٌ عظيم، وقد أَلَفَ أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببلبك. [أ/٣١] / فامتنع زُنكي من قبول ما أشار به، ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتاك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين^(١)، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقبهم بالقرب من حصن بارين*، وهو للفرنج، فصر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير^(٢)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين، وفيهم ملك القُدُس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان لِيَسْلَمُوا وَيُسَلِّمُوا الحصن، فأبى إلا أخذهم قهراً. فبلغه أن مَنْ بالسَّاحل من الفرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجدونهم، ويُنْهَوْنَ إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً^(٣) من ذلك لقوّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان،

(١) في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٠٧ - ٤٠٨، و«الكامل»: ٥١/١١ - ٥٢ تسلم

زنكي حصن بارين سنة (٥٥٣١) وهو الأصح.

(٢) تطلق ليلة الهرير على إحدى ليالي صفين، وإحدى ليالي القادسية، وقد بلغ بها القتال

أشدّه. انظر «ثمار القلوب»: ٦٣٧، و«الكامل» لابن الأثير: ٤٧٩/٢ - ٤٨٥.

(٣) في (م): بشيء.

فأجابهم وتسلم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى^(١)، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم إننا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فحَقْنَا دماءنا بتسليم الحصن^(٢).

قال ابن الأثير: وكان حصن بارين* من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخرجوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مدة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة* وكفرطاب* وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة^(٣).

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زُنكي قصيدة أولها:

وَهِيَ الصَّوَارِمُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ	حَذَارِ مِنَّا، وَأَتَى يَنْفَعُ الْحَذَرُ
مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لَا بَلْ جُنْدُهُ الْقَدَرُ	وَأَيْنَ تَنْجُو مَلُوكُ الشُّرْكِ مِنْ مَلِكٍ
صَالُوا فَمَا غَمَدُوا نَصْلًا ^(٤) وَلَا شَهَرُوا [٣٤/ب]	/ سَلُّوا سِوْفًا كَأَغْمَادِ السُّيُوفِ بِهَا
فِي مَازِقٍ مِنْ سَنَاهُ يَبْرُقُ الْبَصَرُ [٣١/ب]	/ حَتَّى إِذَا مَا عَمَادُ الدِّينِ أَرْهَقَهُمْ
وَالْمَوْتُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا وَزَرَ	وَلَوْ تَضَيَّقُ بِهِمْ ذَرْعًا مَسَالِكُهُمْ
طُولُ وَإِنْ كَانَ فِي أَقْطَارِهَا قِصَرُ	وَفِي الْمَسَافَةِ مِنْ دُونِ النَّجَاةِ بِهِمْ
يَخَافُ وَالْكَفْرُ لَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ	وَأَصْبَحَ الدِّينُ لَا عَيْنًا وَلَا أَثَرَ

(١) في (م) النصرانية.

(٢) انظر «الباهر»: ٥٩ - ٦١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في (ل) أيضاً، والمثبت من (م).

فَلَا تَخَفْ بَعْدَهَا الْإِفْرَنْجَ قَاطِبَةً
 إِنْ قَاتَلُوا قَتَلُوا أَوْ حَارِبُوا حُرِبُوا
 وَطَالَمَا اسْتَفْحَلَ الْخَطْبُ الْبَهِيمُ بِهِمْ
 وَالسَّيْفُ مُفْتَرِعٌ أَبْكَارَ أَنْفُسِهِمْ
 لَا فَارَقَتْ ظِلٌّ مَحْيِي الْعَدْلَ لَامِعَةً
 وَلَا ائْتَنَى النَّصْرُ عَنْ أَنْصَارِ دَوْلَتِهِ ٣٥/١
 حَتَّى تَعُودَ تُغَوِّرُ الشَّامَ ضَاكِكَةً
 وَقَالَ ابْنُ مَنِيرٍ:

فَالْقَوْمُ إِنْ نَفَرُوا أَلَوَى بِهِمْ نَفَرُ
 أَوْ طَارَدُوا طَرِدُوا أَوْ حَاصَرُوا حُصِرُوا
 حَتَّى أَتَى مَلِكٌ آرَاؤُهُ غُرُرُ
 وَمِنْ هُنَاكَ قِيلَ (١) الصَّارِمُ الذَّكْرُ
 كَالصُّبْحِ تَطْوِي مِنَ الْأَعْدَاءِ مَا نَشَرُوا
 بَحِيثٌ كَانَ وَإِنْ كَانُوا بِهِ نُصِرُوا
 كَأَنَّمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِهَا عَمَرُ

فَدَتَكَ الْمُلُوكُ وَأَيَّامُهَا
 وَزَلَّتْ لِعَيْنِكَ أَقْدَامُهَا
 وَلَوْ لَمْ تُسَلِّمْ إِلَيْكَ الْقُلُوبُ
 أَيَا مَحْيِي الْعَدْلَ لَمَّا نَعَاهُ
 وَمُسْتَنْقِذَ الدِّينِ مِنْ أُمَّةٍ
 دَلَفَتْ لَهَا تَقْتَفِيكَ الْأُسُ
 جَزَرَتْ (٣) جَزِيرَتَهَا بِالسَّيْرِ
 وَصَارَتْ عَوَارِيٍّ أَكْنَافِهِ
 وَدَانَ (٢) لِنَقْضِكَ إِبْرَامُهَا
 وَزَالَ لِبَطْشِكَ إِقْدَامُهَا
 هَوَاهَا لَمَّا صَحَّ إِسْلَامُهَا
 أَيَّامِي الْبَرَايَا وَأَيَّتَامُهَا
 أَذَالَ الْمَحَارِبِ أَصْنَامُهَا
 دُ وَالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ آجَامُهَا
 فِ حَتَّى تَشَاءَ مَعَهَا شَامُهَا
 مَتَى شِئْتَ أَرْخَصَ مُسْتَامُهَا

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: وَلَمَّا وَصَلَ الرُّومُ وَالْفَرَنْجُ إِلَى الشَّامِ، وَرَأَوْا الْأَمْرَ قَدْ
 فَاتَ، أَرَادُوا جَبْرَ مُصِيبَتِهِمْ بِمَنَازِلَةِ بَعْضِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَنَازَلُوا حَلَبَ
 وَحَصَرُوهَا، فَلَمْ يَرَ الشَّهِيدُ أَنْ يَخَاطِرَ بِالْمُسْلِمِينَ وَيُلْقَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي
 جَمْعٍ عَظِيمٍ. فَانْحَازَ عَنْهُمْ، وَنَزَلَ قَرِيباً مِنْهُمْ، يَمْنَعُ عَنْهُمْ الْمِيرَةَ، وَيَحْفَظُ أَطْرَافَ

(١) فِي (م) قَتَلَ، وَفِي (ل) قَبْلَ، وَكِلَاهُمَا تَصْحِيفٌ. وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَاهُ.

(٢) فِي (م): وَكَانَ.

(٣) قَطَعَتْ. «اللسان» (جزر).

البلاد من انتشار العدو/ فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضي كمال الدين بن [٣٢/أ] الشهرزوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد^(١) وكثرة العدو، / [٣٥/أ] ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف [٣٥/أ] أن تخرج البلاد من أيدينا، ويجعل السلطان هذا حجة ويُنفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار. قال: فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء، وكتب الشهيد إليّ متصلةً يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخطبُ فلا أزدُ على الوعد^(٢). قال: فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً - وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء - فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوت واحد: وا إسلاماه! وأدين محمداه! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقليل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل

(١) في (ل): ينهي إليه الحال، والمثبت من (م).

(٢) في (م): الوعيد، وهو تحريف..

[١/٣٣] العساكر إلى الغزاة. فقال^(١): / أحضروا ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم^(٢) عن بغداد. وعظمتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ما شئت، وسر بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم^(٣)، وعرفهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرقوا. وانتخبُ من عسكره عشرة آلاف فارس^(٤)، وكتبت إلى الشهيد أعرّفه الخبر، وأنه لم يبق غيرُ المسير، وأجددُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثُّ على ذلك، فعبرتِ العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نجهز للحركة وإذا قد وصل نجابٌ من الشهيد يخبر أن الرومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خطب السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعذتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد^(٥).

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، ومن ثم نعود إلى أصلنا في التحقيق. انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٢) في (م): يمنعكم، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: معهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «الباهر»: «عشرين ألف فارس».

(٥) انظر «الباهر»: ٦٢ - ٦٣، وفي «الكامل»: ٥٨/١١ - ٥٩، وذكر الخبر في حوادث سنة (٥٣١هـ). انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٣٠ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: فانظر^(١) إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس - يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويؤفر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمس مئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي! إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر، وغيره يكثُر له خمس مئة دينار! فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مئة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى^(٢).

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين [وخمس مئة]^(٣) سار الشهيد إلى بلد الهكّارية*، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جَقَر نائب السلطان الشهيد بالمَوْصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني؛ وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمّادية* عوضاً عنها^(٤). وكانت هذه العمّادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما

(١) في (ل) و(م): فانظروا.

(٢) «الباهر»: ٦٣.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) في إحدى نسخ «الكامل»: ٩١/١١، ١٥ أنه أقام قلعة العمّادية على أنقاض قلعة آشب، وهو ما ذكره أيضاً ياقوت في «معجم البلدان»: ١٤٩/٤، ولم يذكر ياقوت قلعة الشعباني في كتابه. وفي ذكر ابن الأثير لهذا الخبر اضطراب سببه عدم معرفته كما صرح، فتارة يقول هي قلعة جلاب، ثم يقول هي قلعة آشب، ولم يعرف تماماً تاريخ فتحها، وقد ذكرها أيضاً في حوادث سنة (٥٥٢٨هـ). انظر «الكامل»: ١٤/١١ - ١٦.

ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه. فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر، فَبُنِيَ وسماه القلعة العمادية، نسبة^(١) إلى لقبه [عماد الدين]^(٢).

وفي هذه السنة خُطب لأتابك بآمد*، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن، والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فأجابه إلى ذلك^(٣).

وفيهما [ملك الشهيد مدينة عانة]*^(٤).

وفيهما حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد ولاية دمشق فشتى بها.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين عزم السلطان مسعود^(٥) على قصد الموصل بعساكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة^(٦). فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مئة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها*. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن تلك^(٧) البلاد لا يقدر على حفظها من

(١) في (ل): ونسبة.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «الكامل»: ٨٨/١١ كان ذلك سنة (٥٣٦هـ).

(٤) في هامش الأصل «حصر مدينة عانة» صح: وما بين حاصرتين مثبت من (ل) و(م) وفي «الكامل»: ٩٦/١١ أورد ابن الأثير الخبر في حوادث سنة (٥٣٨هـ)، وانظر «الباهر»: ٦٤.

(٥) في الأصل: محمود، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في الأصل: وحشية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في (ل) ملك، وهو تصحيف.

الفرنج غير أتابك عماد الدين؛ فإنها^(١) قد وليها قبله مثل جاولي سقاوه، ومودود، وجيوش بك، والبرسقي، وغيرهم من الأكابر^(٢)، وكان السلاطين يُمدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرّون على حفظها، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك. فلم يُمدّه أحد من السلاطين بفارسٍ واحد ولا بمال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعز الإسلام به.

ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويُقرّبه، ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك. وألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسول إلى السلطان يقول له: إنني لما بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم أجمع به ورَدَدْتُهُ إلى بابك. فحلّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد.

ولما استقر المال [حمل]^(٣) منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مدارة الشهيد، فأطلق^(٤) له الباقي استمالة له^(٥).

(١) في الأصل: فإنه، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) الأمراء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (ل) وحمل، والمثبت من (م).

(٤) في (ل) و(م): وأطلق.

(٥) انظر «الباهر»: ٦٥ - ٦٦، و«الكامل»: ٩٣/١١ - ٩٤.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عِدَّة بلاد منها طَنْزَة*، وإِسْعِرْد*، وملك مدينة المَعْدِن* الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة جِيَزَان*، وأخذ من أعمال ماردين* عدة مواضع، ورتَّب أمور الجميع، وملك مدينة حاني*، وحاصر آمِد*(١)، وأرسل عسكرياً إلى مدينة عانة*، فملكها له، وقد تقدَّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرُّها* في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. وكانت لجوسلين*، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم. وكان مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى^(٢) الكراسي عندهم، فأشرفها^(٣) البيت المقدس، ثم أنطاكية*، ثم رومية وقُسطنطينية والرُّها.

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرٌ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين* إلى الفرات على طريق شبختان^(٤) عدة حصون كسروج*، والبيرة*، وجُمَليْن، والمُوزَّر*. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمِد* من ديار بكر، وماردين*، ونصيبين*، ورأس عين*، والرَّقَّة*. وأما حَرَّان* فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صَبَّحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أُنْفَ منهم، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل

(١) انظر «الباهر»: ٦٦، و«الكامل»: ٩٤/١١.

(٢) في (ل) و(م) أحد.

(٣) في (ل) وأشرفها.

(٤) في الأصل: سنجار، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٦٧.

جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني* وجبل جور وآمد*؛ فكان يقاتل مَنْ بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسرُّ حسواً في ارتغاء^(١)، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشَّاميَّة، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها.

ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيشٍ جاش بالفرسان حتى	ظننتُ البرَّ بحرأً من سلاح
والسنة من العذبات حُمِرِ	تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليل بهيم	وغُرَّتْهُ عمود للصباح
صفوح عند قُدرته ولكن	قليل الصفح ما بين الصِّفاح
فكان ثباته للقلب قلباً	وهيبته جناحاً للجناح

وألحَّ الشهيد في حصارها، فملكها عَنوةً، فاستباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النَّهب والسَّبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فَأَنفَ لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فَرُدُّوا عن آخرهم، لم يُفَقَدْ منهم إلا الشاذَّ والنَّادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتَّب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كَسَرُوج* وغيرها، وأخلَّى

(١) أي يظهر أخذ الرغوة وهو يحسو اللبن، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، انظر «المستقصى في أمثال العرب» للزحشري: ٤١٢/٢ - ٤١٣، و«اللسان» (رغا).

ديار الجزيرة من معرّة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الأفاق ذكره، وطاب بها نشره، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرُّها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي؛ وكان من العلماء العاملين، والزّاهدين في الدّنيا، المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنّه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبِيرٌ مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم^(١) قال: حدثني بعض إخواننا أن أتابك زنكي فتح مدينة الرُّها، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال: ما يضرُّك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم. يُردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح. ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا [له]^(٢): منذ رأيناك على السّور تكبر أيقناً بالفتح. وهوينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً^(٣).

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب؛ وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صِقْلِيَّة* من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصّالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على مَنْ عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سَيرَ هذا ملكُ الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربي وقد نَعَسَ وهو شبّيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه،

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٧٠.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) انظر «الباهر»: ٧٠.

قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم^(١)؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها. فتصاحك مَنْ عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليلٍ حتَّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنسأهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر؛ لعلَّو منزلة الرُّها عند النصرانية^(٢).

قال: وحكى لي أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم^(٣)، أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت^(٤): بماذا؟ قال: بفتح الرُّها^(٥). قلتُ: وهناه القيسراني عند فتح الرُّها بقصيدة أولها:

هو السَّيْفُ لَا يُغْنِيكَ إِلَّا جِلَادُهُ وهل طَوَّقَ الْأَمْلَاكُ إِلَّا نِجَادُهُ
وعن ثَغْرِ هَذَا النَّصْرِ فَلَتَأْخِذِ الطُّبَى سَنَاها وَإِنْ فَاتَ الْعَيُونَ اتِّقَادُهُ
سَمَتِ قُبَّةُ^(٦) الْإِسْلَامِ فَخْرًا بَطُولُهُ وَلَمْ يَكْ يَسْمُو الدِّينُ لَوْلَا عِمَادُهُ
وَذَا قَسِيمُ الدَّوْلَةِ ابْنُ قَسِيمِهَا عَنِ اللَّهِ مَا لَا يُسْتَطَاعُ ذِيَادُهُ
لِيَهْنِ بَنِي الْإِيمَانِ أَمِنْ تَرْفَعَتْ رَوَاسِيهِ عِزًّا وَاطْمَأَنَّ مِهَادُهُ
وَفَتَحَ حَدِيثُ فِي السَّمَاعِ حَدِيثُهُ شَهِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ مُعَادُهُ
أَرَاخَ قُلُوبًا طَرُنَ مِنْ^(٧) وَكُنَاتِهَا^(٨) ٣٨/١ عَلَيْهَا فَوَافَى كُلِّ صَدْرٍ فَوَادُهُ
لَقَدْ كَانَ فِي فَتْحِ الرُّهَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى غَيْرِ مَا عِنْدَ الْعُلُوجِ اعْتِقَادُهُ

(١) في (ل): نصرتهم.

(٢) «الباهر»: ٧٠.

(٣) كذا في النسخ الخطية، والصواب «بهم».

(٤) في (م): فقلت.

(٥) «الباهر»: ٧٠.

(٦) في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٥٥/١ «قبلة».

(٧) في (ل) و(م): عن.

(٨) مفردا وَكُنْ، وهو عَش الطائر في جبل أو جدار. انظر «اللسان» (وكن).

يُرْجُونَ ميلاد ابن مريم نُصْرَةً
مدينة إِفْكٍ منذ خمسين^(٢) حِجَّةً
تَفُوتُ مدى الأبصار حتى لو أَنَّها
وجامحة عَزَّ الملوك قِيادُها
فأوسَعها حرَّ القِرَاعِ مُؤَيَّدُ
كَأَنَّ سنا لَمَعَ الأسنَّةِ حَوْلَه
فأَضْرَمها نارَيْنِ: حَرْباً وَخَذَعَةً
فصَدَّتْ صُدُودَ البِكرِ عند افتضاضها
فيا ظَفَرًا عَمَّ البلادَ صلاحُه
فلا مُطَلَّقٌ إِلَّا وَشَدَّ وثاقُه
ولا مُنْبَرٌ إِلَّا تَرَنَّجَ عُوْدُه
فإن يثكل الإبرنز فيها حياته
وباتت سرايا القمص تقمص^(٥) دونها
إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها
رُويْدُكُمْ لا مانع من مُظْفِرِ
مُصِيبُ سهام الرأي لو أَنَّ عَزَمَه
وقل لملوك الكُفْرِ تُسَلِّمُ بعدها
كذا عن طريق الصُّبحِ أَيْتُها الدُّجى

ولم يُغْنِ عند القوم عنهم^(١) ولأدُه
يفلُّ حديدَ الهند عنها حدادُه
ترَقَّتْ إليه خانَ طَرْفًا سِوَادُه^(٣)
إلى أَنَّ ثاها مَنْ يَعِزُّ قِيادُه
بصيرٍ بتمريرِ الألدِّ لِدادُه
شَرَّارٌ ولكنْ في يديه زِنادُه
فما راعَ إِلَّا سورُها وأنهدادُه
وهيات كان السيفُ حتماً سِفاده^(٤)
بمن كان قد عمَّ البلادَ فسادهُ
ولا مُوثِقٌ إِلَّا وَحُلَّ صِفادهُ
ولا مُصْحَفٌ إِلَّا أُنارَ مِدادهُ
وإلا فَقُلْ للنَّجمِ كيف سُهادُه
كما يَتَنَزَّى عن حريقِ جرادُه
لقد ذَلَّ غاويكُمْ وَعَزَّ رشادُه
يعانِدُ أسبابَ القضاءِ عِنادُه
رمى سَدَّ ذِي القَرْنينِ أَصمى سَدادُه
ممالكها إن البلادَ بِلادُه
فيا طالما غالَ الظلامَ امتدادُه

(١) في الأصل و (م) عنه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). وقد سقط سور المدينة
عشية عيد الميلاد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما: ٣٨٠/٢ (الترجمة
العربية).

(٢) في الأصل و (ل) خمسون، والمثبت من (م).

(٣) في (ل) سهاد.

(٤) في (ل) نفاده.

(٥) أي تثب. انظر «اللسان» (قمص).

ومن كان أملاك السموات جنده
ولله (٢) عزم ماء سيحان (٣) وزده
فأية أرض لم ترضها (١) جياذه
وروضة قسطنطينة مسترده (٤)

وله من قصيدة هنا بها القاضي كمال الدين بن الشهرزوري أولها:

هي جنة المأوى فهل من خاطب.

يقول فيها:

إن الصفائح يوم صافحت الرها
فتح الفتوح مبشراً بتمامه
الله أية وقفة (٦) بذرية
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
وأمدكم جيش الملائك نصرة
جنبوا الدبور (٨) وقدتم ريح الصبا
عطفت عليها كل أشوس (٥) ناكب
كالفجر في صدر النهار الآيب
نصرت صاحباتها بأيمن صاحب
كم ناهض بالحرب غير محارب
بكتائب محفوفة (٧) بكتائب
جند النبوة هل لها من غالب

(١) في «الخريدة»: تطأها.

(٢) في (ل): فله.

(٣) سيحان: نهر كبير بالشعر من نواحي المصيصة، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم، يمر بأذنة ثم يفصل عنها نحو ستة أميال، فيصب في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط).

«معجم البلدان»: ٢٩٣/٣.

(٤) أي مكان ارتياده. «معجم متن اللغة»: ٦٧٦/٢. وبعض أبيات القصيدة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ١٥٤/١ - ١٥٥.

(٥) الجريء على القتال، الشديد. انظر «اللسان» (شوس).

(٦) كذا في النسخ الخطية، ولعلها وقعة.

(٧) في (م) محثوة.

(٨) هي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق. انظر «اللسان» (دب).

أَتَرَى الرُّهَاءَ [الْوَرَهَاءَ] ^(١) يَوْمَ تَمْنَعَتْ
لَا أَيْنَ يَا أَسْرَى ^(٣) الْمِهَالِكَ بَعْدَهَا
شَدًّا إِلَى أَرْضِ الْفَرَنْجَةِ بَعْدَهَا
أَفْغَرَكُمُ وَالثَّارُ رَهْنُ دِمَائِكُمْ
وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ

وقال ابن منير:

٣٩/١

ظَنَنْتُ وَجُوبَ السُّورِ ^(٢) سَوْرَةَ لَاعِبٍ
ضَاقَ الْفَضَاءُ عَلَى نَجَاةِ الْهَارِبِ
إِنَّ الدَّرُوبَ عَلَى الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ
مَا كَانَ مِنْ إِطْرَاقٍ لِحُظِّ الطَّالِبِ
دُونَ الْفَرِيسَةِ فَهُوَ عَيْنُ الْوَاثِبِ

فَلَا اسْتَرَدَّ الَّذِي أُعْطَاكَهُ اللَّهُ ^(٤)
وَفِي أَعَالِي أَعَادِي اللَّهِ حَدَّاهُ
بَلَا شَبِيهِ إِذِ الْأَمْلَاجُ أَشْبَاهُ
جَهْلًا وَقَصَّرَ عَنْ مَسْعَاكَ مَسْعَاهُ
فَاللَّهُ خَيْبُكُمْ وَاللَّهُ أَعْطَاهُ
تَقَى وَتَسَهَّرَ لِلْمَعْرُوفِ عَيْنَاهُ
فِيمَا ابْتَلَاهُ وَتَذَنَّى مَا تَوَخَّاهُ
قَدْرًا وَجَاوَزَتْ الْجُوزَاءُ نَعْلَاهُ
وَأَيْنَ مِمَّا رَوَّاهُ مَا رَأَيْنَاهُ
مُظَلَّلٌ أَفَقَ الدُّنْيَا جَنَاحَاهُ

صِفَاتُ مَجْدِكَ لَفْظٌ جَلٌّ مَعْنَاهُ
يَا صَارِمًا بِيَمِينِ اللَّهِ قَائِمُهُ
أَصْبَحَتْ دُونَ مَلُوكِ الْأَرْضِ مُنْفَرِدًا
فِدَاكَ مِنْ حَاوَلَتْ مَسْعَاكَ هِمَّتُهُ
قُلٌّ لِلْأَعَادِي إِلَّا مَوْتُوا بِهِ كَمَدًا
مَلَكٌ تَنَامُ عَنِ الْفَحْشَاءِ هِمَّتُهُ
مَا زَالَ يَسْمُكُ ^(٥) وَالْأَيَّامُ ^(٦) تَخْدُمُهُ
حَتَّى تَعَالَتْ عَنِ الشُّعْرَى ^(٧) مَشَاعِرُهُ
وَقَدْ رَوَى النَّاسُ أَخْبَارَ الْكِرَامِ مَضُورًا
أَيْنَ الْخِلَافَةِ عَنْ فَتْحٍ أُتِيحَ لَهُ

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). والورهاء: الخرقاء. «اللسان» (ورء).

(٢) أي سقوط السور. انظر «اللسان» (وجب).

(٣) في (م) ما أسرى.

(٤) هذا البيت ليس في (ل).

(٥) أي يرتفع. «اللسان» (سمك).

(٦) في (م) الأقدار.

(٧) الشعري: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء. انظر «اللسان» (شعر).

على^(١) المنابر من أنبائه^(٢) أَرَجَ
 فَتَحَ أَعَادَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِهِجَتَهُ
 يُهْدِي بِمَعْتَصِمٍ بِاللَّهِ فَتَكَتَهُ
 إِنَّ الرُّهَا غَيْرَ عُمُورِيَّةٍ^(٣) وَكَذَا
 أَخْتِ الْكَوَاكِبِ عِزًّا مَا بَغَى أَحَدٌ
 حَتَّى دَلَفَتْ لَهَا بِالْعَزْمِ يَشْحَذُهُ
 مَشْمَرًا وَبَنُو الْإِسْلَامِ فِي شُغْلٍ
 يَا مُحْيِي الْعَدْلِ إِذْ قَامَتْ نَوَادِيهِ
 يَا نِعْمَةَ اللَّهِ يَسْتَصْفِي الْمَزِيدَ بِهَا
 أَبْقَاكَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا تَحُوطُهُمَا

مقطوبةً بفتيق المسك رِيَاه
 فافتَرَّ مِبْسُمُهُ وَاهْتَزَّ عِطْفَاهُ
 حَدِيثُهَا نَسَخَ الْمَاضِي وَأَنْسَاهُ
 مَنْ رَامَهَا لَيْسَ مَغْزَاهُ كَمَغْزَاهُ
 مِنَ الْمُلُوكِ لَهَا وَقَمَاءُ^(٤) فَوَاتَاهُ
 رَأَيْ يَبِيتُ فُوقَ النَّجْمِ مَسْرَاهُ
 عَنْ بَدْءِ غَرْسٍ لَهُمْ أَثْمَارُ عَقْبَاهُ
 وَعَامَرَ الْجُودَ لِمَامَحْ^(٥) مَعْنَاهُ
 لِلشَّاكِرِينَ وَيَسْتَقْنِي صَفَايَاهُ
 مَنْ لَمْ يُتَوَجَّكَ هَذَا التَّاجُ إِلَّا هُوَ

ولابن منير أيضاً من قصيدة تقدّم بعضها، [وهي]^(٦):

أَيَا مَلِكًا أَلْقَى عَلَى الشَّرْكَ كَلْكَلًا
 جَمَعْتَ إِلَى فَتْحِ الرُّهَا سَدَّ بَابِهِ^(٨)
 هُوَ الْفَتْحُ أَنْسَى كُلَّ فَتْحٍ حَدِيثُهُ

أَنَاخَ عَلَى أُمَاتِهِ^(٧) كَلْكَلُ الثُّكُلِ
 بِجَمْعِكَ بَيْنَ النَّهْبِ وَالْأَسْرِ وَالْقَتْلِ
 وَتَوَجَّ مَسْطُورَ الرِّوَايَةِ وَالنَّقْلِ

(١) في (ل) و (م) علا، وكلاهما صحيح في المعنى.

(٢) في (ل) آرائه.

(٣) مدينة مشهورة فتحها المعتصم العباسي سنة (٢٢٣هـ). انظر «الكامل»: ٤٨٠/٦ -

٤٨٨.

(٤) أي ذلاً. انظر «اللسان» (وقم).

(٥) مَحْ: خَلَقَ، دَرَسَ. «اللسان» (مصح).

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م)، وانظر ص (١٢٥ - ١٢٦) من هذا الجزء.

(٧) مفردا أم، والجمع أمات وأمها. وقال بعضهم: الأمهاات فيمن يعقل، والأمات بغير هاء فيمن لا يعقل. انظر «اللسان» (أمم).

(٨)، أي سد باب الشرك.

فَضَضَتْ بِهِ نَقَشَ الْخَوَاتِمِ^(١) بَعْدَهُ
تَجَرَدَتْ لِلْإِسْلَامِ دُونَ مَلُوكِهِ
أَخُو الْحَرْبِ غَذَّتْهُ الْقِرَاعُ مَقْطُماً
وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى:

بِعِمَادِ الدِّينِ أَضْحَتْ عُرْوَةُ الدِّ^(م) يَنْ مَعْصُوباً^(٣) بِهَا الْفَتْحُ الْمَبِينُ
وَاسْتَزَادَتْ بِقَسِيمِ الدَّوْلَةِ أَلْ
مَلِكُ أَشْهَرِ عَيْناً لَمْ يَزَلْ
لَا خَلَتْ مِنْ كَحَلِ النَّصْرِ فَقَدْ
كُلُّ يَوْمٍ مَرٌّ مِنْ أَيَّامِهِ
لَوْ جَرَى الْإِنْصَافُ فِي أَوْصَافِهِ
مَا رَوَى الرَّأْوُونَ بَلْ مَا سَطَرُوا
إِذْ أُنَاخَ الشَّرْكَ فِي أَكْنَافِهِ
وَقَعَةُ طَاحَتْ بِكَلْبِ الرُّومِ مِنْ
إِنْ حَمَتْ مَصْرٌ فَقَدْ قَامَ لَهَا
وَالرُّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ [إِلَّا]^(٦) الرُّهَا
دَرَجَ الدَّهْرُ عَلَيْهَا مُعْصِراً^(٧)

٤٠/١

(١) فِي (م) الْمَخَاتِمِ.

(٢) بَتَكَ: قَطَعَ الشَّيْءَ مِنْ أَصْلِهِ. «اللسان» (بَتَكَ).

(٣) فِي الْأَصْلِ مَعْصُوباً، وَهُوَ تَصْحِيفٌ. وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ(م).

(٤) فِي (م) ثَنَاهَا، وَمِثْلُهَا عَلَى هَامِشِ الْأَصْلِ فِي رَوَايَةِ أُخْرَى لِلْبَيْتِ.

(٥) عَرَقَ فِي الْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَا تَصَاحَبَهُ. «اللسان» (وَتَن).

(٦) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي الْأَصْلِ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ(م).

(٧) الْمَعْصِرُ: الَّتِي بَلَغَتْ عَصَرَ شَبَابِهَا وَأَدْرَكَتْ، وَيُقَالُ: هِيَ الَّتِي قَارَبَتْ الْحَيْضَ. انْظُرْ

«اللسان» (عَصَرَ).

(٨) فِي الْأَصْلِ: يَدْنُسُ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ(م).

(٩) فِي الْأَصْلِ: اللَّائِمِينَ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ(م): وَاللَّامِسِينَ، مَفْرُوداً لَامِسٍ، مِنْ

الْلَمَسِ وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ. انْظُرْ «اللسان» (لَمَسَ). وَهَذَا الْبَيْتُ وَرَدَ فِي الْأَصْلِ قَبْلَ

بَيْتِ «وَالرُّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ...» وَمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ (ل) وَ(م).

ومضى لم يحو منها قسْطَ طِينٍ
 فتحلَّى (١) الحَيْنَ (٢) وسماً في الجبين
 منه كالنجمِ لرأيِ المُبْصِرِينَ
 بَعْرَانِ (٣) الذَّلَّ آسَادُ الْعَرِينِ
 تُبْدِلُ الْأُسْدَ مِنَ الزَّارِ الْأَنِينِ
 هَامَ فِي سَاحَاتِهَا نَثَرَ الْكُرَيْنِ (٥)
 مِنْ بَنِي الْقُلْفِ (٦) ثُغُورَ الشَّامَتِينَ
 بَعْدَمَا جَاسَتْ حَوَايَا جُوسَلِينَ (٨)
 فَرَّقَتْ جُمَاعَهَا عَنْهَا عِضِينَ (٩)
 عَزَمَهُ الْمَاضِي بِخَيْرِ الْفَاتِحِينَ
 مُؤْمِنُ الْخَوْفِ مَخِيفُ الْأَمِينِ
 مِنْهُ بَعْدَ الرُّوحِ (١٢) فِي ظِلِّ السَّفِينِ

هَمَّ قَسْطَنْطِينُ أَنْ يَفْرَعَهَا
 وَلَكُم مِّنْ مَّلِكٍ حَاوِلَهَا
 هِيَ أَخْتُ النِّجْمِ إِلَّا أَنَّهَا
 مُنِيَتْ مِنْهُ بَلِيْثٍ قَائِدٍ
 زَارَهَا يَزَارُ فِي أُسْدٍ وَغَى
 صَوْلَجُوا الْبَيْضَ (٤) بِضَرْبِ نَثَرِ الْ
 يَا لَهَا هِمَّةٌ تُغَرِّضُحَكَتْ
 بَرْنَسَتْ رَأْسَ بَرْنَسٍ (٧) ذِلَّةٌ
 وَسَرُوجٌ * مُذْ وَعَتْ أَسْرَاجَهُ
 تِلْكَ أَقْفَالُ رِمَاهَا اللَّهُ مِنْ
 شَامَ مِنْهُ الشَّامُ بَرْقاً وَذُقَهُ (١٠)
 كَمْ كَنِيْسٍ كُنِسَتْ أَرَامُهَا (١١)

(١) في (م) فتحلى.

(٢) الهلاك. انظر «اللسان» (حين).

(٣) العران: خشبة تُجعل في وتره أنف البعير، وهو ما بين المنخرين. «اللسان» (عرن).

(٤) أي جعلوا السيوف صواجلة، مفردها: صولجان.

(٥) مفردها كُرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان. «معجم متن اللغة»: ٥٩/٥.

وانظر «الجوكان» في كشف المصطلحات.

(٦) أي الذين لم يختنوا، ويعني الصليبيين. انظر «اللسان» (قلف).

(٧) هو أمير أنطاكية في ذلك الوقت ريموند فوتو Raymond of poitou.

(٨) هو جوسلين الثاني Joscelin II.

(٩) أي مفرقين، من عضيت الشيء إذا فرقته. انظر «اللسان» (عضه).

(١٠) مطره. «اللسان» (ودق).

(١١) مفردها: رثم وهو الخالص من الطباء، وقيل: هو ولد الطبي والجمع آرام، وقلبوا

فقالوا آرام، والأثنى رثمة. انظر «اللسان» (رأم).

(١٢) الرُّوح: السرور والفرح. «اللسان» (روح).

دَنَتِ الْأَجَالُ مِنْ آجَالِهَا فَأَحَلَّتْهَا الْقَطَا بَعْدَ الْقَطِينِ
 وَمَنَارٍ يُجْتَلَى صُلْبَانُهُ بَيْنَ بَيْضٍ تَبَارَى فِي الْبُرَيْنِ
 قَرَعَتْهُ الْبَيْضُ حَتَّى بَدَلَتْ قَرَعَةَ النَّاقُوسِ تَثْوِبَ الْأَذِينِ
 بِالْقَسِيمَيَاتِ^(١) مَقْسُومًا لَهَا الدُّ^(م) هَرَفِي عِلْكَ لُجَيْنِ^(٢) أَوْ لَجِينِ^(٣)
 سَلَّ بِهَا حَرَّانٌ * كَمْ حَرَّى سَقَتْ بَرْدًا يَوْمَ رَدَّتْ مِنْ مَارِدِينَ *
 سُمِطَتْ^(٤) * أَمْسَ سُمَيْسَاطُ * بِهَا نَظَمَ جَيْشٍ مُبْهِجٍ لِلنَّظَائِرِينَ
 وَغَدَا يُلْقَى عَلَى الْقُدْسِ لَهَا كَلْكَلٌ يَذْرُسُهَا دَرَسَ الدَّرِينِ^(٥)
 هِمَّةٌ تُمْسِي وَتَضْحِي عَزْمَةٌ لَيْسَ حِصْنٌ إِنْ نَحْتُهُ^(٦) بِحَصِينِ
 قُلْ لِقَوْمٍ غَرَّهُمْ إِمْعَالُهُ سَتَذَوِقُونَ شَذَاءَ بَعْدَ حِينِ
 إِنَّهُ الْمَوْتُ الَّذِي يُذْرِكُ مَنْ فَرَّ مِنْهُ فَشَجَاً لِلْغَافِلِينَ
 وَهُوَ يُحْيِي مُنْسَكِي عُرْوَتِهِ إِنَّهَا حَبْلٌ لِمَنْ تَابَ مَتِينِ
 مَنْ يُطْعَمُ يَنْجُ^(٧) وَمَنْ يَعْصِرُ يَكُنْ مِنْ غَدَاةٍ عِبْرَةٌ لِلْآخِرِينَ
 بِكَ يَا شَمْسَ الْمَعَالِي رُدَّتِ الرَّ^(م) وَحُ فِي الْمَيْتَيْنِ مِنْ دُنْيَا وَدِينِ
 أَقْسَمُ الْجَدُّ بَأَنْ تَبْقَى لَكِي تَمْلِكُ الْأَرْضَ يَمِينًا لَا يَمِينِ^(٨)

(١) لعل مفردا قسامي، وهو الفرس الذي أفرح من جانب، وهو من جانب آخر رباع، يعني الذي استكمل أسنانه، وهو بعد في الرابعة. انظر «اللسان» (ربع)، «تاج العروس»: (قسم).

(٢) اللجين: الفضة. «اللسان» (لجن).

(٣) اللجين: ورق الشجر يجبط، ثم يخلط بدقيق أو شعير فيعلف. «اللسان» (لجن).

(٤) أي علقت على السمط: وهو خيط النظم. «اللسان» (سمط).

(٥) في هامش (ل): هو حطام المرعى. قلت: قال الجوهري: الدرين: حطام المرعى إذا قَدَّمَ، وهو ما يلي من الحشيش. انظر «اللسان» و«الصحاح» (درن).

(٦) أي إن قصده. «اللسان» (نحا).

(٧) في (ل) ينجح.

(٨) أي لا يكذب. «اللسان» (مين).

وَتُفِيضُ الْعَدْلَ فِي أَقْطَارِهَا مُنْسِيًّا مُؤَلِّمَ عَسْفِ الْجَائِرِينَ
لَا تَزُلْ دَارُكَ كَيْفَ انْتَقَلَتْ كَعْبَةً مَحْفُوفَةً بِالْطَّائِفِينَ
كُلُّ يَوْمٍ يَتَحَلَّى جَيْدُهَا مِنْ نَظِيمِ الْمَدْحِ بِالْذُّرِّ الثَّمِينِ
كَلَّمَا أُخْلِصَ فِيهَا دَعْوَةٌ لَكَ قَالَتْ أَلْسُنُ الْخَلْقِ أَمِينُ^(١)

فصل

لما فرغ الشهيد من أخذ الرّها* وإصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البيرة*؛ وهي حصن حصين مطلّ على الفُرات، وهولجوسلين* أيضاً، فحَصَره، وضايقه، فأثاه الخبرُ بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشّرقيّة نصير الدّين جَقَر^(٢) بن يعقوب، فرحل عنها خوفاً من أن يحدث بعده في البلاد فتقّ يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سيّر إليها حُسام الدين تمرتاش بن إيلغازي؛ صاحب ماردين* عسكرياً، فسَلَّمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين؛ وسببه أن الملك ٤١/١ ألب أرسلان المعروف بالحفّاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد، وهو أتابكه ومربيّه، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان، وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالةٍ فإنما يقول: قال الملك كذا وكذا.

(١) يقال: آمين، وأمين. «اللسان» (أمن).

(٢) في هامش الأصل. «حاشية، قال المؤلف: رأيته بخط من فهم هذه الأسماء الأعجمية.

جفر: بفتح الجيم وكسر الغين المعجمة في عدة مواضع، والله أعلم».

قلت: لعله يقصد العماد الكاتب، فهو يكتبه بالغين المعجمة، انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ - ١٨٩.

وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه، ويخرج الأموال ويطلب السلطنة، فعاجلته المنيّة قبل ذلك. وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين - وهو ينزل إليه كلّ يوم يخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعود - فحسّن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان^(١) عليك. فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثبّ عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا، ويملك الملك البلاد. وكان الأمر بخلاف ما ظنّوا؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغيّر عليه بهذا الفتق شيء. وكان في جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشّهْرزُوري^(٢)؛ أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدّعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسّن له الصُّعود إليها، وحينئذٍ يستقرّ له ملك البلد. فلما صعد القلعة سجنوه بها، وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال؛ فسكن جأشه، واطمأن قلبه، وأرسل زين الدين علي بن بُكْتِكِين^(٣) والياً على قلعة الموصل - وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه - فسلك بالناس غير الطريق التي سلكها النصير، وسهّل الأمر؛ فاطمأن الناس وأمنوا، وازدادت البلاد معه عمارة. ولما رأى الشهيد

(١) في (م) فرسان، وهو تصحيف.

(٢) كان بارعاً في الفقه، ولد سنة (٤٩٥هـ) وتوفي على الصحيح سنة (٥٥٦هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٢٤٥/٤، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٣٣٣/٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣٤٠/٢ - ٣٤٢، وفيه توفي سنة (٥٦٦هـ) والتاريخ الأول نقله ابن خلكان عن «الخريدة».

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

صلاح أمر المَوْصل سار إلى حلب فجهَّزَ منها جيشاً إلى قلعة شِيزَر*، وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ، فحَصَرَهَا.

قلت^(١): كذا وقع في كتاب ابن الأثير^(٢)، وقد وَهَمَ في قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب «السُّلْجُوقِيَّة»^(٣)، فإنه قال: كان مع زَنْكِي ملكان من أولاد السُّلْطَان محمود بن محمد بن مَلِكْشَاه، أحدهما يسمَّى ألب أرسلان وهو في مَعْقِلٍ من معاقل سِنْجَار*، والآخر يسمَّى قَرْخُشَاه ويعرف بالخفاجي الملك^(٤)، وهو بالمَوْصل، وكان هذا الملك مُسَلِّماً إلى الأمير دُبَيْس بن صَدَقَة، فانتزعه منه زَنْكِي في حرب جرت، فكانت زوجة زَنْكِي خاتُون السُّكْمَانِيَّة تربيته حتى بلغ، وكان النُّصير يقبضُ عَنَانَهُ، ويسيطر فيه لسانه، ويقول: إِنْ عَقَلَ وَإِلَّا عَقَلْتُهُ، وَإِنْ نَقَلَ طَبْعَهُ وَإِلَّا نَقَلْتُهُ. فدَبَّرَ في قتله مع أصحابه، فقطعوه في دهليز داره لَمَّا دخل للسلام على الملك. ثم أصدع القاضي تاجُ الدين الملك إلى القلعة فلم يُرَ له أثر، والتقط مماليكه. ثم عطف زَنْكِي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجَه من معقله، وعُني بتفاصيل أمره وجُملته، وضَرَبَ له نوبيَّة ونوباً، ورَتَّبَ له في حالتي ركوبه وجلوسه رُتَباً، وأغري بتولِّي إكرامه وتوحيه، وغرضه خفاء ما جرى مِنْ هلاك أخيه. ثم ذكر قصة موت زَنْكِي^(٥) على قلعة جَعْبَر* كما سيأتي^(٦).

وفي سنة أربعين وخمس مئة أرسل أتابك^(٦) إلى زين الدين علي يأمره

(١ - ١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) انظر «الباهر»: ٧١، و«الكامل»: ١٠٦/١١.

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) في المصدر السابق: ويعرف بالملك الخفاجي.

(٥) انظر المصدر السابق: ١٨٩ - ١٩١، وص ١٥٤ من هذا الجزء.

(٦) في (م): أتابك زَنْكِي.

بإرسال عسكر إلى حصن فَكَّ يحصره، فسِيرَ خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة، فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاها الخبرُ بقتل الشهيد أتابك. وهذا الحصن^(١) هو مجاور جزيرة ابن عمر*، وهو للأكراد البَشُونِيَّة، وله معهم مُدَّة طويلة، يقولون نحو ثلاث مئة سنة، وهو من أمنع الحصون، مُطلٌّ على دِجْلَةٍ، وله سَرَبٌ إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت: وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقَّة* عماد الدين زُنكي، يهنئه بالعافية من مرضٍ عَرَضَ له في يده ورجله قصيدةً أولها:

يا بَذْرُ لا أَقْلُ ولا مُحَاقُ ^(٢)	ولا يَرِمُ ^(٣) مشرقك الإِشراقُ
بالدين والدنيا الذي تشكو وهل	يهتَزُ فَرْعٌ لم يُقْمِه ساقُ
لن تُورِقَ القُضْبُ ويجري مأوُّها	فيها إذا ما التائبُ الأعراقُ
إن الرعايا ما سَلِمَتْ في حمى	لِلخُطْبِ عن طُرُوقِهِ إِطراقُ
عَرَسَتْ بِالْعَدْلِ لَهم خمائلًا	ترتع في حديقِها الحِداقُ
يا هُضْبَةَ الدِّينِ التي عاذَ بها	فَعادَ لا بَغْتُ ولا إِزْهاقُ
لو لم تَحْطُ راجِلًا وقافلاً	أصبح لا شامُ ولا عِراقُ
عمادُ دينٍ مُذْ أقام زِيغُهُ	حيٍّ وماتَ الشُّرْكُ والنِّفاقُ
يا محيي العَدْلِ الذي في ظِلِّه	تسربَلَتْ زِينَتُها الأفاقُ
يَفْدِيكَ مَنْ لَأَن مِهَادُ جَنبِهِ	لَمَّا نَبَا بِجَنبِكَ الإِقلاقُ
من بِشْبَا سَيْفِكَ ^(٤) أَنْبَطَتْ ^(٥) لَهُ الـ	عَذَبَ وماءُ عَيْشِهِ زُعاقُ ^(٦)

(١) بينهما نحو فرسخين كما في «معجم البلدان»: ٢٧٨/٤.

(٢) في (م) لا أفق ولا محال، وهو وهم.

(٣) أي لا يبرح. «اللسان» (ريم).

(٤) أي يحد سيفك. «اللسان» (شبا).

(٥) أي استخرجت. انظر «اللسان» (نبط).

(٦) ماء زعاق: مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته. «اللسان» (زعق).

تَجَرَّعَ السَّمَّ وَلَوْ لَمْ تَحْمِهِ
 ملوك أطرافٍ حمى أطرافها
 لو لَمْ تَرَقْ ماءً كرى العين لَمَا
 شَقَقَتْ مِنْ دُونِهِمْ مَوْجَ الرَّدَى
 أَقْسَمَ لَوْ كَلَّفْتَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا
 لَمَّا اشْتَكَيْتَ دَبًّا فِي أَهْوَائِهِمْ
 تَطَاوَلُوا لَا عَدَمْتَ آمَالَهُمْ
 تَوَهَّمُوهَا غَسَقًا ثُمَّ انْجَلَتْ
 لَثْنُ أَلَمٍ أَلَمٍ بِقَدَمٍ
 أَوْ كَانَ مَدًّا يَدُهُ إِلَى يَدٍ
 فَالْنَّضْلُ يُعْلَى صَدًّا وَتَحْتَهُ
 رَمَى الصَّلِيبِ بِصَلِيبِ الرَّأْيِ عَنْ
 وَنَوْمٍ مَنْ خَلْفَ الْخَلِيجِ سَهْرٌ
 مَاتُوا فَلَا هَمْسٌ وَلَا إِشَارَةٌ
 لَا سَلَبَتْ مِنْكَ اللَّيَالِي مَا كَسَتْ

بَحْدَهُ لَعَزَهُ الدَّرِيَاقُ^(١)
 عَزَمَكَ هَذَا اللَّاحِقُ السَّبَاقُ
 سَاغَتْ بِأَفْوَاهِهِمُ الْأُرْيَاقُ^(٢)
 وَشَقَّ أَكْبَادَهُمُ الشَّقَاقُ
 حَدِيثَ أَيَّامِكَ مَا أَطَاقُوا
 تَوَجَّسُ لِلْسَّمْعِ وَاسْتِرَاقُ
 قَصْرًا وَلَا جَانِبَهَا الْإِخْفَاقُ
 وَالصَّفْوُ مِنْ مَشْرِبِهِمْ غَسَاقُ^(٣)
 خَدُّ الشُّهَا^(٤) لَنَعْلَهَا طَرَاقُ
 تَجْرِي بِهَا الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ
 حَدُّ حَسَامٍ وَسَنَاءُ رَقَرَاقُ
 زَوْرَاءُ أَوْفَى^(٥) نَزَعَهَا الْإِغْرَاقُ
 وَالْعَيْشُ فِي فَرَنْجَةٍ سِيَاقُ^(٦)
 خَوْفُ هَمُوسٍ زَارَهُ إِزْهَاقُ
 وَلَا عَرَا^(٧) جِدَّتَكَ الْإِخْلَاقُ

(١) لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين.
 انظر «اللسان» (ترق، درق).

(٢) مفردا ريق، وهو اللعاب. انظر «اللسان» (ريق).

(٣) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسلاتهم. «اللسان» (غسق).

(٤) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. «اللسان» (سها).

(٥) في النسخ الخطية «أوهى»، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

(٦) نزع الروح عند الموت. «اللسان» (سوق).

(٧) في الأصل و (ل) عرت، والمثبت من (م).

فصل في وفاة زُنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جَعْبَر* قد سلمها السلطان مَلِكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العُقَيْلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب^(١)، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين. فسار الشهيد إليها فحصرها، وكان الباعث له على حصرها وحَصْرِ فَنَك* ألا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قلَّ، لِلْحَزْم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع^(٢) خمس ليالٍ. فبينما هو نائم دخل عليه نفرٌ من مماليكه فقتلوه غيلةً ولم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله. فلما صَعِدَ أولئك النفر إلى القلعة صاح مَنْ بها إلى العسكر يُعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم^(٣) وبه رمق. ثم ختم الله بالشهادة أعماله:

لاقى الجِمام ولم أكن مُستيقناً أن الجِمام سيُتلى بِجِمامٍ
فأضحى وقد خاناه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلَّى عنه العبيد والخول،
فأيّ نجم للإسلام أفل، وأي ناصرٍ للإيمان رحل، وأي بحر ندىّ نضب، وأي
بدر مكارم غرب، وأي أسدٍ افترس، ولم يُنْجِه قُلَّةٌ^(٤) حصن ولا صهوة فرس.
فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها^(٥) في حفظه وحراسته،
فأتاه مبيدُ الأمم، ومُفْنِيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق

(١) انظر ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) الآخر.

(٣) في (ل) أوائله، وهو وهم.

(٤) القلعة: أعلى الجبل، وقلعة كل شيء أعلاه. «اللسان» (قلل).

(٥) في «الباهر»: أذابها.

مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التراب مُعْفَراً مقبوراً، رهينَ جَدَثٍ لا ينفعه إلا ما قَدَّمَ، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوقٌ في صورة مستسلم. ثم دُفِنَ بصفيّين عند أصحاب عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه^(١).

قلت^(٢): وذكر العماد الكاتب في كتاب «السُّلْجُوقِيَّة»، قال: قصد زُنْكي حصار قلعة جَعْبَر* فنازلها، وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خُدّامه الصُّباح، وهو يحبهم ويحبُّوهم ولكنه مع الوفاء منهم يجفّوهم، وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والرُّوم. وكان من دأبه أنّه إذا نَقِمَ على كبيرٍ أَرْدَاهُ وأَقْصَاهُ، واستبقَى ولده عنده وخصّاه. فنام ليلة موته وهو سُكران، فشرع الخُدّام في اللَّعْبِ فزجرهم، وزبرهم وتوعَّدَهم، فخافوا من سطوته. فلما نام ركبهُ كبيرهم، واسمه يرنقش، فذبّحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرسَ النُّوبَةِ مُوهِماً أنّه يمضي في مُهمٍّ، وهو لا يُرتاب به لآنه خاصّ زُنْكي. فأَتَى الخادمُ أهلَ القلعة فأخبرهم^(٣). وذكر الحديث^(٤).

قلت: ثم نقل إلى الرِّقَّة فُدْفِنَ بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الأثير: وكان حسنَ الصُّورة أَسْمَرَ، مَلِيحَ العَيْنين، قد وَخَطَهُ الشَّيْبُ، طَوِيلاً وليس بالطويل البائن، وخَلَفَ من الأولاد: سيف الدين غازياً، وهو الذي وَلِيَ بعده، ونور الدِّين محموداً الملك العادل، وَقُطِبَ الدِّين ٤٣/١ مودوداً؛ وهو أبو الملوك بِالْمَوْصِل، ونُصْرَةُ الدِّين أمير أميران، وبتناً، فانقرض عقب سيف الدِّين من الذكور والإناث، ونور الدِّين من الذكور، ولم يبقَ الملكُ إلا في عقب قطب الدِّين. ولقد أنجب رحمه الله؛ فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم^(٤).

(١) انظر «الباهر»: ٧٣ - ٧٦.

(٢) (٢ - ٢) ما بينهما ليس في (م).

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٠.

(٤) «الباهر»: ٧٦.

قلت: ومن عجيب ما حُكي أنه لما اشتدَّ حصار قلعة جَعْبَر* جاء في الليل ابنُ حَسَّان المنبجي، ووقف تحت القلعة، ونادى صاحبها، فأجابه، فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزرٍ ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وأخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأني شيء تنتظر؟! فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي أنتظر أبوك. وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصاراً^(١)، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أي شيء تنتظر، ما تسلم الحصن؟! فقال له حَسَّان: أنتظر سهماً من سهام الله. فلما كان من الغد يَبِينَا^(٢) بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سَهْمٌ غَرِبَ^(٣) وقع في لَبَنه فخر ميتاً، ولم يكن [من]^(٤) جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان؛ لأنه كان قد لبس الدرع ولم يَزُرْها على صدره. فلما سمع ابنُ حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جَعْبَر رجع عنه. وفي تلك الليلة قُتل أتابك، فكان هذا من الاتِّفاقات العجيبة والعَبَر الغريبة^(٥). ذكر ذلك يحيى بنُ أبي طي في كتاب «السيرة الصلاحية»^(٦).

(١) كان ذلك سنة (٥١٨هـ). انظر «الكامل»: ٦١٩/١٠، وبلك من أشهر الأراقة الذين حكموا حلب بعد عمه إيلغازي.

(٢) في الأصل: جاء، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي لا يعرف راميهِ. «اللسان» (غرب).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) أورد القصة أيضاً ابن الأثير في كتابه: «الباهر» ٧٤، و«الكامل»: ١٠٩/١١ - ١١٠،

وفيهما أن حسان هو صاحب الرسالة لا ابنه. وهو ما أورده أيضاً الفارقي في تاريخه. انظر

ص (٢٨٥) الحاشية رقم (١) من «ذيل تاريخ دمشق» ط أمدرود.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني.

فصل

في ذكر بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانت (١) من أحسن سير الملوك وأكثرها حزمًا وضبطاً للأمور (٢)، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف. قال ابن الأثير: حدثني والدي قال: قدم الشهيد (٣) أتابك زنكي (٣) إلينا بجزيرة ابن عمر* في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام. وكان في جُملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي — وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الرأي عنده — فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدبيسي نظر مُغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقري، ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها، ولم تكن الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين. قال: فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته (٤).

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأني حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الاقطاعات تُغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعذوا عليهم وغضبهم أملاكهم (٥).

ثم ذكر ما تجدد في أيامه من عمارة البلاد، لا سيما بالموصل؛ وذلك

(١) في الأصل و (ل) وكان، والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و (ل) وضبط الأمور، والمثبت من (م).

(٣ - ٣) ما بينهما ليس في (ل) و (م).

(٥) «الباهر»: ٧٧.

(٤) «الباهر»: ٧٦ - ٧٧.

لِحُسْن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة. وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدَّار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان. ثم رفع سورَها وعمق خندقها. وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب^(١).

قال: وكانت المَوْصل أقلَّ بلاد الله فاكهةً، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقصُّ به العنب لِقْلَتَه إذا أراد أن يزنه، فلما عُمِرت البلاد عُمِلت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها^(٢).

قال: ومن حُسْن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سِيَّما دَرْكاه* السُّلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره؛ من حرب وسلم، وهَزْل وجَدّ، وغير ذلك، فكان يصل إليه كلَّ يوم من عيونه عِدَّة قاصدين^(٣). وكان مع اشتغاله بالأمر الكبار من أمور الدَّولة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يُعرف الصغير لِيُمنع صار كبيراً^(٤).

وكان لا يُمكن رسولَ ملكٍ يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسولٌ في العبور في بلاده أذن له، وأرسل إليه من يُسيره، ولا يتركه يجتمع بأحدٍ من الرِّعية ولا غيرهم؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم^(٥) من أحوالها شيئاً البتة^(٦).

(١) انظر «الباهر»: ٧٧ - ٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في الأصل: عدة كتب، والمثبت من (ل) و (م)، والقاصد: هو الذي يحمل الرسائل في مهمات رسمية. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٣٥٥/٢.

(٤) «الباهر»: ٧٨.

(٥) في (ل) و (م): ولم يعلم.

(٦) «الباهر»: ٤٧.

وكان يتعهّد أصحابه ويمتحنهم، سلّم يوماً خُشْكَنَانِكَةَ^(١) إلى طُشْتِ دارٍ* له، وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنةٍ لا تفارقه الخُشْكَنَانِكَةَ خوفاً أن يطلبها منه. فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخُشْكَنَانِكَةُ؟ فأخرجها من^(٢) منديلٍ وقَدَّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً لحصن. وأمر له بدُزْدَارِيَّةٍ* قلعة كَوَاشِي*، فبقي فيها إلى أن قُتِل أتابك^(٣).

وكان لا يُمكن أحداً من خَدَمِهِ من مفارقة بلاده و[كان]^(٤) يقول: إن البلاد كبستانٍ عليه سياج، فمن هو خارج السِّياج يهابُ الدُّخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرَّق الخصوم إليها^(٥).

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سَيَّر طائفةً من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق^(٦) إلى الشَّام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، ومَلَكَهُمْ كُلَّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يُغادون الفرنج بالقتال ويُرَاحونهم، وأخذوا كثيراً من السَّواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ست مئة^(٧).

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودَعَ بعضها بالموصل، وبعضها بسنْجار*، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض

(١) نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق، ويكون على هيئة الهلال. انظر «المعرب»: ١٣٤ ودوزي: ٣٧٣/١.

(٢) في (ل) و(م): في.

(٣) «الباهر»: ٧٩.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

(٥) «الباهر»: ٧٩.

(٦) الضبط من الأصل.

(٧) «الباهر»: ٨٠.

هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره^(١).

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النّهاية فيهما، وبه كان تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة؛ أن ولايته أهدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها؛ بيت سُكّمان، وركن الدولة داود صاحب حصن كَيْفَا*، وابن عمه صاحب ماردين*، ثم الفرنج، ثم [صاحب]^(٢) دمشق. وكان يتصفّ منهم ويغزو كلّاً منهم في عُقر داره، ويفتح من بلادهم، ما عدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده^(٣).

قال: وأما غَيْرَتُهُ فكانت شديدةً ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرّض إليهنّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلّما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرّض إلى حُرْمهم هلكن وفَسَدُن^(٤).

قلت: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخُدري، وذكر حديثَ رجم النبي ﷺ ما عَزَأَ، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً قال:

(١) «الباهر»: ٨٠.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) انظر «الباهر»: ٨٠ - ٨١.

(٤) «الباهر»: ٨٤.

«أَوْكَلْنَا انْطَلَقْنَا غَزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا لَهُ نَيْبٌ كَنَيْبِ التَّيْسِ^(١)، عَلَيَّ أَنْ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَّ ذَلِكَ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ^(٢)».

قال ابن الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزداراً* اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه [عنه]^(٣) أنه يتعرّض للحُرَم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبساني أن يسير مُجِداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبةً لنظره بهما إلى الحُرَم، ثم يصلبه. فسار الصّلاح مُجِداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصّلاح، ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسَلِّم عليك ويريد أن يُعَلِّيَ قدرك، ويرفع منزلتك، ويسلِّم إليك قلعة حلب، ويوليكَ جميع البلاد الشّامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهّز وتحذر مالك في الماء إلى المَوْصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السّفن ليحدرها إلى المَوْصل في دِجْلَةٍ. فحين فرغ من جميع ذلك أخذ الصّلاح، وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله^(٤).

قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدّق كل جُمعة بمئة دينار أمير^(٥)ي ظاهراً، ويتصدّق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به. وركب يوماً فعثرت به دابّته فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم

(١) النيب: صوت التيس عند السفاد. انظر «اللسان» (نـب).

(٢) انظر «صحيح مسلم»: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى: ٣/ ١٣٢٠ - ١٣٢١، رقم الحديث (١٦٩٤).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) «الباهر»: ٨٤.

(٥) في (ل): أميرية.

يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصَّتكَ، وافعل ما يأمرُك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهْلِك. فلم تزل زوجته تراجعهُ وتُقَوِّي عزمه، فعرفَ النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصُّرَّة الدَّنَانِير واحملها إليه فهي التي أراد. فقال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصُّرَّة. فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم. فأمره أن يتصدَّق به. فلما فرغ من الصَّدقة قصد النصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر، [و] ^(١) يرسلُ إلي يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابَّته عثرت به حتى كاد يسْقُط على ^(٢) الأرض، وأرسلك إلي، فعلمتُ أنه ذكر الصَّدقة ^(٣).

قال: وحُكي لي من شِدَّة هيئته ما هو أشدُّ من هذا. قال والدي: خرج يوماً الشَّهيد من قلعة الجزيرة من باب السَّرَّ خلوة وملاح له نائم، فأيقظه بعضُ الجاندارية* وقال له: اقعد. فحين رأى الشَّهيد سقط إلى الأرض [فحرَّكوه] ^(٤) فوجدوه ميتاً ^(٥).

قال: وكان الشَّهيد قليل التلُّون والتَّنقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم ^(٦)، لم يتغيَّر على أحدٍ من أصحابه مُدَّة مَلَك إلى أن قُتل إلَّا بذنب

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

(٢) في (ل) و(م): إلى.

(٣) انظر «الباهر»: ٨١ - ٨٢.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) «الباهر»: ٨٢.

(٦) في (ل): الحزم.

يُوجب التَّعْيِيرَ، والأُمراءَ والمَقْدَّمونَ الذين كانوا معه أولاً هُم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل. ٤٥/١. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرِّجال ذوي الهمم العليَّة، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسِّع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف^(١).

قلت: وما أحسنَ ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذَرَا^(٢) مَلِكٍ هُوَ الدَّهْ رُ عَطَاءٌ وَاسْتِلاِبَا
مَنْ لَه كَفٌّ تَبَذُّ ال غِيْثٌ سَحًا وَانْسِكَابَا
فَاتَحْ فِي كُلِّ وَجِهٍ أَمَّهُ لِنُصْرٍ بَابَا
تَرْجُفُ الدُّنْيَا إِذَا حَرَّ (م) كُ لِّلْسِيرِ الرُّكَّابَا
وَتَخِرُّ الْمُشْمَخِرَا تُ^(٣) اخْتِلَالًا وَاضْطِرَابَا
وَتَرَى الْأَعْدَاءَ مِنْ هَيْ بَتِه تَأْوِي الشُّعَابَا
وَإِذَا مَالَفَحَتَهُمْ^(٤) نَارُهُ صَارُوا كِبَابَا
يَاعِمَادَ الدِّينِ لَا زِلْدَ تَ عَلَى الدِّينِ سَحَابَا
جَاعِلًا مِنْ دُونِهِ سَيِّ فَكَ إِنْ رِيعَ حِجَابَا

(١) انظر «الباهر»: ٨٢ - ٨٣.

(٢) في (م): دار، وهو تصحيف. والدُّرَا: الكنف والستر، «معجم متن اللغة» ٤٩٦/٢.

(٣) أي الجبال العالية. انظر «اللسان» (شمخر).

(٤) في (م): لفحته، وهو تصحيف.

فالبس النعماء في الأم من الذي طُبَّت وطابا
واصف عيشاً إن أعدا ءك قد صاروا تُرابا

وقال العماد الكاتب: استولى زُنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرُّها* عَنوةً، واحتلَّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرُّها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين، وعادَ جميعُها إلى الإسلام في عهد ولد زُنكي نور الدين، وصارت عقودُ الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تُفترع^(١).

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زُنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة، والأمانة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في الإفساد في الأطراف^(٢)، والعيث في سائر النواحي والأكناف؛ ونظمت في صفة هذا الحال أبياتاً من قصيدة:

كذلك عماد الدين زُنكي تنافرت	سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مالٍ من نُضار ^(٣) وجوهر	أنواع ديباج حوتها مخاتمته
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة	يُحامي ^(٤) عليها جُنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم	يروع الأعادي حليته وبراجمه
فلو رامت الكتاب وصف شياتها	بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

(١) «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٧.

(٢) في الأصل و(ل): في فساد الأطراف، والمثبت من (م)، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦.

(٣) النضار: اسم الذهب والفضة، وقد غلب على الذهب. «اللسان» (نضر).

(٤) في (م): يحاوي، وهو تصحيف.

وكم معقلٍ قد رامَهُ بِسُيُوفِهِ
ودانت وُلاَةُ الأرضِ فيها لأمَرِهِ
وأمنَ مَنْ في كُلِّ قُطْرٍ بِهَيْبَتِهِ
وظالم قومٍ حين يُذَكَّرُ عَدْلُهُ
وأصبحَ سُلْطَانُ البلادِ بِسيفِهِ
وزادَ على الأملاكِ بَأْساً وَسُطُوءاً
فلما تنامى مُلْكُهُ وجلالُهُ
أتاهُ قضاءٌ لا تُرَدُّ سَهَامُهُ
وأدركه للحين فيها جِمامُهُ
وأضحى على ظَهْرِ الفراشِ مُجَدَّلاً
وقد كان في الجيشِ اللُّهَامُ^(١) مَبِيتُهُ
وسَمُرُ العوالي حَوْلَهُ بِأَكْفِهِمْ
ومن دونِ هذا عُصْبَةٌ قد تَرَبَّتْ
وكم رامَ في الأيامِ راحةَ سِرِّهِ
وكم مَسْلُكٌ لِلسُّفَرِ أَمْنٌ سُبْلُهُ
وكم ثَغَرِ إِسلامٍ حِماهُ^(٢) بِسيفِهِ
فمن ذا الذي يأتي بهيئة مثله
فلو رُقِيت في كُلِّ مِصْرٍ بِذِكْرِهِ
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهْرِ سالماً

وشامِخٍ حِصْنٍ لم تَفْتَهُ غَنائِمُهُ
وقد أَمَنَّتْهُمْ^(١) كُتْبُهُ وَخَوَاتِمُهُ
يُرَاعُ بها أَعْرَابُهُ وَأَعاجِمُهُ
فقد زالَ عنهم ظُلْمُهُ وَخِصائِمُهُ
وليس له فيها نَظِيرٌ يُزَاحِمُهُ
ولم يبق في الأملاكِ مَلِكٌ يَقاوِمُهُ
وراعتُ وُلاَةُ الأرضِ مِنْهُ لَوائِمُهُ
فلم تُنْجِه أَمْوالُهُ وَمَغَايِمُهُ
وحامت عليه بِالْمَنُونِ حَوائِمُهُ
صريعاً تَوَلَّى ذَبْحَهُ فِيهِ خادِمُهُ
وَمِنْ حَوْلِهِ أَبْطالُهُ وَصَواريِمُهُ
تَذُودُ الرَّدَى عنه وقد نامَ نائِمُهُ
بَأْسُهُمْ يُرْدَى مِنَ الطَّيْرِ حائِمُهُ
وهِمَّتُهُ تَعْلُو وَتَقْوى شِكايمُهُ
ومسرحٍ حَيٍّ أن تُرَاعَ سوائِمُهُ
من الرُّومِ لما أذَرَكْتُهُ مَراجِمُهُ
وتَنَفَّذَ في أَقصى البلادِ مَراسِمُهُ
أَراقِمُهُ ذَلَّتْ هَناكَ أَراقِمُهُ^(٤)
إذا ما أتاهُ الأَمْرُ وَاللهُ حاتِمُهُ

(١) في الأصل: أمنتهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء. انظر «اللسان» (لهم).

(٣) في الأصل و (ل): حواه، والمثبت من (م).

(٤) الأرقم من الحيات الذي فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات وأطلبها للناس.

انظر «اللسان» (رقم).

وَمَنْ رَامَ صَفْوًا فِي الْحَيَاةِ فَمَا يَرَى لَهُ صَفْوَ عَيْشٍ وَالْجَمَامُ يُحَاوِمُهُ
فَلْيَاكَ لَا^(١) تَغِيْطُ مَلِيكًا بِمُلْكِهِ وَدَعُهُ فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا شَكَّ قَاصِمُهُ
وَقُلْ لِلَّذِي يَبْنِي الْحَصُونَ لِحِفْظِهِ رُوَيْدَكَ مَا تَبْنِي فَدَهْرُكَ هَادِمُهُ
وَفِي مِثْلِ هَذَا عِبْرَةٌ وَمَوَاعِظُ بِهَا يَتَنَاسَى الْمَرْءُ مَا هُوَ عَازِمُهُ^(٢)

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرنقش
القاتل لعماد الدين زنكي، وانفصل من قلعة جعبر* لخوف صاحبها من طلبه
منه، فوصل دمشق متيقناً أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله، وظناً منه أن الحال
على ما توهمه، فقبض عليه، وأنفذ إلى حلب صُحبة من حفظه وأوصله إليها،
فأقام بها أياماً، ثم حُمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها^(٣).

قلت: وللحكيم أبي الحَكَم المغربي^(٤) قصيدة في مرثية الشهيد عماد
الدين زنكي رحمه الله، منها:

(١) في الأصل: أن، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر القصيدة بتمامها في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.

(٤) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي الحكيم أندلسي الأصل، عالم بالطب
والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه،
وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جلاً، توفي في دمشق سنة (٥٤٩هـ) له
ديوان سماه «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» لم يصلنا. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء»
لابن أبي أصيبعة: ٦١٤ - ٦٢٧، و«خريدة القصر»: ق ٤/ج ١/٣٦٩ - ٣٨٢، و«وفيات
الأعيان»: ١٢٣/٣ - ١٢٥، و«نفح الطيب»: ٦٣٧/٢ - ٦٣٩، و«تاريخ الأدب
العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ١٢٩/٥ وابنه محمد أفضل الدولة أبو المجدد كان
طبيب نور الدين، وتولى البيمارستان النوري، وشرح ديوان أبيه، توفي سنة (٥٧٠هـ)
أو ما قبلها. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء»: ٦٢٨، و«الوفاء بالوفيات»: ٣/٣٣٠ -
٣٣١، و«نفح الطيب»: ٦٣٨/٢.

عَيْنُ لَا تَذْخِرِي الدَّمْعَ وَبَكِّي واستهلي دماً^(١) على فقد زُنْكِ
لَمْ يَهَبْ شَخْصَهُ الرَّدَى بَعْدَ أَنْ كَا نَتْ لَهُ هِيَّةٌ عَلَى كُلِّ تُرْكِي
خَيْرُ مَلِكٍ ذِي هِيَّةٍ وَبِهَاءٍ وعظيم بين الأنام بُزْرُكُ^(٢)
يَهَبُ الْمَالَ وَالْجِيَادَ لِمَنْ يَمَّ (م) مَهْ مَادِحاً بِغَيْرِ تَلْكَي
إِنَّ دَاراً تَمْدُنَا بِالرَّزَايَا هي عِنْدِي أَحَقُّ دَارٍ بِتَرْكِ
فَاسْكُبُوا فَوْقَ قَبْرِهِ مَاءً وَرِدٍ وَاَنْضَحُوهُ بِزَعْفَرَانٍ وَمِسْكِ
أَيُّ^(٣) فَتْكِ جَرَى لَهُ فِي الْأَعَادِي بَعْدَ مَا اسْتَفْتَحَ الرُّهَاءُ* أَيُّ فَتْكِ
كُلُّ خَطْبٍ أَتَتْ بِهِ نُوبُ الدَّهْرِ رَ يَسِيرُ فِي جَنْبِ مَضْرَعِ زُنْكِ
بَعْدَ مَا كَادَ أَنْ تَدِينَ لَهُ الرُّو مُ وَيَحْوِي الْبِلَادَ مِنْ غَيْرِ شَكِّ^(٣)

فصل

فِيمَا جَرَى بَعْدَ زُنْكِ مِنْ تَفَرُّقِ أَصْحَابِهِ وَتَمَلُّكِ وَلَدَيْهِ غَازِي
وَمَحْمُود

قال الرئيس أبو يعلى: توجَّه الملك ولد السلطان، المقيم كان معه،
فيمن صحبه وانضمَّ إليه إلى ناحية الموصل، ومعه سيف الدين غازي بن
عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك^(٤) أياماً إلى
حين تقرَّرت الحال بينهم. ثم فتح الباب، ودخل ولده، واستقام له الأمر،
وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين - يعني

(١) في (م) دمعاً، وهو تحريف.

(٢) كلمة فارسية تعني: الكبير، العظيم. «قاموس الفارسية»: ١٠٣.

(٣ - ٣) ما بينهما ليس في (ل)، وانظر الأبيات في «خريدة القصر»: ق ٤/ج ٣٧٨/١ - ٣٧٩.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء. وفي «وفيات الأعيان»: ١١٤/٤ «وكان قصيراً، ولهذا قيل له كجك وهو لفظ أعجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر».

محمد بن أيوب الياغبرساني - في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها، وشرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدّهماء. وفصل عنه الأمير صلاح الدين، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمرٍ يُدبّر عليه^(١).

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر*، وسير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنّا أقرر أمور الشام وأتوجّه إليكم. ثم قصد حلب، ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ورثب النّوّاب في القلعة والمدينة^(٢).

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: لما اتّصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين^(٣) قد أخذ عسكر الموصل وعزم^(٤) على تقديم أخيك سيف الدين وقصده [إلى]^(٥) الموصل، وقد انضوى إليه جُلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه^(٦)، وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب، وتجعلها كرسي مملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٤٧ ب.

(٣) توفي سنة (٥٥٩ هـ) سترد ترجمته مفصلة في ص ٤٢٠ وما بعدها من هذا الجزء.

(٤) في (م) وعول.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (ل) إليه.

بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشَّرْق. فركب وأمر أن يُنادى في الليل في عساكر الشَّام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول^(١). ولما دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمتُّ بأنه كان السَّبب في توليته.

[و] قال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشَّهيد ركب الملك ألب أرسلان بن السُّلطان محمود - وكان مع الشَّهيد - واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصَّلاح يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلِّك طريقاً نبقى به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله ونتداركه في بدايته^(٢) لَتَيْسَعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُه. فأجابه الصَّلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصَّلاح، وقالوا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطيعُه. فقبل قولهما، وظنَّ حقاً، وقربهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسل إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعرفانه قتل الشَّهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي - وهو ولد عماد الدين زُنكي الأكبر - وإحضاره إلى المَوْصِل، وكان بشَهْرُزُور*، وهي إقطاعه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشَّهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شِيرْكُوهِ عليه بذلك، وقال الجمال

(١) كذا ذكر ابن أبي طي، وقد مرَّ في خبر ابن عساكر أنه دخلها سابع ربيع الآخر، وهو الصحيح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) بلاده، وهو تحريف.

للملك: إِنَّ من الرأي أن تُسَيَّر الصّلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبّر أمره - وكانت حماة إقطاع الصّلاح - فأمره فسار^(١)، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرّقة*. فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل^(٢) والنّعم الوافرة. وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرّقة عدّة أيام، ثم سار به إلى ماكسين* فتركه بها عدّة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذّاته عن طلب الملك، ثم سار [به]^(٣) نحو سنجار*. وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سنجار، فأرسل إلى دُزدارها* وقال له: لا تُسلم البلد ولا تُمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له: إنّنا تبع الموصل، فمتى دخلت الموصل سلّمتُ إليك [البلد]^(٤). ففعل الدُزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنّا نسير إلى الموصل، فإنّ مملوكك غازي إذا سمع بقرّبنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد. فساروا عن سنجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقي في قلّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد*، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسِي في عسكرٍ إلى الملك^(٥)، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. واستقرّ أمر سيف الدين،

(١) في الأصل: وسار، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (ل) الإقطاعات الجزيلة.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل و(ل) إلى الملك في عسكر، والمثبت من (م).

وأقرَّ زين الدِّين على ما كان عليه من ولاية المَوْصل، وجعل الجمال وزيره. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرَّه على البلاد، وأرسل له الخَلْع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفيراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف^(١).

قال ابن الأثير: فانظروا^(٢) إلى فعل جمال الدين وحُسن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: [من]^(٣) النَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين^(٤).

قال: ولما استقرَّ سيفُ الدين في الملك أطاعه جميعُ البلاد ما عدا ما كان بديار بكر: كالمعدن* وجيزان* وإسعرد* وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها^(٥).

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه^(٦) وتقرير أمر البلاد عَبَرَ إلى الشام لينظر في تلك النواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يرأسله ويستميله، فكلَّمَا طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل

(١) انظر «الباهر»: ٨٤ - ٨٦.

(٢) في (م) فانظر.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

(٤) «الباهر»: ٨٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) أي تحليف السلطان مسعود.

واحدٍ [منهما]^(١) خمس مئة فارس، فلما^(٢) كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمس مئة فارس^(٣)، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقَبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالَعُود عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ٤٨/١ ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بمعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالَعُود وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده^(٣).

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خيرَ الملوكِ أباً وجَدًّا	وأنقَهم ^(٤) حياً لغليلِ صَادٍ
علَّوْا وغَلَّوْا وقالَ الناسُ فيهم	شوارِدَ من ثُناءٍ أو أحَادٍ
وما اقتَسَموا وما عمدوا ^(٥) بناهم	بمنصبك القَسيميِّ العِمادي ^(٦)

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

(٢ - ٢) ما بينهما ليس في (ل).

(٣) انظر «الباهر»: ٨٧ - ٨٨.

(٤) أي أرواهم. انظر «اللسان» (نقع).

(٥) في (ل) و(م): ولا عمدوا.

(٦) في (م) هذا البيت هو أول الأبيات.

وهل حلب سوى نفس شعاعٍ تقسمها^(١) التّمادي والتّعادي
نفى ابن عماد دين الله عنها^(٢) الشد (م) كاة فأصبحت ذات العماد
تبخر في كسا عدلٍ وبذلٍ مدبجة التهائم والنجاد
وفي محرابها داودٌ منه يهدب حكمه آيات صاد
تجاوزت النجوم فأين تبغي ترقّ فلا خلوت من ازدياد

فصل

فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والإفرنج المخدولين

قال ابن أبي طي: في سابع يومٍ من استقرار نور الدين بحلب اتصل
خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية اليمند^(٣)، فخرج ليومه في عساكر أنطاكية،
وقسم عسكره قسمين: قسماً نفّذه إلى جهة حماة، وقسماً أغار به على جهة
حلب، وعاث في بلادها - وكان الناس آمنين - فقتل وسبى عالماً عظيماً،
وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبر إلى حلب، فخرج
أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير، ففاته
الفرنج، وأدرك جماعة من الرّجالة يسوقون الأسرى فقتلهم، واستنقذ كثيراً
مما كانت الفرنج أخذته، وسار مُجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شنّ الغارة
على بلد أرتاح*، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفراً.

(١) في (م) تقاسمها.

(٢) في الأصل و(ل): «نفى ابن عماد الدين عنها»، والمثبت من (م)، وبه يستقيم الوزن.

(٣) وهم ابن أبي طي في تسمية صاحب أنطاكية يومئذ إذ هو ريموند فوتو Raymond of

Bohemond بوهموند .

انظر «تاريخ الحروب الصليبية» ستيفن رنسيما (الترجمة العربية): ٣٨٦/٢ - ٣٨٧.

وقال ابن الأثير: لما قُتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بَعْلَبَك وحاصرهم، وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسَلَّمها إليه، وأخذ منه مالا، ومَلَّكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها^(١).

وقال ابن أبي طَيِّ: اشتدَّ صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء — لما شاء الله — من حصن بَعْلَبَك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدَّ الأمر، فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين، وأقرَّ له الثُلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقرَّه فيها. ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدَّاية حتى ولَّاه جميعَ أموره وجميع مملكته، فشَقَّ ذلك على أسد الدين.

قال الرَّئيس أبويعلى: لما اتصل خبر موت رَنُكي بمعين الدين أُنر شرع في التَّأهُّب والاستعداد لقصد بَعْلَبَك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنقات. فنزل عليها وضايقها، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قِلَّةً دعتهُم إلى النزول على حكمه. وكان الوالي بها ذا حزمٍ وعقل ومعرفةٍ بالأمور، فاشتراط ما قام له به من إقطاعٍ وغيره، وسَلَّم البلد والقلعة إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسَلَّم ما فيه من غِلَّةٍ وآلَةٍ في أيامٍ من جُمادى الأولى من السنة. وراسل^(٢) معين الدين الوالي بحمص، وتقرَّرت بينه وبينه مُهادنة ومُودعةٌ يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال. ووقعت

(١) انظر «الكامل»: ١١٨/١١. وص ٤٠٥ من هذا الجزء.

(٢) في (م)، وأرسل، وهو تصحيف.

المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماة، وتقرر بينهما مثل ذلك. ثم انكفاً بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك، وترتيب من رتبته لحفظها والإقامة فيها^(١).

قال: ووردت الأخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين* جمع الإفرنج من كل ناحية، وقصد مدينة الرها*، على غفلة، بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدواب في الطرقات من شدة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم. وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل، وانهزم إلى بُرجٍ يقال له برج الماء، فحصل فيه ابن جوسلين في تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحرق بهم المسلمون، وشرعوا في النقب عليهم ٤٩/١ حتى تعرقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأخذ الباقيون، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسبي، وانكفاً المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف^(٢).

قال ابن الأثير: لما قتل زنكي كان جوسلين* الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب الفرات في تل باشر* وما جاورها، فراسل أهل الرها - وكان عامتهم من الأرمن - وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجداً في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذ

(١)، انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢)، انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.

بحلب، فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرها، ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نُهبت وُخْرِبت وُخَلَّت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهَّز العساكر إلى الرها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين^(١).

قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنَّ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئِل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمْتُ جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السَّبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطَّئْتُها خوفاً من العود^(٢).

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير المَوْصِل، ذكر فيها فتح الرها؛ أولها:

أما آن أن يزَهَقَ الباطلُ	وأن يُنَجَزَ العِدَّةُ الماطِلُ
إلى كم يُغِبُّ ملوكُ الضُّلا	لِ سِفِّ بأعناقها كافِلُ
فلا تَحْفَلَنَّ بصُولِ الذُّناب	وقد زأَرَ الأسدُ الباسِلُ
وهل يمنعُ الدِّينُ إلا فتى	يَصُولُ انتقاماً فيستاصلُ
أبا جعفرٍ أَشْرَقَتْ دولةُ	أضاءَ لها بَذْرُكَ الكامِلُ
فإِما نُصِبَتْ لرفعِ اسمِها	فإنكما الفِعلُ والفَاعِلُ

(١) انظر «الباهر»: ٨٦ - ٨٧.

(٢) انظر «الباهر»: ٨٧.

وما ناله الملك العادل
فقد دَلَفَ الْمُقَرَّمُ^(٢) البازلُ
دِ مُحْتَسِبٍ بِالْعُلَا قَافِلُ
يُشَايِعُهُ الْقَدْرُ النَّارِلُ
فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ
رَ أَنَّ الْمُقِيمَ بِهَا رَاحِلُ
وَلَا بُدَّ أَنْ تُضْرَبَ الشَّائِلُ^(٤)
وَهَلْ عَاقِلُ بَعْدَهَا عَاقِلُ
لَمَنْ فَاتَ حِسْبَتَهُ الْحَاصِلُ^(٥)

لِيَهْنِكَ مَا أَفْرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ
فَقُلْ لِلْحَقَّاقِ^(١) الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ
وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ الْجَهَادِ
وَهَلْ يَمْنَعُ السُّورُ مِنْ طَالِعِ
فَإِنْ يَكُ فَتَحَ الرَّهْأَ لُجَّةً
فَهَلْ عَلِمْتَ عَلِمَ تِلْكَ الدِّيَا
أَرَى الْقُمْصَ*^(٣) يَأْمُلُ قَوْتَ الرِّمَاحِ
يُقَوِّي مَعَاقِلَهُ جَاهِدًا
وَكَيْفَ بِضَبْطِ بَوَاقِي الْجِهَاتِ

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

قَطُّ إِلَّا أَعَزَّهَا إِغْلَاقُهُ
عَارِضًا شَيْبَ الدُّجَى إِبْرَاقُهُ
عُطَّلًا مِنْ أَعْنَاقِهَا إِعْنَاقُهُ^(٧)
شَامُهُ وَالْعِرَاقُ بَعْدُ عِرَاقُهُ
قِي يُرِينَا إِضَاءَةً إِطْلَاقُهُ

مَلِكٌ مَا أَذَلَّ بِالْفَتْحِ أَرْضًا
وَالْوَهَى^(٦) فِي الرَّهْأِ* أَزْجَى إِلَيْهَا
جَازَتْ جَارَةً إِلَيْهِ فَحَلَّى
تِلْكَ بِكُرِّ الْفُتُوحِ فَالشَّامُ مِنْهَا
أَيْنَ كَانَ الْمَلُوكُ عَنْ وَجْهِهَا الطَّلُ

(١) مفردا حق: وهو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يركب ويحمل عليه. انظر «اللسان» (حق).

(٢) هو البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذل، ويسمى السيد الرئيس من الرجال المقرم لعظم شأنه وكرمه. انظر «اللسان» (قرم).

(٣) في «الخريدة»: القس.

(٤) في «خريدة القصر» السابل، وهو تصحيف.

(٥) القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٠٨/١ - ١١١.

(٦) في (م) الرها، وهو تصحيف.

(٧) ضرب من السير. «اللسان» (عق).

سُنَّةُ سَنِّهَا أَبَوْهُ بِكَلْبِ الرُّ (م) وَمَ لَمَّا أَظْلَهُ إِرْهَاقُهُ
خَافَقًا قَلْبُهُ إِلَى أَمَلٍ عَا جَلَّهُ دُونَ نَيْلِهِ إِخْفَاقُهُ
٥٠/١ قَسَمْتُ رَايَةَ الْمَوَاضِي الْقَسِيمِ (م) بَاتَ وَابْتَزَّ مِنْ لَهَاءِ عِرَاقِهِ
وَكَذَا أَنْتَ يَا بَنَّهُ مَا عَدَا مِنْ خُلِقَهُ فِيكَ خَصْلَةٌ خَلَّاقُهُ
وَكَفَى الْبَحْرَ أَنَّه ابْنُ سَحَابٍ مَا وَنَى سَحُّهُ وَلَا إِضْعَاقُهُ
لَمْ يَمُتْ مِنْ سَدَدَتْ ثُلُمَتُهُ يَا مَنْ عَلَى الدِّينِ كَظَّهُ إِشْفَاقُهُ
رَهْبَةً لَمْ تَدْعَ عَلَى الْأَرْضِ قَلْبًا خَلَفَ صَدْرٍ يَنْشَقُّ عَنْهُ شِقَاقُهُ
كَلِمَا طُنَّ ذِكْرُهَا مِنْهُ فِي السَّمِّ عِ تَكَمَّى (١) فِي النَّافِقَاءِ (٢) نِفَاقُهُ
وَجِهَادٍ عَنْ حَوْزَةِ الدِّينِ لَمْ يَأْ لُ لَهُ رَكْضُهُ وَلَا إِنْفَاقُهُ
وَلَهُ فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى:

بَنُورِ الدِّينِ رَوْضَ كُلِّ مَحَلٍّ مِنْ الدُّنْيَا وَجُدَّدَ كُلِّ بَالٍ
أَقَامَ عَلَى ثَنِيَّةِ كُلِّ خَوْفٍ سُهَادًا بَاتَ يَكْلَأُ كُلَّ كَالٍ
وَصَوَّبَ عَدْلُهُ فِي كُلِّ أَوْبٍ فَعَوَّضَ عَاطِلًا مِنْهُ بِحَالٍ
يَنْكَسِرُ رَأْيُهُ (٣) رَايَ الْمُحَامِي وَيَقْتُلْ خَوْفُهُ قَبْلَ الْقِتَالِ
لَقَدْ أَحْصَدَتْ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا يَفُوتُ سَنَامُهُ يَدَ كُلِّ قَالٍ
وَأَصْبَحَتْ الْعَوَاصِمُ مُلْحَفَاتٍ عِصَامًا (٤) غَيْرَ مُتَنَكِّثٍ الْحِبَالِ

(١) على هامش الأصل: «حاشية: أي تغطي».

(٢) النافقاء: جحر الضب واليربوع. «اللسان» (نفق).

(٣) الراي: مفردها راية، العلم. انظر «اللسان» (ريا).

(٤) العصام: الحبل يُعَصَمُ بِهِ الشَّيْءُ. «معجم متن اللغة»: ١٢٤/٤.

فصل

وقفت على توقيع كُتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذٍ، وهو الملقب بالحافظ^(١)، وعليه علامته: الحمد لله رب العالمين:

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد البَيْسَانِي - وهو والد القاضي الفاضل^(٢)، وكان يومئذٍ متولّي القضاء والحُكم بمدينة عَسْقلان - يقول فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثَغْرِ عَسْقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدّون توقيعاتٍ بقبول أقوالهم من غير تزكيةٍ من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول. أنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لا يُسمع قولُ شاهدٍ، وَلَا مَنْ تقدّم لِخُطَابَةٍ ولا لصلاة بالناس، ولا لتلاوةٍ في موضع شريف، إلا من زكّاه أعيانُ شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان؛ فعَدَّ ثمانية أنفس: عبد السّاتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا من أحسن ما يؤرّخ عن أيام تلك الدولة المبينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(١) هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، ولد سنة (٤٦٧هـ)، وولي الخلافة سنة (٥٢٤هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤هـ) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٩٩ - ٢٠٢.

(٢) توفي سنة (٥٤٦هـ) بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٧/٢٢٠ - ٢٢١، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣١ من هذا الجزء.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب، في النصف من ذي القعدة^(١).

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرّخد* وبُصرى* بالخيّل والرّجل وآلات الحرب، ونزل على صرّخد*، وبها المعروف بالتوتناش غلام أمين الدولة كُمشتيكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً^(٢).

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية* قبلي الجامع بدمشق.

قال: وكانت نفس التوتناش قد حدثته بجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرّخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم، فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نور الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرّزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعنة وأغذّ المسير، فوصل دمشق في السابع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياماً يسيرة^(٣).

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من هذا الجزء.

(٢) خطب أمين الدولة بالأتابكية سنة (٥٣٠هـ)، وتوفي سنة (٥٤١هـ)، وكان أميراً جليلاً،

انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٥٣، و«مختصر تنبيه الطالب»: ٣٣.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة

فتوجّه نور الدين نحو صَرْخَد*، ولم يُشاهد أحسن من عسكره، وهيئته
وعُدّته، ووفور عدّته. واجتمع العسكران، وأرسل مَنْ بَصَرْخَد إليهما يلتصقون
الأمان والمهلة أياماً وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة
والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول
من أخبر بتجمّع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم،
مجدّين السير إلى ناحية بُصرى*، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها.
فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم
وبينها. ووقعت العين على العين فانهزم الكُفّار، وولّوا الأدبار، وتسلم
معين الدين بُصرى، وعاد إلى صَرْخَد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق
فوصلها يوم الأحد السّابع والعشرين من المحرم. وفي هذا الوقت وصل
التونشاش — الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله — إلى
دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهماً منه أنه يُكرم
ويُصطنع بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام. فاعتقل في الحال،
وطالبه أخوه خُطْلخ بما جناه عليه من سَمَل عينيه، وعُقد لهما مجلس حضره
الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسَمِل كما سَمِل أخاه، وأطلق إلى
دار له بدمشق، فأقام بها^(١).

قلت: وقد ذكر ابن منير وقعة بُصرى هذه وغيرها من الوقعات التي
يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدّم بعضها^(٢) منها:
أيّ شأو أدركت يا نور دين الـ له أعياء على الملوك لحاقه

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩ — ٢٩٠.

(٢) انظر ص ١٧٧ من هذا الجزء.

نَطَقَ الحاسِدُونَ بِالْعَجْزِ عَنْ مَلَدٍ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْمَعَالِي سِبَاقُهُ
غَضَّ أَبْصَارَهُمْ لِحَاقِ جَوَادٍ مِنْ إِسَارِ الْمَوْتِ الزُّوَامِ عِتَاقُهُ^(١)
سَلَّ بَصِيرًا كَمْ أَعْتَقَتْ يَوْمَ بُصْرَى ضَاقَ مِنْهُ عَلَى الصَّلِيبِ خِنَاقُهُ
كَمْ عُرَامٍ عَلَى الْعُرَيْمَةِ* شَبَّتْ هِيَ لَهَا صَكَّتِ الْأَسَارَى رِبَاقُهُ^(٢)
وَلَكُمْ هَبْوَةٌ بِهَابٍ* وَأُخْتِئَتْ طَا* وَلَكِنْ طَوَاهُ عَنْهُ ارْتِفَاقُهُ
بَسَطَ الذِّلَّ فَوْقَ بَسْطَةِ بَاسُو

وفي هذه السنة ولد يَبْعَلْبَكُ الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زَنْكِي الرُّهَا*.

قال أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الفقيه شيخ الإسلام أبو الفتح نصرُ الله بن محمد بن عبد القوي المِصْصِيصِي بدمشق، وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشافعي، ولم يخلف بعده^(٣) مثله.

قال: وفي جُمَادَى الآخِرَةِ تَقَرَّرَتْ ولاية جِصْنَ صَرْخَد* للأمير مجاهد الدين بُزَان بن مامين^(٤) على مبلغ من المال والغَلَّة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية به لما هو عليه من حُبِّ الخير والصلاح، والتدبُّن والعفاف^(٥).

(١) مفردا عتيق، وهو الفرس الكريم. انظر «اللسان (عتق)». وفي (ل): أعتاقه.

(٢) الرِّبَاق: مفردا ربق، حبل فيه عدة عُرى تُشَدُّ به الغنم. انظر «اللسان» (ربق).

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٥ - ٢٩٦. وقد ولد باللاذقية سنة (٤٤٨هـ)، وكان متجنباً

أبواب السلاطين، انظر ترجمته في «تبيين كذب المفتري»: ٣٣٠، و«المنتظم»:

١٢٩/١٠، و«سير أعلام النبلاء»: ١١٨/٢٠ - ١١٩، و«طبقات الشافعية»

للسيكي: ٣٢٠/٧ - ٣٢١.

(٤) سترد ترجمته ص ٣٨٧ من هذا الجزء.

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان أظلم الجو، ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغُدرة^(١) بين العشاءين، وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الورس^(٢)، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة، وكل ما يُنظر إليه من حيوانٍ وجمادٍ ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدّات المزعجة، والرّجفات المُفزعّة، ما ارتاع لها الشّيب والشّبّان، فكيف الولدان والنسوان؟! وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبارٌ في رقة الهواء، بين البياض والغبرة^(٣).

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أرّتاح* بالسيف، وحصن باراة*، وبصرفوث^(٤)، وكَفَر لاثا*. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردّون ما أخذ منهم، فلما رأوا من نور الدين هذا الجِدَّ علموا أن ما أمْلوه بعيد^(٥).

(١) ليلة غدرة: شديدة الظلمة تحبس الناس في منازلهم وكنهم فيغدّرون أي يتخلفون انظر «اللسان» (غدر).

(٢) نبات مثل نبات السمسّم لونه أصفر. انظر «اللسان» (ورس).

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وقد مرّت «بصرفوث» انظرها في كشف الأماكن.

(٥) «الكامل»: ١٢٢/١١.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى
عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية
القُسطنطينية وبلاد الفرنج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛
منهم الألمان^(١) والفُشش^(٢)، وجماعةٌ من كبارهم في العدد الذي لا يُحصَر،
لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلمهم: النَّفِيرُ النَّفِيرُ
إليها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها
والحفظة لها. ثم استصحبوا من^(٣) ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكثير
الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عِدَّتْهم ألف ألف من الرِّجالة والفرسان،
ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسطنطينية، واحتاج ملكها إلى
الدُّخول في مُداراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم
واشتهر أمرهم، شرعت ولاية الأعمال المصابقة لهم، والأطراف الإسلامية
القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم،
وقصدوا منافذهم ودروب معابريهم، لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد
الإسلام، وواصلوا شُنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك
بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوات والعُلوفات ٥٢/١
والمِيرَ وغلاء السعر — إذا وجدوه — ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض،

(١) استعملت كلمة الألمان هنا علماً على الامبراطور كنراد الثالث، Conrad III انظره في
كشاف الأعلام.

(٢) هو Bertrand, son of Alphonso Jourdain برتراند بن ألفنسو جوردان، كونت تولوز،
وهو ابن غير شرعي له. وسيرد خبره ص ١٩٦ من هذا الجزء. وانظر «تاريخ
الحروب الصليبية» لرنسيما «الترجمة العربية»: ٤٥٢/٢.

(٣) ليست في (م).

ولم تنزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين^(١)، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت^(١) الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مئة ألف، وقصدوا البيت المقدس، فقَضُوا حَجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان^(٢) أكبر ملوكهم ومن هودونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين، فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنوا من البلد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر^(٣) فيها، فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المِزَّة* فخيَّموا عليها لقربها^(٤) من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث* البلد والمطوعة والغزاة الجَمَّ

(١ - ١) ما بينهما ليس في (م). وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧، وهذه الحملة هي ما يطلق عليه المؤرخون الغربيون الحملة الصليبية الثانية.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) ذكر ولیم الصوري أنهم نزلوا على داريا، وهي المقصودة هنا، إذ أن الجيوش المهاجمة لدمشق غالباً ما كانت تأتي عن طريق داريا.

انظر «الحروب الصليبية» لولیم الصوري ٣/٣٠٨ - ٣٠٩ (ترجمة د. حسن حبشي).

(٤) في الأصل و(ل): لقربهم، والمثبت من (م).

الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيموا فيها، وقربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي^(١)، رحمه الله، قريب الرُّبوة* على الماء؛ لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم؛ أتبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم وقال: بعنا واشترى^(٢)، وكذلك عبد الرحمن الحَلْهولي الزَّاهد^(٣)، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى^(٤).

قلت: وذكر الأمير أسامة بن مُنْقِذ في «كتاب الاعتبار» أن ملك الألمان الفرنجي لما وصل إلى الشَّام اجتمع إليه كلُّ من بالشَّام من الإفرنج، وقصد

(١) أصله من المغرب، قدم دمشق حاجاً، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها مذهب الإمام مالك، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة. انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ ب - ٤٢ أ. (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق) و«معجم البلدان»: ٢٧٧/٤ - ٢٧٨، و«وفيات الأعيان»: ٤٥٢/٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠٩/٢٠ - ٢١٠، وص ١٩١ من هذا الجزء، له رسالة صغيرة نشرها الأستاذ جواد المرباط باسم «فتوى الفندلاوي» في بيروت سنة (١٩٦٦م).

(٢) يريد قوله تعالى: ﴿إِن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة...﴾، سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) في الأصل و(ل) الحلحول، والمثبت من (م)، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي، نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بحلب، وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى قتل شهيداً رحمه الله. انظر «معجم البلدان»: ٢٩٠/٢، و«توضيح المشتبه» ٣٨٠/٢ تحقيق أخي وصديقي الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي. وانظر ص ١٩٢ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧ - ٢٩٨.

دمشق، فخرج عسكرها [وأهلها] ^(١) لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحُلُولي - رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين - فلما قاربوهم قال الفقيه: [يا] ^(٢) عبد الرحمن، أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى. قال: فإلى ^(٣) متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله. فتقدّما فقاتلا حتى قُتلا في مكان واحد، رحمهما الله [تعالى] ^(٤).

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها، وهُدُوا الفطائر ^(٥)، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياح لهول ما شاهدوه، والرَّوع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وخرجت معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم،

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) في الأصل، وإلى، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) ما بين حاصرتين من (م)، وانظر «الاعتبار»: ١١٧.

(٥) الفطائر هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق، ولعلها سميت كذلك لأن التراب كان يُدكُّ بين دفين كبيرين من خشب مثبتين بعوارض خشبية، فكان إذا نشف الطين رفع منه دفا الخشب والعوارض، فيتخلف عن هذه العوارض فتحات، هذه الجدران كان يكمن خلفها الدمشقيون، ومن خلال فتحاتها كانوا يطعنون برماحهم كل من يحاول العبور من الصليبيين، ويطلق الآن على الجدار منها اسم الدكّ. وقد وردت في أصل «ذيل تاريخ دمشق» مثل أصلنا على الصحيح، لم يعرفها آمدرُوز، ووضع بدلاً منها كلمة من عنده هي «القناطر»، وحذا حذوه الدكتور سهيل زكار في نشرته للكتاب ووضع كلمة من عنده هي «الحظائر» وكلاهما جانب الصواب. انظر «وقفية الجامع الأموي» (خ) فقد وردت فيه غير مرة، منها حين يتحدث عن بستان بالشاغور يقول: ويحيط به فطائر، وانظر «الحروب الصليبية» لوليم الصوري ٣/ ٣١٠ - ٣١٢ (ترجمة د. حسن حبشي) ففيه أيضاً وصف لها. وص ١٩٢ من هذا الجزء.

ولا يشني عن زيادهم^(١). ولم تزل رحا الحرب دائرةً بينهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تنهأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كلُّ منهم إلى مكانه، ويات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ والاستنجد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتابع. وباركهم المسلمون وقد قويت نفوسهم، وزال عنهم روعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرح^(٢)، بحيث يقع في مخيمهم في راجل أوفارس، أوفرس أوجمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة، فزادت بهم العدة، وتضاعفت العدة. وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم، وباركروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب، وحذفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظنَّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرَّجل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برشقة أو طعنة. وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضِّياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها. وحصل من رؤوسهم العدد الكثير. وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال

(١) في الأصل و(ل) ديارهم، والمثبت من (م).

(٢) آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل. والقائم على تشغيلها يسمى جرخي. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ١٨٢/١.

شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحُلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها^(١) غير الرّحيل، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدّوابّ العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عَدَدَ له ولا حَصْر يلحقه، بحيث لها أرايح من جيفتهم تكاد تَصْرَع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرّبوة* والقُبّة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشُّكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدّة. فله الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرّحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قُربهِ^(٢) من دمشق للإنجاد لها^(٣).

وقال ابن الأثير: خرج ملك الألمان* من بلاد الفرنج في جيوش كبيرة^(٤) عظيمة لا تحصى كثرةً من الفرنج إلى بلاد الشّام، فاتفق هو ومنّ بساحل الشّام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشكّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عدداً وعدداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً. فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتِكِين؛ وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيراً حسن السيرة،

(١) في الأصل: بها، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) قرية.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٨ - ٣٠٠.

(٤) ليست في (ل) و(م).

فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس^(١) المَغْرِبِي الفَنْدَلَاوي شيخ المالكية بدمشق - وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً - خرج راجلاً، فرآه معين الدين، فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال. فقال: قد بعث واشترى، فلا نُقِيلُهُ ولا نَسْتَقِيلُهُ. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ الآية^(٢). وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قُتِل، رحمه الله، عند النَّيْرَب * شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدّموا فنزّلوا بالميدان الأخضر*، وضعف أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين^(٣) يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجدّاً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعى كل من يُطبق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة - والعياذ بالله - علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي. فمأطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج^(٤). فأرسل سيف الدين إلى الفرنج

(١) كذا في الأصل و(ل) وفي (م) دوناس - بالدال المهملة، ومثله في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٠٩، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سيف الدين غازي أخو نور الدين، صاحب الموصل.

(٤) في الأصل: الفرج، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

الغرباء يتهذِّدُهم ويعلمهم^(١) أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوِّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُيقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدَّس. وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس* إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسَّاحل. فأجابهم إلى الرَّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس* من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين [محمود]^(٢)، رحمه الله، كما سنذكره^(٣).

قلتُ: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر، رحمه الله، في «تاريخه» أن الفقيه الفندلاوي رُوي في المنام، ف قيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عَدْن على سُرُرٍ متقابلين^(٤).

وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصَّغير* من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

(١) في الأصل: ويعلمه، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) كان فتحه سنة (٥٦٠ هـ) انظر ج ٤٣٧ و ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر، اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ ب (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق).

وأما^(١) عبد الرحمن الحَلْحُولِي فقبره في بستان الشَّعْبَانِي في جهة شرقه^(٢)، وهو البُستان المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مُقامه في حياته في ذلك المكان، رحمه الله^(٣).

وقرأت قصيدةً في شعر أبي الحَكَم الأَنْدَلُسِي^(٤) شَرَحَ فيها هذه القصَّة، منها:

بشَطِّي نهر دارِيَا* أمورٌ ما تواتينا
وأقوام رأوا سَفْكَ الدُّ (م) ما في جِلْقِ دينا
أتانا مئتا ألفٍ عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أنْدَلُسٍ وبعض^(٥) من فِلَسْطِينَا
ومن عكَّا ومن صُورٍ ومن صيدا وتبْنِينَا*
إذا أبصرتهم أبْصَرَ ت أقواماً مجانينا
ولكن حرقوا في عا جلِ الحال البساتينا
وجازوا المَرْجَ والتعدي لَ أيضاً والميادينَا
تخالهم - وقد ركبوا فطائرهما^(٦) - حراذينا
وبين خيامهم ضُمُّوا الـ خنازر والقرايينَا
ورياتٍ وُصِّلَنا على مسجدِ خاتونا*

٥٤/١

(١) - (١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) ما زال قبر الحَلْحُولِي موجوداً، وهو بالقرب من جسر النحاس في حي الأكراد. انظر موقع القبر في خريطة الصاحية التي وضعها الأستاذ الشيخ أحمد محمد دهمان. وانظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٨٦/٢، وحاشية بدران في «تهذيب ابن عساكر»:

٢٢٧/١ و«ثمار المقاصد»: ١٣٠ حاشية المحقق رقم (٥).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٦ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) وبعضهم.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٨٧ من هذا الجزء.

وَقُلْنَا إِذْ رَأَيْنَاهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَكْفِينَا
سَمَّا لَهُمْ مُعِينٌ^(١) قَدْ أَعَانَ الْخَلْقَ وَالْدِّينَا
وَفَتِيَانُ تَخَالَهُمْ لَدَى الْهَيْجَا شِيَاطِينَا
فَوَلُّوا يَطْلُبُونَ الْمَرْ جَ مِنْ شَرْقِيٍّ جِسْرِينَا*
وَلَكِنْ غَادَرُوا إِلَيَا سَ تَحْتَ التُّرْبِ مَدْفُونَا
وَشِيخًا فَنَدَلَاوِيًّا فَفِيهَا يَعْضُدُ الدِّينَا
وَفَتِيَانًا تَفَانُوا مِنْ دَمَشْقَ نَحْوِ سَبْعِينَا
وَمِنْهُمْ مَثَا عِلْجٍ وَخَيْلٍ نَحْوِ تِسْعِينَا
وَبَاقِيَهُمْ إِلَى الْآنَ مِنْ الْقَتْلِ يَفْرُونَا
وللعرقلة حسان^(٢) في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة
ذكر فيها هؤلاء الفرنج، أولها:

عَرَجٌ عَلَى نَجْدٍ لَعَلَّكَ مُنْجِدِي وَبِذِكْرِ سُغْدَى مُسْعِدِي
[يقول فيها]^(٣):
مَنْ قَاتَلَ الْإِفْرَنْجَ دِينًا غَيْرُهُ وَالْخَيْلُ مِثْلُ السَّيْلِ عِنْدَ الْمَشْهَدِ
رَدَّ الْأَمَانَ بِكُلِّ نَذْبٍ^(٤) بَاسِلٍ وَمِنْ الْجِيَادِ بِكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ
وَمِنْ السُّيُوفِ بِكُلِّ عَضْبٍ أَبْيَضٍ وَمِنْ الْعَجَاجِ بِكُلِّ نَقْعٍ أَسْوَدِ
حَتَّى لَوَى الْإِسْلَامَ تَحْتَ لَوَائِهِ وَغَدَا بِحَمْدٍ مِنْ شَرِيعَةِ أَحْمَدِ^(٥)

(١) في (ل) معين الدين، وبه ينكسر الوزن.
(٢) هو أبو الندى حسان بن غير الكلبي، شاعر خليع من سكان دمشق، ولد سنة (٤٨٦هـ) وتوفي سنة (٥٦٧هـ) ديوانه مطبوع بتحقيق أحمد الجندي ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧٠م). انظر: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٧٨/١ - ٢٢٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) رجل ندب: خفيف في الحاجة، نجيب. انظر «اللسان» (ندب).

(٥) انظر القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٢٥ - ٢٦.

وقرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدةً في مدح تاج الملوك
بُوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر
سنة ثلاثٍ وعشرين وخمس مئة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن
مجير الدين.

أول القصيدة:

الحقُّ مبتهَجٌ والسَّيْفُ مُبْتَسِمٌ ومالُ أعداءِ فخر الدين (١) مُقْتَسَمٌ

يقول فيها:

قُدَّتِ الجِيَادُ وَحَصَّنَتِ الْبِلَادَ وَأَمَّ (م) نَتَّ الْعِبَادَ فَأَنْتَ الْحِلُّ وَالْحَرَمُ
وَجِئْتَ بِالْخَيْلِ مِنْ أَقْصَى مَرَابِطِهَا مَعَاقِدَ الْحَزْمِ فِي أَوْسَاطِهَا الْحُزْمُ
حَتَّى إِذَا مَا أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِنَا كَاللَّيْلِ يَلْتَهُمُ الدُّنْيَا لَهُ ظُلَمُ
وَأَقْبَلُوا لَا مِنْ الْإِقْبَالِ فِي عَدَدٍ يُوودُ حَاسِبُهُ الْإِعْيَاءُ وَالسَّأَمُ
أَجْرِيَتْ بَحْرًا مِنَ الْمَازِيٍّ (٢) مَعْتَكِرًا أُمُوجُهُ بِأَوَاسِي (٣) الْبَاسِ تَلْتَطِمُ
وَسُسَّتْ جُنْدُكَ وَالرَّحْمَنُ يَكْلُوهُ سِيَاسَةً مَا يُعْفِي إِثْرَهَا نَدَمُ
وَقَفَّتْ فِي الْجَيْشِ وَالْأَعْلَامِ خَافِقَةٌ بِالنَّصْرِ كُلُّ قَنَازٍ فَوْقَهَا عِلْمُ
يَحُوطُكَ اللَّهُ صَوْنًا عَنْ عَيُونِهِمْ وَاللَّهُ يَعْصِمُ مَنْ بِاللَّهِ (٤) يَعْتَصِمُ
حَتَّى إِذَا بَدَتْ الْأَرَاءُ ضَاحِكَةً وَأَقْبَلْتُ أَوْجُهُ الْإِقْبَالِ تَبْتَسِمُ
أَتَبَعْتُ جَنِّ سَرَايَاهُمْ مُضْمَرَةً فِيهَا نَجُومٌ إِذَا جَدَّ الْوَعْيُ رَجُمُوا

(١) في (ل) مجير الدين، وهو تحريف، ويستفاد أنه لقب بوري.

(٢) المازي: السلاح كله من الحديد، ويقال: المازي خالص الحديد وجيده. انظر «اللسان» (مذي).

(٣) مفردا آسية، وهي الدعامة والسارية. انظر «اللسان» (أسا).

(٤) في (م) بالناس، وهو وهم.

والتَّصَرُّ دَانٍ وَخَيْلَ اللَّهِ مُقْبِلَةً
صَابَ الْغَمَامُ عَلَيْهِمُ وَالسَّهَامُ مَعاً
سَرَوْا لِيَتَّهَبُوا الْأَعْمَارَ فَانْتَهَبُوا
وَأَقْبَلَتْ خَيْلُنَا تَرْدِي بِخَيْلِهِمْ
وَأَذْبَرَ الْمَلِكُ الطَّاعِي يُزْعِزُهُ
وَأَفَوْا^(٣) دِمَشْقَ وَظَنُوا أَنَّهَا جِدَّةٌ
وَأَيَقِنُوا مَعَ ضِيَاءِ الصُّبْحِ أَنَّهُمْ
فَغَادَرُوا أَكْثَرَ الْقُرْبَانِ وَأَنْجَفَلُوا
وَحَاوَلُوا الْمَسْجِدَ الْأَدْنَى فَمَا عَبَّرَتْ
مُسْتَسْلِمِينَ لِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ
لَا يَمْلِكُ الْجِسْمُ دَفْعاً عَنْ مَقَاتِلِهِ

تَرْجُو الشَّهَادَةَ فِي الْهَيْجَا وَتَغْتَنِمُ
فَمَا دَرَوْا أَيُّمَا الْهَطَّالَةِ الدَّيْمُ
قَتَلًا وَيَغْتَنِمُوا الْأَمْوَالَ فَاعْتَنِمُوا
مَجْنُوبَةً وَعَلَى أَرْمَاحِنَا الْقِمَمُ^(١)
حَرُّ الْأَسِنَّةِ وَهُوَ الْبَارِدُ الشِّبْمُ^(٢)
فَفَارَقَوْهَا فِي أَيْدِيهِمُ الْعَدَمُ
إِنْ لَمْ يَزُولُوا سِرَاعاً زَالَتِ الْخَيْمُ
وَخَلَفُوا أَكْبَرَ^(٤) الصُّلْبَانِ وَانْهَزَمُوا
عَنْ مَسْجِدِ الْقَدَمِ * الْأَقْصَى لَهُمْ قَدَمُ^(٥)
أَغْرَى الْقَنَا بَتْمَادِي خَطْفِهِمْ نَهْمُ
كَأَنَّهُ حِينَ يَغْشَاهُ^(٦) الرَّدَى صَنَمُ

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين، وهو مع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا، فوصل إليهما كتاب القمص* صاحب طرابلس يشير عليهما

(١) مفردها قمة: رأس الإنسان. انظر «اللسان» (قمم).

(٢) في (ل): الشيم.

(٣) في (م): راموا.

(٤) في (ل): أكثر.

(٥) في (ل) و (م) هذا البيت يرد آخر الأبيات المذكورة.

(٦) في (ل) يرداه.

بقصد حصن العُريمة* وأخذه^(١) ممن فيه من الفرنج. وكان سبب ذلك أن ولد الفُنش^(٢) صاحب جزيرة صِقْلِيَّة* خرج مع ملك الألمان إلى الشَّام، وتغلَّب على العُريمة وأخذها من القُمُص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً - وجدُّ هذا الذي ملك العُريمة^(٣) هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب - فلما استولى هذا على العُريمة* كاتَب القُومُص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مُجدَّين، فصَبَّحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد، فأمدَّهما. فحسروا الحصن وبه ابن الفُنش، ونقَبوا السُّور، فأذعن الفرنجُ واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كُلَّ مَنْ به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين^(٣).

وافتح نور الدين أيضاً باسوطا* وهاب*.

وقال الرئيس أبو يعلى: قُتل أكثر من كان فيه - يعني [في]^(٤) حصن العُريمة - وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه، ونُهَب ما فيه من العُدَد والخيول والأثاث^(٥). وعاد عسكر سيف الدين إلى مُخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمه ومن أُسر معهما^(٦)، وانكفأ معين الدين إلى دمشق^(٧).

(١ - ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ٩٠، وفيه: حصن العزيمة - بالزاي - وهو تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) الأثاث ليست في (ل).

(٦) بقي برتراند في الأسر إحدى عشرة سنة، حتى أطلقه نور الدين سنة (٥٥٠٤هـ) لقاء معاهدته مع الامبراطور البيزنطي مانويل. انظر ص ٣٨٥ من هذا الجزء. و«تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٤٦٢/٢ - ٤٦٣، ٥٧٤.

(٧) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٠ - ٣٠١.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد فامية*، وظفر بعدة من الحصون والمعازل الإفرنجية، وبعده وافرة من الإفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه، فنال من عسكره وأثقاله وكُراعهِ^(١) ما أوجبته الأقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعة وافرة من الإفرنج. وأقام بحلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من البرك^(٢)، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل: لم يعد^(٣).

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ، وهي وقعة يَغْرا*^(٤)، ومرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟! فقال: يا خوند*، أيش تنفع نحن؟ إنما ينفع مجد الدين أبوبكر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقَّه، وأصلح بينهما^(٥).

قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب، أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة^(٦).

(١) الكراع: السلاح، وقيل: الخيل والسلاح. «اللسان» (كرع).

(٢) ويقال: البرك - بسكون الراء - وهو المتاع والثقل والكراع والسلاح. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ٣٠٤/١، و«الخزانة الشرقية»: ١٦٩/٤ - ١٧٠، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٧٠ (ط. د. زكار) أصله يوافق أصلنا، ولكن المحقق عدّه مصحفاً، وأثبت من عنده «اليزك» وتعني طلائع الجيش، وهو وهم منه.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٢ - ٣٠٣. (٤) انظر «الكامل»: ١٣٤/١١.

(٥) انظر سبب جفوة أسد الدين من نور الدين ص ١٧٤ من هذا الجزء.

(٦) ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٤٥٢/٢ أنه قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة (٥٤٣ هـ)، وانظر عن كسرة البقيعة ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

قلت: وهو والد عز الدين فَرُّخْشَاه، وتقي الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها المدرسة العذراوية* داخل باب النَّصْر* بدمشق، وقبره الآن بالتربة النجمية* جوار المدرسة الحُسامية* بمقبرة العوينة* ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمت^(١) اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال:

لَمْ يَشْنُهُ مِنْ مَاءِ يَغْرَاء* أَنْ فَرَّ^(٢) (م) الْأَشَابُ^(٣) ذَاذَ عَنْهَا انْذِلَاقُهُ
كَانَ فِيهَا لَيْثُ الْعَرِينِ حَمَى الْأَشْـ بَالَ مِنْهُ غَضْبَانٌ كَالنَّارِ مَاقَهُ^(٤)
وَشَبِيهِ النَّبِيِّ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ تَلَا فِى أَدْوَاءِهِمْ دِرْيَاقَهُ^(٥)
وَهِيَ الْحَرْبُ فَحَلُّهَا يُحْسِنُ الْكُرَّ (م) ة إِنَّ عَضَّ بِأَسْهَاهَا لَا نِيَاقَهُ

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى يَغْرَى^(٦)، وقد اجتمع بها الفرنج في قَضَهم وقضيضهم، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل [الله]^(٧)

(١) انظر ص (١٧٧، ١٨١ - ١٨٢) من هذا الجزء.

(٢) في (م): لم يشنه من ماء يغراس إذ فرّ.

(٣) الأخلاط من الناس، يقال: أوباش من الناس، وأوشاب من الناس. انظر «اللسان» (أشب).

(٤) مخففة من ماق، وهي مؤخر العين. «اللسان» (ماق).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٣ من هذا الجزء.

(٦) في الأصل و (ل) بصرى، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ٩١، فما في أصله يوافق ما في (م) أبدلها المحقق «بصرى»!، وهذا التحريف تظاهر عليه أيضاً طبعنا الروضتين، وهو من الأوهام التي توقع من يؤرخ لنور الدين بخطأ تاريخي جسيم. وانظر «الكامل»: ١٣٤/١١.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

نصره على المسلمين، وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيلٍ وأسير، وفي هذه
الوقعة يقول القيسراني من قصيدةٍ أولها:

يا ليت أن الصَّدَّ^(١) مَصْدُودٌ أو لا فليت النومَ مَرْدُودٌ
إلى متى تُعْرِضُ عن مُغْرَمٍ في خدّه للدمعِ أُخْدُودٌ
قالوا عيونُ البيضِ بيضُ الظُّبى قلتُ ولكن هذه سُودٌ
يُخَافُ منها وهي في جَفْنِهَا والسيفُ يُخشى وهو مَغْمُودٌ

ثم خرج إلى المدح فقال:

وكيف لا نُثني على عَيْشِنَا الـ محمود والسُّلْطَانُ محمودٌ
فليشكر الناسُ ظلالَ المنى إن رِوَاقَ العَدْلِ ممدودٌ
وَنَيَّراتِ المُلْكِ وَهَاجَةً وطالعُ الدَّولةِ مَسْعُودٌ ٥٦/١
وصارمُ الإسلامِ لا ينثني إلا وشلُّو الكُفْرَ مَقْدُودٌ
مناقبُ لم تك^(٢) موجودةً إلا ونورُ الدينِ موجودٌ
مُظْفَرٌ في دِرْعِهِ ضَيْغَمٌ عليه تاجُ المُلْكِ مَعْقُودٌ
نالَ المعالي حاكماً مالِكاً فهو سليمانُ وداودُ
تَرْتَشِفُ الأفواهُ أَسِيافَهُ إن رُضابَ العِزِّ مَوْرُودٌ
وكم له مِنْ وَقْعَةٍ يَوْمُهَا عند ملوكِ الشُّركِ مَشْهُودٌ
والقومُ إما مُرْهَقٌ صُرْعَةً أو مُوثَّقٌ بالقَدِّ مَشْدُودٌ
حتى إذا عادوا إلى مِثْلِهَا قالت لهم هَيْبَتُهُ عُودُوا
طالِبُ بشارِ ضَمْنَتِهِ الظُّبى فكلُّ ما تَضَمَّنُ مَرْدُودٌ
والكُرُّ والفَرُّ سِجَالُ الوغى فطارِدُ طَوْرًا وَمَطْرُودُ

(١) في الأصل و (ل) الصدود، وهو غل في وزن البيت، والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و (ل) تكن، وبها لا يستقيم الوزن، والمثبت من (م).

وَأِنَّمَا الْإِفْرَنْجُ مِنْ بَغْيِهَا عَادَ^(١) وَقَدْ عَادَ لَهَا هُودُ
 قَدْ حَضَحَصَ الْحَقُّ فَمَا جَاحِدُ فِي قَلْبِهِ بِأَسْكَ مَجْهُودُ
 فَكُلُّ مِضْرٍ بِكَ مُسْتَفْتَحُ وَكُلُّ ثَغْرِ بِكَ مَسْدُودُ
 وقال أيضاً قصيدة في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر
 الإفرنج على يَغْرَا* وهزمهم إلى حِصْن حارِم*، وقد كانت الفرنج هزمت
 المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها:

تَفِي بِضَمَانِهَا الْبَيْضُ الْجِدَادُ وَتَقْضِي دَيْنَهَا السُّمَرُ الصَّعَادُ^(٢)
 وَتُذِرُكَ نَارَهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ فَوَارِسُ مِنْ عَزَائِمِهَا الْجِلَادُ
 وَيَغْشَى حَوْمَةَ الْهَيْجَا هُمَامُ تَشُدُّ بِضَبْعِهِ^(٣) السَّبْعُ الشَّدَادُ
 أَظُنُّوا أَنَّ نَارَ الْحَرْبِ تَخْبُو وَنُورُ الدِّينِ فِي يَدِهِ الزَّنَادُ
 وَجُنْدٌ كَالصُّقُورِ عَلَى صُقُورٍ إِذَا انْقَضُوا عَلَى الْأَبْطَالِ صَادُوا
 إِذَا أَخْفَوْا مَكِيدَتَهُمْ أَخَافُوا وَإِنْ أَبَدُوا عَدَاوَتَهُمْ أَبَادُوا
 وَنُصْرَةَ دَوْلَةٍ حَامَيْتَ عَنْهَا وَهَلْ تَخْشَى وَأَنْتَ لَهَا عِمَادُ
 وَإِنْ نُتِلَ الْقَوَافِي مَا تَلْتَهُ بِإِنِّب* مَا يُؤْبِنُهَا سِنَادُ^(٤)
 جَرَتْ بِالنُّصْرِ أَقْلَامُ الْعَوَالِي وَلَيْسَ سِوَى النَّجِيعِ^(٥) لَهَا مِدَادُ
 وَطَالَتْ أَرْوُسُ الْأَعْلَاجِ خِصْباً فَنَادَى السَّيْفُ: قَدْ وَقَعَ الْحَصَادُ
 أَحْطَتْ بِهِمْ فَكَانَ الْقَتْلُ صَبْرًا وَلَا طَعْنُ هُنَاكَ وَلَا طِرَادُ
 وَلِلْإِبْرَنْزِ^(٦) فَوْقَ الرُّمَحِ رَأْسُ تَوَسَّدَ وَالسَّنَانُ لَهُ وَسَادُ

(١) في الأصل و (ل): عادوا، وهو تحريف، والمثبت من (م).

(٢) أي القنا المستويات اللواتي لا يحتجن إلى تثقيف. انظر «اللسان» (صعد).

(٣) الضبع: وسط العضد. انظر «اللسان» (عضد).

(٤) أي ما يعيها سناد، والسناد على أنواع وهو من عيوب القوافي. انظر «الوافي في العروض والقوافي» للتبريزي: ٢٤٤ - ٢٤٨.

(٥) الدم. «اللسان» (نجع).

(٦) هوريموند، صاحب أنطاكية، انظر ص ٢٠٤، ٢٠٧ من هذا الجزء.

تَرَجَّلَ لِلسَّلَامِ^(١) ففَرَّسُوهُ^(٢) وليس سوى القَنَاةِ له جَوَادُ
 غَضِيضُ الْمُقْلَتَيْنِ وَلَا نَعَاسُ وغَائِرُهَا وليس به سُهَادُ
 فَسِرَ وَاسْتَوَعِبَ الدُّنْيَا فَتَوَحَّأَ فلا هَضْبُ هُنَاكَ وَلَا وَهَادُ
 وَزُرَ بِنِي الْوَعَى مَثْوَى حَبِيبِ^(٣) فما عن بابِ مَسْلَمَةٍ^(٤) ذِيَادُ
 وَلَا فِي بَابِ فَارَسِ^(٥) غَيْرُ ثَكْلَى بفَارِسِهَا يَضِيءُ بِهَا الْجِدَادُ
 أَنْطَاكِيَّةٌ تَحْمِي ذَرَاهَا وقد دَانَتْ لِسَطَوَتِكَ الْبِلَادُ
 وَأَذَعَنْتِ الْمَمَالِكُ وَاسْتَجَابَتْ مُلَبَّيَّةٌ لِدَعْوَتِكَ الْعِبَادُ
 قلت: ووقعة إنب* هذه كانت عظيمة، وقد كثر ذكر الشعراء لها،
 وسيأتي ذكرها قريباً^(٦).

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية
 حلب بأن صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال «حيٍّ على خير العمل» في
 أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسبِّ الصُّحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً،

(١) في (ل) للإسلام، وهو وهم ولا يستقيم به الوزن.

(٢) كأنه أراد: جعلوه فارساً.

(٣) هو حبيب النجار، كان قبره يزار بأنطاكية، يقال إنه نزلت فيه الآية الكريمة «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى...». انظر «معجم البلدان»: ٢٦٩/١.

(٤) في «معجم البلدان»: ٢٦٩/١، باب مسلم، وكان مسلم بن عبد الله قد قتل عليه.

(٥) أحد أبواب أنطاكية. انظر «المصدر السابق».

(٦) انظر ص ٢٠٦ من هذا الجزء.

وساعده على ذلك جماعة من السُّنة بحلب، وعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع، وضائق له صدورهم، وهاجوا [له] ^(١) وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة ^(٢).

قلت: وأنشده ابن منير في شهر رمضان:

فَدَاكَ مَنْ صَامَ وَمَنْ أَفْطَرَا	وَمَنْ سَعَى سَعْيِكَ أَوْ قَصَّرَا
وَمَا الْوَرَى أَهْلًا فَتَقَدَّى بِهِمْ	وَهَلْ يَوَازِي عَرَضُ جَوْهَرَا
عَدْلٌ تَسَاوَى تَحْتَ أَكْنَافِهِ	مَطَافِلُ الْعَيْنِ ^(٣) وَأُسْدُ الشَّرَى ^(٤)
يَا نَوْرَ دِينِ اللَّهِ كَمْ حَادِثٍ	دَجَا وَأَسْفَرَتْ لَهُ فَا نَسَرَى ^(٥)
وَكَمْ جَمِيٍّ لِلشُّرْكِ لَا يَهْتَدِي إِلَ	وَهُمْ لَهُ غَادَرْتَهُ مَجْزَرَا
يَا مَلِكَ الْعَصْرِ الَّذِي صَدَّرَهُ	أَفْسَحَ مِنْ أَقْطَارِهَا مَضْدَرَا
وَابْنَ الَّذِي طَاوَلَ أَفْلَاكَهَا	فَلَمْ يَجِدْ مِنْ فَوْقِهِ مَظْهَرَا ^(٦)
مَنَاقِبُ تَكْسِرُ كِسْرَى كَمَا	تَقْصُرُ ^(٧) عَنْ إِدْرَاكِهَا قَيْصَرَا
مَاعَامَ فِي أَوْصَافِهَا شَاعِرٌ	إِلَّا رَأَى أَوْصَافَهَا أَشْعَرَا
لِلَّهِ أَصْلٌ أَنْتَ فَرْعٌ لَهُ	مَا أَطْيَبَ الْمَجْنَى وَمَا أَطْهَرَا ^(٨)
مَاحِلْبُ الْبَيْضَاءِ مُذْ صُتَّتْهَا	إِلَّا حَرَامٌ مِثْلُ أُمِّ الْقُرَى

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.

(٣) أولاد بقر الوحش. انظر «اللسان» (طفل)، (عين). وفي الأصل و(ل) تطفل، والمثبت من (م).

(٤) الشرى: موضع تنسب إليه الأسد. انظر «اللسان» (شرى).

(٥) أي انكشف. انظر «اللسان» (سرا).

(٦) أي مضعداً. انظر «اللسان» (ظهر).

(٧) في الأصل: يقصر، وفي (ل) مهملة، والمثبت من (م).

(٨) في (م) ما أنضرا، وهي رواية أخرى في نسخة الأصل.

شِيذَتْ فِي مَعْمُورٍ أَرْجَائُهَا لِكُلِّ بَاغِي عُمْرَةٍ مَشْعَرَا
فَأَصْبَحَ الشَّادِي إِذَا ثَوَّبَ الـ دَّاعِي^(١) لَهُ هَلَلٌ أَوْ كَبْرَا
لَا عَدِيمَ الْإِسْلَامُ مَنْ كَفُّهُ كَهْفٌ لِمَنْ أُرْهَقَ أَوْ أَحْصِرَا
كَأَنَّمَا سَاحَتُهُ جَنَّةٌ أَجَرَتْ بِهَا رَاحَتُهُ كَوَثُرَا
تَصَرَّمَ الشَّهْرُ الَّذِي كُنْتُ فِي أَوْقَاتِهِ مِنْ قَدْرِهِ أَشْهَرَا
جِهَادٌ لَيْلٍ فِي نَهَارٍ فَفُزْتُ إِذْ كُنْتُ فِيهِ الْأَضْبَرَ الْأَشْكُرَا
أَصْدَقُ مَا يَرْشُفُهُ سَامِعٌ مَا هَزُّ مِنْ أَوْصَافِكَ الْمُنْبِرَا
أَبْقَاكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ مَنْ خَلَكَ فِي لَيْلِهِمَا نَيْرَا^(٢)
حَتَّى تَرَى عَيْسَى^(٣) مِنَ الْقُدُسِ قَدْ لَجَا إِلَى سَيْفِكَ مُسْتَنْصِرَا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرسم، فبدأ من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد، وذلك في آخر شعبان منها^(٤).

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم، وخيم في ناحية حوران بالعسكر، وكاتب العرب، واستدعى جماعة وافرة من

(١) ثوب الداعي تنويهاً: إذا أعاد مرة بعد أخرى، ومنه: تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين فقال: الصلاة رحمكم الله. يدعو إليها عوداً بعد بدء. انظر «اللسان» (ثوب).

(٢) في هامش (م): في نسخة «جلاك في ليلهما نيرا».

(٣) في هامش الأصل و (ل): «حاشية، قال المؤلف: يعني أتباع عيسى، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ والله أعلم.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.

التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة^(١).

ودخلت سنة أربع وأربعين [وخمسة مئة]^(٢)

فجددت المهادنة في المحرم مُدَّة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية* قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برَّز في عسكره إلى ظاهر حلب للقاءه، والحاجة ماسة إلى معاضدته. فندب معين الدين مجاهد الدين بُزان بن مامين^(٣) في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير^(٤) إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته^(٥)، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران^(٥).

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، [من الظهور]^(٦) على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر بيوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بلُنْب*، وهم في نحو أربع مئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس^(٧) مقدَّمهم صريعاً بين حُماته

٥٨/١

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٢ من هذا الجزء.

(٤ - ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٧) انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

وأبطاله، فعرف وقُطع رأسه وحُمِل إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس، وقوة الحِيل وعظم الخلقة، مع اشتهاه الهيبة وكثرة السطوة، والتَّنَاهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية*، وقد خَلَّتْ من حُماتها، والدَّائِبِينَ عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من النَّاصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأمهلوا. ثم رَتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية*، وقد كان رَتَّب الأمير صلاح الدين^(١) في فريق وافر من العسكر لِمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأوْمَنُوا على أنفسهم، وسلَّموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية*، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة مَنْ في أنطاكية^(٢) وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قُرِب من الأعمال الحليَّة له، وما قُرِب من أنطاكية^(٣) لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعازل وغيرها المغانم الجمَّة. وفصل عنه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الواقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأي، والمعرفة بمواقف الحروب^(٣).

(١) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء. (٢ - ٢) ما بينها ساقط من (م).

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤ - ٣٠٦، وط. د. زكار: ٤٧٣ - ٤٧٥.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقتل^(١) البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين [بقصيدة]^(٢) يقول فيها:

إِنْ كَانَ آلُ فَرَنْجٍ أَدْرَكُوا فَلَحًا^(٣) فِي يَوْمٍ يَغْرَا* وَنَالُوا مُنِيَّةَ الظَّفَرِ
فَفِي الْخَطِيمِ خَطَمْتُ الْكُفْرَ مُنْصَلِتًا أَبَا الْمُظْفَرِ بِالصَّمْصَامَةِ الذَّكْرِ
نَالُوا بِيَغْرَا نِهَابًا وَانْتَهَبَتْ لَنَا عَلَى الْخَطِيمِ نَفُوسَ الْمَعْشَرِ الْأَثِيرِ
وَاسْتَقُودُوا الْخَيْلَ غُرِيًّا^(٤) وَاسْتَقَدَّتْ لَنَا قَوَامِصُ^(٥) الْكُفْرِ فِي ذُلٍّ وَفِي صَغَرِ

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة^(٦) أسارى وخيول كثيرة^(٦)، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم*، وهو للفرنج، فحَصَرَهُ وَخَرَّبَ رِبْضَهُ، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن إنب* فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية*، وساروا إليه لِيُرْحَلُوهُ عَنْ أَنْبَ فلم يرحل، بل لقيهم وتصافَّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنِّه ما تعجَّب منه

(١) الضبط من (ل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٣) أي فوزاً. انظر «اللسان» (فلح).

(٤) أي لا سروج عليها، انظر «اللسان» (عرا).

(٥) مفردها قومص، قمص. انظرها في كشف المصطلحات.

(٦ - ٦) ما بينها ساقط من (م).

الناس^(١)، وأجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقَتَلَ المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قُتِلَ البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج، وذوي التقدم فيهم والملك. ولما قتل البرنس خَلَفَ ابناً صغيراً، وهو بيمند^(٢)، فبقي مع أمِّه^(٣) بأنطاكية، فتزوجت أمه بإبرنس آخر^(٤)، وأقام معها بأنطاكية يدبِّرُ الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى، وهزمهم، وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أسره تملك بيمند أنطاكية بلد أبيه، وتمكَّن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم* سنة تسع وخمسين وخمس مئة، على ما نذكره^(٥)، إن شاء الله تعالى. وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس. وممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أشده إياها بجسر الحديد*، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها^(٦):

هذي العزائمُ لا ماتدعي القضبُ^(٧) وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكتُبُ
وهذه الهممُ اللاتي متى خَطَبَتْ تعثرتْ خَلْفَها الأشعارُ والخُطْبُ
صافحتْ يا ابنَ عمادِ الدين دُرُوتَها براحةٍ للمساعي دونها نَعْبُ
ما زال جَدُّكَ ييني كلَّ شاهقةٍ حتى ابتنى قُبَّةً أوتادُها الشُّهْبُ

(١) كان عمر نور الدين وقتئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة، إذ ولد سنة (٥١١هـ) انظر ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٢) هو Bohemond III، انظره في كشف الأعلام.

(٣) هي Constanca، انظرها في كشف الأعلام.

(٤) هو Rignald of chatillon المعروف عند المؤرخين أيضاً بأرناط. انظره في كشف الأعلام.

(٥) انظر ص ٤١٥ من هذا الجزء.

(٦) انظر «الباهر»: ٩٩ - ١٠٠، وقد أورد ابن الأثير أبياتاً من القصيدة.

(٧) مفردها القضيبي: السيف اللطيف الدقيق. «اللسان» (قضب).

٥٩/١ يا سَاهِدُ (٢) الطَّرْفِ والأَجْفَانُ هاجعةٌ
أَغْرَتْ سَيُوفَكَ بالإِفرنجِ راجفةٌ
ضربتْ كَبَشَهُمْ منها بقاصمةٍ
قُلْ للطُّغَاةِ وَإِنْ صَمَّتْ مَسَامِعُهَا
مَايُومَ إِنِّبْ* والأَيَّامُ دائِلَةٌ
أَغْرَكُمُ خَدْعَةَ الأَمَالِ ظَنُّكُمُ
غَضِبْتَ لِلدِّينِ حَتَّى لَمْ يَفْتِكَ رِضَى
طَهَّرْتَ أَرْضَ الأَعَادِي مِنْ دِمَائِهِمْ
حَتَّى اسْتَطَارَ شَرَارَ الزُّنْدِ قَادِحُهُ
وَالْخَيْلُ مِنْ تَحْتِ قَتْلَاهَا يَقِرُّ (٣) لَهَا
وَالنَّقْعُ فَوْقَ صِقَالِ الْبَيْضِ مُنْعَقِدٌ
وَالسَّيْفُ هَامٌ عَلَى هَامٍ بِمَعْرَكَةٍ
وَالنَّبِيلُ كَالْوَبْلِ (٧) هَطَّالٌ وَلَيْسَ لَهُ
وَلِلظُّبَى ظَفَرٌ حُلُوٌ مَذَاقَتُهُ

أَقْصَى (١) أَتَسَاعاً بِمَا ضَاقَتْ بِهِ الْحَقَبُ
وَثَابَتِ الْقَلْبِ والأَحْشَاءُ تَضَطَّرِبُ
فَوَازُ رُومِيَّةِ الْكُبْرَى لَهَا يَجِبُ
أُودَى بِهَا الصُّلْبُ وَانْحَطَّتْ بِهَا الصُّلْبُ
قَوْلًا لِصَمِّ الْقَنَا فِي ذِكْرِهِ أَرَبُ
مِنْ يَوْمِ يَغْرَا* بَعِيدٌ لَا وَلَا كَثَبُ
كَمْ أَسْلَمَ الْجَهْلُ ظَنًّا غَرَّهُ الْكَذِبُ
وَكَانَ دِينُ الْهُدَى مَرْضَاتِهِ الْغَضَبُ
طَهَارَةً كُلِّ سَيْفٍ عِنْدَهَا جُنْبُ
فَالْحَرْبُ تُضْرَمُ والأَجَالُ تُحْتَطَبُ
قَوَائِمُ خَانِهِنَّ الرُّكُضُ وَالْخَبَبُ
كَمَا اسْتَقَلَّ (٤) دُخَانُ تَحْتَهُ لَهَبُ
لَا الْبَيْضُ (٥) ذُوذِمَةٌ فِيهَا وَلَا الْيَلْبُ (٦)
سُورَى الْقِسِيِّ وَأَيْدٍ فَوْقَهَا سُحُبُ
كَأَنَّمَا الضَّرْبُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ضَرْبُ (٨)

(١) فِي (ل) مَا أَقْصَى، وَهُوَ تَصْخِيفٌ.

(٢) تَقْرَأُ أَيْضاً فِي (م): يَا سَاهِرٌ.

(٣) أَى تَسْكُنْ، تَسْتَقِرُّ، انْظُرْ «اللسان» (قرر).

(٤) أَى ارْتَفَعَ. انْظُرْ «اللسان» (قلل).

(٥) مَفْرُودَهَا بَيْضَةٌ، وَهِيَ الْخُوْذَةُ. «المعجم الوسيط»: ٧٨/١.

(٦) الْيَسْبُ: الدَّرُوعُ. انْظُرْ «اللسان» (يلب).

(٧) الْوَبْلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، الضَّخْمُ الْقَطَرُ. «اللسان» (وبل).

(٨) الضَّرْبُ — بِالتَّحْرِيكِ — الْعَسَلُ الْأَبْيَضُ الْغَلِيظُ، وَقِيلَ: عَسَلُ الْبَرِّ. انْظُرْ «اللسان» (ضرب).

مصادر أفلوب تلك أم قلب^(١)
 فاستسلموا وهي لا تبغ^(٢) ولا غرب^(٣)
 لاقى العدى والقنا في كفه قصب
 يارب حائنة^(٤) منجأتها العطب
 ثارت عليهم بها من تحتها النوب
 مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
 فيما مضى نسيت أيامها العرب
 من الملوك فنور الدين محتسب
 إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
 ووجهه نائب عن وصفه اللقب
 شغل فكل مديحي فيه مقتضب
 هل يأسر الغلب^(٥) إلا من له الغلب
 وهل له غير أنطاكية سلب
 وإن يسايرها من تحته قتب
 برأسه إن إثمار القنا عجب

ولأسنة عما في صدورهم
 خانوا فخانت^(٦) رماح الطعن أيديهم
 كذاك من لم يوق الله مهجته
 كانت سيوفهم أوحى حوفهم
 حتى الطوارق كانت من طوارقهم
 أجسادهم في ثياب من دمايهم
 أنباء ملحمة لو أنها ذكرت
 من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً
 ذو غرة ما سمت والليل معتكر
 أفعاله كاسمه^(٧) في كل حادثة
 في كل يوم لفكري من وقائعه
 من بات الأسد أسرى في سلاسله
 فملكوا سلب الإبرنز^(٨) قاتله
 من للشقي بما لاقت فوارسه
 عجبت للصعدة^(٩) السمراء مثمرة

(١) مفردا قلب، وهو البثر. «اللسان» (قلب).

(٢) في (م) خافوا فخافت.

(٣) النبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. «اللسان» (نبع).

(٤) ضرب من الشجر. «اللسان» (غرب).

(٥) الحائنة: النازلة ذات الحين. «اللسان» (حين).

(٦) في (م): في اسمه، وهو وهم.

(٧) مفردا أغلب، وغلب: وهو الأسد. انظر «اللسان» (غلب).

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

(٩) الصعدة: القناة. «اللسان» (صعد).

سما عليها سمّو الماءِ أرْهَقَهُ
 ما فَارَقَتْ عَذْبَاتُ التَّاجِ مَفْرِقَهُ
 إذا القَنَاةُ ابْتَغَتْ في رأسه نَفَقاً
 كنا نَعُدُّ حِمَى أطرافنا ظَفَراً
 عمت فُتُوْحُكَ بِالْعَدَوَى مَعَاقِلَهَا
 لم يبقَ منهم سوى نَبْضٍ بلا رَمَقٍ
 فأنهَضُ إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ
 واثِدُنْ لموجِكَ في تطهيرِ ساجِلِهِ
 يا مَنْ أعَادَ تُغُورَ الشَّامِ ضاحِكَةً ٦٠/١
 ما زِلْتَ تُلْحِقُ عاصيها بطائِعها
 حَلَلْتَ مِنْ عَقْلِها أيدي معاقِلها
 وأَيَقَنْتَ أَنَّها تَلُو^(٥) مراكزها
 أَجْرَيْتَ مِنْ تُغَرٍ^(٧) الأَعْنَاقِ أَنْفُسَهَا
 أنبوبةً في صَعُودِ أصلها صَبَبُ
 إلا وهامته تاجٌ ولا عَذْبُ
 بدا لِثَعْلِبِها^(١) مِنْ نحره سَرَبُ^(٢)
 فمَلَكْتِكَ الظُّبَى ما ليس يُحْتَسَبُ
 كَأَنَّ تسليمَ هذا عند ذا جَرَبُ
 كما التَوَى بعدَ رأسِ الحَيَّةِ الدَّنَبُ
 يوليك أقصى المُنَى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ
 فإنما أَنْتَ بحرٌ لُجَّةً لَجَبُ
 من الظُّبَى عن تُغُورِ زانِها^(٣) الشَّنْبُ^(٤)
 حَتَّى أَقَمْتَ وأنطاكيَّةَ حَلَبُ
 فاستَجَفَلْتَ وإلى ميثاقِكَ الهَرَبُ
 وكيف يَثْبُتُ بيتُ ماله طُنْبُ^(٦)
 جري الجفونِ امترأها^(٨) بارحُ^(٩) حَصْبُ^(١٠)

(١) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جُبة السنان، «اللسان» (ثعلب).

(٢) في (ل) شرب، وهو وهم. والسرب: بيت تحت الأرض، وجحر الثعلب. «اللسان» (سرب).

(٣) في (م): زارها، وهو تحريف.

(٤) الشنب: هو — على أحد الأقوال — صفاء الأسنان ونقاؤها. انظر «اللسان» (شنب).

(٥) تخذل، ترك. انظر «اللسان» (تلا).

(٦) حبل طويل يشد به البيت، وقيل: هو الوتر. «اللسان» (طنب).

(٧) مفردا تُغرة، وهي نقرة النحر فوق الصدر. انظر «اللسان» (تغر).

(٨) استخرجها واستدرها. «اللسان» (مرا).

(٩) الريح الحارة في الصيف. «اللسان» (برح).

(١٠) ذو حصباء. انظر «اللسان» (حصب).

جسر الحديد* هَزَبْرُ غَيْلُهُ^(١) أَشْبُ^(٢)
يَأْوِي إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى لَهَا حَسْبُ
تَقْوَى فَلَا يُتِمَارَى^(٣) أَنْكَ الْقُطْبُ
لَكَانَ بَيْنَكُمَا مِنْ عِفَّةٍ نَسْبُ
إِلَّا شَهِدْتَ وَعِبَادُ الْهَوَى غَيْبُ^(٤)

صَرِيحٍ جَاءَ بِالْكَرَمِ الصَّرِيحِ
عَلَى مَا بَيْنَ فَامِيَةِ* وَشَيْحِ^(٧)
صَوَادِرَ عَنْ قَتِيلٍ أَوْ جَرِيحِ
مِنَ النَّقْعِ الْغَزَالَةِ^(٩) فِي مُسُوحِ
مِنَ الدَّمِ عِبْرَةَ الْجَفْنِ الْقَرِيحِ
أُتِيحَ لَهُ مِنَ الْقَدْرِ الْمُتِيحِ
يَجُودُ بِنَفْسِهِ غَيْرُ الشَّحِيحِ

وَمَا رَكَزَتْ الْقَنَا إِلَّا وَمَنْكَ عَلَى
فَاسَعْدُ بِمَا نِلْتَهُ مِنْ كُلِّ صَالِحَةٍ
إِلَّا تَكُنْ أَحَدَ الْأَبْدَالِ فِي فَلَكَ الْـ
فَلَوْ تَنَاسَبُ أَمْلَاكَ السَّمَاءِ بِهَا
هَذَا وَهَلْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ مَكْرَمَةٌ
وَلَهُ فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى:

أَلَا لِلَّهِ دَرْكٌ أَيْ دُرٌّ^(٥)
وَعَسْكَرُكَ الَّذِي اسْتَوْلَى مُشِيحاً^(٦)
وَوَقَعْتَكَ الَّتِي نَبَتِ الْعَوَالِي
بِإِنْبُ* يَوْمَ أَبْرَزْتَ الْمَذَاكِي^(٨)
غَدَاةً كَأَنَّمَا الْعَاصِي* أَحْمَرَاراً
وَقَدْ وَاثَاكَ بِالْإِبْرَنْزِ^(١٠) حَتْفُ
قَتَلْتَ أَشْحَهُمَ بِالنَّفْسِ إِذْ لَا

(١) الغيل - بالكسر - الأجمة، وموضع الأسد غيل، والجمع غيول، انظر «اللسان» (غيل).

(٢) ملف. انظر «اللسان» (أشب).

(٣) لا يشك. انظر «اللسان» (مرا).

(٤) مفردا غائب. «اللسان» (غيب).

(٥) الضبط من (م).

(٦) مجدًا. انظر «اللسان» (شيح).

(٧) شيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية، يقال لها شيح الحديد. انظر «الأعلاق

الخطيرة»: ج ١/ق ١/١٢٦.

(٨) الخليل. انظر «اللسان» (ذكا).

(٩) الشمس. «اللسان» (غزل).

(١٠) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

مَلَأَتْ بِهِمْ ضَرَائِحَهُمْ فَأَمْسَوْا وَلَيْسَ سِوَى الْقَشَاعِمِ مِنْ ضَرِيحٍ
وَعُدَّتْ إِلَى ذَرَا حَلَبٍ حَمِيداً سُمُو الْبَذْرِ مِنْ بَعْدِ الْجُنُوحِ
فَإِنْ حَلَيْتَ بَغْرَتِكَ اللَّيَالِي فَكَمْ لِسْنَاكَ مِنْ زَمَنِ مَلِيحٍ
رُويْدُكَ تَسْكُنُ الْهَيْجَا فَوَاقاً^(١) بَحِثْ تَرِيحٍ مِنْ تَعَبِ الْمَرِيحِ
فَأَنْتَ وَإِنْ أَرَحْتَ الْخَيْلَ وَقْتاً فَهَمْكَ غَيْرُهُمُ الْمُسْتَرِيحِ

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضاً بجسر الحديد*:

أَقْوَى^(٢) الضَّلَالُ وَأَقْفَرْتُ عَرَصَاتُهُ وَعَلَا الْهُدَى وَتَبَلَّجَتْ قِسْمَاتُهُ
وَانْتَأَشَ^(٣) دِينَ مُحَمَّدٍ مَحْمُودُهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَلَتْ دِمَاءَ عَبْرَاتِهِ
رَدَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ عَصْرَ شَبَابِهِ وَثَبَاتُهُ مِنْ دُونِهِ وَثَبَاتُهُ
أَرَسَى قَوَاعِدَهُ وَمَدَّ عِمَادَهُ صُعْدَاً وَشَيْدَ سُورِهِ سَوَارَتُهُ
وَأَعَادَ وَجْهَ الْحَقِّ أَبْيَضَ نَاصِعَاً إِضْلَاتُهُ^(٤) وَصِلَاتُهُ وَصَلَاتُهُ
لَمَّا تَوَاكَلَ حِزْبُهُ وَتَخَاذَلَتْ أَنْصَارُهُ وَتَقَاصَرَتْ خُطُوتَاتُهُ
رُفِعَتْ لِنُورِ الدِّينِ نَارُ عَزِيمَةٍ رَجَعَتْ لَهَا عَنْ طَبْعِهَا ظُلُمَاتُهُ
مَلِكٌ مَجَالِسُ لَهُوَ شِدَاتُهُ^(٥) وَمُشَوِّقُهُ بَيْنَ الصَّفُوفِ شِدَاتُهُ^(٦)
يُغَرِّى بِحَثْحَثَةِ الْيَرَاعِ بَنَانُهُ إِنَّ لَذَّ حَثْحَثَةِ الْكُؤُوسِ لِدَاتُهُ
وَيُرَوِّقُهُ تَغَرُّ الْعِدَى قَانِ دِمَاءً لَا الثُّغْرَ يَعْبَقُ فِي لَمَاهِ لثَاتُهُ

(١) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، جعلوه ظرفاً على السعة. انظر «اللسان» (فوق).

(٢) افتقر، ومنه: أقوت الدار، إذا خلت من أهلها. انظر «اللسان» (قوا).

(٣) استدركه واستنقذه، وتناوله، وأخذه من مهواته. انظر «اللسان» (نوش).

(٤) تجريده للسيف من غمده، وهو هنا كناية عن الحرب. انظر «اللسان» (صلت).

(٥) حملته في الحرب. انظر «اللسان» (شدد).

(٦) أي شدته وجراته. «اللسان» (شذا).

فَصَبُّوْهُ خَمْرُ الطُّلَى^(١) وَغَبُّوْهُ
 فَتَحْ تَعَمَّمَتِ السَّمَاءُ بِفَخْرِه
 سَبَّغَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ بِيضَ حُجُولِهِ
 وَانْهَلَّ فَوْقَ الْأَبْطَحِينَ غَمَامُهُ
 لِلَّهِ بُلْجَةٌ^(٢) لَيْلَةٍ مَخِضَتْ بِهِ
 حَطَّ الْقَوَامِصُ* فِيهِ بَعْدَ قِمَاصِهَا^(٣)
 نَبَذُوا السَّلَاحَ لِضَيْغَمِ عَادَاتِهِ
 لِمَجْرَبِ عُمَرِيَّةٍ غَضْبَاتِهِ
 تَجَنَّا لِضَيْقِ صِفَادِهِ^(٤) أَسْرَاوَهُ
 بَيْنَ الْجِبَالِ خَوَاضِعًا أَعْنَاقُهَا
 نَشَرَتْ عَلَى حَلَبٍ عَقُودَ بُنُودِهِمْ
 رَوْضُ جَنَاهُ لَهَا مَكْرٌ جِيَادِهِ

٦١/١ نُطِفُ النَّفُوسِ تُدِيرُهَا نَشْوَاتُهُ
 وَهَفَّتْ عَلَى أَغْصَانِهَا عَذْبَاتُهُ
 وَاخْتَالَ فِي أَوْضَاحِهَا جِبْهَاتُهُ
 وَسَرَتْ إِلَى سَكْنِيهِمَا^(٥) نَفْحَاتُهُ
 وَالْيَوْمَ دَبَّجَ وَشِيَهَ سَاعَاتُهُ
 ضَرْبُ يُصْلِصِلُ فِي الطُّلَى صَعَقَاتُهُ
 فَرَسُ الْفَوَارِسِ^(٦) وَالْقَنَا غَابَاتُهُ
 لِلَّهِ، مُعْتَصِمِيَّةٌ غَزَوَاتُهُ
 وَتُفِيضُ مَاءَ شُؤُونِهَا^(٧) نَغْمَاتُهُ
 كَالذُّودِ^(٨) نَابَتْ عَنْ بُرَاهِ^(٩) حُدَاتُهُ
 حُلَلُ الرِّبْعِ تَنَاسَقَتْ زَهْرَاتُهُ
 وَاسْتَوَارَتْ حَمَالَهُ حَمَلَاتُهُ

(١) مفردها طَلَاة: وهي العنق. «اللسان» (طلي).

(٢) أي سكانها، انظر «اللسان» (سكن).

(٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر. «اللسان» (بلج).

(٤) وثبها. «اللسان» (قمص).

(٥) أي قتل الفوارس. والأصل في الفرس دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً. انظر «اللسان» (فرس).

(٦) الصفاد: ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).

(٧) مفردها شأن: مجرى الدمع إلى العين، والدموع تخرج من الشؤون. «اللسان» (شأن).

(٨) القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع. «اللسان» (ذود).

(٩) الحلقة في أنف البعير. «اللسان» (بري).

متساندين على الرجال كما انتشى
 لم تُنبِت الأجامُ قبل رِمَاحِه^(٣)
 فَلْيَحْمَدِ الإسلامُ ما جُدِحتْ له
 وسقى صدَى ذاك الحيا صوب^(٤) الحيا
 نَصَبَ السَّرِيرَ ومالَ عنه ومُهَّدَتْ
 ما ضَرَّ هذا البدر وهو محلَّق
 في كلِّ يومٍ تستطيل قناتُه
 وتظل ترقمُ^(٥) في الضحى آثاره
 أين الألى ملؤوا الطُّروسَ زخارفاً
 عَذَقُوا بأعناق العواطلِ ماله
 لو فَضَّلُوا سِمْطاً ببعض فتوحه
 يمسي قنانيه^(٦) بنات قُيونه^(٨)

شَرِب^(١) أَمَلَتْ هامَه قهواتُه^(٢)
 شَجَراً أصولُ فُروعِه ثمراتُه
 شَرَبَاتُ غَرَسِ هذه مجناتُه
 خَيْرُ الثرى ما كنتِ أنت نباتُه
 لِمَقَرَّ مَنْصِبِكَ السَّريِّ سَراتُه
 أن الكواكبَ في الذُّرَا ضَراتُه
 فوق السَّماءِ وتعتلي دَرَجَاتُه
 مَجْداً والسَّنةُ الزَّمانِ رُواتُه
 عن نَزَفِ بحرِ هذه قَطراتُه
 من جَوْهَرٍ فَأَتَتْهُمْ فَذَاتُه
 سَخِرَتْ بما افعلوا له^(٦) فعلاتُه
 فوق القوانسِ^(٩) والقنا قَيَّانُه^(١٠)

(١) اسم لجمع شارب. «اللسان» (شرب).

(٢) القهوة: الخمر. «اللسان» (قها).

(٣) في (م) رماحهم، وهو تصحيف.

(٤) الصوب: نزول المطر. «اللسان» (صوب).

(٥) رقم الكتاب يرقمه رقماً أعجمه وبينه. «اللسان» (رقم).

(٦) في (ل) لهم، وهو تصحيف.

(٧) مفردها قنينة، من الزجاج الذي يجعل الشراب فيه. «اللسان» (قنن).

(٨) مفردها: القين، وهو الحداد. «اللسان» (قين).

(٩) مفردها قونس: أعلى البيضة من الحديد. «اللسان» (قنس).

(١٠) مفردها قينة، وهي الأمة غنت أم لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماء. (اللسان) (قين).

صَلَّانٌ مِنْ دُونِ الْمُلُوكِ تَقْرُهَا
قَعَدَتْ بِهِمْ عَنْ خَطْوِهِ هِمَّاتِهِمْ
سَكَنُوا مَسْجِفَةَ الْحِجَالِ (٣) وَأَسْكَنْتْ
لَوْلَاحٍ لِلطَّائِي غُرَّةً فَتَحِهِ
أَوْهَبَ لِلطَّبْرِيِّ طَيْبُ نَسِيمِهِ
صَدَمَ الصَّلِيبَ عَلَى صَلَابَةِ عُودِهِ
وَسَقَى الْبَرْنَسَ وَقَدْ تَبَرَّسَ ذِلَّةً
فَانْقَادَ فِي خَطْمِ الْمَنِيَةِ أَنْفُهُ
وَمَضَى يُؤْنَبُ تَحْتَ إِنْبِ* هِمَّةً
أَسَدٌ تَبَوَّأَ كَالْغَرِيفِ (٨) فَجَاءَتْهُ
دُونَ النُّجُومِ مَغْمُضًا وَلَطَالَمَا
فَجَلُوتُهُ تَبْكِي الْأَصَادِقَ (١٠) تَحْتَهُ

حَرَكَاتُهُ وَتُنِيمُهَا يَقْظَاتُهُ
وَسَمَتْ بِهِ (١) عَنْ قَطْوِهِمْ (٢) هِمَّاتُهُ
زَجَلَ الرِّجَالُ مَعَ السَّهَائِ (٤) عَزَمَاتُهُ
بَاءَتْ بِحَمَلٍ تَأَوَّهَ بَاءَاتُهُ (٥)
لَاخْتَشَ مِنْ تَارِيخِهِ حَشَوَاتُهُ
فَتَفَرَّقَتْ أَيْدِي سَبَا خَشْبَاتُهُ
بِالرُّوجِ (٦) مُمَقَّرَ (٧) مَا جَنَتْ غَدَرَاتُهُ
يَوْمَ الْخَطِيمِ وَأَقْصَرَتْ نَزَوَاتُهُ
أَمْسَتْ زَوَافِرَ غِيَّهَا زَفَرَاتُهُ
فَتَبَوَّأَتْ طَرْفَ السَّنَانِ شَوَاتُهُ (٩)
أَغْضَتْ وَقَدْ كَرَّتْ لَهَا لِحْظَاتُهُ
بِدَمٍ إِذَا ضَحِكَتْ لَهُ شُمَاتُهُ

(١) فِي الْأَصْلِ: بِهِمْ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ (م).

(٢) الْقَطْوُ: الْمَشْيُ بِثَقَلٍ. انْظُرْ «اللسان» (قطا).

(٣) السَّجْفَةُ: السَّيْرُ، وَالْحِجَالُ: مَفْرَدُهَا حِجْلَةٌ، وَهُوَ بَيْتٌ كَالْقَبَةِ يَسْتُرُ بِالْثِيَابِ، وَكَانَتْ

الْحِجْلَةُ تَتَخَذُ لِلْعُرُوسِ أَيْضًا. انْظُرْ «اللسان» (سجف) (حجل).

(٤) كَوَيْكَبٌ صَغِيرٌ، خَفِيَ الضَّوُّ فِي بَنَاتِ نَعَشِ الْكِبَرِيِّ. «اللسان» (سها).

(٥) إِشَارَةٌ إِلَى قَصِيدَةِ أَبِي تَمَامٍ الْبَائِيَةِ الْمَشْهُورَةِ:

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حُدِّهِ الْخَدَّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعْبِ

(٦) كَوْرَةٌ مِنْ كَوْرٍ حَلَبِ الْمَشْهُورَةِ، فِي غَرْبِهَا. «معجم البلدان»: ٧٦/٣.

(٧) الشَّدِيدُ الْمَرَارَةِ. «اللسان» (مقر).

(٨) الْغَرِيفُ: الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ. «اللسان» (غرف).

(٩) الشَّوَاةُ: جِلْدَةُ الرَّأْسِ. «اللسان» (شوا).

(١٠) جَمْعُ صَدِيقٍ. انْظُرْ «اللسان» (صدق).

نَظَمْتُ مَدَارَ النَّيِّرِينَ قَنَاتُهُ
لَأَرَاكَ (٢) شَاهِدَ خَفْضِهِ إِخْبَاتُهُ (٣)
كَلَا وَلَا هَمَّتْ لَهَا هَدْرَاتُهُ
نَطَقْتُ سَطَاكَ لَهُ فَطَالَ صُمَاتُهُ (٧)
مَبِيضٌ نَصْرِكَ، نُكَسْتُ رَايَاتُهُ
مِثْلَ الْكُرَيْنِ (٨) فَقَلَصْتُ كَرَاتُهُ
تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأَسْلَمْتُهُ حُمَاتُهُ
بِالْبَيْضِ يَنْهَبُ مَاحَوَاهُ عُفَاتُهُ
دَاءُ الْمِطَالِ وَلَا تَعِيشُ عُذَاتُهُ
مَا كَانَ قَبْلُ بِصِيدِهِ يِقَاتُهُ
مَتَسْنِمًا مَا اسْتَشْرَفَتْ شُرَفَاتُهُ
مَتَوَزَّعَاتٌ بَيْنَهُنَّ بَنَاتُهُ
فَتَقَادَفَتْ بِعَنِيْقِهَا قَذَفَاتُهُ

تمشي القنأة برأسه وهو الذي
لو عاتق العيوق (١) يوم رَفَعْتَهُ
ما انقادَ قَبْلَكَ أَنْفُهُ بِخِزَامَةٍ (٤)
طَيَّانٌ (٥) خَلْفَ السَّرْحِ (٦) طَالَ زَيْرُهُ
لَمَّا بَدَا مَسْوَدُ رَأْيِكَ فَوْقَهُ ٦٢/١
وَرَأَى سَيُوفَكَ كَالصُّوَالِجِ طَاوَحَتْ
وَلَّى وَقَدْ شَرِبَتْ طُبَاكَ كُمَاتِهِ
تَرَكَ الْكِنَاسَ وَالْكِنَاسَ لِنَاهِبٍ
لِغَلَابِ أُرُوعٍ لَا يُمِيتُ عِدَاتِهِ
لِللُّوحْشِ مَلَقَى بِالْعِرَا يِقَاتُهُ
الْيَوْمَ مَلَكَكَ الْقِرَاعُ قِلَاعَهُ
وَعَدَا تُحِلُّ لَكَ الْحَلَائِلَ أَسْهُمُ
أَوْطَاتٍ أَطْرَافَ السَّنَابِكِ هَامَهُ

- (١) العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. «اللسان» (عوق).
(٢) في الأصل و (ل) لأزال، والمثبت من (م).
(٣) الإخبات: الخشوع والتواضع. انظر «اللسان» (خبت).
(٤) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في ورة أنف البعير، يشد بها الزمام. انظر «اللسان» (خزم).
(٥) الطيان: الجائع. «اللسان» (طوي).
(٦) السرح: الماشية. انظر «اللسان» (سرح).
(٧) سكوته، «اللسان» (صمت).
(٨) جمع كرة، وهي التي تضرب بالصولجان. انظر «اللسان» (كرا)، وانظر كشاف المصطلحات «الجوكان».

لا زال هذا الملك يشمخ شأنه أبداً وتكفت في الحضيض شأنه
ما أخطأتك يد الزمان فدونه من شاء فلتسرع إليه هنائه
أنت الذي تحلي الحياة حياته وتهب أرواح القصيد هباته

فصل

قال ابن الأثير: وفيها^(١) سار نور الدين إلى حصن أفامية* - وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها - وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر* وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملاه ذخائر؛ من طعام ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدّحه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن منير، قال^(٢):

أسنى الممالك ما أطلت منارها وجعلت مُرهفة الشفار دثارها^(٣)
وأحق من ملك البلاد وأهلها رؤف^(٤) تكف عذله أقطارها
من عم^(٥) سام الخافقين وحامها منأ وزاد هوى فخص نزارها

(١) أي سنة أربع وأربعين وخمس مئة.

(٢) انظر «الباهر»: ١٠٠ - ١٠١، وأورد ابن الأثير خمسة أبيات من القصيدة.

(٣) في (ل) و (م) دسارها.

(٤) على وزن فَعْل، وهي لغة. انظر «اللسان» (رأف).

(٥) في الأصل و (ل) عام، والمثبت من (م).

عَدَّتْهُ ذُرَّةُ فَارِسٍ أَسْوَارَهَا^(١)
وتَعَاثُ نُطْفَتَهَا^(٢) وَتَكَرَّهُ دَارَهَا
وَأَسَاغُ جُرْعَتِهَا وَأَثْبَتَ زَارَهَا^(٣)
وَأَجَارَهَا فَعَلَّتْ سُهَيْلاً جَارَهَا
وَشَدَا لَهُ يُمْنُ الْعَلَا فَأَنَارَهَا
مِنْ بَعْدِ مَا شَمَلَ الْبَلَى أَبْشَارَهَا
أَوْ نَانَأَتْ^(٤) كَانَ الْحُسَامُ جِبَارَهَا
هَذَا الْعِزَّائِمُ أَسْرَهَا وَإِسَارَهَا
فِي صَوْنِهَا أَنْ تَسْتَرِدَّ ضِمَارَهَا
مَا أَرِيشَتْهُ وَثَقَّقَتْ أَطَارَهَا
غُلْبُ الْأَسْوَدِ فَقَلَّمَتْ أَظْفَارَهَا
لِلْفُلْكِ بَسْطَتُهُ أَحَالَ مِدَارَهَا
لِلدِّينِ يَحْمِلُ سِفْرَهُ أَسْفَارَهَا
خَطْبَاءُ تَشْرُ فَوْقَهَا تَقْصَارَهَا^(٥)

مُضَرِّيَّة طُبِعَتْ مُضَارِبُهُ وَإِنْ
آل^(٦) الرَعِيَّةِ وَهِيَ تَجْهَلُ آلَهَا
فَأَقَرَّ ضَجْعَتَهَا وَأَثْبَتَ نَيْهَا^(٧)
مَلِكُ أَبَوِهِ سَمَا لَهَا فِسْمَا بِهَا
نَهَجَ السَّبِيلَ لَهُ فَأَوْضَعَ^(٨) خَلْفَهُ^(٩)
أَنْشَرَتْ يَا مَحْمُودُ مِلَّةَ أَحْمَدِ
إِنْ جَانَأَتْ^(١٠) عَدَلَ السَّنَانُ قَوَامَهَا
عُقِلَتْ مَعَ الْعُضْمِ الْعَوَاصِمِ مُذْغَذَتْ
وَتَكَفَّلَتْ لَكَ ضَمَرٌ أَنْضِيَتْهَا
كَالَتْ هَوَامِلُهَا^(١١) وَرَدَّ مَطَارَهَا
كَمْ حَاوَلْتُ مِنْ كَفَّتِيهَا غِرَّةً
أَنْتَى وَحَامِي سَرَحِهَا مَنْ لَوْ سَمْتُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ فَتَوْحِكَ سُورَةً
وَمُطِيلَةَ قِصْرِ الْمَنَابِرِ إِنْ غَدَا إِلَـ

-
- (١) الأسوار: قائد الفُرس، انظر «اللسان» (سور).
(٢) أي ساسها وأحسن سياستها. انظر «اللسان» (أول).
(٣) الماء الصافي. انظر «اللسان» (نطف).
(٤) على هامش الأصل، و (ل): النّي: الشحم.
(٥) أي جماعتها. انظر «اللسان» (زور).
(٦) أي عدا خلفه. انظر «اللسان» (وضع).
(٧) في (ل) خلقه، وهو تصحيف.
(٨) أي مالت. «المعجم الوسيط»: ١/١٣٨.
(٩) أي ضعفت وعجزت. «اللسان» (نأنأ).
(١٠) أي المهملة، ومنه إبل هوامل: أي مسيبة لا راعي لها. انظر «اللسان» (همل).
(١١) القلادة للزومها قصرة العنق. انظر «اللسان» (قصر).

هَمَّ تَحَجَّلَتِ المَلُوكُ وراءِها
وعزائمُ تستوئُرُ^(١) الأسادَ عن
أبدًا تقصّر طول مشرفة الذُّرا
فغرت أفامية* فما فهِمَّتْهُ
أرهفتَ رأيك فوق رايك^(٢) تحتها
أدركتَ ثاركَ في البُغاة وكنْتَ يا
عاريَّة الزمن المعيرِ سمالها
زأر الهزْبُرُ فقيَّدتْ عانِئِها^(٣)
ضاءت نجومُك فوقها ولربَّما
أمست مع الشُّعْرى العبورِ وأصبحت
ولكم فرَعَتْ^(٤) بمقرباتك^(٥) مثلها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورُها
خَرَّ الصَّليبُ وقد علَّتْ نغماتُها
لما وعاءها سمعُ أنطاكيَّة

بدمِ العِثارِ وما اقتفت آثارها
نَهَشَ الفرائسِ إن أحسَّ أوارها^{٦٣/١}
بالمشرفيَّة، أو تطيل قصارها
كوبار^(٦) أجناها الإِران^(٧) بوارها
فحططت من شَعَفَاتِها^(٨) أعفَارها^(٩)
مختار أمة أحمدٍ مختارها
منك المغير فاستردَّ معارها
عصب^(١٠) الضلال وأسلمت أعيارها
باتت تنافثها النجومُ سِرارها
شعراء تستفلي الفحول شِوارها
تلعاً، وقلدت الكُماة عِذارها
عِزًّا، وحلَّها سناك سوارها
واستوبلت صلواته تكرارها
سَرَتِ الوقار وكشفت أستارها

(١) في الأصل و (ل): تستوئُر: تفرع، والمثبت من (م). ومنه: وأر الرجل فرْعَه، وذعره. «اللسان» (وَأر).

(٢) وبار: أرض كانت لعاد. انظر «اللسان» (وير) وفي (م) كِبار.

(٣) البطر. «اللسان» (أرن).

(٤) مفردها: راية: العلم. «معجم متن اللغة»: ٦٨٩/٢.

(٥) مفردها شعفة، وهي رأس الجبل. «اللسان» (شعف).

(٦) مفردها عفر: ظاهر التراب. «اللسان» (عفر).

(٧) مفردها: عانة: القطيع من حمر الوحش. «اللسان» (عون).

(٨) في الأصل و (ل) عصر، والمثبت من (م).

(٩) في الأصل مهملة، وفي (ل) قرعت، و (م) فرعت، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(١٠) الخيل التي تكون قريبة مُعَدَّة، مفردها: المقربة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/٤.

فاليوم أَصَحَّتْ تستدُّ مجيرها
 عَلِمَتْ بَأَن سندوق جُرْعَة أَخْتِها
 ماضٍ إِذا قَرَعَ الرُّكَّابَ لبلدِ
 وَإِذا مجانقُه رَكْعَنَ لصعبةِ الـ
 مَلَأَ البلادَ مواهباً ومَهَابَةً
 يذكي العيونَ إِذا أَقامَ لعونها
 أومئِ إِلَى رِمَمِ النَّدى فَأعاشها
 نبويُّ تشبيه الفتوح كأنما
 أَحيا لِصَرْحِ سلامها سَلْمَانِها
 إِن سار سار وقد تقدَّم جيشُه
 أَوْ حَلَّ حَلَّ حُبَا القُرومِ بهيَّةِ
 وَإِذا الملوكُ تنافسوا درج العُلا
 ونَهَى إِذا هِيضَتْ تدلُّ بخيرها
 تُهْدَى لمحمودِ السَّجَايا كاسمه
 الفاعلُ الفعلات يَنْظِمُ في الدُّجى
 ساعِ سعى والسَّابِقَاتِ وراءه
 كالمَضْرُحيِّ إِذا يُصْرُصِرُ رابثاً
 عُرِفَتْ لنورِ الدين نورُ وقائعِ
 مشهورة سعطت وقد حاولتها الـ
 لله وجهك والوجوه كأنما

من جَوْرُه وغداً تذمُّ جوارها
 إِن زَرَّ أطواقِ القباءِ وزارها
 أَلَقَتْ له قِبَلَ القِرَاعِ إِزارها
 مملقاةُ أسجد كالجديرِ جدارها
 حَتَّى استرَقَّتْ آيُه أحرارها
 أبدأ، ويفضي^(١) بالطُّبى أبكارها
 وهمى^(٢) لسابقةِ المُنَى فأزارها
 أنصارُه رجعت له أنصارها
 وأماس تحت عمارها عَمَّارها
 رَجَفُ يَقْصَعُ في اللّٰهَ دُعَارها
 سَلَبَ البُدُورَ بِدارها أبدارها
 أَرَبى بنفسِ أفرَعَتُه خِيارها
 وَسُطى تُذِلُّ إِذا عَنَتْ جَبَّارها
 لو لَزَّ فاعله بها لأبارها
 بين النُّجومِ حَسودُها أَسَمَارها
 عَنَقاً فعصفر متماه عثارها
 خَرَسَ البُغَاثِ وهاجَرَتْ أوكارها
 تَغشى إِذا اكتحَلَتْ به أَبصارها
 أَقْدار عجزاً أَن تَشُقَّ غُبَارها
 حَطَّتْ بها أوقار هَيْت* فارها

(١) في الأصل مهملة، وفي (ل) يقضي، والمثبت من (م).

(٢) في (م) وسما.

والبيض تخنس في الصدور صدورها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا
فبقيت تستجلي الفتوح عرائساً
في دولة للتصير فوق لوائها
فالدّين مومة^(٣) رفعت بها الصوى

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنس الثعالب حين زمجر مصحر
تركوا مشجرة الرّماح لحاذق
لريب حرب لم تزل فعلاؤه
أسد إذا ما عاد من ظفر بمف
يتناذر^(٤) الأعداء منه سطوة
عرفوا لنور الدين وقع وقائع
أبدأ يظافرك القضاء على الذي
قوّضت بالنّقع^(٥) الظهائر^(٦) ظلمة
وعلى العواصم من دفاعك عاصم

هبراً وتكتحل الشفور شفارها
جذب المواتح عاورت^(١) آبارها
متملياً صدر العلاء وصدارها
زبر تنمق في الطلى^(٢) أسطارها
وحديقة ضمنت يداك إبارها

٦٤/١

ملأ البلاد هماهما وزئيرا
جعلت مخافته القصور قبورا
كالراء يلزم لفظها التكريرا
ترس أحد لمثله أظفورا
ملء الزمان غيظاً وزفيرا
وفى بها الإسلام أمر نذورا
تبغي فترجع ظافراً منصورا
وقفلت فاشتعل الدياجر نورا
ينسي الرشيذ وينشر المنصورا

(١) في (ل) و (م) غاورت.

(٢) مفردا طلاة: العنق. انظر «اللسان» (طلي).

(٣) المومة: المفازة الواسعة للمساء، وقيل: هي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس بها. «اللسان» (موم).

(٤) أي يخوف بعضهم بعضاً. انظر «اللسان» (نذر).

(٥) في الأصل و (ل) فالنقع، والمثبت من (م).

(٦) مفردا ظهيرة، وهي الهاجرة. انظر «اللسان» (ظهر).

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق

وما كان من الرئيس ابن الصوفي^(١) في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الأول^(٢)، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته، وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق في محفة* لمداواته، فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة^(٣) التي عمرها^(٤).

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة* شمالي دار بطيخ* الآن، واسمه مكتوب على بابها، فلعله نُقل من ثم إليها. وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض [بُصرى]*^(٥) وصَرَخَ* مع نور الدين - وقد تقدّم ذلك^(٦) - كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كُلُّ يَوْمٍ فَتَحَ مَبِينٌ وَنَضُرُ واعتلاء على الأعادي وَقَهْرُ
صَدَقَ النَّعْتُ فَيْكَ، أَنْتَ مَعِينُ الدِّ (م) ين إن النُّعوتُ فَأُلْ وَزَجْرُ

(١) هو مؤيد الدولة المسيب، سترد أخباره ص ٢٨٩، ٣٠١ من هذا الجزء. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٤٢/٢٠ - ٢٤٣.

(٢) في النسخ الخطية: الآخر، وهو سبق قلم، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٦.

(٣) هي المدرسة المعينية، انظرها في كشف الأماكن.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٦.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) انظر ص ١٨٠ - ١٨١ من هذا الجزء.

أَنْتَ سَيْفُ الْإِسْلَامِ حَقًّا، فَلَا قُلَّ (١) (م) غِرَارِيكَ (٢) أَيُّهَا السَّيْفُ دَهْرُ
لَمْ تَنْزَلْ تُضْمِرُ الْجِهَادَ مُسِرًّا ثُمَّ أَعْلَنْتَ حِينَ أَمَكْنَ جَهْرُ
كُلِّ ذَخِرِ الْمُلُوكِ يَفْنَى وَذَخِرَا كَ هُمَا الْبَاقِيَانِ: أَجْرٌ وَشُكْرٌ (٣)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن
مجير الدين بعد الصَّلَاة على المنبر بإبطال الفسدة (٤) المستخرجة من الرِّعْية،
وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضَّرْب؛ فكثر دعاء الناس له
وَشُكْرُهُمْ (٥).

قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب
جَمْعَ من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وَحَمَلَةَ السلاح من الجهلة
العوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حَيْدَرَةَ (٦)، للاحتماء بهم من
مكروهٍ يَتِمُّ عليهما، وذلك في ثالث عشر (٧) رجب. ووقعت المراسلات من
مجير الدين بما يُسَكِّنُهُمَا وَيَطِيبُ أَنْفُسَهُمَا، فما وثقا بذلك، وجداً في الجمع
والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثارا الفتنة، فقصدوا باب السجن
وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفروا جماعةً من أهل الشَّاعُورِ (٨)

(١) في الأصل و(ل): فلا قُلَّ، والمثبت من (م) و«الديوان».

(٢) الغراران: شفرتا السيف. «اللسان» (غور).

(٣) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٠.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧١ من هذا الجزء.

(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧.

(٦) قتل سنة (٥٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩٠ - ٢٩١ من هذا الجزء، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٤٢/٢٠.

(٧) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ «وذلك في يوم الأربعاء الثالث وعشرين من رجب».

(٨) الشاعور، محلة بالباب الصغير جنوبي دمشق، خارج السور، ولأهلها حتى الآن صيت
ذائع في أعمال الفتوة. انظر «معجم البلدان»: ٣١٠/٣.

وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي* وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جَمْعٍ كثير، وامتلات بهم الأزقة والدروب. فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاك^(١)، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعُدَد، وفُرِّقَت على العسكرية، وعزموا على الزحف على جمع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهّل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشتراط الرئيس وأخوه شروطاً أجيباً إلى بعضها وأعرض عن بعض، بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُستدعى إليها، وتقرّرت الحال على ذلك، وسكنت الدّهماء. ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجَمَعَ ٦٥/١ الجمع الكثير من الأجناد والمقدمين والرّعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحَصَر من بها، وطلّب من عيّن [عليه]^(٢) من الأعداء الأعيان^(٣) في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين، وجُرح وقُتل بينهم نَفَرٌ يسير، وعاد كلّ فريقٍ منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السّلار* زين الدين إسماعيل الشّحنة* وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدي النّهابة في دار السّلارين^(٤)

(١) أي بالسلاح التام. انظر «اللسان» (شكك).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧. من الأعداء والأعيان.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨ «وأطلقت أيدي النّهابة في دار السّلار زين الدين وأخيه».

وأصحابهما، وعمهما النهب والخراب^(١). ودعت الضرورة إلى تطيب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرئاسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك^(٢).

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة^(٣):

ذَرِ الْأَتْرَاكَ وَالْعَرَبَا وَكُنْ فِي حِزْبِ مَنْ غَلَبَا
بِجَلْقٍ أَصْبَحَتْ فَتَنٌ تَجِرُّ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا^(٤)
لَنْ تَمُتَ فَوْا أَسْفَا وَلَمْ تَخْرُبْ فَوْا عَجَبَا^(٥)

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زِدْ عَلُوًّا فِي الْمَجْدِ يَا ابْنَ عَلِيٍّ هَكَذَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَالَى
قَدْ حَوَى الدِّينَ يَا مُؤَيَّدَهُ مِنْ لَكَ هِزْبَرًا وَدِيْمَةً وَهَلَالًا
وَعَدَتْ جَلْقٌ تَنَادِيكَ^(٦) عُجْبًا هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَا فَلَا لَا^(٧)
جُبَّتْهَا^(٨) فِي الظَّلَامِ خِيَلًا وَرَجَلًا وَحَمَيْتِ النُّفُوسَ وَالْأَمْوَالَ
لَنْ^(٩) تَبَالِي [مِنْ]^(١٠) بَعْدَهَا بَعْدُو إِنَّمَا ذَاكَ كَانَ قَطْعًا فَرَا لَا^(١١)

(١) في (ل) و(م): والإخراب.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) و(م): والخربا.

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ١٣.

(٦) في الأصل و(ل) لناديك، والمثبت من (م) و«الديوان».

(٧) هذا عجز بيت للمتنبي مضمن في القصيدة، وصدره: «ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوْنَ مِنْ تَعَالَى».

انظر «ديوانه» بشرح العكبري: ١٣٤/٣.

(٨) في «الديوان»: ٨٣ «جُبَّتْهَا».

(٩) في (م): لم، وفي «الديوان»: ما تبالي.

(١٠) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(١١) في (م) وزالا، ومثله في «الديوان». والقطع: تأثير الكواكب أو النجوم على الأشخاص،

انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٣٧٥/٢.

قد بلغت المُرَاد من كلِّ ضِدٍّ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^(١)

قال أبو يعلى التَّميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف^(٢) بها الملقَّب بالحافظ، واسمه عبد المجيد بن الأمير^(٣) [أبي القاسم] بن المستنصر في خامس جُمادى الآخرة، وولي الأمر بعده ولده الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقَّب بالظَّافر^(٤)، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال^(٥) المغربي^(٦).

(١) عجز البيت فيه تضمين من سورة الأحزاب: الآية ٢٥، وانظر الأبيات في «ديوانه»: ٨٣.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ٣٠٨ «بوفاة صاحبها الإمام الحافظ...» استبدل أبو شامة بصاحبها لفظة المستخلف، وذلك لموقفه المخالف للدولة العبيدية وقد ألف عنها كتاباً سماه «كشف ما كان عليه بنو عبيد» وهو من كتبه المفقودة. انظر ص ١٧٩ من هذا الجزء. وسيرد الحديث عن العبيديين في حوادث سنة (٥٦٧ هـ) ص ١٨٩ وما بعدها من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) في الأصل و (م): الأمر، وهو تحريف والمثبت من (ل)، إذ أن الحافظ ابن عم الأمر، وليس ابنه، وما بين حاصرتين من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨، وانظر ترجمة الحافظ في «وفيات الأعيان»: ٢٣٥/٣ - ٢٣٧، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٩٩ - ٢٠٢.

(٤) قتل سنة (٥٥٤٩ هـ) انظر ص ٣٠٩ من هذا الجزء، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٢ - ٢٠٤.

(٥) ولي ابن مصال الوزارة نحو خمسين يوماً، ثم قتله ابن السلار. انظر «الكامل»: ١٤٢/١١، و«وفيات الأعيان»: ٣/٤١٦ - ٤١٧، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٣ وص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زُنكي صاحب المَوْصِل وهو أخو نور الدين الأكبر

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد - يعني زُنكي - ملك دارا*، وبقيت بيده إلى أن قُتل، فأخذها صاحب مارِدين*، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين^(١)، فحاصرها وملكها، واستولى على كثير من بلد مارِدين بسببها، ثم حصر مارِدين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أُخذ من البلاد بعد قتل والده، ففرّق العسكر في بلدها ينهبون [ويخربون]^(٢). فقال صاحب مارِدين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه؟ فلقد كانت أعياداً! قد حَصَرْنَا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السُّلطان، ولا أخذوا كفاً من التبن بغير ثمن:

رُبَّ دهرٍ بكيت منه فلماً صِرْتُ في غيره بكيتُ عليه
ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن مارِدين وعاد إلى المَوْصِل، وجُهِزَت خاتون وسُيِّرَت إليه، فوصلت إلى الموصِل وهو مريض، فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنة.

وكان من أحسن الناس صورةً، ودُفِن بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصِل، وخلف ولداً ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوجه ابنة عمه قُطب الدين مودود، فلم تطل أيامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

(١) في «الكامل»: ١٢٣/١١ ذكر ابن الأثير هذه الحوادث سنة (٥٤٢هـ).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحزم.

وهو أول من حُمِلَ على رأسه سَنَجَق^(١) من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعلُه لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أول من أمر عسكره ألا يركب أحدُهم إلا والسيف في وسطه^(٢)، فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة؛ وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين. وبني رباط الصوفية بالموصل [أيضاً]^(٣)، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوف الكثيرة.

وكان كريماً؛ قصده شهاب الدين خَيَّصَ بَيَّص^(٤)، وامتدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد شعره، فأجازه عنها ألف دينار أميرى سوى الإقامة والتعهد مدة مُقامه، وسوى الخلع والثياب^(٥).

(١) السنجق: لفظ تركي معناه: الرمح، والمراد هنا العلم الذي هو الراية، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عُبر بالرمح نفسه عنها، وحامله يسمى السنجقدار. انظر «صبح الأعشى»: ٤٥٨/٥.

(٢) ثم عاد نور الدين رحمه الله إلى تقلد السيف، اتباعاً للسنة. انظر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصفي التميمي، وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص. فبقي عليه هذا اللقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدة والاختلاط.

وهو شاعر مشهور من أهل بغداد، نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة (٥٧٤هـ) له «ديوان شعر» طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق مكّي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، نشرته وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية ١٩٧٤م، وله ترجمة ضافية مع مقتطفات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/٢٠٢ - ٣٦٦، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣٦٢/٢ - ٣٦٥.

(٥) انظر «الباهر»: ٩٠ - ٩٤.

قلت: أول تلك القصيدة:

إلآم يراك المجدفي زِيّ شاعر^(١)

يقول في آخرها:

أَتَا بَكَ إِن سُمِّيتَ فِي الْمَهْدِ غَايَاً فَسَابِقَةٌ مَعْدُودَةٌ فِي الْبَشَائِرِ
وَفَيْتَ بِهَا وَالَّذِينَ قَدْ مَالَ رَوْقُهُ وَصَدَّقْتُهَا وَالْكَفْرُ بَادِي الشَّعَائِرِ^(٢)

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدّم

بعضها^(٣)، أولها:

* هو الجدُّ بَرَّ التمام البدورا *

يقول فيها:

شَوَى ^(٤) كُلَّ مَا جَنَّتِ الْحَادِثَا	تُ مَا كُنْتَ ظِلًّا عَلَيْنَا قَرِيرَا ٦٦/١
أَسَانُ وَأَحْسَنُ عَكَنَ الْهَلَالِ	وَمَلَأْنَا مِنْكَ بَدْرًا مَنِيرَا
إِذَا تُبَجَّحَ الْبَحْرُ أَخْطَانُهُ	فَلَا غَرَوْ أَنْ يَتَشَفَّنَ الْغَدِيرَا
وَأَصْغَرَ بِفَقْدَانِنَا الْذَاهِيَا	مِنْ مَا عَشْتِ تَأْتَالُ مَلَكًا كَبِيرَا
وَمَا أَغْمَدَ الدَّهْرُ ذَاكَ الْحُسَا	مَ مَا سَلَ حَدَّاكَ عَضْبًا بُثُورَا
قَسِيمٌ غُلَاكَ وَنِعْمَ الْقَسِيمُ	أَخٌ سَافَ نَزْرًا وَأَعْطَى كَثِيرَا
وَكَانَ نَظِيرَكَ غَارَ الزُّمَا	نُ مِنْ أَنْ يَرَى لَكَ فِيهِ نَظِيرَا
فَدَتَكَ نَفُوسٌ بِكَ اسْتَوْطَنْتُ	مِنْ الْأَمْنِ نَوْرًا وَقَدْ كُنَّ بُورَا
بَقِيَتْ مُعْزَاً مِنَ الْهَالِكِينَ	تُوقَى الرَّدَى وَتُوقَى الْأَجُورَا
وغيرك يمهد بسط العزاء	ويولي المُسْلِينَ ^(٥) سمعاً وقورا

(١) وعجزه: وقد نَحَلْتُ شوقاً فروع المنابر.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨. و«ديوانه»:

(٣) انظر ص ٢٢١ من هذا الجزء. ٣١٦/٢ - ٣٢٢.

(٤) في هامش الأصل: «أي هين». قلت: انظر «اللسان» (شوا).

(٥) في (م) المسلمین، وهو وهم.

وما نقص الدهر أعدادكم
ولو أنصف المجد موتاكم
حياتك أحييت رميم الرجاء

وللقيسراني قصيدة منها:

ما أطرق الجو حتى أشرق الأفق
دون الأسى منك نور الدين في حلب
كنت الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى
تلقي الأسى من لباس الصبر في جن^(١)
ومدة الأجل المحتوم إن خفيت
وإنما نحن في مضمار حلبتها
شأؤ إذا ابتدر الأقوام غايته
إن كان صينوك هذا قد ثوى فذوى
أو^(٢) أصبحت بعده الأهواء نافرة
ما غاب من غاب عن آفاق مطلعته
ما دام شمسك فينا غير آفلة

إذا شفت قطراً وأبقى بُحوراً
لخط لهم في السماء القبوراً
وأمتت من الجود ظهراً ظهيراً

إن أعمد السيف فالصمصام ياتلق
مملك ينجلي عن وجهه الغسق
أراق ماء الكرى من جفك الأرق
حصينة تحتها الأحشاء تحترق
فإن أيماننا من دونها طرُق
خيل إلى غاية الأعمار تستبق
كان المؤخر فيها من له السبق
ففي مغارسك الأثمار والورق
أيدي سبا فعلى عليك تنفق
إلا ليفتر عن أنوارك الأفق
فالدين منتظم والملك متسق

(١) مفرداً جنة، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).

(٢) في الأصل: إن، والمثبت من (ل) و(م).

فصل

قال ابن الأثير: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل، فاتفقت كلمة جمال الدين^(١) وزين الدين^(٢) على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لَيْنَ الجانب، حسن الأخلاق، كثير الحلم، كريم الطباع^(٣). فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد، واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين. ولما ملك واستقر في الملك تزوج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين* فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ما سذكروه، ولم يملكها من أولاد قُطْب الدين أحدٌ غير أولادها^(٤).

قال: وكانت هذه الخاتون يحلُّ لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها.

ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسماهم^(٥)، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوج عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: من معاوية رضي الله

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(ل): لين، والمثبت من (م).

(٤) «الباهر»: ٩٤.

(٥) انظر «الباهر»: ٩٤ - ٩٥.

عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم؛ وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ فمعاوية جدُّ أمها، ويزيد جدُّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخوتها، وهؤلاء كلُّهم خلفاء وعدَّتْهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبنيٌّ على أصلٍ فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية^(١)، على ما بيَّناه في ترجمتها في «تاريخ دمشق»^(٢). ولكن الصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارمٌ لها: معاوية جدُّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبني الإخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك هما أخوا فاطمة وربيبا عاتكة، وعمر بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية.

(١) هي أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (تراجم النساء): ٢٩١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩ من هذا الجزء.

وما ذكره^(١) ابن الأثير من أمر بنت حُسام الدين، فسِتُ الشَّام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعاذل، وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَك^(٢).

فصل

قال ابن الأثير: ولما ملك قُطْب الدين المَوْصِل والبلاذ الجزريَّة كان أخوه نور الدين بحلب - وهو أكبر من قطب الدين - فكاتبه بعضُ الأمراء وطلبوه إليهم، منهم [الأمير]^(٣) المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم^(٤)، وهو حينئذٍ دُزدار * سِنْجار *. فسار نور الدين جريدة^(٥) في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبوبكر بن الدَّاية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين * في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللَّبائيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشُّحنة * وأخبروه بوصول نفرٍ من الأجناد وكانهم تُركمان، فلم يستم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين، فحين رآه الشُّحنة قَبْل يده، وخرج عن الدَّار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجدداً إلى سِنْجار فوصلها وليس معه إلا نفرٌ يسير، فنزل بظاهر

(١ - ١) ما بينها ساقط من (م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

(٣) أصبح ابن المقدَّم شمس الدين محمد بن عبد الملك، من كبار أمراء الدولتين النورية والصلاحية، وسترّد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر خبر مقتله ص ٤٢٣ وما بعدها من الجزء الثالث.

(٤) أي لم يكن معه رجالة. انظر «اللسان» (جرد).

البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعب، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يُعرفه وصوله، وكان المقدم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه، فتوقف عدة أيام، فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتأخر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجان وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ووصل القاصد الذي سيّره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتلّ يعفر*، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن^(١) يستنجد، وبذل له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجان، ومعه الجمال والزّين، ونزلوا بتلّ يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذ ما ليس له، ويهدّدوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر، وأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتهم عليهم — يعني [ولاية]^(٢) الجمال والزّين — فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم. وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لثلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن

(١) أي حصن كيفا. انظره في كشاف الأماكن.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

ظفرنا به طمع فيه^(١) الفرنج، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته. فاتفق الجماعة على هذا الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين، وأبرم معه الأمر، وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال. ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين، لأن حمص كانت لأخيه ينال وهو مقيم بها. واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما تستغني به عن وزير ومشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأن عدوك كافر فالتناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالتنفع إليك عائد، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي. فأجابه إلى ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم^(٢).

قلت: وقرأت في «ديوان القيسراني»: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سنجار* وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمس مئة:

هذا الذي ولدت له الأفكار وتمخضت فالاً به الأشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة وردت وصفو ضميرها المضمار

(١) في الأصل و(ل) «فيها»، والمثبت من (م).

(٢) انظر «الباهر»: ٩٥ - ٩٧.

وَأَتَتْ بِهِ نُذْرُ الْقَوَافِي بُرْهَةً
حَكَمْتُ لِسَيْفِكَ بِالْمَمَالِكِ عُنُوءَ
يَأْيُهَا الْمَلِكِ الْمَقْلُ نِجَادُهُ
يَا ابْنَ السِّيُوفِ وَهَلْ فَخَرْتُ بِنَسَبِي
فَارَقْتُ دَارَ الْمُلْكِ غَيْرَ مُفَارِقٍ
فِي عَسْكَرٍ تَخْفِي كَوَاكِبُ لَيْلِهِ
جَرَّارُ أَذْيَالِ الْعَجَاجِ وَرَاءَهُ
تُذْنِي لَكَ الْغَايَاتِ أَكْبَرُ هِمَّةٍ
حَتَّى مَلَأَتْ الْخَافَقِينَ مَهَابَةً
وَمَلَكْتَ سِنَجَارًا* وَمَا مِنْ بَلَدَةٍ
وَبَسَطْتَ بِالْأَمْوَالِ كَفًّا طَالَمَا
وَجَرْتِ بِأَمْدَادِ الْجِيَادِ شِعَابُهَا
وَتَنَى الْفُرَاتُ إِلَى يَدَيْكَ عِنَانَهُ
وَمَلَكْتَ رَحْبَةَ مَالِكٍ* فَتَبَرَّجَتْ
جَاءَتْكَ فِي حُلُلِ الرَّبِيعِ وَحَلِيهَا
نَثَرْتُ عَلَيْكَ هَوَى الْقُلُوبِ مَحَبَّةً
فَأَقَمْتُ كَالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ إِنْ نَأَتْ
مَنْ كَانَ نَوْرَ السِّدِّينِ ثُمَّ أَجْنَهُ
تَدْعُو الْبِلَادَ إِلَيْكَ أَلْسِنَةُ الظُّبَى

إِنَّ الْقَوَافِي وَحِيهَا إِنْذَارُ
حَكْمًا لَعَمْرِي مَا عَلَيْهِ غُبَارُ
بَرُّ يَدَيْنِ بِهِذِيهِ الْأَبْرَارُ
إِلَّا سَمَابِكُ قَائِمٌ^(١) وَغِرَارُ^(٢)
لَكَ مِنْ عُلَاكَ بِكُلِّ أَرْضٍ دَارُ
نَقْعًا فَيَطْلُعُهَا الْقَنَا الْخَطَارُ
وَأَمَامَهُ بَلْ جَحْفَلُ جَرَّارُ
نُورِيَّةٍ هِمَمُ الْمَلُوكِ كِبَارُ
دَانَتْ لِعُظْمٍ^(٣) نِظَامُهَا الْأَقْطَارُ
إِلَّا تَمَنَّى أَنَّهَا سِنَجَارُ
طَالَتْ بِهَا الْأَمَالُ وَهِيَ قِصَارُ
جَرِّي السُّيُولِ وَمَا عَدَاكَ قَرَارُ^(٤)
وَالْبَحْرُ مَا أَتَّصَلَتْ بِهِ الْأَنْهَارُ
مِنْهَا لِعَيْنِكَ كَاعِبٌ مِغْطَارُ
قَبْلَ الرَّبِيعِ شَقَائِقُ وَبَهَارُ^(٥)
وَتَوَدُّ لَوْ أَنَّ النُّجُومَ نِشَارُ
عَنْ أَفْقِهَا فَلَهَا بِهِ أَقْمَارُ
لَيْلُ السُّرَى حَفَّتْ بِهِ الْأَنْوَارُ
فَتُجِيبُكَ الْأَنْجَادُ وَالْأَغْوَارُ

(١) القائم: مقبض السيف. «معجم متن اللغة»: ٦٨٥/٤.

(٢) الغرار: حد السيف. «معجم متن اللغة»: ٢٨١/٤.

(٣) في (م): لعقد.

(٤) في (ل) و (م): وما سواك قرار.

(٥) البهار: نبت طيب الريح. ينبت أيام الربيع. انظر «اللسان» (بهر).

حَتَّى عَمَدَتِ الدِّينَ يَا ابْنَ عِمَادِهِ
وَقَفَلَتْ مِنْ أَسْفَارِ جَدِّكَ قَادِمًا
يَغْشَى الْبَصَائِرَ نُورُ وَجْهِكَ بَعْدَمَا اءَدَّ
حَتَّى عَمَرْتَ بِكُلِّ قَلْبٍ صَدْرَهُ
إِنْ تُمَسِّرْ فِي حَلَبٍ رِيَا حَكْ غَضَّةً
وَعَدَتْ جِيَادُكَ بِالشَّامِ مَقِيمَةً
هِمَمٌ سَبَقَتْ بِهَا إِلَى مُهَجِ الْعِدَى
وَأَرَى صَبَاحَ الْقَمَصِ* كَانْ خَدِيعَةً
سَأَلَ الصَّنِيعَةَ غَيْرَ مُحَقَّقٍ بِهَا
حَتَّى إِذَا مَا غَبَتْ أَقْدَمَ عَائِثًا
أَمْضَى السَّلَاحِ عَلَى عِدْوِكَ بَغِيَةً
فَاحْسِمِ عِنَادَ ذَوِي الْعِنَادِ بِجَحْفَلٍ
جُنْدٌ عَلَى جُرْدٍ أَمَامَ صَدُورِهَا
قَدْ بَايَعَ الْإِخْلَاصَ بَيْعَةً نُصْرَةً
مَلِكٌ لَهُ مِنْ عَدْلِهِ وَوَفَائِهِ
وَإِذَا الْمُلُوكُ تَشَاوَلَتْ عَنْ غَايَةِ
وَإِذَا انْتَضَتْهُ إِلَى الثُّغُورِ عَزِيمَةً

ولابن منير من قصيدة فيه :

تَرْنَحُ مِعْطَفُ الزُّورَاءِ* (٥) لِمَا
دَعَاكَ لَزُورٍ سِنَجَارٍ* لِمَا

بَقْنَأَ اسْتَهَا عَلَيْهِ مَنَارُ
كَالصُّبْحِ نَمَّ بِشْغَرِهِ الْإِسْفَارُ
تَرَكْتُ عَلَى قَسَمَاتِهِ الْأَبْصَارُ
حِينَ الصُّدُورِ مِنَ الْقُلُوبِ قِفَارُ
فَلَهَا بِأَنْطَاكِيَّةٍ إِعْصَارُ
وَلَهَا بِأَطْرَافِ الدُّرُوبِ مُغَارُ
صَرَفَ الرَّدَى وَمَسِيرُهُ إِحْضَارُ^(١)
فَطَغَى وَجَارَ وَلَيْسَ ثَمَّ وَجَارُ^(٢)
وَالْخَتَرُ^(٣) يَهْدِمُ مَا بَنَى الْخَتَارُ^(٤)
إِقْدَامَ مَنْ لَمْ يَذَنْ مِنْهُ قَرَارُ
بِالْغَدْرِ يُطْعَنُ فِي الْوَعْيِ الْغَدَارُ
كَالْإِلِيلِ فِيهِ مِنَ الصَّفِيحِ نَهَارُ
صَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْيَقِينِ صِدَارُ
وَلِكُلِّ هَادِي أُمَةٍ أَنْصَارُ
جَيْشٌ بِهِ تُسْتَفْتَحُ الْأَمْصَارُ
وَأَرَادَهَا حَقَّتْ بِهِ الْأَقْدَارُ
قَامَتْ مَقَامَ جُنُودِهِ الْأَخْبَارُ

٦٩/١

(١) الإحضار: العُدُو. انظر «اللسان» (حضر).

(٢) الوجار: سَرَب الضَّبْع والأسد ونحوه، أي بيته. انظر «اللسان» (وجر).

(٣) في الأصل، و (ل) الخير، والمثبت من (م) والختر: الفساد.

(٤) الختار: الغدار، «اللسان» (ختر).

(٥) هي بغداد. انظر «معجم البلدان» ١٥٦/٣، و«القاموس المحيط»: (زور).

وزلزلت الصَّعيدَ وراءَ مِضَرٍ غداةَ علَّتكَ في قَطَنًا^(١) الخيامُ
رجاءَ هَزَّ تِيكَ وتلكَ خوفٌ ولو قد شتَّ ضَمَّهُما قِرَامُ^(٢)
بعيشك يامبيدَ الخيلِ ركضاً حَمَامٌ هُنَّ تحتك أم حِمَامُ
وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسليم قلعة حمص من يَنال^(٣)، وأنشده في
القلعة القصيدة، أولها:

أَرَحُّهَا فهي أزلَامُ المعالي لَهْنٌ إلى الوغى توقُّ^(٤) المغالي
أما ومقيلهن^(٥) بكل نَفْعٍ يقوِّضُ بالهْدَى عُمَرَ الضَّلالِ
وأَيُّ سيفوك الحمر الحواشي منزلةً متى دُعِيَتْ نَزَالِ
مَوَاضٍ إن سُلِّلن سلكن جزماً نفاه من الطُّلى^(٦) لفظ اعتلالِ
لقد غلت^(٧) الصَّليبَ بِحَرٍّ حَرْبٍ يُشيبُ أوارها لِمَمَ اللَّيالي
وشمتَ لنصر هذا الدين بأساً تحرَّم منه كل حمى حلالِ
ومنها^(٨):

وقائع أترعت في كلِّ فجٍّ وقائع^(٩) جوُّها دامي العَزالي^(١٠)
تسائل حمص عن منسِّي دين تقاضاه لك الحِجَجَ الخَوالي
فواتَتْ وهي أختُ النِّجمِ بعداً ووعداً صيغَ من مَظَلٍ مَظَالِ

(١) قرية تقع جنوبي غرب دمشق، وهي تبعد عنها (٢٧) كيلومتراً. انظر «التقسيمات الإدارية»: ٣٤.

(٢) القرام: السَّتر الرقيق. انظر «اللسان» (قرم).

(٣) هو أخو زين الدين علي كما مرَّ. انظر ص ٢٣٥ من هذا الجزء.

(٤) في النسخ الخطية «ترق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٦٩/١ والمغالي: مفردها المغلاة، وهو سهم يغلى به أي ترفع به اليد حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك. انظر «اللسان» (غلا)، و«معجم متن اللغة» ٣٢٠/٤ - ٣٢١.

(٥) في (ل) ومغيلهن. (٦) الأعناق. «اللسان» (طلي). (٧) في (م) غلبت.

(٨) ليس في (ل)، وهي في (م) بعد بيت «وقائع أترعت...».

(٩) مفردها وقية: وهي نفرة في متن حجر في الجبل أو في السهل يستنقع فيها الماء، يقال: أعذب من ماء الوقية. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة» (وقع).

(١٠) مفردها العزلاء: مصب الماء من الراوية والقربة. انظر «اللسان» (عزل).

تَشَامَخَ أَنْفُهَا عِزًّا وَشَدَّتْ عَلَى أَنْ لَا تَنَالَ يَدَا يَنَالِ^(١)
فَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَجِدُ نَقْضًا لَمَا تَتَّبِعُهُ مِنْ مِرْرِ الْجِبَالِ
إِلَى أَنْ أَطْلُقَ الْحَسَنَاءَ كَرْهًا وَآلَ إِلَى مَلَاوِحَةِ الْمَالِي^(٢)
يَصُدُّ الْوَجْهَ عَنْ شَمَاءَ أَلْقَتْ يَدَا لِأَشْمِ ذِي بَاعٍ طَوَالَ
شَغَلَتْ بِهَا يَمِينُكَ وَالْمَوَاضِي تَكْفُلُ أَنْ مِضْرًا لِلشَّمَالِ
إِذَا فَتَحَ الْقِتَالُ عَلَيْكَ أَرْضًا أَبَاحَكَ أَخْتَهَا لَا عَنُ قِتَالِ

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزَمَ على التأهب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يعلمهم ما عزَمَ عليه من الجهاد، ويستدعي [منهم]^(٣) المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مُقَدِّم يُعَوِّلُ عليه - وقد كانوا^(٤) عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين - فاحتجَّ عليه وغرِطَ. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يَبُوس*، وبعض العسكرية بيعفور*. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا^(٥) الإفرنج بخبره، وقرروا معهم الإنجاءَ عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقَلَانَ لعمارة غَزَّة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس*. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافٌّ أيدي أصحابه عن العيث والإفساد في الضِّياع، وأمر بإحسان الرأي في

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٨ من هذا الجزء.

(٢) مفرداً مثلثة: خرقه تمسكها المرأة عند النوح. «اللسان» (ألا).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) أي حكام دمشق.

في الأصل: أرسلوا، والمثبت من (ل) و(م).

الفلاحين والتخفيف عنهم، والدُّعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها. وكان الغيثُ قد انحبس عن حَوْران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحَل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحِجَّة، وأقام إلى مثله، فَرَوَى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت بِرُكُ حَوْران، ودارت أَرْحِيَّتُهَا^(١)، وعاد ما صَوَّح^(٢) من النَّبات والزَّرْع غُضًّا طَريًّا، وجَدَّ الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحُسن مَعْدَلته وسيرته. ثم رحل من منزله بالأعوج*، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر^(٣) في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرئيس، وقال: إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسُبِيت^(٤) نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وَعَدِمَ الناصر لهم، ولا يسعني — مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرُّجال — أن أقعدَ عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكُمْ لهم أموال الضُّعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يُرضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين، ولا بدَّ من المعونة بألف فارس مُزاجي العَلَّة، تُجرَّدُ مع من يوثقُ بشجاعته من المقدَّمين،

(١) مفرداً رحي، وهي التي يطحن بها. انظر «اللسان» (رحا).

(٢) أي ما ييس. انظر «اللسان» (صوح).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٨٥ من هذا الجزء.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٩ وشتت، وهو تصحيف.

لتخليص ثَغْرَ عَسْقلان وَغَزَّة^(١). قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السَّيْف، وسيوافينا من الإفرنج ما يُعِينُنَا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا. فلما عاد الرَّسُولُ بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجُّب منه والإنكار له، وعزم على الرَّحْف إلى البلد ومحاربه في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك^(٢).

ودخلت سنة خمس وأربعين [وخمس مئة]^(٣)

ففي مستهلَّ المحرمَ تقرَّر الصُّلح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسببُ في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعدما اتَّصل به [من]^(٤) أخبارِ دعتِه إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلطان، وكذا السَّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نورُ الدين على مجير الدين خلعةً كاملةً بالطُّوق، وأعادَه مكرِّماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرمَ. ثم استدعى الرئيس إلى المخيم، وخلع عليه خلعةً كاملةً أيضاً وأعادَه إلى البلد، وخرج إليه جماعةٌ من الأجناد والخواصَّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطُّلاب والقرَّاء^(٥) والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دُبِّر.

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٩، وغيره، وهو تصحيف.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للتوضيح.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) مفردها قارىء. انظر «معجم متن اللغة»: ٥١٩/٤، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠ «الفقراء» وهو تحريف.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك الله إن حاربت فالنصرُ والفتحُ
وهل أنت إلا السيفُ في كلِّ حالةٍ
سقيت الرُّدَيْنِيَّاتِ (١) حتى رَدَدْتَهَا
وما كان كفُّ العِزْمِ إلا إشارةً
وقد عَلِمَ الأعداءُ مُذْ بَتَّ جانحاً
إذا مادمشقٌ ملكتك عِنانها
متى التف نَقْعُ الجَحْفَلين على الهدى
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً
تَرَكْتَ قلوبَ الشُّرِكِ تشكو جراحها
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مغبَّةٍ
كأن القنا تجلو له وجه أمره
بدولتك الغراء أصبح ضدها
وكم من قريح القلبِ لوبات واردةً
سخابك هذا الدَّهْرُ جوداً على الورى
وقد كان يمحو رَسْمَ كلِّ فضيلةٍ
بك ابتهج الألباب وابتهج الحِجَا
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلا
فلا قلب إلا قد تَمَلَّكَته هوى
وما الجودُ في الأملاك إلا تجارةً
ولم أختصر ما قلتُ إلا لأنني

٧١/١

(١) هي الرماح، منسوبة إلى ردينة، امرأة في الجاهلية كانت تسويها. انظر «تاج العروس» (ردن).

(٢) في (م): نصح.

(٣) اسم مدينة بيت المقدس. انظر «معجم البلدان»: ٢٩٣/١.

فصل في فتح عَزَاز*

قال أبو يعلى : وورد الخبر في الخامس من المحرّم من ناحية حلب بأن
عسكرها من التركمان ظفر بابن جُوسلين* صاحب عَزَاز وأصحابه، وحصلوا
في قبضة الأسر في قلعة حلب، فَسَّرَ هذا الفتحُ كافّة الناس، وتوجّه نور
الدين في عسكره إلى عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن
سَهَّلَ الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة.
فلما تسَلَّمها رَتَّبَ فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً
إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول^(١).

قلت: وذكر ابن منير فتح عَزَاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أولها:

فَدَتِكَ الْقُلُوبُ بِأَلْبَابِهَا	وَسَاحَ الْمُلُوكُ بِأَرْبَابِهَا
كَتَائِبُ تَرْمِي جَنُودَ الصَّلَاةِ	بِ مِنْهَا بِتَقْطِيعِ أَصْلَابِهَا
إِذَا مَا انْتَنَتْ مِنْ قِرَاعِ الْكُمَاةِ	كَسَتْ وَفَدَهَا وَشَيَّ أَسْلَابِهَا
تَبَرَّسَ مِنْهَا الْبَرَسُ الثِّيَابِ	وَحَلَبَهُ وَقَعُ أَحْلَابِهَا
عَشِيَّةً غَصَّتْ عَلَى إِنْبِ*	نَفُوسُ النَّصَارَى بِغَضَابِهَا
وَقَامَ لِأَحْمَدَ مَحْمُودُهَا	بِجَدْعِ مَوَارِنِ ^(٢) أَحْزَابِهَا
تَجَلَّى لَهَا حَيْدَرِي الْمَصَا	عَ أَغْلَبَ مُودٍ بِغِلَابِهَا
مُورَثَ أَرْكَاسِهَا مِنْ أَبِ	أَكُولِ الْفَوَارِسِ شَرَابِهَا
هَمَامٌ إِذَا اغْصُوصَبَتْ نَبْوة	دَهَاها بِهَاشِمِ أَعْصَابِهَا

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.

(٢) مفردا المارن: وهو الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه منحدرًا. «معجم متن اللغة»:

دِ مَّأ تَمَطَّقَ مِنْ صَابِهَا
تَجَرَّعَ مَمَقَّرَ^(١) أَوْصَابِهَا
بِغَيْرِكَ مَلْبَسِ أَثْوَابِهَا
زَبُورَ الْوَعْيِ بَيْنَ أَحْدَابِهَا
فَخَمَّدَ جَمْرَةَ أَجْلَابِهَا
وَفَارَتْ رُقَاكَ بِأَصْحَابِهَا
مِ مِنْ حَمَصِ يَآخِيرَ^(٢) رُكَّابِهَا
بِعَدْلِكَ أَغْبَارَ ظَبْطَابِهَا
تَمُجُّ الْقَنَا سُمِّ أَذْنَابِهَا
إِلَيْكَ أَزْمَةَ ضَرَابِهَا
بِمَجَرٍ^(٣) مَضِيقٍ لِأَسْهَابِهَا
وَأَكْثَرَ مِنْ عَدِّ تَوْرَابِهَا^(٤)
مِ فِي الْأَمْرِ إِيْطَاءَ أَتْرَابِهَا
ظَنُّونَ الْيَّالِي لِإِخْرَابِهَا
حِجَّ^(٥) مَثْمَرَةَ هَامِ أَوْشَابِهَا
ذُكَاؤُ لِإِرْسَالِ نُشَابِهَا
مَلَاقِطِ الْأُسْنِ خُطَابِهَا

مَضَى وَجَنَى لَكَ حُلُوَّ الشَّهَا
وَأَوْصَى بِهَا لَكَ مِنْ بَعْدِ مَا
وَأَقْسَمَ جَدُّكَ أَلَا يَلِيقُ^(٦)
صَبَحَتْ دِمَشْقَ بِمَشْقِ الْجِيَادِ
وَأَصَلَّتْ رَأْيِكَ قَبْلَ الْحَسَامِ
فَأَعْطَتِكَ مَا لَمْ تَنْلُهُ يَدُ
وَأَنْتَ تَصَرَّفَ فَضْلَ الزَّمَا
تَخُونَهَا الْجَوْرُ فَاسْتَذَرَكْتُ
وَفَاجَأَتْ قُورُسَ* بِالشَّائِلَاتِ^(٧)
فَمَا رِمَتْ حَتَّى رَمَتْ يَبْضُهَا
وَعَزَّتْ عَزَازَ* فَأَذَلَّتْهَا
بِأَشْمَخِ مِنْ أَنْفِهَا مِنْكَبًا
دَلَفَتْ لِعِيْطَاءِ أُمِّ النَّجْوِ
وَعِذْرَاءُ مُذْ عَمَرَتْ مَا اهْتَدَتْ
تَفَرَّعَتْهَا بِفُرُوعِ الْوَشْيِ
وَعُوجٍ إِذَا أَنْبَضَتْ أَغْمَضَتْ
وَمَحْدُودِبَاتِ تَطِيرُ^(٨) الْخُطُوبِ

(١) أَي مُرَّ، «معجم متن اللغة»: ٣٢٧/٥.

(٢) فِي الْأَصْلِ، وَ (ل) أَنْ يَلِيقَ، وَالمُثَبَّتِ مِنْ (م).

(٣) فِي الْأَصْلِ وَ (ل): تَأْخِيرٌ وَفِي (م) بِأَخِيرٍ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَاهُ.

(٤) الْعُقَارِبُ، وَشَوْلَةُ الْعُقَرَبِ شَوْكُهَا الَّتِي تَضْرِبُ بِهَا. انْظُرْ «اللسان» (شَوْل).

(٥) الْجَيْشُ الْعَظِيمُ. انْظُرْ «اللسان» (مَجَر).

(٦) أَي تَرَابِهَا. «معجم متن اللغة»: ٣٨٩/١.

(٧) الْوَشْيُ: شَجَرُ الرَّمَاحِ. «معجم متن اللغة»: ٧٥٨/٥.

(٨) فِي (ل): كَطِير.

تَصَوَّبَ عُقْبَانُ رَبِّبِ الْمُنُونِ
وَمَا رَكَعَتْ حَوْلَ شَمِّ الْهَضَا
فَلَاذَتْ بِمُعْتَصِمٍ بِالْكِتَابِ
بِمُعْتَصِمِي النَّدَى وَالْهُدَى
مَحَلِّي الْمَحَلِّ بِوصفِ الْفُتُوحِ
وَتَعَجَزَ مُدَّاحِهِ أَنْ تَحِيْطَ
بِدَائِعِ لَوْ رَدَّ دَهْرٌ رَمِينَ
وَأَيْنُ ابْنُ أَوْسٍ (٣) وَأَبْيَاتُهُ (٤)
مِنَ الْإِلَاءِ عَادَ عَتِيقٌ (٥) لَهَا
فَأَيَّامُهُ مِنْ حَبُورٍ تَكَادُ
لَكَ الْفَضْلُ إِنْ رَاسَلْتِكَ الْجِيَادَ
إِذَا اعْتَسَفَتْ هِمَّتُ الْجَائِرِينَ
أَبُوكَ أَبُوهَا وَأَنْتَ ابْنُهَا أَلِ
أَقُولُ لِمُؤْجِرِهِ بِالْغُرُورِ
حَذَارٍ فَعِنْدَ ابْتِسَامِ الْغِيُو
وَلَا تُخَدَّعُوا بِافْتِرَارِ اللَّيُو

مَتَى زَبَنْتَهَا (١) بِأَعْقَابِهَا
بِإِلَّا سَجْدَنَ لَأَنْصَابِهَا
وَهَوْبِ الْمَمَالِكِ سَلَابِهَا
هَمُوسٍ (٢) الشَّرَى غَيْرَ هَيَّابِهَا
وَوَصَفِ التَّهَانِي وَأَرْبَابِهَا
بِآدَابِهِ فُلُكُ آدَابِهَا
بَنَاتِ حَبِيبٍ بِأَحْبَابِهَا
مِنَ الْإِلَاءِ أَوْدَتْ بِحَسَابِهَا
وَرَدَّ عَلَيْهَا ابْنُ خَطَّابِهَا
يَطِيرُ بِهَا فَرَطُ إِعْجَابِهَا
وَقَامَتْ أَدْلَةُ أَنْجَابِهَا
أَتَيْتِ السِّيَادَةَ مِنْ بَابِهَا
عَرِيقُ وَدَمِيَّةٍ مُحْرَابِهَا
تَمَطَّتْ هَوَاهَا فَأَهْوَى بِهَا
ثِ يُخْشَى صَوَاعِقُ (٦) أَلْهَابِهَا
ثِ فَالنَّارُ فِي بَرْدِ أَنْيَابِهَا

٧٢/١

(١) أي دفعتها. «معجم متن اللغة»: ١٤/٣.

(٢) الهموس: السيار بالليل. «معجم متن اللغة»: ٦٦٣/٥.

(٣) إشارة إلى أبي تمام حبيب بن أوس، الشاعر المشهور.

(٤) في الأصل و(ل) آياته، والمثبت من (م).

(٥) هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه. انظر «الإصابة» ت (٤٨٠٨).

(٦) في (ل) صواعق، وهي رواية أخرى في الأصل.

فصل في صفة أسر جوسلين*

قال ابن الأثير: سار نور الدين^(١) إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر*، وعين تاب*، وعزاز*، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حربٌ شديدة أجلت عن انهزام المسلمين، وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار^(٢) كان لنور الدين أسيراً، وأخذ مامعه من السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي^(٣) صاحب قونية وأقصرها وغيرهما من تلك الأعمال - وكان نور الدين قد تزوج ابنته - وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفدت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فعظمت هذه الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلاً وإما أسراً. فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره، وأغار^(٤) على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السبي امرأة منهم، فخلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم

(١) أورد ابن الأثير هذه الحوادث في «كامله» سنة (٥٥٤٦هـ)، وفي «الباهر» بياض، أتمه محققه من «الكامل».

(٢) هو لقب على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ويتولى أمر السلاح خاناه، وهو لقب مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك، ويكون المعنى «ممسك السلاح»، انظر «صبح الأعشى»: ٤٦٢/٥.

(٣) ركن الدين، تولى السلطنة ما بين سنة (٥١٠ - ٥٥١هـ) انظر «معجم الأنساب» لزمامبور: ٢١٥.

(٤) في «الباهر» و«الكامل» المطبوعين أنه خرج متصيداً متنزهاً في نفر يسير، فظفرت به طائفة من التركمان.

فأخذوه أسيراً، فصانعهم على مالٍ بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين^(١). فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعضُ التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرياً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين^(٢) حينئذٍ بحمص. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديدُ العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصابت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة^(٣) عليهم بفقدته، وخلت بلادهم من حاميتها، وثغورهم^(٤) من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقبه غدره، وحق به مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٥). فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب*، وعزاز*، وقورس*، والراوندان*، وحصن البارة*، وتل خالد*، وكفر لاثا*، وكفر سود^(٦)، وحصن بسرفوث* بجبل بني عليم، ودلوك*، ومعرش*، ونهر الجوز، وبرج الرصاص*.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في

(١ - ١) ما بينها ساقط من (م).

(٢ - ٢) ما بينها ساقط من (م).

(٣) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٤) في «معجم البلدان»: ٤٦٩/٤ كفرسوت - بالناء المثناة - انظرها في كشف الأماكن.

هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القيسراني . قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده^(١):

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
ومن ننت الدنيا إليه عنانها
ومن راهن الأقدار في صهوة العلا
إذا الجذ أمسى دون غايته المني
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
ليهن دمشقاً أن كُرسى ملكها
وأنت نور الدين مذ زرت أرضها
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
جلاها لك الإقبال حورية السنا
خلوب أكتت من هواك محبة
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة
فإن صافحت يمينك من بعد هجرها
وهل هي إلا كالحصان تمنعت
ولكن إذا ماقتها بصادقها
هي الثغر أمسى بالكراديس عابساً
على أنها لو لم تجبك إنابة
فإما وقفت الخيل ناقعة الصدى
فما الملك إلا ما حباك به القهر
تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
فلن تذك الشعى^(٢) مداه ولا الشعر
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
زعيم بجيش من طلائع النصر
حبي^(٣) منك صدراً ضاق عن همه الصدر
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
عليها من الفردوس أريفة خضر
نمت فانتمت جهراً وسر الهوى جهراً
فأمتت ولا أسر تخاف ولا إصر^(٤)
فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
دلاً وإن عز الحيا وغلا المهز
فليس له قدر وليس لها قدر
وأصبح عن باب الفراديس* يفتّر
لأرهبها من بأسك الخوف والذعر
على بردى من فوقها الورق النصر

(١) انظر «الباهر»: ١٠١ - ١٠٣، و«الكامل»: ١١/١٥٤ - ١٥٦، واكتفى ابن الأثير بذكر أبيات من القصيدة.

(٢) كوكب نير «اللسان» (شعر).

(٣) الضبط من (ل).

(٤) العهد الثقيل. انظر «اللسان» (أصر).

وَأَصْدَرَتْهَا وَالْبَيْضُ مِنْ عَلَقٍ حُمْرُ
فَلَا شُهْبُهَا شُهْبٌ وَلَا شُقْرُهَا شُقْرُ
مَكَاثِرَةٌ فِي كُلِّ نَحْرِ لَهَا نَحْرُ
إِلَى أَنْ جَرَى الْعَاصِي وَضَحَضَاحُهُ غَمْرُ
لَجَابِرِهَا مَا كُلُّ كَسْرٍ لَهُ جَبْرُ
فَمَنْ بَارَزَ الْإِبْرَنْزَ كَانَ لَهُ الْفَخْرُ
أَطَاعَتُهُ الْحَاظُ الْمُؤَلَّلَةُ الْخُزْرُ
إِلَى الذَّئْبِ إِنَّ الذَّئْبَ شِيَمَتُهُ الْغَدْرُ
وَلَيْسَ سِوَى عَافِي النَّسُورِ لَهُ قَبْرُ
هِيَ الْفَتَكُ لَوْلَمْ تَغْضَبِ الْبَيْضُ وَالسُّمْرُ
وَأَسْعَدُ قِرْنٍ مَنْ حَوَاهِ لَكَ الْأَسْرُ
فَأَوْبَقَهُ الْكُفْرَانِ عَدَوَاهِ وَالْكُفْرُ
وَلَوْ لَمْ تُجِبْ طَوْعاً لَجَاءَ بِهَا الْقَسْرُ
تَشَقُّ عَلَى النَّسْرَيْنِ لَوْ أَنَّهَا الْوَكْرُ
فَبِالْأَفْقِ الدَّاجِي إِلَى ذَا السَّنَا فَقْرُ
وَأَقْصَاهُ بِالْأَقْصَى وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدَّمَاءِ لَهُ طَهْرُ

فَمَنْ بَعْدَ مَا أَوْرَدَتْهَا حَوْمَةَ الْوَعَى
وَجَلَّلَتْهَا نَقْعاً أَضَاعَ شِيَاتِهَا
عَلَا^(١) النَّهْرُ لَمَّا كَاثَرَ الْقَصْبُ الْقَنَا
وَقَدْ شَرَقَتْ أَجْرَافُهُ بَدَمِ الْعِدَى
صَدَعَتْهُمْ صَدْعَ الزُّجَاجَةِ لَا يَدُ
فَلَا يَتَّحِلُ مِنْ بَعْدِهَا الْفَخْرُ دَائِلُ
وَمَنْ بَزَّ أَنْطَاكِيَّةً مِنْ مَلِكِهَا
أَخُو اللَّيْثِ لَوْلَا غَدْرُهُ نَزَعَتْ بِهِ
أَتَى رَأْسُهُ رَكْضاً وَغُودِرَ شِلْوُهُ
وَقَدْ كَانَ فِي اسْتَبْقَائِهِ لَكَ مِنَّةٌ
كَمَا أَهْدَتْ الْأَفْدَارُ لِلْقَمَصِ^(٢) أَسْرَهُ
طَغَى وَبَغَى عَدَوْاً عَلَى غُلَوَائِهِ
وَأَلْقَتْ بِأَيْدِيهَا إِلَيْكَ حُصُونَهُ
وَأَمْسَتْ عَزَازٌ* كَاسَمِهَا بِكَ عِزَّةٌ
فَسِرْ وَأَمْلَأِ الدُّنْيَا ضِيَاءً وَبَهْجَةً
كَأَنِّي بِهَذَا الْعَزْمِ لَا فُلَّ حَدُّهُ
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِراً

(١) في النسخ الخطية: على.

(٢) هو ابن جوسلين كما في تقديم القصيدة، وقد وهم الدكتور شكري فيصل في تعليقه على البيت حين قال: «لعله يريد القمص صاحب طرابلس، وكان من أسره نور الدين». والمعروف أن أسر القمص صاحب طرابلس كان سنة (٥٥٩هـ) كما يحلينا هو نفسه على مصدر تلك السنة، ونعلم أن القيسراني توفي سنة (٥٤٨هـ)، فهل يتكلم القيسراني عن حادثة وقعت بعد وفاته بنحو إحدى عشرة سنة! انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٥٨/١.

وقد أدت البيضُ الجِدادُ فروضها
وصلتُ بمعراج النبيِّ صَوَارِمُ
وإن تيمَّم ساحلَ البحرِ مالِكاً
سللتُ سُيوفاً أثكَلتُ كُلَّ بِلْدَةٍ
إذا سارَ نورُ الدينِ في عِزَماته
ولو لم يَسِرْ في عسكرٍ من جنوده
مَلِيكَ سَمَتِ شُمُ المنابرِ بِاسمه
فيا كعبةً ما زال في عَرَصاتها
خَلَعَت على الأيامِ من حُللِ العُلَى
وَتَوَجَّتْ ثَغَرَ الشَّامِ منك جلالَةٌ ٧٤/١
فلا تَفْتَحِرْ مِصْرُ علينا بِنيلها
رَدَدَتِ الجهادَ الصَّعبَ سهلاً سبيلهُ
وَأَطْمَعَت في الإفرنجِ مَنْ كان بَأْسُهُ
وأقحمتْ جُرْدَ الخيلِ أعلى حصونها
ومن يَدْعِي في قَتْلِكَ (٢) الشُّركَ شُرَكَةً
هي القاتناتُ الحافظاتُ فروجها
ولو لم يكن في فَضْلِها وكمالها

فلا عَهْدَةٌ في عُتَي سَيْفٍ ولا نَذْرُ
مساجدها شَفَعُ وساجدُها وَتَرُ
فلا عَجَبُ أن يملكَ السَّاحِلَ البَحْرُ
بصاحبها حتى تَخَوَّفَكَ البَذْرُ
فقولاً لِلَّيْلِ الإِفْكَ قد طَلَعَ الفَجْرُ
لَكَانَ له مِنْ نَفْسِهِ عَسْكَرُ مَجْرُ (١)
كما زُهِيتَ تِيهاً به الأَنْجُمُ الزُّهْرُ
مَواسِمُ حَجٍّ لا يروُّعها النَّفْرُ
مَلابِسَ من أعلامها الحَمْدُ والشُّكْرُ
تَمَنَّتْ لها بَغْدادُ لو أَنَّها ثَغْرُ
فِيْمَنَّاكَ نَيْلُ كُلِّ مِصْرٍ بها مِصْرُ
ويَاطالما أَمسى وَمَسَلَّكُهُ وَغَرُ
تَخَوَّفَ أن يَعتادَهُ مِنْهُمْ فِكْرُ
ولولَاكَ لم تَهْجُمَ على كافِرٍ كَفَرُ
إذا لم يَكُنْ عندَ القوافي له ذِكْرُ
فشاهِدُها عَدْلُ ورائِقتها (٣) سِحْرُ
سَوَى أَنها من بَعدِ عُمَرِ الفَتى عَمْرُ (٤)

وله من قصيدةٍ يصف فيها وقائعه، أولها:

أما وخیالِ زارِ مِمَّنْ أَحَبُّهُ لقد هاجَ من ذِكرِاهِ ما لا أَعْبُهُ

(١) الجيش العظيم. انظر «اللسان» (مجر).

(٢) في (م) مثلك، وهو تصحيف.

(٣) في (م) ورايتها، وهو تحريف.

(٤) انظر أبياتاً من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٥٧/١ - ١٥٩.

إذا ما صبا قلبُ المحبِّ إلى الصبا
 فيا نَفحاتِ الشَّامِ رَفَقاً بمهجةٍ
 فلا تَسألَنَّ الصَّبَّ أينَ فؤادهُ
 وفي شُعبِ الأكوارِ مَنْ هو عالمُ
 يشيم ثغورِ المُزَنِ تهمي كأنها
 إذا ما سما في مُبَهَمِ الخطبِ وجهه
 تولَّد بين الغَيْثِ واللَّيْثِ والتَّقَى
 يعدُّ مضاءً في الطُّبَى، لا، وضربهُ
 مكين الحِجَا راضٍ^(١) الزمانَ بنفسه
 حمى قُبَّةَ الإسلامِ بالخيَلِ فاغْتَدَتْ
 فكم هبوةٍ أوقعن بالكُفْرِ تحتها
 كيوم الرُّها* الورهاء والهَامُ يانِعُ
 وشهباء هاجتها وغي صَرَخِديَّةُ
 وعارِمَ يوماً بالعُريمة* فاغْتَدَتْ
 وعاصى على العاصي بأرْعَنِ خاطِبِ
 بانَّب* لما أكسب المالِ واثنى
 غداة هوى شطرين للسَّيْفِ رأسه
 على حين للخطيِّ فيه عواملُ
 وقائعُ محموديَّةُ النَّصْرِ لم يزل
 يقومُ مقامَ الجيشِ فيها وعيْدهُ
 وحين انتَضَتْهُ عزمَةٌ من قرابةِ
 إلى أن دَعَتْهُ ربُّها كُلُّ بِلْدَةٍ

ذكرتُ نسيماً بالثُّغور مَهْهُ
 يُحامي عليها مُدَنَّفُ القَلْبِ صَبُه
 فإنَّ فؤادَ المرءِ مَعَ مَنْ يحِبُّه
 غداةَ اسْتَطَارَ البرقُ مَنْ طار لُبُه
 سَنًا بِشْرِ نورِ الدين تنهَلُ سُحْبُه
 تمزَّقُ عن بَدْرِ الدُّجْنَةِ حُجْبُه
 منافسةً أي الثلاثة تَرْبُه
 بها قلل الأعداء ما السَّيْفِ ضَرْبُه
 إلى الآن حتى لَانَ وانقاد صَعْبُه
 وأوتادها جُرد الطعان وقْبُه
 فما انقشعت إلا وللذِّلِّ جَنْبُه
 مليُّ برعي الهندوَانِي خصبُه
 ثناها وليلُ الحَرْبِ تنقُضُ شُهْبُه
 كواذي ثمودٍ إذ رغا فيه سَقْبُه
 دم الإفك حتى أنكَح النَّصْلُ خطبُه
 بصاحبِ أنطاكية* وهو كَسْبُه
 وللرُّمَحِ حتى تَوَجَّ الرأسُ قَلْبُه
 يعاقبه خَفْضُ الحُسَامِ ونَصْبُه
 غريباً بها عن مَوْطِنِ السَّيْفِ غَرْبُه
 وتفعلُ أفعالَ الكتابِ كُتْبُه
 مضى وهو نَصْلُ والممالكُ قربه
 فليس من الأمصارِ ما لا يَرْبُه

(١) في الأصل و (ل) أَرْضَى، والمثبت من (م)، وهي رواية نسخة في هامش الأصل.

ولما نزا بالقمص* عَجِبَ هَوَى به
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه
تُعاقبه البُشْرَى بِأَخْذِ حُصُونِهِ
تَنَاجِي عَزَازَ* بِاسْمِهِ تَلُّ بِأَشْرِ*
فَإِنْ يَكُنْ الْمُقْهَوْرُ مِنْ ثُلِّ عَرْشِهِ
فَقُلْ لِمَلُوكِ الْخَافِقِينَ نَصِيحَةً
وخللوا عن الآفاقِ فَالشَّرْقُ شَرْقُهُ
ولا يعتصم بالذَّربِ طَاغٍ عَلَى الْقَنَا
رَحِيبُ فُضَاءِ الْجَلَمِ عَنْ ذَاتِ قُدْرَةٍ
عَفُوٌّ عَنِ الْجَانِي يَكَادُ الَّذِي جَنَى
أُمْتَحِذَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ جُنَّةً
أَبُوكَ اسْتَرَدَّ الشَّامَ بِالسَّيْفِ عَنَوَةً
إِذَا ذَبَّ عَنْ أَضْغَاثِ دُنْيَاهُ مَالِكُ
رَأَيْتَ أَتْبَاعَ الْحَقِّ خَيْرًا مَغْبَةً
وَأَوْضَحْتَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ سُنَّةً^(٤)
وَبَيَّنْتَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ كَانَ يَبْتَغِي

على أُمِّ رَأْسِ الْبَغْيِ^(١) وَالْغَدْرِ عُجْبُهُ
بَعِيدٌ عَلَى الرَّجْلَيْنِ فِي السَّعْيِ قَرْبُهُ
فِيَا عَانِيًا ضَرْبَ الْبَشَائِرِ ضَرْبُهُ
فِيلَعْنُهُ^(٢) لَعْنُ الصَّرِيحِ وَسْبُهُ
فَهَذَا عَمُودُ الْكُفْرِ قَدْ طَاحَ طُنْبُهُ
كَذَا عَنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ تَزَارَ غُلْبُهُ
بِحَكْمِ الرُّدَيْنِيَّاتِ^(٣) وَالْغَرْبُ غَرْبُهُ
فَإِنَّ الْقَنَا فِي ثُغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ
إِذَا ضَاقَ مِنْ صَدْرِ الْمَمْلِكِ رَحْبُهُ
يَكْرَهُ بِهِ شَوْقًا إِلَى الْعَفْوِ ذَنْبُهُ
وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فَاللَّهُ حَسْبُهُ
وَاللُّرُومُ بِأَسْ طَالَمَا غَالَ خَطْبُهُ
فَأَنْتَ الَّذِي عَنْ حَوَازَةِ الدِّينِ ذَبُّهُ
فَأَفْرَجْتَ عَنْ رَأْيٍ يَسْرُكُ غَبُّهُ
بِهَا عَرَفَ الْمَرْبُوبُ مَنْ هُوَ رَبُّهُ
دَلِيلًا بِأَنَّ اللَّهَ مَنْ أَنْتَ حِزْبُهُ

وقال ابنُ منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هِيَهَاتَ يَعَصُمُ مَنْ أَرَدَتْ حِذَارُ أُنَى وَمَنْ أَوْهَاقَكَ^(٥) الْأَقْدَارُ

(١) في (ل) على رأس أم البغي، وهو وهم من الناسخ.

(٢) في (م) فلعنه.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٤٢ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) مُنَّة.

(٥) مفردها وهق: حبل تشد به الإبل لثلاث تند. انظر «اللسان» (وهق).

ومنها:

لَا سَحْلَ أَنْشَاهَا وَلَا إِمْرَارُ
فِي شَفِّ وَهُوَ النَّاتِقُ الْبِذْرَارُ
وَأَرْتَهُ كَيْفَ يُحَيِّنُ الْغَدَّارُ
فَأَحْيَلْ ذَاكَ الْبَرَّ وَهُوَ بَوَّارُ
وَاللَّهُ يَهْدِمُ مَا بَنَى الْكُفَّارُ
لثَمُودَ مِنْ عَقْرِ الْفَصِيلِ قُدَّارُ^(٢)
مَا زَالِ يُذْمِي ظَفَرَهُ الْأَظْفَارُ
وَتُغَضُّ دُونَ مُحَلِّهِ الْأَبْصَارُ
إِنَّ السَّمَاحَةَ لِلْبَحَارِ بِحَارُ
لَا مُتَرَفٍّ لَاهٍ وَلَا جَبَّارُ
فِيهَا كَذَلِكَ تَرْبَأُ الْأَبْرَارُ
وَتَقْلُسُوهَا بَعْدَ وَهْيِ خُسَارُ
سَوَايَ تُسَاءُ لِذِكْرِهَا الْأَثَارُ
مَا أَوْدَعَتْهُ صُدُورُهَا الْأَخْيَارُ
مَا كُلُّ هَبَّةٍ بَارِحٍ إِعْصَارُ
لِلَّهِ مِلْءُ سَرِيرِهِ أَسْرَارُ
إِنْ حَافَ حُكَّامُ الْمُلُوكِ وَجَارُوا
صَهْوَاتِهَا مِمَّا ابْتَنَاهُ مَنَارُ
نُظِمَتْ عَلَى جَيْدِ الدُّجَى الْأَسْمَارُ

طَلَعَتْ عَلَيْكَ بِجُوسَلِينَ* ذَرِيعَةُ
وَسَعَادَةٍ مَا زَلَّتْ تَمَرِي خَلْفَهَا
فَأَرْتَكَ مَا يُجْنِي الْوَفِيُّ وَفَاؤُهُ
عَوْدُ أَمْرٍ عَلَى أِبَارِكِ طَلْعُهُ
مَا زَلَّتْ تُنْعِمُ وَهُوَ^(١) يَكْفُرُ عَاتِيَا
حَتَّى أَتَاخَ لِقَوْمِهِ مَا جَرَّهُ
أَسْرَى فَأَصْبَحَ فِي بَرَاثِنِ آسِرٍ
سَامٍ كَقَرْنِ الشَّمْسِ يَفْبِسُ نَوْرَهُ
يَهَبُ التَّلَادُ مِنَ الْبِلَادِ وَمَا حَوَتْ
يَقْظَانُ يَخْشَى اللَّهُ فِي خَلَوَاتِهِ
نَصَبَ الْمَرَاقِبِ^(٣) لِلْعَوَاقِبِ نَاطِرًا
لَا كَالَّذِينَ تَعَجَّلُوا خَسَوَاتِهَا
دَرَجُوا وَأُدْرِجَ فِي مَلَفِّ رُفَاتِهِمْ
وَالْمَرْءُ مَنْ يُطْوَى فَيَنْشُرُ طَيْهَ
قُلِّ لِلْأُلَى نَامُوا عَلَى نَأْمَاتِهِ
لَا تَأْمِنُوا فِي اللَّهِ بِطُشَّةٍ نَائِرٍ
صَافٍ إِذَا كَدِرَ الْمَعَادُنُ عَادِلٌ
أَعْلَى أَبَوِهِ لَهُ النَّجَادُ وَشِيدُ فِي
مَحْمُودُ الْمَحْمُودُ آثَارًا إِذَا

(١) في هامش الأصل: في نسخة ثم.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٨ من هذا الجزء.

(٣) مفردا المرقب والمراقبة: مكان الرقيب المشرف يرتفع عليه. «معجم متن اللغة»:

دَانَتْ لَهُ الْآيَامُ صَاغِرَةً كَمَا دَانَتْ لَهُ فِي ظِلِّهِ الْأَمْصَارُ^(١)
وله من أخرى، أولها:

* ما الملك إلا ما حواه نجاهه *

يقول فيها:

وتدين حُسْدَهُ لمحكم آية
شمسٌ إذا ما الحربُ زُرَّ جيوها
ألوى ألدُّ حمى الشريعة جُهدَه
صَعَقَ الْبِرْنَسَ* وقد تَلَّالًا بَرْقُهُ
ولَّى وقد سُلَّتْ فَسَلَّتْ ضَغْنَه
مستلثماً مستسلماً لا عُدَّةُ
ولجوسلين* احتشَنَ فأصبحت
جاءت به بعد الشمسِ عوايسُ
وتصيَّدَتْهُ لك السُّعود وقَلَمَا
داني له^(٤) قيناه أدهم كلَّما
سَلَبَتْ عَزَازَ* عزاءه وبِقُورُسَ*
وبتلَّ خالد* يوم تَلَّ جبينها
وغداً يياشِرُ تَلَّ بياشِرَ* قلبه
مَنْتَ^(٥) أمانيه بشائرك التي
وحبوت^(٦) مُلْكِكَ من نظيم نُغُورَه

٧٦/١

(١) انظر «الباهر»: ١٠٤ فقد أورد ابن الأثير بعض أبياتها، ونسبها إلى بعض الشاميين.

(٢) في النسخ الخطية «ينجي».

(٣) في (م) أرعت.

(٤) في (ل) وأناله.

(٥) أي قطعت. «القاموس المحيط» (من).

(٦) في الأصل: حبون، والمثبت من (ل) و(م).

لا يَخْدَعَنَّكَ فَإِنَّمَا إِصْلَاحُ مَنْ
 أَنْزَلَهُ حَيْثُ قَضَيْتَ لَهُ غَدْرَاتِهِ
 فِي حَيْثُ لَا يَأْوِي لَهُ^(١) سَجَانُهُ
 وَثَنٌ هَدَمَتْ بَنِي الضَّلَالِ بِهِدْمِهِ
 فَتَكَتْ بِهِ آيَاتُ مَنْ لِمُحَمَّدٍ
 لَوْ^(٢) أَنْشَطَ الْبَلَدُ الْحَرَامُ تَوَامَتِ
 وَلَوْ أَنَّ مِنْبَرَهُ أَطَاقَ تَكَلُّمًا
 نَامَ الْخَلِيفَةُ وَاسْتَطَارَ لَذَبُّهُ
 رَجَعَتْ لَكَ الْعِزُّ الْقَدِيمَ سَيُوفُهُ
 مِنْ بَعْدِ مَا نَعَقَ الصَّلِيبُ لِحَزْبِهِ
 أَنِّي تُمِيلُ الْحَادِثَاتُ رِوَاقَهُ

يُخْشَى انْتِشَاطُ خِنَاقِهِ إِفْسَادُهُ
 وَأَحْلَهُ طُغْيَانُهُ وَعِينَادُهُ
 حَقْنًا^(٣) وَيَكْشِطُ جِلْدَهُ جَلَادُهُ
 وَغَدَّتْ عِبَادُكَ عَنْوَةً عُبَادُهُ
 وَلِدِينِهِ إِبْدَاؤُهُ وَعِوَادُهُ^(٤)
 تُثْنِي عَلَيْهِ تِلَاعُهُ وَوَهَادُهُ
 نَطَقَتْ بِبَاهِرِ فَضْلِهِ أَعْوَادُهُ
 عَنْ سُدَّتِيهِ وَاسْتُطِيرَ رُقَادُهُ
 مَا زَانَ رَوْنَقَ مَائِهَا أَعْمَادُهُ
 وَرَأَيْتَ زَرْعَ الْمَلِكِ حَانَ حَصَادُهُ
 بِهَيُوبِهَا وَابْنُ الْعِمَادِ عِمَادُهُ

فصل

قال ابن الأثير: ولما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين* ملك بعضاً
 وبقي بعض^(٥)، فاجتمعت الفرنج، فالتقوا مع نور الدين بدُلوک*، فهزمهم،
 واستولى على دُلوک وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة، منها^(٦):
 هي الخَيْلُ خَيْرُ عَتَادِ الْكَرِيـمِ م يحضر للهـم إحضارها

(١) أي لا يرحم له. انظر «اللسان» (أوا).

(٢) في (ل) حتفاً.

(٣) الضبط من (ل).

(٤) في الأصل أو، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) في النسخ الخطية: بعضاً.

(٦) انظر «الباهر»: ١٠٤ - ١٠٥، وقد أورد ابن الأثير بعض أبيات القصيدة، ونسبها إلى

بعض الشعراء الشاميين.

ضَغَمْتَ فَأَذْرَدْتَ^(١) أَفْوَاهَهَا
إِلَامَ وَلَمْ تُبْقِ مِمَّا غَزَوْتَ
أَمَا فِي مُفْصَّلِ آيِ الْقِرَا
عَسَى أَنْ يُحِمَّ لِهَذَا الْحَمَا
وَمَا يَوْمٌ مِنْ غَلْتِهِ وَاحِدٌ
وَأَيْنَ الْمَقَاوِلُ مِمَّا فَعَلْتَ
فَكَمْ أَجْلَبَتْ^(٢) خَلَقَكَ الْجَافَاخَاتُ^(٣)
أَعَدْتَ بِعَصْرِكَ هَذَا الْأَنِيقِ
وَكَانَ مُهَاجِرُهَا تَابِعِيكَ
فَجَدَّدْتَ إِسْلَامَ سَلْمَانِهَا
وَمَا يَوْمٌ إِنْ أَنْبَ* إِلَّا كَتَبَ
وَأَيَامَكَ الْغُرَّ مِنْ بَعْدِهِ
وَلَمَّا هَبَّتْ بِيْضْرَى* سَمَكْتَ ٧٧/١
وَيَوْمٌ عَلَى الْجُونِ جُونِ السَّارِ
صَدَمْتَ غُرَيْمَتَهَا* صَدْمَةً
وَفِي تَلٍّ بَاشِرٍ* بَاشِرَتَهُمْ
وَلِنْ دَالِكْتَهُمْ دُلُوكُ* فَقَدْ
وَشَبَّ التَّدَامِرُ حَتَّى طَلَعَتْ
مُشَاهِدٌ مَشْهُورَةٌ نَمْنَمَتْ
يَلْدُ الْأَغَانِي تَرْجِيْعُهَا

وَسِرْتَ فَقَلَّمْتَ أَظْفَارَهَا
قُلُوبًا تَكَابِدُ إِذْعَارَهَا
عَ أَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
مَ أَنْ يَتَوَكَّرَ أَوْكَارَهَا
فَتَوَدَّعَهُ اللُّسُنُ أَشْعَارَهَا
وَلَوْ شَفَعَ^(٢) الْقَطْرُ إِكْثَارَهَا
فَصَلَّصَلْ فَخَرُّكَ فَخَارَهَا
فَتَوَخَّ النَّبِيُّ وَأَعْصَارَهَا
وَأَنْصَارُ رَأْيِكَ أَنْصَارَهَا
وَعَمَّرَ جَدُّكَ عَمَّارَهَا
كَ بَلْ طَالَ بِالْبَوَّعِ أَشْبَارَهَا
تُعِيدُ إِلَى الطِّيِّ أَغْرَارَهَا
بِأَهْبَاءِ خَيْلِكَ أَبْصَارَهَا
ةَ عَزَّ فَسَعَطَهَا عَارَهَا
أَذَابَتْ مَعَ الْمَاءِ أَحْجَارَهَا
بَزَحَفٍ تَسْوَرُ أَسْوَارَهَا
شَدَدَتْ فَصَدَّقَتْ أَخْبَارَهَا
عَلَيْهَا فَوَلَّتْكَ أَدْبَارَهَا
عَلَى صَفْحَةِ الدَّهْرِ أَسْطَارَهَا
وَيَسْتَسْفِرُ السَّفَرُ أَسْفَارَهَا

(١) فِي الْأَصْلِ: فَأَذْرَدْتَ، وَفِي (م): فَأَرَدَدْتَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ل).

(٢) فِي (ل) أَشْفَعَ.

(٣) فِي الْأَصْلِ: أَجْفَلَتْ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ل) وَ (م).

(٤) الْمَفَاخِرَاتُ بِكَبَرٍ. انْظُرِ «اللسان» (جَفَخَ).

بَنَيْتَ لَوْفِدِ الْمَنَى كَعْبَةً تَجِيرُ الْمَعْلُقَ أَسْتَارَهَا
وَمُلْكُكَ وَالْأَرْضَ مَغْبِرَةً تَكَادُ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا
فَمَا زِلْتَ تَدْجُنُ حَتَّى مَحَوْتَ دُجَاهَا وَشَعَشَعْتَ أَنْوَارَهَا
وَصَلْتَ فَأَعَزَّزْتَ مَسْكِينَهَا وَصَلْتَ فَأَذَلَّتْ جَبَّارَهَا
وَصَغَتْ حُلَى مِنْ عُلَاً أَحْكَمَتْ عَلَى عُنُقِ الدَّهْرِ أَزْرَارَهَا

قال أبو يعلى [التميمي]^(١): وفي رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريباً من تلّ باشر*، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد* الذي كان مضايقه ومنازله^(٢).

قال: وفي أيام من المحرم وصل جماعة من حُجَّاجِ العراق وخُرَّاسان المأخوذِينَ في طريق الحج عند عودهم بجماعة^(٣) من كَفَّارِ الثُّرَبَانِ، وحكوا مصيبةً ما نزل مثلها بأحدٍ في السنين الخالية، ولا يكونُ أبشعَ منها. وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خُرَّاسان وتُنَائِها^(٤)، وفقهائها وعلمائها، وقضائتها، وخواتين أمراء العساكر السُّلْطَانِيَةِ والحُرَمِ العدد الكثير، والأموال الجَمَّةُ، والأمتعة الوفرة، فأخذ جميع ذلك وقُتِلَ الأكثر، وسَلِمَ الأقل، وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصُّدُور لهذه النازلة، فَكُسيَ العاري منهم وأُطلقَ لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق^(٥). ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١ - ٣١٢.

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق» لجماعة، وهو تصحيف.

(٤) أي من أهلها المقيمين فيها، انظر «اللسان» و«أساس البلاغة» (تنأ).

(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.

قال: وكان مجاهد الدين بُزَّان قد توجه إلى حصنه صَرَخْد* لتفقد أحواله، فعرضت [بعده] ^(١) نَفَرَةٌ بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف؛ صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، وتوجهوا ولم يعرض لشيء من أموالهم، وقصد بَعْلَبَك فأكرمه واليها ^(٢).

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مَصَال وبين الأمير الْمُظْفَر ابن السُّلَّار ^(٣)، ووقوع الحرب وسفك الدماء إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير، وانتصاب ابن السُّلَّار موضعه في الوزارة ^(٤).

قال: وفي سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك بن الفقيه عبد الوهَّاب الحنبلي ^(٥)، وكان إماماً فاضلاً، مناظراً مستقلاً، مفتياً على مذهب الإمامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم، وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حَسَن الحديث في الجدِّ والهزل، وكان له يومٌ مشهود، ودُفن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء ^(٦).

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٢٦ وص ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.

(٥) سلفت ترجمة أخيه نجم في حاشيتنا رقم ٣ ص ٧٤ من هذا الجزء. وذكرنا ثمة مصادر ترجمة أبيه عبد الوهَّاب.

(٦) من مقابر الباب الصغير، جنوبي دمشق، انظر «ذيل طبقات الحنابلة»: ٢١٩/١.

قال: وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب أبو الحسين^(١)
فخر الدولة ابن أبي الجن، وتفجّع الناس عليه لخيريته وشرف بيته^(٢).

ودخلت سنة ست وأربعين [وخمسة مئة]^(٣)

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاوضة أهلها الفرنج
واستنصارهم بهم، ومدّحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه
من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلّف عن الخدمة لمرضٍ عرّض له،
منها:

أخليفة الله الذي ضمنت له تصديقاً واصفه سراً المنبر
لا المستطيل بمصر ظلّ قصوره والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين الله وابن عماده والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحدّ السيف دار أشائب عقلوا جياذك عن بنات الأصفر
هم شيّدوا صرح النفاق وأوقدوا ناراً تحش^(٤) بهم غداً في المحشر
أذكوا بجلق حرّها واستشعرت لفحاتها بين الصفا والمشعر
شرّد بهم من^(٥) خلفهم مستنجداً ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل شقّ الهدى نفس الذي ادّ (م) رَعَ الضلال على أغرّ مشهر
قلّده ما أهدى عليّ لمرحب^(٦) فلقد تهكّم في الخداع الخيّري

(١) في الأصل: أبو الحسن، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) أي توقد. «اللسان» (حشش).

(٥) في (ل) شردهم، وهو تصحيف، وفيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ سورة الأنفال: الآية ٥٧.

(٦) مرحب هو اليهودي الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب في خيبر سنة (٥٧)، وقيل: إن الذي قتله محمد بن مسلمة، وهو لا يصح. انظر «سيرة ابن هشام»: ٣/٣٤٧، و«الكامل»: ٢/٢١٩، و«تاج العروس»: (رحب).

ما الغش ممن أمه نصرانة
أذكت لنا هذي العزائم لا خبت
إثقاب آراء المعز^(١)، وخفق را
شمز فقد مدت إليك رقابها
أولست من ملأ البسيطة عدله
حدب الأب البر الكبير، ورافة الـ
يا هضبة الإسلام من يعصم بها
كانوا على صلب الصليب سرادقا
آثارهم نجس أذال المسجد الـ
حاز^(٥) الخليل ومن بغزة هاشم
بعرمرم صلمت وعاو^(٧) عرى
يفتر عن ملك الملوك منحل الـ
عن طلعين الفرسان غير مكذب
بذر الجحافل والمحافل فارس الـ
ملك تساوى الناس في أوصافه
يا أيها الملك المنادي جوده
إن القصائد أصبحت أبكارها

لم تختن كالغش من متنصر
ما غار من سنن الملوك الغبر
يات العزيز^(٢) ويقظة المستنصر^(٣)
لا يذكرك الغيات غير مشمر
واجت^(٤) بالمعروف أنف المنكر
أم الحفية باليتيم الأصغر
يؤمن ومن يتول عنها يكفر
أنبت بنيته بكل مذكر
أقصى فصن مادنسوه وطهر
بلهامك^(٦) المتدمشق المتمصر
أسماع جيحون* وسيف البربر
أنواء بل سعد السعود الأكبر
ومتمم الإحسان غير مكدر
آساد في غاب الوشيج^(٨) الأسمر
عذر المقل وبان عجز الكثير
في سائر الآفاق هل من معسر
في ظل ملكك غاليات الأمهر

(١) هو المعز لدين الله الفاطمي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥٩/١٥ - ١٦٧.

(٢) هو العزيز بالله نزار بن معد. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦٧/١٥ - ١٧٣.

(٣) هو المستنصر بالله معد بن علي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٨٦/١٥ - ١٩٦.

(٤) في الأصل واجتب، والمثبت من (ل) و(م)، ولكل وجه.

(٥) في (ل) و(م) جار.

(٦) اللهام: الجيش الكثير؛ كأنه يلتهم كل شيء. «اللسان» (لهم).

(٧) أي جلبته. انظر «اللسان» (ووع).

(٨) الوشيج: شجر الرماح. «معجم متن اللغة»: ٧٥٨/٥.

إِنْ كُنْتَ أَحْيَيْتَ ابْنَ حَمْدَانَ^(١) لَهَا^(٢) فَأَنَا الَّذِي غَبَّرْتُ فِي وَجْهِ السَّرِيِّ^(٣)
وَلَأَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْاسٍ نَوْهُوا بِاسْمِ ابْنِ أَوْسٍ^(٤) وَاسْتَخْصُوا الْبَحْتَرِي
ذَلَّتْ لِدَوْلَتِكَ الرِّقَابُ وَلَا تَزُلْ إِنْ تَغْزُ تَغْنَمُ أَوْ تُقَاتِلُ تَطْفِرُ
وَكُتِبَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَاةٍ أَيْضاً، وَهُوَ مُحَاصِرُ دِمَشْقَ، قَصِيدَةٌ يَنَالُ فِيهَا مِنْ
صَاحِبِهَا، مِنْهَا:

أَبُوكَ أَبٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ
وَمَا مَاتَ حَتَّى [سَدَّ]^(٥) ثُلْمَةً مُلْكِهِ
صَدَمْتُ ابْنَ ذِي اللُّغْدَيْنِ فَانْحَلَّ عَقْدُهُ
يُقَلِّبُ خَلْفَ السَّجْفِ عَيْنًا سَخِينَةً
وَلَا غَرَوْ قَدْ أَبْقَى أَبُوهُ وَجْدَهُ
فِيَارَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ
وَقُلْ لِمَبِيرِ الدِّينِ وَهُوَ مُجِيرُهُ
حَمَلْتَ الصَّلِيبَ بَاغِيًا وَنَبَذْتَهُ
وَحَارَبْتَ حَزْبَ اللَّهِ وَاللَّهُ نَاصِرُ
تَنْصَرَّتْ حِينًا وَالبَلَاءُ مُوَكَّلُ
وَأَقْسِمُ مَا ذَاقَ الْيَهُودُ بِإِيلِيَا
كَبْعُضِ الَّذِي جُرْعَتُهُ فَسَرَطَتْهُ^(٦)
أَبَا وَرَضُوا وَطَاءَ النُّجُومِ لَفُنْدُوا
بِكَ اللَّهُ تَرْمِي مَا رَمَاهُ فَتُصَرِّدُ
وَكَالسَّلَكِ قَدْ أَمْسَى يُحَلُّ وَيُعَقَّدُ
وَيَبْكِي بِأُخْرَى ذَاتِ شَتْرِ وَيَسْهَدُ
لَهُ كُلُّ يَوْمٍ ثُوبٌ عَجَزَ يَجْدُدُ
بِيوتًا عَلَى جَيْرُونٍ* بِالذُّلِّ تُعْمَدُ
بِزَعْمٍ لَهُ وَجْهُ الْحَقِيقَةِ أَرْبَدُ
وَتُغْرَاكَ مَوطُوسُ بِيَابٍ وَأَذْرُدُ
لِنَاصِرِهِ وَدَيْنُ أَحْمَدَ أَحْمَدُ
وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِهِ تَتَهَوَّدُ
وَمَوْضِعُهَا مِنْ بَخْتَنْصَرَ أَسْوَدُ
وَأَيَّدَ فِيهِ مِنْ عَمَّاكَ الْمُؤَيَّدُ

٧٩/١

(١) هو سيف الدولة الحمداني علي بن عبد الله بن حمدان. انظر أخباره في «يتيمة الدهر»:
١١/١ - ٢٦.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «بها».

(٣) هو الشاعر السري الرفاء المتوفى سنة (٣٦٢هـ)، وكان من شعراء سيف الدولة. انظر
ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٣٥٩/٢ - ٣٦٢.

(٤) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) أي بلعته. «اللسان» (سرط).

وَلَا يَتُّهُ عَزَلٌ إِلَيْكَ مُوجَّهٌ
رِمَاكَ بِيَا قِلًّا دَمَشَقٌ فَلَمْ تَكُنْ
وَجَالَدَتَ جَلَادًا وَأَنْتَ مُؤْنِتٌ
تَطَاوَلْتَ لَا نَفْسٌ تَسْمَى وَلَا أَبٌ
أَمْسَعَاةَ نَوْرِ الدِّينِ تَبْغِي وَدُونَهَا أَلْ
بِمَحْمُودٍ الْمَحْمُودِ سَيْفًا وَسَاعِدًا
وَهَلْ يَسْتَوِي سَارٍ تَأْسَدُ طَاوِيًا^(٤)،
تَنْصَرَّتْ أُمًّا بَلْ تَمَجَّسَتْ وَالِدًا
تَخَذَتْ بَنِي الصُّوفِيِّ أَسْرًا وَأُسْرَةً
لَعَمْرِي لَنَعْمَ الْعَبْدُ أَنْتَ تَجِيعُهُ أَلْ
إِلَيْكُمْ بَنِي الْعَلَّاتِ عَنْ مُتَشَاوِسٍ
وَمَا مِصْرٌ إِلَّا بَعْضُ أَمْصَارِهِ الَّتِي
أَنْبِئُوا إِلَيْهِ فَهَوَ أَرْحَمُ قَادِرٍ
وَلَا تَرَشِّفُوا نَفْتَ الْمُؤَيَّدِ إِنَّهُ
وَفَرُّوا إِلَى مَوْلَاكُمْ وَالَّذِي لَهُ
وَلَا تَكْفُرُوهُ إِنَّمَّا أَنْتُمْ لَهُ
غَدَاةٌ عَلَى الْجَوْلَانِ* جَوْلٌ وَلِلظُّبَى
وَلَمَّا اكْفَهَرَّ الْيَوْمَ وَارْبَدَّ وَجْهُهُ

وَتَصْحِيفُهُ قَتْلٌ عَلَيْكَ مُؤَيَّدٌ
سَوَى بَقْلَةٍ حَمَقَاءَ بِالْحُمَقِ تُحْصَدُ
تَذَكَّرْتَ وَالْجَلَادُ أَذْهَى وَأَجْلَدُ
وَرَاءَكَ زَحْفًا إِنَّمَا أَنْتَ مُقْعَدُ
أُسْنَةٍ تَبْرُ وَالْعَوَامِلُ^(١) تَعْضُدُ
حَمَلَتْ^(٢) لَقَدْ نَاجَتْكَ صِمَاءُ مُؤَيَّدُ^(٣)
وَنَشْوَانٌ يُعْلَى مَعْصَمًا وَيُؤَيَّدُ
وَعَمَّا فَعِرْقُ الْكُفْرِ فِيكَ مَرْدَدُ
لَكِي يُصْلِحُوا مَا فِي يَدَيْكَ فَأَفْسَدُوا
مَمَالِي وَتَوَلَّيَهُ هَوَانًا فَيَحْمَدُ
لَهُ الشَّامُ مَرْقَا^(٥) وَالْعِرَاقُ مَرْقَدُ^(٦)
إِلَى أَمْرِهِ تَسْعَى قِمَاءٌ وَتَحْفَدُ
لَهُ الصَّفْحُ دَيْنٌ وَاقْبَلُوا النُّصْحَ تَرَشَّدُوا
عَنِ الْخَيْرِ يَزُوي أَوْ إِلَى الْمَيِّنِ يَسْنُدُ
عَلَيْكُمْ أَيَادٍ وَسَمُهَا لَيْسَ يُجْحَدُ
وَمِنْهُ وَيَوْمَ عِنْدَ حَوْرَانَ يَشْهَدُ
رُعُودٌ فَرِيضُ الْمَوْتِ مِنْهُنَّ تَرْعَدُ
وَعَوْدٌ مَرَهُونٌ وَفَرٌّ مَزِيدُ

(١) مفرداها عامل وهو صدر الرمح. «اللسان» (عمل).

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «جهلت».

(٣) الصماء: الداهية الشديدة، والمؤيد: كمؤمن: الأمر العظيم، والداهية: «القاموس المحيط» (صمم، آد).

(٤) في (م) طويا.

(٥) في الأصل و (ل) مرفا، والمثبت من (م).

(٦) في الأصل و (ل) مرفد، والمثبت من (م).

وَأَيَقِنَ مَنْ بَيْنَ السَّدِيرِ وَجَاسِمٍ^(١)
 رَدَّتْهُمْ عَلَى بُصْرَى* وَصَرَّخَتْ* خَيْلُهُ
 وَطَارُوا تَهْزُ الْمُرْهَفَاتِ طُلَاهِمٍ^(٢)
 وَلَيْلَةً أَلْقَى الشَّرْكَ بِالْمَرْجِ بَرْكَهُ
 رَمَى وَأَخُوهُ مَغْرِبَ الشَّمْسِ دُونَكُمْ
 فَمُذْ وَرَدَتْ مَاءَ الْأَرَنْطِ^(٤) مُغْنِدَةٌ
 أَيَا سَيْفٍ شَامَتْهُ يَدُ الْمَلِكِ صَارِمًا
 دَمَشَقُ دَمَشَقٍ إِنَّمَا الْقُدْسُ سَرْحَةٌ
 حَمُوهَا لَكِي يَحْمُوا وَقَدْ بَلَغَ الْمَدَى
 مَتَى أَنَا رَأَيْ طَائِرَ الْفَتْحِ صَادِحًا

وله من قصيدة أخرى:

نَذْرُكَ بِالْغُوطِطِينَ قَدْ ضَمِنْتَ
 أَطْلَعَ لَهَا الشَّمْسُ مِنْ جَبِينِكَ لَمْ
 فَالْخَيْلُ صُورَ إِلَى تَسَاهَمِ سَهْ
 دَوْلَةٌ مَنْ دَانَتْ الْبِلَادُ لَهُ
 لَا بِسِوَاهَا تَلِيْقُ بِهَجَّتْهَا

بَأَنَّ الْحَرَارَ السُّودَ بِالْجُرْدِ تَجَرْدُ
 وَقَدْ أَبْصَرْتُ بَصْرَى رَدَاها وَصَرَّخَتْ
 كَمَا انْصَاعَ مِنْ أَسَدٍ نَعَامٍ مُشَرَّدُ
 وَمَارِجُ نِيرَانِ الْوَعَى يَتَوَقَّدُ
 بِمَشْرِقِهَا غَضْبَانُ يَغْدُو وَيُسَيِّدُ^(٣)
 أَثَارَتْ بِثَوْرًا^(٥) غَلَّةَ لَيْسَ تَبْرُدُ
 فِيهِمْ^(٦) إِذْ يَسْرِي وَيَسْرِي^(٧) فَيَمْهَدُ
 وَمَرْكَزُهَا صَرْخٌ عَلَيْهَا مَمْرُدُ
 بِهِمْ أَجَلُ حَتْمٍ وَعُمْرٌ مُحَدَّدُ
 يُرْفَرُ فِي أَرْجَائِهَا وَيُغْرَدُ

رَبَوْتُهَا* رِيْعَهُ وَمُقَرَّاهَا*
 يَرْجُ سِوَاهَا فِي النَّوْمِ جَفْنَاهَا
 مَيَّهَا* وَمَلْهُى فِي بَيْتِ لَهَايَا*
 وَعَمَّهَا ظِلُّهُ فَأَغْنَاهَا
 وَلَا سِوَاهُ تَبْغِي رَعَايَاهَا

(١) قرية في حوران بينها وبين دمشق (٥٠) كيلومتراً، منها أبو غنم الشاعر المشهور، انظر

«معجم البلدان»: ٩٤/٢، و«التقسيمات الإدارية»: ٩٨٩.

(٢) الأعناق «القاموس المحيط» (طلي).

(٣) أي يمشي. انظر «اللسان» (سأد).

(٤) هونهر العاصي.

(٥) ثورا: أحد فروع نهر بردى.

(٦) في (ل): فيمهد.

(٧) في الأصل: فيهمد، والمثبت من (ل) و(م).

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء* من عمل دمشق وما والاها، وفي الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم* والثيرب*؛ وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج^(١) منها إليهم أسرع النذير إليهم فحذّروهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا* بين عذراء ودومة*، وامتدوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجّيرا* وراوية* في الخلق الكثير والجسم الغفير، وانبثت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنونها، بلا مانع ولا دافع، وتحرك السعر وانقطعت السابلة، ووقع التأهب للحصار، ووافقت رسل نور الدين إلى ولاية البلد يقول: أنا ما أوتر إلا صلاح أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرت معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يعدّ الجواب إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم* وما والاها من الشرق والغرب. وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يُسمّى في زماننا بمقبرة المعتمد؛ بين مسجد القدم ومسجد^(٢) فلوس*.

قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدّمي العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم

(١) في الأصل: خرجوا، ثم رسم فوقها حرف الجيم كأنه تصحيح لها، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) مسجد طوس، وهو تحريف.

مُتَّصِلَةٌ مِنْ غَيْرِ مَزَاحِفَةٍ وَلَا مُحَارِبَةٍ. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ إِلَى ثَالِثِ عَشَرَ صَفَرٍ، فَرَحَلَ الْعَسْكَرُ النَّوْرِيُّ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَنَزَلَ فِي أَرْضِي فِذَايَا* وَحَلَقْبَلْتَيْنِ^(١) وَالْخَامْسِينَ^(٢) الْمَصَاقِبَةَ لِلْبَلَدِ، وَمَا عُرِفَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا مِنْهَا. ثُمَّ رَحَلَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ إِلَى نَاحِيَةِ دَارِيَا* لِتَوَاصُلِ الْإِرْجَافِ بِقَرَبِ عَسَاكِرِ الْإِفْرَنْجِ مِنَ الْبَلَدِ لِقُوَّةِ عِزِّهِ عَلَى لِقَائِهِمْ. وَصَارَ الْعَسْكَرُ النَّوْرِيُّ فِي عَدَدٍ لَا يُحْصَى، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَزْدَادُ بِمَا يَتَوَاصَلُ مِنَ الْجِهَاتِ وَطَوَائِفِ التُّرْكَمَانِ، وَنُورِ الدِّينِ مَعَ هَذِهِ الْحَالِ لَا يَأْذَنُ لِأَحَدٍ مِنْ عَسَاكِرِهِ فِي التَّسَرُّعِ إِلَى قِتَالِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانُوا - يَعْنِي أَهْلَ الْبَلَدِ - يَحْمِلُهُمُ الْجَهْلُ وَالْغُرُورُ، عَلَى التَّسَرُّعِ وَالظُّهُورِ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَّا خَاسِرِينَ مَفْلُولِينَ^(٣). وَأَقَامَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى نَاحِيَةِ الْأَعُوجِ* لِقُرْبِ عَسْكَرِ الْإِفْرَنْجِ وَعِزِّهِمْ عَلَى قِصْدِهِ، وَاقْتَضَى رَأْيُهُ الرَّحِيلَ إِلَى [نَاحِيَةِ]^(٤) الزَّبْدَانِي* اسْتِجْرَاراً لَهُمْ، وَأَفْرَقَ مِنْ عَسَاكِرِهِ فَرِيقاً يَنَازِلُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ فَارِسٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُقَدَّمِينَ لِيَكُونُوا فِي أَعْمَالِ حَوْرَانَ مَعَ الْعَرَبِ لِقِصْدِ الْإِفْرَنْجِ وَلِقَائِهِمْ، وَتَرْقُباً لَوْصُولِهِمْ، وَخُرُوجِ الْعَسْكَرِ الدَّمَشْقِيِّ إِلَيْهِمْ، وَاجْتِمَاعِهِمْ بِهِمْ، ثُمَّ يَقَاطِعُ عَلَيْهِمْ. وَاتَّفَقَ أَنَّ عَسْكَرَ الْإِفْرَنْجِ رَحَلَ^(٥) عَقِيبَ رَحِيلِهِ إِلَى الْأَعُوجِ*، وَنَزَلَ بِهِ فِي ثَالِثِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، وَدَخَلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ إِلَى الْبَلَدِ لِقِضَاءِ حَوَائِجِهِمْ،

(١) هَكَذَا رَسَمَتْ فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ، وَقَرَأَهَا كَرْدُ عَلِيٍّ فِي «غُوطَةِ دِمَشْقَ»: ٢٣٩ حَلْفَلْبَتَا نَقْلًا عَنْ ابْنِ الْقَلَانِسِيِّ فِي «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣١٣. وَحَلْفَلْبَتَا: قَرْيَةٌ دَائِرَةٌ كَانَتْ قَرِيبَ قَبْرِ السُّتِّ زَيْنَبِ جَنْوِيِّ دِمَشْقَ. انْظُرْ «مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ»: ٢/٢٩٠، وَ«غُوطَةُ دِمَشْقَ»: ٢٢٨، وَلَمْ أَجِدْ فِي الْمُرَاجِعِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيَّ قَرْيَةً بِرِسْمِ حَلْفَلْبَتَيْنِ، فَلَعَلَّهَا هِيَ.

(٢) قَرَأَهَا كَرْدُ عَلِيٍّ فِي «غُوطَةِ دِمَشْقَ»: ٢٣٩ «الْخَامْسَ»، وَقَرَأَهَا الْخَامْسِينَ فِي «مَجْلَةِ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ»: ١٦/١٦١.

(٣) فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ «مَفْلُولِينَ»، وَالمُثَبَّتُ مِنْ «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣١٤.

(٤) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي الْأَصْلِ وَ(ل)، وَالمُثَبَّتُ مِنْ (م).

(٥) فِي «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣١٤ وَصَلَ.

وخرج مجير الدين ومؤيَّده في خواصَّهما، وجماعةً وافرةً من الرُّعية، واجتمعوا^(١) بملكهم وخواصَّه، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة، وتقرَّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بُصْرَى* لتملكه واستغلال أعماله. ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء، ولم يتهياً خروج العسكر الدمشقي إليهم؛ لعجزهم واختلافهم، وقصدَ من كان بخوران من العسكر النوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خَلْقٍ كثير ناحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الإفرنج إلى لَجَاة حوران^(٢) للاعتصام بها، ونُيِّمَ الخَبْرُ إلى نور الدين، فرحل ونزل على عين الجرّ من البقاع، عائداً إلى دمشق، وطالباً قصد الفرنج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصْرَى* لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهياً ذلك لهم، وظهر إليهم سُرخاك^(٣) واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيَّده يلتمسون باقي القطيعة المبدولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم^(٤).

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المِصْرِي إلى ثغور السَّاحِل في غايةٍ من القُوَّة، وكثرة من العِدَّة والعُدَّة، وذُكِرَ أن عدَّةً من رماحه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أنفق عليه فيما حُكي وقَرَب ثلاث مئة ألف دينار. وقَرَب من يافا من ثغور الفرنج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدَّةٍ وافرة من

(١) في الأصل: واجتمعوا، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) اللجاة: اسم للحرّة السوداء التي بها. انظر «معجم البلدان»: ١٣/٥.

(٣) قتل سنة (٥٥٢هـ) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٢ - ٣١٤.

مراكب الروم والإفرنج، ثم قصدوا ثغر عكا، ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكلّ مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانتته على تدويخ الفرنجيّة، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها، وميل الأجناد والرّعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله^(١).

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلة، ثم رحل ونزل بالدلهميّة من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا*، ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدّم ونزل القطيعة^(٢) وما والاها، ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّ في محاربة، تحرّجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين^(٣).

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلّم نائبه الأمير حسان^(٤) المنّيجي مدينة تل باشر* بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وورد مع

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥.

(٢) قرية دائرة، كانت قرب ميدان الحصا، جنوبي دمشق. انظر «غوة دمشق»: ٢٣٥، ٢٤٢.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥.

(٤) في النسخ الخطية: حسن، وهو تحريف، وسيرد الاسم على الصواب ص ٣٠٨ من هذا الجزء، وفيه أن حسان تسلّم تل باشر بعد فتح نور الدين لدمشق، وهو أيضاً ما ذكره ابن العديم في «زبدة الحلب»: ٣٠٣/٢.

المبشر جماعةً من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وتردّت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروطٍ واقتراحات، وتردّد فيها الفقيه بُرهان الدين علي البلخي^(١) والأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرّضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصرى* للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأنّ سُرخاك^(٢) كان شاع خلافه وعصياناً، ومال إلى الفرنج فاعتضدَ بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه، وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره^(٣).

قلت: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة، أولها:

ما بَرَقَتْ بِيضُكَ في غمامها إلا وَغِيثُ الدين لا بتسامها
يقول فيها:

محمود المحمود جِداً وَجِداً أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلِكٌ أزال الرُّومَ عن صُلبانها دفاعُهُ وَكَبٌّ من أصنامها
جَالٌ على الجولان أَمَسَ جَوْلَةً صَفَرْتُ الأذْحَى^(٤) من نعامها^(٥)
والجون قد جرّعها أجونه وَقَلَّ مشحوداً من اعتزامها
وشدّ في القَد له مليكها قودَ عَتودِ القُوطِ^(٦) في شَبامها

(١) انظر ص ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٢) الضبط من (ل).

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥ - ٣١٦.

(٤) الموضع الذي تبيض فيه النعامة. «اللسان» (دحا).

(٥) في (ل) نعامها، وهو تصحيف.

(٦) في (ل) عنود القنوط، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل و(م) والعنود: من أولاد المَعَز، والقنوط: القطيع يسير من الغنم. انظر «اللسان» (عتد، قوط).

وفي الرُّها* صَابَتْ له سحابةٌ
وهَبَ في هَاب* له عواصِفُ
وَكَفَرَلَانَا* لَان في جبينها
وقَائِعُ يرفضُ تحت وَقْعها
فساعةُ البيضِ إذا عَدَّدها
وَأعجَباً لِعُصْبِ الشُّرْكَ التي
حكمةُ استواؤها في غِيَّها
مُظَفَّرُ الرِّايَاتِ والرَّايِ إذا الـ
عَدَتْ به حَدَّ العَلَاءِ هِمَمُ
جَلَّتْ له الدُّنيا حُلَى (٣) زِبْرِجها
رَأَتْهُ وهو اللَّيْثُ يَذْمِي ظَفْرُهُ
فتَوَجَّته العِزُّ في مرتبةِ
غَضبانُ للإسلامِ لا يغيظه اسـ
خَطٌّ على مِثْلِ أبٍ طَاعَتْ له الـ
تَصَرَّفُ (٦) الدُّنيا على إشاره (٧)
لو لم تكن دونِ مَنى فاتِ المُنَى
وامتَكْ ماءً مَكَّةٍ رِواضُ
وصارَ كالجمَرِ الجَمَارِ وخلا
حَمِيَّتِها لا زِلَتْ تَرْقَى في حَمَى

صاروا جفاءً خَفَّ في التظامها
تَجَهَّمَتِها الهِفُّ (١) من جَهاها
لَثَمُ ظُبَى أَتَتْ على لثامها
نَظَمُ الثُّريا في فضا مصامها
سوطُ عذابِ صُبَّ في أيامها
لم يَعْصِبِ الرُّشْدُ على أحلامها
في نَقْصٍ ما أُحْصِدَ (٢) من إبرامها
حَرْبُ مَشَتْ تَعَثَّرُ في خِطامها
هَنَّ النُّجومُ أو نواصي هامها
عَفَواً فلم يلو (٤) على حُطامها
أَنفَذَ في المُشْكِـلِ من حُكَّامها
تمنطقُ الجِوزاءِ في نِظامها
تسلاُمها لِلْقَسْرِ (٥) من إسلامها
آفاقُ واسْتَشْرَفَ لاغتنامها
عِراقُها مُسْتَرْدِفاً بِشامها
وأَقْعَدَ الفائِزَ من قُوامها
يقْصُرُ باعُ الدَّهْرِ عن فِطامها
من أهله الأشرَفِ من مقامها
من مُؤَلِّمِ الأرداءِ أو لِمَامها

(١) الهِفُّ: السحاب الرقيق لا ماء فيه. «اللسان» (هفف).

(٢) في (ل) ما أحسد، وهو تحريف، وأحصد: أي قتل بإحكام. انظر «اللسان» (حصد).

(٣) في الأصل، و (ل) على، والمثبت من (م).

(٤) في الأصل: تلو، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في (م) للنفس.

(٦) في (م) فصرف.

(٧) كذا في النسخ الخطية، ولعلها آثاره.

تُلْبَسُ بَيْتَ اللَّهِ وَشِيَّ يَمَنٍ
فإنَّما الدِّينَ رَحَى قُطِبَتْهَا
أَمْتُ بَنَى الْأَمَالَ مِنْكَ كَعْبَةً
وَأَرْشَفْتَنَا بِكَ تُغَرِّ نِعْمَةً
وقال أيضاً يمدحه :

يقرأ آياتك من أعلامها
وبازل مُكْنَتَ من زمامها
سلم اللَّيالي آية استسلامها
لا نسأل الله سِوَى دَوَامِها

وأُطْلِعَ فَجَرَهُ الْفَتْحُ الْمَبِينُ
وفارقَ طَبْعَهُ الزَّمَنُ الْحَوُونُ
وقد زَبَنَتْ بِهَا الْحَرْبُ الزَّبُونُ
ولا شَحَذَتْ مَضَارِبَهُ الْقُيُونُ^(١)
وتَقَطَّرُ مِنْ غِرَارِيهِ^(٢) الْمُنُونُ
يُيِّرُ الْفَقْرَ كَانَ ولا يَكُونُ
ولا لِيثِ وسادته عَرِيْنُ
ولا تاجَ له الدُّنْيَا جَبِينُ
وماءُ كُلِّ مَجْبُولٍ وَطِينُ
فَأَمْرَعَتِ الْأَوَاعِثُ وَالْحُزُونُ
إِذْ^(٣) الْأَيَّامُ عِنْدَ سِوَاكَ جُونُ
يَبِينُ لِسَائِمِيهِ ولا يَبِينُ
إِذَا عَنَفَتْ^(٤) مِشَارِبُهَا الْأَجُونُ
وقد شِيدَتْ مِنَ الْمَنْعِ الْحُصُونُ
تِيهِ لِهَ الْمَشَاعِرِ وَالْحَجُونُ

بجَدِّكَ أَصْحَبَ الْجَدُّ الْحَزُونُ
وفي كَنْفَيْكَ سُولِمَتِ اللَّيالي
ومِنْكَ تَعْلَمُ الْقَطْعَ الْمَوَاضِي
وَأَنْتَ السَّيْفُ لَمْ تَمَسَّهُ نَارُ
تَرْقُرُقُ فَوْقَ صَفْحَتِهِ الْأَمَانِي
وَقَبْلَكَ مَا سَمِعْتُ بِذِي فَقَارِ
ولا غِيْثِ سَمَاوَتِهِ سَرِيرُ
ولا قَمَرِ لِهَ الْهَيْجَاءِ هَالُ
جُبِلَتْ نَدَى وَغَفَوُا وَانْتِقَاماً
ومَلِكِكَ عَمَمَ الْأَقْطَارِ قَطْرًا
تَلَالًا تَحْتَهُ غُرَّرُ اللَّيالي
وَأَنْتَ أَقَمْتَ لِلْجَدْوَى مَنَارًا
وعِنْدَكَ مَشْرَبُ النُّعْمَى زُلَالُ
تَحْكُمُ فِي عَطَائِكَ كُلِّ عَاطِ
لَقَدْ أَشْعَرْتَ دِينَ اللَّهِ عِزًّا

(١) مفردها القين: الحداد. «اللسان» (قين).

(٢) شفرتا السيف. «اللسان» (غرر).

(٣) في الأصل إذا، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في (م) عيفت.

وَقَامَ بِنَصْرِهِ وَالنَّاسُ فَوْضَى
 رَجَعَتْ مَلُوكُهُمْ وَهُمْ خِیُوفٌ^(١)
 فَبَرَنْسَتْ الْبِرَنْسَ لِقَاعٍ خَسَفٍ
 إِذَا مَا الْفِعْلُ عَلُّ تَلَاهُ حَذَفُ
 غَنُوا حَتَّى غَزَوْتَهُمْ فَغْنَى الـ
 وَكَمْ عَبَرَ الصَّلِيبَ بِهِمْ صَلِيباً
 وَمَا خَطَرَتْ بَدَارَ الشَّرِّكَ إِلَّا
 مَلَأَتْ عِظَامَ سَاحِلِهِمْ عِظَاماً
 بِإِنْبَ* وَالْقَا تَجْرِي نَجِيعاً
 وَبَيْنَ جِرَارٍ صَرَخْدُ* ذُبْنَ حَرّاً
 وَفَتْنٍ مِنَ الْعَرِيْمَةِ* فِي عَرَامٍ
 وَكَمْ حَرَمَ بِحَارِمٍ* غَاذَرْتُهُ
 وَفِي شِعْرَاءِ قُورُسَ* صُغْنَ شِعْراً
 وَقَائِعُ صِرْنٍ فِي صِنْعَاءِ* طِيراً
 نِمَاكَ أَبُ إِذَا عُدَّ انْتِسَاباً
 شِمَالاً كَانَ أَمْلَاكَ الْبَرَايَا
 قَضَى وَقِضَاؤُهُ فِي الْأَرْضِ حَتْمٌ^(٢)
 لِهَذَا الْيَوْمِ تُنْتَخَبُ الْقَوَافِي
 وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْكَ بِأَنْ نُهْنَأَ
 سَلِمْتَ لَنَا فَإِنَّا كُلُّ صَعْبٍ
 تَرَابَطْنَا بِعَقْوَتِكَ التَّهَانِي

قَوِيٌّ مِنْكَ فِي الْجُلَى أَمِينُ
 أَسِيرٌ فِي صَفَادِكَ أَوْ كَنِينِ
 وَجُرْعَ مُرٍّ جَوْسَكِ جَوْسَلِينَ
 يَتَاحُ لِمُنْتَهَاهُ أَوْ سَكُونُ
 صَدَى فِي أَرْضِهِمْ خَفَّ الْقَطِينُ
 فَرَدَّتْهُ قَنَّاكَ وَفِيهِ لِينُ
 هَوَى النَّاقُوسُ وَارْتَفَعَ الْأَذِينُ
 فَكُلُّ مَلَأَ لِقُوكَ بِهِ جَرِينُ
 كَأَنَّ عَيُونَ أَكْعَبَهَا عَيُونَ
 لَهُ فِي كُلِّ خَبْخَبَةٍ^(٣) كَمِينُ
 لَهُ فِي جُونِهَا الْأَقْصَى وَجُونُ
 وَدَارَتِهِ لِمَنْسَفَهَا دَرِينُ
 تُدَارُ عَلَى غِرَارِيهِ اللَّحُونُ
 يَوْقَعُهَا عَلَى عَدَنِ عَدُونُ
 تَرَاقَى مُضْعِداً وَالنَّاسُ دُونُ
 وَقَدْ قَيْسُوا بِهِ وَهُوَ الْيَمِينُ
 وَطَاعَةُ أَهْلِهَا لِبْنِيهِ دِينُ
 وَيَذْخَرُ نَفْسَهُ الدَّرُّ الْمَصُونُ
 إِذَا قَرَّتْ بِرُؤْيَتِكَ الْعُيُونُ
 نَوَازِنُهُ بِأَنْ تَبْقَى يَهُونُ
 وَتَغِيْطُنَا بِدَوْلَتِكَ الْقُرُونُ

(١) كَذَا فِي (ل) وَ (م)، وَفِي الْأَصْلِ مَهْمَلَةٌ، وَلَعَلَّهَا خَنُوفٌ، مِنْ خَنَفَ الْبَعِيرُ: إِذَا لَوَى

أَنْفَهُ مِنَ الزَّمَامِ. انْظُرْ «الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ»: (خَنَفَ).

(٢) الْخَبْخَبَةُ: شَجَرٌ، وَمِنْهُ: بَقِيعُ الْخَبْخَبَةِ بِالْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْبَتِهَا. «الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ» (خَبْخَبَ).

(٣) فِي (ل) فَصَارَ قِضَاؤُهُ فِي الْأَرْضِ حَتْمٌ (كَذَا).

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مِصْر بأن أهل دِمَياط حَدَثَ فيهم فَنَاءٌ ما عُمِدَ مثله في حديث ولا قديم، بحيث أُحْصِيَ المفقودُ منهم في سنة خمس وأربعين سبعة آلاف شخص، وفي سنة ست وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعة عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها^(١).

قال: وفي ثاني جُمادى الآخرة توفي القاضي السديد الخطيب أبو الحسين بن أبي الحديد^(٢) خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صِيناً^(٣) عفيفاً، ولم يكن له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل؛ ولد ولده، وهو حَدَث^(٤) السَّن، فَنُصِبَ مكانه وَخَطَبَ وصَلَّى بالناس، واستمرَّ الأمر له ومضى فيه^(٥).

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جُمادى الآخرة اهتزَّت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بُصْرَى* وَحُورَان وما والاها من سائر الجهات، وهُدِّمَت عدةٌ وافرة من حيطان المنازل يُبْصَرَى وغيرها، ثم سكنت بِقُدْرَةٍ مَنْ حَرَّكها سبحانه وتعالى^(٦).

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦.

(٢) في «مرآة الزمان» ١٢٨/٨ - ١٢٩ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن الحسين. وقال سبط ابن الجوزي في ترجمته: «وكانوا - بيت أبي حديد - يتوارثون نعل النبي ﷺ، وقد انقضوا فلم يبق منهم أحد».

(٣) أي شديد الصوت. انظر «الصحاح» (صوت). وفي (م) صِيناً.

(٤) كذا في الأصول الخطية، وفي «مرآة الزمان» ١٢٩/٨ نقلاً عن ابن القلانسي «حديث السن»، وهو الصحيح. قال الجوهري: ورجل حدث، أي شاب، فإن ذكرت السن قلت حديث السن. «الصحاح» (حدث).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦. (٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه، وبالغ في الفعل الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان^(١).

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وَفَتْ لَكَ الدُّنْيَا بِمِعَادِهَا	بِاذِلَّةٍ أَفْلَاحَ أَكْبَادِهَا
وَأَوْفَدَتْ غُرَّ سُلَاطِينِهَا	عَلَيْكَ فِي بُهْمَةٍ ^(٢) أَنْجَادِهَا
تَبْغِي سِنَاءً أَقْصَدَتْ قَصْدَهُ	طَائِعَةً طَاعَةَ ^(٣) أَجْنَادِهَا
خَاضِعَةً تَعْتَدُ أَعْمَارَهَا	يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ مِيلَادِهَا
شَامَتْ دِمَشْقُ بَكَ بَرَقَ الْعُلَا	فَأَرْسَلَتْ أَصْدَقَ رُؤَادِهَا
رَأَتْكَ نَوْرَ الدِّينِ نَارَ ^(٤) الْهُدَى	قَدْ أَشْرَقَ الْأَفَقُ بِإِقَادِهَا
فِيَمَّمَتْ مِنْكَ حَيَا مُزْنَةٍ	بِیْضِ الْأَيْدِي وَرَدَ رُؤَادِهَا
فَاسْأَلْ مَجِيرَ الدِّينِ عَنْ خُبْرِهِ	أَوْرَدَهَا مَحْمُودَ إِيْرَادِهَا
تَبَوَّأَتْ مِنْ عِزِّهَا قُبَّةً	سُمِرَ الْقَنَا أَطْنَابُ أَوْتَادِهَا
تَنَافَسَ النَّاسُ عَلَى ذَوْلَةٍ	فُتَّ بِهَا أَعْيُنَ حُسَّادِهَا
يَغْدُو الْمُعَادِي كَالْمُؤَالِي لَهَا	فَوَالِهَا إِنْ شِئْتَ أَوْعَادِهَا
يَا مَلِكاً تُزْهِى بِأَسْمَائِهِ	مَنَابِرُ تَسْمُو بِأَعْوَادِهَا
وَتَأْخُذُ الْأَسْمَاعُ أَوْصَافَهُ	عَنْ جُمُعِ الدُّنْيَا وَأَعْيَادِهَا

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.

(٢) في (ل) نهم.

(٣) في (م) طائع.

(٤) في (م) نور.

كَمْ لِلْمَعَالِي فِيكَ مِنْ رَغْبَةٍ
لَكَ الْمَسَاعِي الْغُرُ يَا جَامِعاً
تَغْشَى الْوَعْيَ أَفْرَسَ فُرْسَانِهَا
فَأَنْتَ نُسْكَأُ غَيْثُ أَبْدَالِهَا
فِي أُمَّةٍ أَنْتَ حِمَى دِينِهَا
يَطْوِي بِكَ الْعُمْرُ إِلَى غَايَةٍ
هَذَا وَكَمْ مِنْ سُنَّةٍ بِذَعَةٍ
مَآثِرُ لَوْ عَدِمَتْ رَاوِياً
تَفْنَى الْأَمَانِي دُونَ تَعْدَادِهَا
مِنْ طَرَفَيْهَا بَيْنَ أَضْدَادِهَا
وَفِي التَّقَى أَزْهَدُ زُهَادِهَا
وَأَنْتَ فَتْكَأُ لَيْثُ آسَادِهَا
حِيناً وَحِيناً شَمْسُ عِبَادِهَا
حَسْبُكَ تَقْوَى اللَّهِ مِنْ زَادِهَا
أَعْدَمْتُهَا مِنْ بَعْدِ إِجَادِهَا
تَكْفُلُ النَّظْمُ بِإِسْنَادِهَا

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس*، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجالة^(١). فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتدركة ما ثبطهم؛ فاستخلصوا منهم الغنيمة^(٢).

قلت: والي بعلبك هذا هونجم الدين أيوب؛ والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس*، فخرج أهل بانياس من الفرنج، ليستنقذوا^(٣) ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم ونهبوهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق، فأغضبه فعل التركمان لِمَكَانِ الْهُدْنَةِ الْمُنْعَقِدَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَرَنْجِ^(٤)، فأنفذ عسكرياً إلى التركمان

(١) الضبط من (ل).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) في الأصل و(ل): استنقذوا، والمثبت من (م).

(٤) أبرمت الهدنة بين الصليبيين والأمير معين الدين أنر بعد فشل حصار دمشق في الحملة الصليبية الثانية. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.

استعداد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيئشوا وخرجوا في جيشٍ عظيم، وشَنُوا الغارة على البقاع والنَّاس غافلون، فامتلات أيديهم من الغنائم والأسارى، واتَّصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدم عليهم ولده شمس الدولة^(١)، فخرج وأوقع بالفرنج، واتَّفَق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلجٌ عظيم هلك به أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورطون، فقتل فيهم مقتلةً عظيمة، وخلَّص من كان مع الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السَّنة فارق صلاح الدين والده، وصار إلى خدمة عمِّه أسد الدين بحلب، فقدمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً. قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال، وهو الثاني^(٢) من شباط، وافت قُبل الظَّهر زلزلةٌ اهتزَّت لها الأرض ثلاث هَزَّات هائلة، وتحركت الدُّور والجدران، ثم سكنت^(٣).

قلت: وفي هذه السنة، في غُرَّة جمادى الأولى، كتب أحمد بن منير من حماة إلى نور الدين قصيدةً يهنئه بوصول الخِلع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشَّيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون، ويصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسَّيف العربي، أولها:

لَعَلَّكَ التَّأْيِيدُ والتَّأْمِيلُ	ولمُلْكك التَّأْيِيد والتَّكْمِيلُ
أَبْدًا تَهْمُ وتَقْتَفِي فتَنالُ ما	عَزَّ الوَرَى إدْرَاكُه وتُنِيلُ
إِما كِتَابٌ يَسْتَقِلُّ به الكِتَا	ثُبُّ أَوْرسُولٍ لِلنَّجَاحِ رَسِيلُ

(١) هو تورانشاه، وهو أسن من أخيه صلاح الدين، وسترَد أخباره في أثناء هذا الكتاب، توفي في الإسكندرية سنة (٥٧٦ هـ) ثم نقل إلى دمشق، ودفن في المدرسة الشامية. انظر ٦٤/٣ - ٦٥ من هذا الكتاب.

(٢) في (م) الثالث، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

لَكَ مِنْ أَبِي سَعْدٍ^(١) زَعِيمَ سَعَادَةٍ
نِعَمَ الْحَسَامِ جَلَوْتَهُ وَبَلَوْتَهُ
سَهْمَ تَعَوُّدٍ فِي الْكِنَانَةِ عَوْدَهُ
سَدَدَتَهُ^(٢) فَمَضَى وَقَرَطَسَ صَادِرًا
فَتَنَى الْقُلُوبَ إِلَى وَلَائِكَ حَوْلًا
وَأَقَامَ يَنْشُرُ فِي الْعِرَاقِ وَدِجَلَةَ
وَكَسَاكَ مِنْ رَأْيِ الْخَلِيفَةِ جَنَّةَ
كُنْتَ الشَّرِيفَ أَفْضَتُ فِي تَشْرِيفِهِ
الْيُوسُفَ لَمَا طَلَعْتَ مُقَرَطَقًا
أَمْ عَنْ سَلِيمَانَ يَفْرَجُ ضَاكِحًا
وَمَمْلُكٍ فِي السَّرَجِ أَمْ مَلِكٍ سَطَتِ
وَبَرَزْتَ فِي ثُبَسِ الْخِلَافَةِ كَالْهَلَا
خَلَعَ خَلْعَنَ عَلَى الْقُلُوبِ مَسْرَّةً
نَشَرْتَ نُضَارًا جَامِدًا أَعْلَامَهَا
لَقَضَى لَهَا أَنْ لَا عَدِيلَ لِفَخْرِهَا
أَنْتَ الْمَهْنَدُ مِنْذُ سَلَّتَهُ الْعُلَا
مُذْهَرٌ قَائِمُهُ الْإِمَامُ تَأَلَّقَتْ
وَالَيْتَ دَوْلَتَهُ فَتِهَتْ بِدَوْلَةٍ

فَمَنْ تَفَاعَلَ فِيكَ لَيْسَ يَفِيلُ
يُرْضِيكَ حِينَ يَصِلُ ثُمَّ يَصُولُ
وَيَقْصُرُ الْمَطْلُوبُ وَهُوَ طَوِيلُ
كَالنَّجْمِ لَا وَهْلٌ وَلَا تَهْلِيلُ
مِنْهُ بِمَا يَجْنِي رِضَاكَ كَفِيلُ
أَيًّا تَأُولُهَا لِمَصْرِ النَّيْلِ
لَا النِّقْصُ^(٣) يُوهِيهَا^(٤) وَلَا التَّقْلِيلُ
مَاءٌ عَلَيْهِ مِنْ سَنَاكَ دَلِيلُ
طَمَثَتْ حَصَانٌ وَاسْتَخَفَّ أَيْبِلُ
سُجِفَ الرُّوَاقِ وَضَعُضَعَ الْكَيُولُ
لِبَهَائِهِ عَقْلٌ وَتَاهَ عَقُولُ
لِجَلَاهُ فِي حُلَلِ الدُّجَى التَّهْلِيلُ
سَدِكًا بِهَا^(٥) التَّعْظِيمُ وَالتَّبَجِيلُ
وَتَكَادُ تَجْرِي رِقَّةً وَتَسِيلُ
رَبُّ بَرَكَ فَمَا^(٦) تَلَكَ عَدِيلُ
لَمْ يَخُلْ مِنْ مُهَجٍ عَلَيْهِ تَسِيلُ
غَرَّرَ شُدْخَنَ لِمُلْكِهِ وَحَجُولُ
مُتَكَلَّلٌ بِصَعِيدِهَا الْإِكْلِيلُ

(١) هي كنية ابن أبي عصرون. انظر «وفيات الأعيان» ٥٣/٣.

(٢) في (ل) صدرته.

(٣) في (م) النقص.

(٤) في (ل) و (م) يوهيها.

(٥) في الأصل: سدكانها، وفي (ل) سدكاتها، والمثبت من (م). وسدكاً بها أي مولع بها.

انظر «اللسان» (سدك).

(٦) في (م) فلا.

وَنَصَرْتُهُ فَحَلَكَ أَبْيَضَ دُونَهُ
قُلْدَتَهُ وَكَلَاكُمَا مُتَلَهِّذِمُ
وَحِبَا رِكَابُكَ حِينَ قَرَّ بِزَحْفِهِ الْـ
بَاقِبُ أَصْفَرُ مُشْرِفِ الْهَادِي لَهُ الْـ
قَسَمُ الدُّجَى بَيْنَ الْغَدَائِرِ وَالشُّوَى
وَتَقَاسَمُ الرَّأُوهُ تَحْتِكَ أَنَّهُ
يَخْتَالُ فِي حَبِكَ الْحُلِيِّ مَخِيلًا
مُرْخِي الذَّوَائِبِ كَالْعُرُوسِ يَزِينُهُ
تَتَصَاقِقُ النِّعْرَاتُ تَحْتَ لَبَانِهِ
لَمْ يَحْبُ مِثْلَكَ مِثْلَهُ مُهْدٍ وَلَمْ

وَأَنْشَدَهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا بِحَمَصٍ قَصِيدَةً، مِنْهَا:

الذُّهْرُ أَنْتَ وَدَارُكَ الدُّنْيَا وَمَنْ
وَأَزْمَةُ الْأَقْدَارِ طَوُوعُ يَدَيْكَ وَالْـ
فَتْ الْوَرَى وَعَقَدَتْ نَاصِيَةَ الْمَدَى
تَالِ أَبَاكَ فَهَلْ سَلِيمَانُ يَرَى
جَلَى وَسُدَّتْ مَصْلِيًّا لَا يُرْفَعُ الْـ
لَمْ يُخْتَرَمْ جَدُّ نِمَاكَ وَلَا أَبُ
شَمَخَتْ مَنَارُكَ فِي الْيَقَاعِ وَأَمَّهَا
وَهَبَّتْ لِلْإِسْلَامِ وَهُوَ مُصَوِّحُ
وَفَنَاتِ جِمْرَةٍ صَالِمِيهِ بِصَيْلِمِ
خَطَمَتَهُمْ فَوْقَ الْخَطِيمِ * لَوَافِحُ
وَرُمُوا عَلَى الْجَوْلَانِ مِنْكَ بِجَوْلَةٍ

صَرَفَ الزَّمَانَ إِذَا اسْتَكَلَّ كَلِيلُ
عَضْبُ فَرْزَانَ الْمَغْمَدِ الْمَسْلُوكُ
قِرَآنُ وَاسْتَخَذَى لَهُ الْإِنْجِيلُ
تُحْجِلُ لَوْنُ وَاللِّمَّا تَحْجِلُ
وَاعْتَامَ رَوْنَقَهُ الْأَصِيلُ أَصِيلُ
حِزُومٌ^(١) صَرَفَ عِظْفَهُ جَبْرِيلُ
أَنَّ الشَّوَامِخَ لِلْبَدُورِ خِيُولُ
طَرَفُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ كَحِيلُ
إِنْ شَبَّ زَفَرُ وَاسْتَجَشَّ صَهِيلُ
يُشَلَّلُ عَلَى بَرْقٍ سِوَاهُ شَلِيلُ

٨٥/١

فِي الْعَدِّ بَعْدَ مَوْمِلٍ وَحَسُودُ
أَيَّامُ جُنْدُكَ وَالْأَنَامُ عَبِيدُ
بِمُذْمَرٍ^(٢) الشُّعْرَى فَأَيْنَ تَرِيدُ؟
فِي الدُّسْتِ مَهْدَ مُلْكِهِ دَاوُدُ
مَعْدُومُ مَا لَمْ يَشْفَعْ الْمَوْجُودُ
إِنْ النَّبَاهَةَ فِي الْخَلِيفِ خَلُودُ
مَنْ لَمْ يَسُدْ فَأَزَنَهُ كَيْفَ يَسُودُ
فَاهْتَزَّ أَهْضَابُ وَرَقٍ نَجُودُ
يَضَعُ الْأَجِنَّةَ يَوْمُهَا الْمَشْهُودُ
نَفْسُ الْأَرِينِ لَوَارِهِنَ بَرُودُ
تَوَيْدَهَا نَسْرُ الضُّلَالِ وَثِيدُ

(١) حيزوم: فرس جبريل عليه السلام. «القاموس المحيط» (حزم).

(٢) مذمر: القفا. «القاموس المحيط» (ذمر).

وَلَحَا عِظَامَهُمْ بِعِزَّةٍ* عَارِقُ
 وشللت بالروح^(١) السُّروجَ وفوقها
 وعلى عزاز* عَنَّا وثلَّ غُرُوشَهُمْ
 وَبِتَلَّ بِأَشْرٍ* بِأَشْرُوكَ فَعَافَسُوا
 أَوْدُوا كَمَا أَوْدَى بِعَادٍ غَيْهَا
 إِنَّ آلَمُوا عَقْرًا فَإِنَّكَ صَالِحُ
 وَزَعْتَهُمْ فَبِكُلِّ مَهْطٍ تَلْعَةٍ^(٢)
 وَعَصَبَتْهُمْ بِعَصَائِبٍ مِلْءِ الْمَلَا
 آثَارَهَا مَحْمُودَةٌ وَإِثَارَهَا
 لَبِستُ مِنْ اسْمِكَ فِي الْكَرِيهَةِ مَلْبَسًا^(٣)
 وَقَصِيرَةَ الْأَجَالِ طَوَّلَ بَاعَهَا
 مَطْرُورَةُ الْأَسْلَابِ مُذْ هَزَعَتْهَا
 أَشْرَعَتْهَا فَعَلَى شَرِيعَةِ أَحْمَدٍ
 وَلَكُمْ نَثَرْتُ نَظِيمَهَا فِي مَوْقِفٍ
 يَجْلُو سَنَاكَ ظِلَامَهُ وَيَحُلُّ مَا
 فِي هَبْوَةٍ زَحَمَ السَّمَاءَ رَوَاقَهَا
 ضَرَبَتْ مُخَيَّمَهَا فَكَانَ كُمَاتُهَا
 فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ فَتُوحِكَ صَادِحُ
 تَهْدِي لَغَانَةَ كَاسِهِ فَرَّغَانَةً

مَا زِلْتَ تَمْخَضُ جَوْهُ فَتَجُودُ
 زَرْعُ تَحْصُدُهُ^(٤) الرِّمَاحُ حَصِيدُ
 مَلِكُ مَقِيدُ مَنْ عَصَاهُ مَقِيدُ
 أَهْبُ الْأَسَاوِدِ حَشَوْنِ أَسُودُ
 وَعَقُوا كَمَا اسْتَفَوَى الْفَصِيلُ ثُمُودُ
 أَوْ آلَمُوا غَدْرًا فَإِنَّكَ هُودُ
 خَدُّ بِهِ مِنْ وَازِعٍ أَخْدُودُ
 شَتَّى وَإِنْ خَلَّ الْبَسَالَةُ عُودُ
 مَشْهُودَةٌ^(٥) وَشِعَارُهَا مَحْمُودُ
 يَتَلَّى جَدِيدُ الدَّهْرِ وَهُوَ جَدِيدُ
 بَوْعٍ يَسَامِي هَامَهَا وَقُدُودُ
 تَاهُ الْهُدَى وَتَبَخَّرَ التَّوْحِيدُ
 مِمَّا جَنَّتُهُ بَوَارِقُ وَعُقُودُ
 تَغْرِيدُ صَالِي حَرِّهِ التَّغْرِيدُ
 عَقَدَتْ قَنَاءَ لَوَاؤِكَ الْمَعْقُودُ
 وَالْأَرْضُ تَرْجُفُ^(٦) تَحْتَهُ وَتَمِيدُ
 أَوْتَادُهُ الْقُصُوى وَأَنْتَ عَمُودُ
 هَزِجُ الْغِنَاءِ وَطَائِرُ غَرِّيْدُ
 وَتَسِيغُ زَبْدَةَ مَا شَدَاهُ زَبِيدُ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢١٥ من هذا الجزء.

(٢) في (ل) و(م) لمحصده.

(٣) في (م) قلعة.

(٤) في (م) مشهورة.

(٥) في (م) ميسمًا، وفي (ل) ميسمًا.

(٦) في الأصل: تزحف، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

فَغَرَارَ سَيْفِكَ لِلأَحَابِشِ مَجْبُسُ
لَا تَعْدَمَنْ هَذَا الْمَقْلَدَ أُمَّةُ
الْوَرْدِ قَرٌّ وَالْمَسَارْحُ رَحْبَةٌ
وَالْعِشْ أَبْلَجُ مَشْرِقِ الْقَسَمَاتِ وَالْ
وَالْمُلْكُ مَمْدُودُ الرُّوْاقِ مَنْوَرُ الْ
فِي دَوْلَةٍ مُذْ هَبَّ نَشْرُ رَبِيعِهَا
مَحْمُودَةُ الْآثَارِ مَحْمُودِيَّةُ

وَمُثَارَ نَقْعِكَ لِلصَّعِيدِ صَعِيدُ
مُلْقَى إِلَيْهِ لِرَعِيهَا الْإِقْلِيدُ
وَالرَّفْدُ مَدٌّ وَالظَّلَالُ مَدِيدُ
أَشْجَارُ غَرٍّْ وَالْأَصَائِلُ غَيْدُ
آفَاقِ وَضَاءِ الْمُنَى مُحْسُودُ
نُشْرِ الرُّفَاتِ وَأَثْمَرِ الْجُلْمُودِ
كُلُّ الْمَوَاسِمِ عِنْدَهَا تَعْيِيدُ

وقال يهنته بليلة الميلاد، ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب

قصيدة منها:

هُنِيتْ زَوْرِي ذَرَاكَ صَوْمَكَ وَالْ
فَذَاكَ بَخَلْتْ فِيهِ كُلَّ نِدِ
وَجَهْ كَصَدْرِ الْحَسَامِ تَضُبُّوْ لَهُ الْ
وَمُقَلَّةُ شَوْقِهَا لِيَقْطِطِهَا
وَمُرْتَقَى تَعَجَّبُ السَّمَاءُ لَهُ
تَوَجَّتْ شَهَاءَهَا بِمُشْرِقَةٍ
جَوَّ تَهَاوَى^(٢) مِنْهُ كَوَاكِبُهُ
فَوَارِسُ تُذْهِلُ الْفَوَارِسُ أَنْ
مَنْ رَاكُضٍ فِي الْهَوَاءِ أَهْوَى مِنْ الْ
شَاوٍ مِنَ الْحَضَرِ لَوْ تَحَاوَلَهُ الْ
يَقُولُ مَنْ دِينُهُ الْفَرُوسَةُ: مَا
بَدَائِعُ تَغِطُّ السَّمَاءَ بِهَا الْ

مِيلَادِ جَاءَا وَالسَّعْدُ^(١) فِي نَسَقِ
وَذَاكَ أَحْمَلَتْ فِيهِ كُلَّ تَقِي
عَيْنُ وَيَنْقُدُ الْقَلْبَ مِنْ فَرَقِ
شَوْقُ لِحُسَادِهَا إِلَى الْأَرْقِ
إِذَا اسْتَطَالَتْ إِلَيْهِ: كَيْفَ رَقِي؟
مُشْرِفَةٍ شُهْبَهَا عَلَى الْأَفْقِ
طَرْفَةً طَرْفَ رُجُومٍ مُسْتَرِقِ
تَهَافَّتْ مِنْ أَرْشَاقِهَا الرِّشَقِ
فَفَتَحَ مَجَرَ مِنْ تَحْتِهِ لَبَقِ
خُضِرَ لَزَلَتْ عَنْ مَوْطِئِ زَلَقِ
لَا قَكَ إِلَّا ضَرْبُ مِنَ الْأَلْقِ
أَرْضَ وَتَذْكِي الْإِشْفَاقِ فِي الشَّفَقِ

(١) في الأصل: والعيد، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل و(ل) تهادى، والمثبت من (م).

في دولة جَمَعَتْ إِيالَها من بَدَدَ الحُسْنَ كلَّ مُفْتَرِقِ
تُزَرُّ أطواقُها على مَلِكِ مكتفلٍ رِزْقُ كُلِّ مُرْتَزِقِ
محمودُ اسماً وَمِيسَماً ونَدَى واعتصب الدَّمُ كلَّ مُرْتَفِقِ
طَبَّقَ طوفانُه فلستَ ترى إلّا مغيثاً مشفٍ على غَرِقِ
يا بحرُ لا خُلُقَ تدَّعي شَبَهاً فاتَ المدى ما حَوِيتَ من خُلُقِ
ملكك هذا الذي تملأه صِبَاهُ يجري والدَّهْرُ في طَلْقِ

ثم دخلت سنة سبع وأربعين [وخمسة مئة] (١)

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرّم بنزول نور الدين على حصن أنطرسوس* في عسكره، وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس، فأجيبوا إلى ذلك، ورتّب فيه الحَفَظَةَ، وعاد عنه، ومَلَكَ عِدَّةٌ من الحُصُونِ بالسَّيْبِ والسَّيْفِ والإِخْرابِ والإِحْراقِ والأمان (٢).

قال: وورد أيضاً ظَفَرُ رجال عَسْقلان بالإفرنج المجاورين لهم بَغْزَةً، بحيث هلك منهم العددُ الكثير، وانهزم الباقون (٣).

قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهتّئ بفتح أنطرسوس* ويحمور* وعوده عنهما قصيدة، منها:

أبدأُ تُبَاشِرُ وَجَهَ غَزْوِكَ ضاحكاً وتؤوبُ منه مُؤَيِّداً منصوراً
تُذْني لك الأملَ البعيدَ سَواهِمُ مُحِجَّتْ أَهْلُتْها وَكُنْ بُدُورا
مثل السَّهامِ لو ابتغى ذو أربعٍ في الجوّ مُطَلِّباً لَكُنْ طَيورا

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

(٣) المصدر السابق.

نَبَذْتُ عِلَاتُفَهَا بِحِمَصٍ وَأَعْلَقْتُ^(١)
وَعَدُونُ صَافِثَاءَ لَاحِ شَوَارِهَا
الْقَلْبُ أَنْتَ فَإِنْ تَعَامَى عَنْ هُدًى
عَرَفُوا مَكَانَكَ وَالظُّهَيْرَةَ بَيْنَهُمْ
أَيْنَ الذُّبَالُ مِنَ الْغَزَالَةِ أَشْرَقَتْ
غَضْبَانُ أَقْسَمَ لَا يَشِيمُ حُسَامُهُ
غَسَلَ الْعَوَاصِمَ أَمْسٍ مِنْ أَدْرَانِهِمْ
لَمْ يُبْقِ بَيْنَ الْحَوْلَتَيْنِ وَآمِدٍ*
أَخْلَى دِيَارَ الشُّرْكِ مِنْ أَوْثَانِهَا
رَفَعَ الْقُصُورَ عَلَى نَضَائِدِ هَامِهِمْ
بِشَوَاجِبِ الْأَلْيَاطِ تَقْطُو فِي الظَّلَا
غَادَرَتْ أَنْظَرُشُوسُ* كَالطَّرْسِ امْحَى
وَهِيَ الزَّنَادُ لِفَتْنَةٍ كَانَتْ عَلَى الْـ
هَتَمَتْ طَرَابِلِسًا فَأَصْبَحَ ثَغْرُهَا الْـ
إِقْلِيدُهَا كَانَتْ وَقَدْ أَنْطَيْتَهُ^(٢)
إِنْ الْأَلَى أَمِنُوا وَقَاعَكَ بَعْدَهَا
أَلْقِ الْعَصَا فِيمَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى
لَا يُلْهِمُهُمْ أَنْ قَدْ مَنَنْتَ وَشَنَّهَا
بَاكِرَ بَرْكَزٍ قَنَاءً تُنَسَفُ أَسْهَاهَا
وَتُرِيكَ لَامِعَةَ التَّرِيكِ^(٤) بِسَاحَةِ الْـ
أَوْلَسْتَ مِنْ قَوْمٍ إِذَا هَزُّوا الْقَنَاءَ

سِحْرًا بِمَعْرِقِ عَرْقِهِ الْأَظْفُورَا
قَدْ أَتْلَعْتَ عُقْنًا إِلَيْكَ مُشِيرَا
عُضُوْ أَهَابَ بِهِ فَعَادَ بَصِيرَا
يَفْرِي بِيَاضِ أَدِيمِهَا دَيُّجُورَا
وَجَهًا وَطَبَقَتِ الْبَسِيطَةُ نُورَا
وَالْأَرْضُ تَحْمِلُ فِي الْكُفُورِ كُفُورَا
وَالْيَوْمَ رَدَّ بِهِ السَّوَاحِلُ بُورَا
وَتَرَا لِمُضْطَغْنٍ وَلَا مَوْثُورَا
حَتَّى غَدَا ثَالُوثُهُنْ نَكِيرَا^(٣)
مِنْ بَعْدِ مَا جَعَلَ الْقُصُورَ قُبُورَا
مِ قَطَا وَتَهْوِي فِي الصَّبَاحِ نُشُورَا
رَسْمًا وَحَمَّرَ دِرْعُهَا يَحْمُورَا*
إِسْلَامٍ أَحْكَمَ كَسْرَةٍ إِكْسِيرَا
بَسَّامٍ مِنْ عِزِّ الثُّغُورِ ثَغِيرَا
وَاسْأَلْ بِهِ مِمَّنْ دَهَتْهُ خَبِيرَا
غُرُّوا وَقَدْ رَكَبُوا الْأَغْرَ غُرُورَا
مِنْهُمْ وَدَمَّرَ أَرْضَهُمْ تَذْمِيرَا
شَعْوَاءَ تُصْلِي الْكَافِرِينَ سَعِيرَا
وَالْخَيْلَ صَوَّرَ كِي تَزِيرُكَ صُورَا
أَقْصَى مُطَهَّرَةً لَهَا تَطْهِيرَا
فَتَلُوا مَعَاصِمَهُمْ لَهَا تَسْوِيرَا

(١) في (م) وأغلقت. (٣) أنطى: لغة في أعطى. انظر «اللسان» (نطا).

(٢) وهذا البيت وما بعده خلا البيت الأخير ساقط من (م).

(٤) بيضة الحديد للرأس. انظر «اللسان» (ترك).

وَإِذَا هُمْ خَطَبُوا الْيَرَاعَ عَزِيزَةً
الْقَى قَسِيمَاهُمْ إِلَيْكَ أَرْمَةً أَلْ
صَحِجَتْ لَكَ الْأَيَّامُ وَاكْتَأَبَ الْعِدَى
لَا مُلْكُ إِلَّا مُلْكُ مُحَمَّدٍ الَّذِي
تَمْشِي وَرَاءَ حُدُودِهِ أَحْكَامُهُ
يَقْظَانُ يَنْشُرُ عَذْلَهُ فِي دَوْلَةٍ
خَلَفَ الْخِلَافَتَ قَائِماً عَنْهُمْ بِمَا
الْبِرِّ وَالْمَعْصُومِ وَالْمَهْدِيِّ وَالِ
نُشِرُوا بِهِ فَعَهودُهُمْ وَعَهَادُهُمْ
وَأَنشَدَهُ بِحَلْبٍ فِي هَذِهِ السَّنَةِ قَصِيدَةً، أَوَّلُهَا:

سَاقُوا الشُّفَارَ عَلَى الْمَهَارِ مَهُورًا
مُلْكُ الْمَطْلِ عَلَى السُّهَى تَأْثِيرًا
قَلَقًا فَجِئْتَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
تَخَذَ الْكِتَابَ مُظَاهِرًا وَوَزِيرًا
تَأْتُمُهُنَّ فَيُحْكِمُ التَّقْدِيرَا
جَاءَتْ لِمَطْوِيِّ السَّمَاحِ نُشُورَا
عَيُّوا بِهِ أَلْوَى أَلَدُ غَيُورَا
مَأْمُونٌ وَالسُّفَاحِ وَالْمَنْصُورَا
يَمْتَحِنُ تَحْتَ لَوَائِهِ مَنُشُورَا

وَتَثَقَّفَتْكَ شَعُوبُهُ وَشِعَابُهُ
فَأَضَاءَ نِيرَهُ وَصَابَ شَهَابُهُ
وَالْأَمْنُ حَيْثُ تَصَرَّمْتَ أَسْرَابُهُ
يُرْجَى وَيُرْهَبُ خَوْفُهُ وَعَقَابُهُ
حَلَّتْ عَقُودَ تَمِيمِهَا^(١) أَتْرَابُهُ
أَظْفَارُهُ وَالسَّمْهَرِيَّةُ غَابُهُ
وَسِنَانُهُ وَإِهَابُهُ وَثِيَابُهُ
أَعْدَاؤُهُ تَحْتَ الْوَعَى أَحْبَابُهُ
وَأَرَى الصَّحَابَةَ مَا احْتَذَاهُ صَحَابُهُ
فَارُوقُ بَاءً^(٣) بِخَطْبِهِ خَطَّابُهُ

الْمَجْدُ مَا أَدْرَعْتَ ثَرَاكَ هَضَابُهُ
مَلِكٌ تَكْنَفَ دِينَ أَحْمَدَ كِنَهُ
فَالْعَدْلُ حَيْثُ تَصَرَّفْتَ أَحْكَامُهُ
مَتَهَلَّلٌ وَالْمَوْتُ فِي نَبْرَاتِهِ
عَقَدَ اللِّوَاءِ وَسَارَ يَقْدُمُهُ وَمَا
أَسَدُ فَرَائِسِهِ الْفَوَارِسُ وَالْظُّبَى
طَبَعَ الْحَدِيدُ فَكَانَ مِنْهُ جَنَانُهُ
وَيَهْشُ إِنْ كَبَتِ الْوَجُوهَ كَأَنَّمَا
نُشِرَتْ بِمُحَمَّدٍ شَرِيعَةُ أَحْمَدِ
مَا غَابَ أَصْلَعُ هَاشِمٍ^(٢) فِيهَا وَلَا أَلِ

٨٨/١

(١) مفردا قيمة، وهي عودة تعلق على الإنسان. انظر «اللسان» (تم).

(٢) هو الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد ورد في صفته «أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه». انظر «الرياض النضرة» للمحب الطبري: ١٥٦/٢.

(٣) في (م) ناء.

أبناء قيلة قائمون بنصره
صَبَحُوا مُحَلَّقَةَ الْبِرْنَسِ بِحَالَتِي
مَا زَالَ يَغْلِبُ مِنْ بَغَاهُ ضَلَالُهُ
مُلْقَى بوحش^(١) الأصرمين تَزِيلَتْ
دُونَ الْأَرْنُطِ^(٢) سَخَتْ بِهِ نَجْدَاتُهُ
سَلَبَتْهُ دُرَّةَ تَاجِهِ يَدُ ضَيْغَمٍ
وَأَتَتْهُ تَجَلِبُ جُوسَلِينَ* جَنَائِبُ
أَسْرَتْهُ لَا مَنَعَتْ سُرَاهُ وَغَرَّهُ
يَمْشِي فَتُسْمِعُهُ قَعَاقُعُ قَيْدِهِ
لَا تَلْ بَاشِرُهُ* وَلَا كَيْسُونُهُ^(٤)
ضَمِنَتْ شَقَاوَتَهُ سَعَادَةُ صَافِحٍ
مَا زَالَ يَغْدِرُ ثُمَّ يَغْدِرُ قَادِرًا
قَصُرُ الْأَمَانِي أَنْ يُمَلَّى عَصْرُكَ الْـ
مَجْرُ يُجْرُ إِلَى الْغَنَائِمِ قُبُهُ

وأشده بحلب أيضاً في شوال من هذه السنة قصيدة، منها^(٧) :
لَقَدْ أَوْطَأَتْ دِينَ اللَّهَ عِزًّا أَدِيمُ الشَّعْرَيْنِ لَهُ رَغَامُ
دَعَاكَ وَقَدْ تَنَاوَشَتِ الرِّزَايَا لَهُ أَهْبَاءُ يوزعها العُدَامُ^(٨)

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «لوحش».

(٢) مفردها الإرب: وهو العضو. «اللسان» (أرب).

(٣) هونهر العاصي.

(٤) كذا في النسخ الخطية، ولعلها كيسوم. انظرها في كشاف الأماكن.

(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: المنا: القدر، والله أعلم».

(٦) في (م) عليك.

(٧) في الأصل: أولها، والمثبت من (ل) و(م).

(٨) في الأصل و(ل) يودعها، والمثبت من (م). ولعل الصواب: توزعها العُرَامُ.

فَقُمْتَ بِنَصْرِهِ وَالنَّاسُ فَوْضَى
جَذِبْتَ بَضِيعَهُ مِنْ قَعْرِ يَمٍّ
صَبَّتَ عَلَى الصَّلِيبِ صَلِيبَ بَاسٍ
وَمَلَّتْ عَلَى مَعَاقِلِهِمْ فَخَرَّتْ
بَصْرُ خَدٍّ * وَالْخَطِيمُ * وَفِي عَزَازٍ *
وَلَوْ لَمْ تَغْتَرِّقْ وَتَشْمِ لَأَمْسَى
وَيَوْمَ بِالْعَرِيْمَةِ * كَانَ حَتْفًا
لِقُبُوكَ كَأَنَّ مَاسِلُوهُ شَيْخٌ
وَهَابٌ * وَقُورُسٌ * وَبِكْفَرَلَانَا *
صَدَمْتَهُمْ بِأَرَعَنْ مُرْجِجَنْ
وَأَيَّةُ لَيْلَةٍ لَمْ تُلَفْ فِيهَا
بَنُورِ الدِّينِ أَنْشُرَ كُلُّ عَذْلٍ
وَعَادَ الْحَقُّ بَعْدَ كِلَالِ حَدٍّ
تَأَلَّقَ عَذْلُهُ وَذَكَتْ سَطَاهُ
بِقَاوُكَ خَيْرٌ مَا يَرْجُوهُ رَاجٍ

فثَامٌ^(١) ذَمٌّ مَا اقْتَرَفْتَ فثَامٌ
لَهُ مِنْ فَوْقَ مَقْسَمِهِ التَّطَامُ
قَوَاهُ تَحْتَ كَلْكَلِهِ حُطَامُ
وِلَاءٍ مِثْلَ مَا انْتَقَضَ النَّظَامُ
وَقَائِعَ هَزٍّ مَشْهَدَهَا الْأَنَامُ
وَأَصْبَحَ لَا عِرَاقَ وَلَا شَامَ^(٢)
عَلَى الْإِشْرَاكِ أَمَقَرَهُ الْعُرَامُ
وَمَا اعْتَقَلُوهُ مِنْ خَوَرٍ ثَمَامُ
ذَمَّتْ وَأَنْتَ لِلْجُلَى ذِمَامُ
كَأَنَّ مَطَارَ أَنْسُرِهِ غَمَامُ
لَهُمْ طَيْفًا يَرُوعُ بِهِ مَنَامُ
تَعَفَّتْ فِي الثَّرَى مِنْهُ الرَّمَامُ
حَمَى مِنْ أَنْ تُرَاعَ لَهُ سَوَامُ
فَلَا حَيْفٌ يُخَافُ وَلَا اهْتِضَامُ
وَأَنْقَعُ مَا يُبَلُّ بِهِ أَوَامُ

(١) فِي (م) قِيَامٌ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(٢) هَذَا الْبَيْتُ فِي (ل) وَ(م) يَأْتِي بَعْدَ «جَذِبْتَ بَضِيعَهُ...».

فصل

وفي هذه السّنة ولد لنور الدين بحمص ابنُ سماء أحمد، وهنّاه به ابن منير في بعض قصائده، ثم توفّي بدمشق، وقبره خَلَفَ قبر معاوية رضي الله عنه داخل^(١) الحظيرة في مقابر الباب الصّغير*. وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب^(٢)، ومنها في ذكر المولود:

تَوَالَتِ الْأَعْيَادُ لَا زِلْتَ لَهَا تُبْلِي دِيَابِيجَ^(٣) الْبَقَاءِ وَتُجِدُ
الْفِطْرُ وَالْمِيلَادُ وَالْمَوْلُودُ لَوْ قَابِلَهُ بَذْرُ التَّمَامِ لَسَجَدُ
ثَلَاثَةٌ تُغْرِبُ عَنْ ثَلَاثَةٍ لَمِثْلَهَا يَذْخَرُ^(٤) حَمْدًا مِنْ حَمْدِ
فَتَحُ مَبِينٌ وَطَلَابٌ مُدْرِك ودولة ما تنتهي إلى أَمَدِ
وله من أخرى:

وَجِئْتَ بِأَحْمَدٍ فَمَلَأْتَ حَمْدًا مَوَارِدَ كَانَ مَعْدْنُهَا عَذَابَا
تَهْلُلُ وَجْهَ مُلْكِكَ يَوْمَ أَهْدَتْ قَوَائِلُهُ لَكَ الْمَلِكَ اللَّبَابَا^(٥)
شَيْئُكَ لَا يُغَادِرُ مِنْكَ شَيْئًا سَنًا وَحَيًّا وَبَذْلًا وَاسْتِلَابَا
قَسِيمُ الْحَمْدِ إِلَّا أَنْ حَرَفًا مِنْ اسْمِكَ زَادَ لِلْمَعْنَى مَنَابَا
أَلَا اللَّهُ يَوْمَ فُرَّ عَنْهُ وَرَكِبَ نَصْرٌ بِالْبُشْرَى الرُّكَابَا
قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه
مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصْرَى*، ونزل عليه محاصراً لِسُرْخَاك^(٦)
واليه لمخالفته وجوّره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صَرْخَد*

(١) في الأصل و (ل): إذا دخل، والمثبت من (م).

(٢) انظر ص (٨٤ - ٨٥) من هذا الجزء.

(٣) مفردها: ديباج، وتجمع على دباييج أيضاً. انظر «القاموس المحيط» (دبج).

(٤) في الأصل يذكر، وفي (ل) نذكر، والمثبت من (م).

(٥) اللباب، بالضم: الخالص من كل شيء. «اللسان» (لبب).

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٦٦ من هذا الجزء.

لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك، فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبلِك. وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه، وتلقَى مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحصن من الرجال، ودخل إليه في خواصه، وسرَّ بذلك، وتعجَّب من فعل مجاهد الدين، وشكره على ذلك، وعاد إلى مُخيمه على بُصرى* وحاربها عدَّة أيام إلى أن استقرَّ الصُّلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق^(١).

قال: وفي شوال تُوفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الملحِي، ودفن في مقابر الكهف^(٢)، وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنة ونظم جيد. وتقدَّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الأجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السُّلطان مسعود بن محمد بن مَلِكُشاه بهمَذان، وعهد إلى ابن أخيه مَلِكُشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمُهله غير قليل حتى قبضَ عليه^(٣)، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود^(٤)، وهو بخوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذٍ يطلب السلطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه وهو بهمَذان، واجتمع

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩.

(٢) مقابر الكهف: في الصالحية من دمشق، فوق المدرسة الجهاركسية، والكهف يقع غربي مغارة الدم. انظر «القلائد الجوهريّة»: ٥٥/١.

(٣) ثم هرب من سجنه واستقر بخوزستان ملكاً، وتوفي سنة (٥٥٥هـ). انظر «دولة آل سلجوق»: ٢١١، و«الكامل»: ٢٦٣/١١.

(٤) توفي سنة (٥٥٤هـ). انظر «الكامل»: ٢٥٠/١١ - ٢٥١.

به، وخدمه^(١) خاصبك خدمةً عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، ففترقوا، واستقرَّ محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها. وكان قتل خاصبك سنة ثمانٍ وأربعين، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدمه حتى فاق سائر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم^(٢).

وذكر^(٣) الوزير يحيى بن هُبيرة^(٤) في كتاب «الإفصاح»^(٥) أنه لما تناول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتَّفَقَ الرَّأْيُ على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رِعلٍ وذُكوان^(٦) شهراً. فابتدأ هو والخليفة سِراً، كُلُّ واحد في موضعه يدعو سَحْراً، من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمس مئة، واستمرَّ الأمر على ذلك كُلَّ ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة، كان موت مسعود على سريرته، لم يَزِدْ عن الشهر

(١) في (ل) وخدم، وهو تحريف.

(٢) «الباهر»: ١٠٥ - ١٠٦، وانظر «الكامل»: ١٦٠/١١ - ١٦٣، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠٨ - ٢١٣.

(٣ - ٣) ما بينها ساقط من (م).

(٤) سترد ترجمته ص ٤٤٠ - ٤٤١ من هذا الجزء.

(٥) هو الإفصاح عن معاني الصحاح، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٦) قبيلتان من بني سُلَيم، أجابتا عامرين الطفيل إلى قتل القراء الدعاة الذين بعثهم رسول الله ﷺ لأهل نجد سنة (٥٤هـ)، وهم قتلى بثر معونة. انظر «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبثر معونة، و«صحيح مسلم» كتاب المساجد باب استحباب القنوت، و«سيرة ابن هشام»: ١٩٣/٣ - ١٩٩.

يوماً ولا نقص^(١) يوماً. ووصل القُصَّادُ بذلك من هَمَدَانَ إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدَّاعِين. قال: وكان الشَّيْخُ محمد بن يحيى^(٢) يقول: لا أدلَّ على وجود موجود أعظم من أن يُدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين [وخمسة مئة] (٣)

ففيها أخذت الفرنج، خذلهم الله تعالى، عَسْقَلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى^(٤).

قال الرئيس أبو يعلى التَّمِيمِي: وتواصلت الأخبارُ من ناحية نور الدين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشُّرك والطغيان، ولنصرة أهل عَسْقَلان على الإفرنج النَّاظرين عليها، وقد ضايقوها بالزَّحف إليها بالبرج المخدول، وهم في الجمع الكثير. ٩٠/١ واقتضت الحال توجُّه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاصُد على الجهاد في ثالث عشر محرَّم، واجتمع معه في ناحية الشمال، وقد ملك نور الدين الحِصْنَ المعروف بإفليس^(٥) بالسَّيف، وهو في

(١) في الأصل: ولا ينقص، والمثبت من (ل).

(٢) هو محمد بن يحيى بن علي بن مسلم الزبيدي الواعظ، ولد سنة (٤٦٠هـ) في زبيد، ودخل بغداد سنة (٥٠٩هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ) وكان إماماً عابداً قدوة، يقول الحق وإن كان مرأً، وهو من شيوخ ابن هبيرة. انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٩٧/١٠ - ١٩٨، وفيه ولد سنة (٤٨٠هـ) و«وفيات الأعيان»: ٢٤٣/٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٣١٦/٢٠ - ٣١٩، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ٢٥١/١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) ٣٢٦/٣ من هذا الكتاب.

(٥) على الطريق من معرة النعمان إلى حلب.

غاية المَنعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن، وحصل للعسكر من المال والسَّبِي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس*، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حُماته، وتسَهَّلَت أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثة أهل عَسْقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخُلْف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارقٍ من الإفرنج طرقهم، ولا عسكر رَهَقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج*، وعزموا على مُعاودة التُّزول على بانياس* وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سببٍ ولا موجب، وتفرَّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالماً في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأول، وعاد نور الدين إلى حِمص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عَسْقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرُّجال والغلال، وظفروا بَعْدَ وافرة من مراكب الفرنج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزَّحف بالبرج إليها^(١). واستمرَّ ذلك إلى أن تيسَّرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضُّرورة والغلبة إلى طلب الأمان، فأجيبوا إليه، وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مَضَر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتوح من العُدَد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يُحصَر فيذكر. ولمَّا شاع هذا الخبر في الأقطار ساء سماعه، وضاعت الصُّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يُرَدُّ نافذ قضائه، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه^(٢).

قال: وعرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين أخويه عز الدولة وزينها

(١) في الأصل: إليهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٠ - ٣٢٢.

مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك، وجلس في داره، وَهَمَّ بالتحصُّن عنه بأحداث* البلد والغوءاء، وآلت الحال إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرَّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صَرَّخَد* مع مجاهد الدين بُزَّان واليه بعد أن قرَّر له بقاء داره وبُستانه وما يخصُّه ويخصُّ أصحابه. وتقلَّد أخوه زين الدولة^(١) مكانه، وأمر ونهى، ونفَّذ الأشغال على عادته في العجز والتقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التَّوصُّل إلى بَعْلَبَك لتطيب نفس واليها عطاء الخادم، واستصحابه معه إلى دمشق لينوب عنه في تدبير الأمور؛ وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بُزَّان أن نيَّة مجير الدين قد تغيَّرت فيه، فاستوحش من عَوْدِهِ إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانه في نفسه، فوعد بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق^(٢). ثم هَجَسَ في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرّاً طالباً صَرَّخَد، فحين عَرَفَ خبره أنهضَ في طلبه وقصَّ أثره، فأدرك وقد قَرَّبَ من صَرَّخَد*، فقبض عليه، وأعيد إلى القلعة بدمشق، واعتقل [بها]^(٣) اعتقالاً جميلاً.

ثم تجدد من الرئيس الوزير حيدرة المقدَّم ذكره^(٤) أشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيَّب من المعرفة بالسعي

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١ زين الدين، وهو تحريف، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٤٢/٢٠ وص ٢٢٣ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) هو زين الدولة نفسه.

والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخُبثه. ثم عَدَلَ به الجانْدَارِيَّةُ* إلى الحَمَّام بالقلعة مستهْلَ ذِي الْقَعْدَةِ، وضربت عنقه صبراً، وأخرج رأسه، ونُصِبَ على حَافَةِ الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة اللُصوص وقُطَاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقديره^(١) وتدبيره وحمايته، وكثر السُرور بمصرعه، وابتُهَجَ به^(٢). ثم زحفت العائمة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازل وخزائنه، ومخازن غَلَّاتِه، وأثائه وذخائره، فانتهبوا منها ما لا يُحصى، وغلبوا أعوان السُلطان وجنده عليها بالكثرة، فلم يحصل للسلطان من ذلك إلا التَّزَرُّر اليسير. ورُدَّ أمر الرِّياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد [بن علي]^(٣) التَّمِيمِي في اليوم المُقَدَّم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدُّهُماء، وبولغ في إخراج منازل الظَّالِم ونَقْل أخسابها^(٤).

قال: وكان عطاء الخادم قد استبدَّ بتدبير الأمور، ومدَّ يده في الظُّلم، وأطلق لسانه بالهُجْر^(٥)، وأفرط في الاحتجاب، وقصَّر في قضاء الأشغال، فتقدَّم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مالٍ وغلal، ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاء بيوتَ أسبابه وأصحابه^(٦).

(١) في (ل) بتقريره، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.

(٢) في (م) وابتُهَج بالراحة منه، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٤

ص ٧٤ من هذا الجزء. وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٥) الهجر: القبيح من الكلام. «اللسان» (هجر).

(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السُّلار، الذي كانت رتبته قد عَلَتْ، ومنزلته في الوزارة قد تمكَّنت، كان لزوجته ولدٌ يُعرف بالأمير عَبَّاس^(١) قد قَدَّمه، واعتمد عليه في الأعمال، ولعَبَّاس هذا^(٢) ولدٌ^(٣) قَدَّمه الوزير، وأنعم عليه، وأذِنَ له في الدُّخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهونائم في فرشته، فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل^(٤)، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره^(٥).

قلت: هو أبو الحسن علي بن السُّلار^(٦) وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر السُّلَفي^(٧)، رحمه الله. وكان قتله في سادس المحرم بمواطأة من الخليفة الملقب بالطَّافر بن الحافظ.

قال: وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلَّخي^(٨) رئيس الحنفية، ودُفن في مقابر الباب الصغير* المجاورة لقبور الشهداء. وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع

٩١/١

(١) ترجم له أبو شامة في ص ٣١٤ من هذا الجزء، وكان عباس قد قدم مصر من المغرب مع أبيه وأمه سنة (٥٠٩هـ) ونزلوا الإسكندرية، فلما توفي أبوه، تزوج والي الإسكندرية وقتئذٍ العادل بن السلار بأمه. انظر «الكامل»: ١٤٢/١١، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٢) في الأصل: ولهذا عباس، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) هو نصر بن عباس.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩ - ٣٢٠.

(٥) انظر ص ٣١٠ من هذا الجزء.

(٦) كان والده السلار في طائفة عسكر سقمان بن أرتق صاحب القدس، ضمه الأفضل أمير الجيوش إليه بعد استيلائه على القدس سنة (٤٨٩هـ). انظر «الكامل»: ٢٨٢/١٠ - ٢٨٣، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٧) توفي سنة (٥٧٦هـ) انظر ص ٥٤ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٨) هو علي بن الحسن بن محمد، له ترجمة في «مرآة الزمان»: ١٣٤/٨ - ١٣٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٧٦/٢٠، و«الجواهر المضية»: ٥٦٠/٢ - ٥٦٢.

والدين، والعفاف والتَّصَوُّن، وحفظ ناموس العلم، والتَّواضع، والتَّوَدُّد إلى الناس على طريقةٍ مرضية، وسجِّيةٍ محمودة^(١).

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن مُنير الشَّاعر^(٢) في جمادى الآخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشَّاعر أبو عبد الله محمد بن نَصْر بن صغير القَيْسَراني^(٣) من حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، في الثاني والعشرين من شعبان^(٤).

قلت: هما شاعرا الشَّام في وقتهما، وقد شَبَّهُما العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»^(٥) بالفَرَزْدق وجريز، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جريز بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرضٍ سنذكره.

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٣.

(٢) ولد سنة (٥٤٧٣هـ)، له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٧٦/١ - ٩٥، وانظر ترجمته في «بغية الطلب» ٣/ ١١٥٤ - ١١٦٤ - وفي ولادته ٤٩٣، وهو خطأ - و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٣ - ٢٢٤. وقد جمع شعره كل من الدكتور سعود محمود عبد الجابر، وطبع في الكويت سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م. والدكتور عمر عبد السلام تدمري، وطبع في بيروت سنة ١٩٨٦ م. وهاتان الطبعتان - فيما اعتمدها من كتاب الروضتين - مشحونتان بالأخطاء والتحريفات لم أشِر إليهما في الهامش لكثرتهما، والذي يقارن بين شعر ابن منير في كتابنا هذا وشعره فيما جمعه الدكتوران يجد الفرق واضحاً.

(٣) له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٩٦/١ - ١٦٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٤ - ٢٢٦، ولمحمد أنيس جرار كتاب «محمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره» طبع في عمان سنة (١٩٧٤م)، وفي مجمع اللغة العربية بدمشق نسخة مصورة عن قطعة من ديوانه محفوظة في دار الكتب المصرية.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٢.

(٥) انظر «الخريدة» قسم شعراء الشام: ٧٩/١.

ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيا سيفاً أعزَّ الدين منه الـ
مَلَأَتْ جِوَانِحَ الْأَقْطَارِ رَجْفاً
علاك حُلَى على الدنيا فتاج
أضاءَتْ شمسُ عَذْلِكَ في دُجَاهَا
تُحَرِّقُ مَنْ عَصَاكَ وَأَنْتَ مَاءٌ
أَلَّا لِيهِ وَجْهَكَ وَالْمَنَايَا
هَتَكَتْ حِجَابَهُ وَالتَّضَرُّ غَيْبٌ
يَطْعِنُ لِلْقُلُوبِ بِهِ انْتِظَامٌ
تبادره كأنَّ الموتَ غَنَمٌ
أَنَحْتَ على الصَّلِيبِ مطاً صلياً
بمَشْرِفَةِ الْمَنَاكِبِ مقرباتِ
جَنِينٍ^(٢) بِإِنِّبْ* أَنْبَ الْعَنَاصِي^(٣)
وفي هَابْ* أَهَبْتَ بها فجاءت
وكم في فُجْ حَارِمٍ* من حريمٍ
وأنطاكِيَّةُ* اسْتَنْتَتْ إليها
وَصَبَّحَ في عَزَازٍ* بها عزازُ
يَشُقُّ بها دُجَى الْغَمَرَاتِ عَسْفاً

(١) في (م) مبرمه.

(٢) في (ل) جنين.

(٣) الْأَنْبُ: فاكهة هندية. والعناصي، مفردتها عنصوة: القليل المتفرق من النبت. انظر

«معجم متن اللغة»: ٢١٠/١، ٢٢١/٤.

(٤) الكشم: اسم للفهد. «اللسان» (كشم).

(٥) القطيع من البقر. «اللسان» (صور).

(٦) في الأصل: خبطها. والخيظ: جماعة النعام. «اللسان» (خيظ).

(٧) صوت ذكر النعام. انظر «اللسان» (عرر).

(٨) الخبار: ما استرخى من الأرض وتحفر. «اللسان» (خبير).

وله من أخرى:

وما يومُ الفرنجة منك فذُّ
أجاش الأربعاء لهم خميساً
وأحكم بالخطيم* لهم خطاماً
مشوا متساندين إلى صليب
تلفهم المنايا في الثنايا
أطاشت سَهم^(٢) كَشِهمُ* هناة
حللت التاج عنه وحلّ تاجاً
أناف على العقاب فكان أشهى
فأشرف وهو عن شرفٍ معوق
تكاشره الشوامت وهو مُغضٍ
بعيداً من قراعٍ وافتراع
وكم سوطٍ بخيلك أقبلوه الـ
تركّتهم بأرض الشام شاماً
هتكت حجابَه والشمسُ وسنى
بأبيض من حبيك الهند صافٍ
له سمّة الشيوخ صفاء شيب
ألا ياناظر الدنيا بعين
تبطنها فطلقها ثلاثاً
فلا ياوي إلى رأي شعاعٍ
ترفع عن محاوره^(٥) الأمانى

فتحصر عدّه خططُ الحساب
بعيد الغور مُلتطم العباب
أمرٌ بريّمهُ مُرّ الضراب
تبرقع هبوة الصمّ الصلاب
وتفجؤهم شعوب^(١) من الشعاب
فكنت ذباب^(٣) طائشة الذباب
مكان العقيد من عقد الكعاب
وأبهى منه في ظلّ العقاب
وأصعد وهو^(٤) غايّة الانصباب
ثناه مناه عن رجع الجواب
يؤوبُ له إلى يوم المآب
صُدور فكان سوطاً من عذاب
لظفرٍ تتقيّه أو لنابٍ
بشمسٍ لا توارى بالحجاب
مضون المتن مبتذل الذباب
وفي خطراته نَزَقُ الشّباب
أرته علانها خدع السراب
على عزّ التملق والخلاب
ولا يثني إلى أمل خراب
وحلق عن محاضرة التصابي

(١) الشعوب: المنية. «القاموس المحيط» (شعب).

(٢) في (م) رأس.

(٣) الذباب: حد السيف. «القاموس المحيط» (ذب).

(٤) في (ل) و (م) مجاورة.

صلاة الله كل ذرور شمس
فقد ألقى إلى الإسلام غضباً
تجيش له رواس كالرواسي

وله من أخرى:

مُظَفَّرُ الْعَزْمِ ممدودُ الرِّوَاقِ عَلَى
رَدِّ الْكُنَائِسِ كُنْساً لِلْهُدَى فَخَبِتْ
وَأُورِدَ الْعِلْمَ عَدَاً مِنْ إِيَالْتِهِ
وَبَثَّ لِلشُّرْكِ أَشْرَاكاً فَمَا دَرَجَتْ
يَا بَذْرُ مُذْ أَشْرَقَتْ فِي الدُّسْتِ غُرَّتُهُ
أَقَامَ أَحْمَدُ مِنْ مَحْمُودِهَا عِلْماً
مَحْيِي شَرِيعَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْهَدَمَتْ^(١)
شَابَتْ مُوَاهِبُهُ فِيهَا مَهَابَتُهُ

وله من أخرى:

عَزَّتْ سِيُوفُكَ فَالْعِرَاقُ عِرَاقُهَا
إِنْ أَعْمَدْتَ حَلَّ الْعِزَائِمِ حُلُّهَا
شَجِيَتْ عِدَاكَ بِهَا فَلَا إِشْرَاقُهَا
سَرَبَتْ فَصَبَّحَهَا بِهَا يَقْظَانُهَا
كَالْمَاءِ إِلَّا أَنْ فِي رَشْفَاتِهِ
خَفَّتْ عَلَى أَيْمَانِكُمْ أَوْزَانُهَا
حَتَّى أَحَلَّنَ الشَّامَ شَاماً صَرَصَرَتْ
وَرَحَضْنَ أَدْرَانَ الْجَزِيرَةِ بَعْدَهَا

على مَثْوَى أَيْبِكَ مِنَ التُّرَابِ
يَطْبُقُ فِي النُّوَابِ غَيْرِ نَابِي
تُمَدُّ لَهَا جِفَانُ كَالْجَوَابِي

مَعَالِمِ الدِّينِ يَرْفِيهَا وَيَبْنِيهَا
نَارُ الضَّلَالِ وَوَارَتْهَا أَثَافِيهَا
فَاسْتَنْ وَأَفْتَنْ عِبَاً فِي صَوَافِيهَا
طَرِيدَةً مِنْهُ إِلَّا اسْتَوْهَقَتْ فِيهَا
غَيْثَ الرَّعِيَةِ وَاخْضَلَّتْ مَرَاعِيهَا
بِهِ اسْتَقَامَ عَلَى الْبَيْضَاءِ سَارِيهَا
وَاسْتَعْجَمَتْ بَعْدَ إِفْصَاحِ مَعَانِيهَا
حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَلَى سَمْتِ سَوَارِيهَا

وَالشَّامُ غَيْرُ مَدَافِعَاتٍ شَامُهَا
أَوْجُرَدَتْ حَرَمَ الْكَرَى إِحْرَامُهَا
بِمَفَازَةٍ مِنْهَا وَلَا إِعْتَامُهَا
هَذَا فَمَسَّتْهَا بِهَا أَحْلَامُهَا
نَاراً حُشَاشَاتُ النُّفُوسِ ضِرَامُهَا
يَوْمَ الْوَعَى وَاسْتَقْلَلَتْهَا هَامُهَا
فِيهِ جَنَادِبُهَا وَصَدَحَ هَامُهَا
غُمِرَتْ بِهَا وَهْدَاتُهَا وَإِكَامُهَا

(١) في (م): ما هدمت، وفي هامشها: ما همدت.

شَطْرًا أَبْرَتْ ومثله أنظرته
 بالخابطاتِ الغَابِ تَزَارُّ أُسْدُهُ
 أوردتها أجَمَاتِ أنطاكيَّةِ
 تلقى المَشَافِرَ في مَرَاثِفَ كُلِّمَا
 فَعَدَتْ وقد عَزَّ السراح سراحها
 ومشى الضَّلَالِ الفَهْقَرَى واستأصل الـ
 وغداً يخللُها الخليلُ سواجباً
 غَضَباً لدين الله حصَّ جناحه
 فالآنَ رَدَّ النورَ فيه نوره
 محمودُ المحمود إقداماً إذا
 الفارجُ الكَرْبِ العِظَامِ تضاجمت

وله من أخرى:

أما الرِّعَايا فإنَّها رَشَفَتْ
 سَلَكَتْ نَهْجَ العَدْلِ القويمِ بها
 وكم أُمِيتَ خَوْفاً فَأَمَّنْهَا
 لله أَقْطَارُكَ التي قطرت
 أَنْبَ في إَنْبَ* فوارسها
 أَشَجَّتْ لَهَاةَ البِرْسِ هبوتها
 وجُوسِلين* استساغ نطفتها
 رَدَّتْهُ صِفْراً من كُلِّ ما مَلَكْتُ
 جويسُ جاسْتَك أَوْجُهُ لا رَأَتْ
 في سرية لو تكون فارِسها
 لا زالَ ظِلُّ النِّعْماءِ عن ملكٍ

وَقَعَ الخطوبِ تَكْرُها أياها
 والمجفلي الحي اللِّقَاح صياها
 عَنقاً وقد شَبَّ الصدا إجمأها
 ٩٣/١ بَرَدَتْ بها الأكبَادُ زادَ هيأها
 وتوزَّعت في كُنْسها آراها
 آذانٍ من رَجَعَ الأذانِ صلاها
 عَذْباً يُمِرُّ لها العِذابُ غماها
 بغياً وأدمى صفحتيه لدأها
 وانجاب من تلك الهَنَاتِ ظلامها
 خام الكِماءَ وَزُلْزِلَتْ أقدامها
 أشداقها وفَرَى القلوبَ ضِغَامها

لديك نُعمى عَذْباً ثناياها
 فأحمدت دينها ودُنياها
 متالَفَ الخَوْفِ خَوْفُكَ الله
 لها مُناها إلى مَناياها
 تردى فتردي أولاك أخرأها
 وكم عتا عاتياً فأشجأها
 فاحتلب الدُّلَّ تحت مَغْداها
 يَدَاهُ أيدٍ ماضِلٌ مَسْراها
 بؤساً وجادَ الحيا مُحيأها
 يومئذٍ ما انبَعَثَ أشقاها
 ما الشَّمْسُ كَفَوْا له إذا باهى

أَعَزَّهَا اللَّهُ مُذْ تَوَلَّاهَا
حَمْدٍ وَثِيراً لَهُ وَلايَاهَا
جِدُّ وَنَفْسُ اللَّهِ مَغْزَاهَا
نَزَّهَهَا اللَّهُ يَوْمَ سَوَّاهَا
يُمْنِي طَبَاقِ الْعُلَا وَيُسْرَاهَا
مَنْ كَانَ فَنَّا خُسْرُو شَاهِنْشَاهَا^(١)
أَوْهَ بَدِيلُ مَنْ قَوْلْتِي وَاهَا

والله جازيه عن معبدة
محمود المعتلي إلى فلك الـ
أعطاكه جذك المتوج بالـ
نفس عزوف عن الخنا طبع
أنت الذي سلم الأنام له
وأنت مولى الملوك قاطبة
والشعر هذا لا قول أحمد
وله من أخرى:

إسلام إدلاجاً وتهجيراً
ق الخوف إنجاداً وتغويراً
أنشبه ناباً وأظفورا
رقاً بحد السيف مسطورا
دستك إشراقاً وتأثيراً

يا ابن الذي لم يأل في نجدة^(٢) الـ
تكنف الشام وقد شام بر
وكف كلب الروم من بعد أن
فأهله رقت إن أنصفوا
بذر هوى واستخلف الشمس في
وله من أخرى:

برداً بتديج الطبي معلماً
يقتطّر من قتل عداه دماً
لم تلق في أقطارها مسلماً

ملك كسا الإسلام من ذبه
من أصبح الشام به شامة
لو لم يقم منصلاً دونه ٩٤/١

(١) هو عضد الدولة فناخسرو بن الحسن بن بويه، وهو أول من لقب بالشاهنشاه وتعني: ملك الملوك. انظر «السلوك» للمقريزي: ج ١/١ ق ٢٨١، و«الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار» للدكتور حسن الباشا: ٣٥٣ - ٣٥٤.
(٢) في (م) نصرة.

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الدَّهْرُ ما رُضَّتْهُ بِالْجُودِ والباسِ
فتح يعاقبه فَتَحَ وَمُطْلَبُ
نَصْرًا بُبْصَرِي* وصفحاً عن حماة لقد
يا ابنَ الذي عَنَتِ الدُّنْيَا لِدَوْلَتِهِ
مُقَسَّمٌ بين أغراسٍ وأعراسٍ
داني المنال ومُلْكٌ ثابِتٌ راسي
أَحْسَنْتَ لِلدَّاءِ حَسْماً أيها الآسي
من فاطميٍّ أعزَّتْهُ وَعَبَّاسِي

وله فيه:

غَدَا الدينُ بِاسْمِكَ سامي العَلَمِ
لذلك لُقِّبْتَ نوراً له
أضَاءَتْ بِعَدْلِكَ آفَاقُهُ
ولم تَمْشِ رَهْواً^(١) لِنَصْرِ الرُّها*
ويومَ بسوطا* بَسَطْتَ الحِمَامِ
وبُصْرِي* وَصَرَّخْتَ* لو لم تثر
ومُدَّ فُضَّ جيشك في الغوطتي
وفي كَفَرْلاناً* وهاباً* حَلَلْدُ
مَعوَدَةٍ أنها لا تُسَلُّ (م)
ويومَ بَسَرْفُود* جَرَّعَتْهُمْ
وفوق العُرَيْمة* غَشَّاهم
وأَبَتَ بَكْلِبُهُمْ في الكُبُولِ
وبارتهم* أَذْنَتْ أنها
أَمِينُ العِمادِ مَكِينُ القَدَمِ
وقد أَغَطَّشَ الظُّلْمُ فيه الظُّلْمَ
وَفَضَّتْ عُرَى الدِّينِ لما أَذَلَّهُمْ
ومثلك أدركَ لَمَّا عَزَمَ
على الهُضْبِ من رُكْنِها فأنهَدَمَ
دِراكاً لكانا رَدِيفِي إِرَمَ
من فَضَّ الصُّليبِ له ما نَظَمَ
تَ عَقَدَ البرنسُ* بِيضَ خُذْمِ^(٢)
إلا مَقْمَقَةً لِلقِمَمِ
أُجاجاً أَغَصَّهُمْ واصْطَلَمَ
عُرَامُ جِيوشك سِيلَ العَرَمِ
مباح الحريم مُذالاً^(٣) الحُرَمِ
أَبارتَهُمْ فَلْيَبُؤُوا بِذَمِّ

(١) في (ل) رهقاً.

(٢) في (م) حزم.

(٣) في (ل) مذل.

بَنَوْهَا وَأَعْلَوْا. وَلَمْ يَعْلَمُوا
وَأَنْكَ خَارِمْ مَا أَحْكُمُوهُ
تَرْفَعُ مِنْ بَعْدِ خَفْضٍ هُدًى
سَمَكْتَ الْمَدَارِسَ فَوْقَ النُّجُومِ
وَعَاشَ الْحَنِيفِيُّ وَالشَّافِعِيُّ
وَلِنْ لَمْ تَكُنْ هَاشِمِيَّ الْأَصُولِ
وَمَنْ يَدَّعِي فِي الْعُلَا مَا ادَّعَيْتَ
وَأَقْسِمُ مَا غَابَ مَيْتٌ سَقَتْ

بِمَا خَطَّ فِي اللَّوْحِ مِنْكَ الْقَلَمُ
وَمِنْ دِينِنَا رَاقِعٌ مَا انْخَرَمَ
وَتَخَفَضَ مِنْ بَعْدِ رَفَعٍ صَنَمُ
فَكَمْ مَنَجِمٍ تَحْتَهَا قَدْ نَجَمَ
بِمَا شِدَّتْ مِنْهَا وَكَانَا رِمَمَ
فَلِإِنَّكَ فَرْعُ الْهَزْبِ الْهَشِيمِ
وَأَنْتَ ابْنُ مَنْ عَزَّ لَمَّا احْتَكَمَ
مَغَارِسَهُ عَيْنُ هَذَا الشَّيْمِ

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة، ونَفَسَ فيها طويل، ولم يبق بعد موت القَيْسِرَانِي وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد المَوْصِلِي^(١)، وسيأتي شيء من شعره، إلى أن قدم العماد الكاتب الشَّامَ في سنة اثنتين وستين، فتسلَّم هذا الأمر، وعَبَّرَ عن أوصاف نور الدين ومناقبه وَغَزَوَاتِهِ بِأَحْسَنِ الْعِبَارَاتِ وَأَتَمَّهَا نِظْمًا وَنَثْرًا، وسيأتي كُلُّ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي صاحب مَارِدِينَ* حسام الدين تمرناش، ووليها بعده نجم الدين ألبى بن تمرناش ابن أُرْتُق.

قلت: وقد مدحه القَيْسِرَانِي وَالْعَرَقَلَةُ^(٢) وغيرهما من الشعراء.

(١) سيرد ذكره في ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين [وخمسة مئة]^(١)

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين [مدينة]^(٢) دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان؛ وهي مدينة فلسطين حُسناً وحَصَانَةً. ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهَّف ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها مَعْبَرٌ، لا اعتراض بلاد الإفرنج في الوسط. وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنَّهْبَ ٩٥/١ والسَّبْيَ، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجيئها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج، واستعرضوا عبيدهم وإساءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النُصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليتهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه. وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيَّد الدين بن الصُّوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فجأروا^(٣) إلى الله تعالى، ودَعَوْه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحبَّ عباده إليه، وأحسنهم طريقةً، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحَسَّنَ له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه. فلما خطر له ذلك

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) أي رفعوا صوته بالدعاء مع تضرع واستغاثة. انظر «اللسان» (جَار).

أفكر فيه، فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذّر عليه، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم^(١).

قلت : وكان قد سبق له سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها^(٢)، ولذلك قال العرقلّة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظنّ صلاح الدين فرسانَ جَلّجِ كفرسانِهِ ما الأسد مثل الثعالبِ
غداً تطلع الشّام الفرنج بفيلجِ مُعوّدةً أبطالُهُ للمصائبِ
رجالٌ إذا قام الصّليبُ تَصَلَّبَتْ رماحُهُمْ في كل ماشٍ وراكبِ
لها اللّيلُ نَقَعَ^(٣) والأسِنَّةُ أنجمُ فما غيرُ أبطالٍ وغيرُ جنائبِ^(٤)

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك حينئذ لم يكن ملكاً يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبرساني صاحب حماة؛ أحد أصحاب زنكي، وقد تقدّم ذكره مراراً^(٥)، وكأنه كان في مقدّمة الجيش الثوري لما قصد دمشق في المرتين الأولىين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاملهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها؟ وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين، فإن الدّم كان عنده عظيماً، لما كان قد جُبِلَ عليه من الرأفة والرّحمة والعَدْل. فلما رأى الحال هكذا عمد^(٦) إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها

(١) انظر «الباهر»: ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) انظر ص ٢٦٤ - ٢٦٦ من هذا الجزء.

(٣) في (م) لها النقع ليل.

(٤) الأبيات في «ديوان عرقلّة الكلبي»: ٦٠.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.

(٦) في (م) عدل، ومثله في «الباهر»: ١٠٧.

واستماله، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى وثق إليه، ثم صار يكتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلاناً - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجبر الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك، فاحذره. فتارةً يأخذ إقطاع أحدهم، وتارةً يقبض عليه. فلما خَلَتْ دمشق من الأمراء، قَدَّمَ أميراً كان عنده يُسَمَّى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفَوْضَ إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكّن من دمشق معه. فقبض عليه مجبر الدين وقتله^(١)، فقال له عند قتله: إِنَّ الحيلة قد تَمَّت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله^(٢).

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدلُّ على أن عطاءً هذا كان له مع

نور الدين في دمشق حديث، فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم	لحُور نسائهم منهم نساء
هي الفردوسُ أصبحَ وهو عافٍ	من العافي ومن خالٍ خلاء
جِنَانُ تعرفُ الجَنَاتِ فيها	ولا رأيي هناك ولا رُواء
لأسمح صعبها ودنّت قصاها	وأمكنك اقتياداً وامتطاء
ويا نِعَمَ العطاء عطاء رَبِّ	توسّطه فأنشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفأل وَعُدُّ	يكون على ظَبَاك به الوفاء
هو السَّبب الذي شَزَرَتْ قواه	وهذَّبَه لخدمتك الصِّفاء
وسَيْفٌ إن تَشِمَه تَشِم حُساماً	وإن تُغِمِدَ فنارٌ بل ذُكاء
جَنَّتَه لك السَّعادةُ قطف رأي	لنقب الخادِيعِيك به هِناء ^(٣)

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها. كانت سبب قتله لَمَّا بلغ مجبر الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي يُنسب

(١) مرَّ أنه قتل سنة (٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٠٧.

(٣) الهناء: القَطِران. «القاموس المحيط» (هنا).

إليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقي * بدمشق^(١)، وجورة عطاء^(٢) بيت
٩٦/١ أبيات*؛ وهي أرض فيها أخشاب كبار من الحور تُربى أوتاداً^(٣) لجامع
دمشق، وهي وقفت عليه. وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قُتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل
أحداث* البلد وزناطرتة* واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم
وحاصرهم عشرة أيام. فكتب مجير الدين الفرنج، وبذل لهم الأموال وقلعة
بَعْلَبَك إن رَحَلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا، وجاؤوا بلغهم أخذ نور
الدين دمشق، فعادوا بخفي حنين. وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق
على من به، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين، وسلّموا إليه البلد من
الباب الشرقي*، فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة،
وراسله وبذل له الإقطاع الكثير، من جُمْلته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم
القلعة، وسار إلى حمص^(٤).

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى
صاحب دمشق، فخرج في تجملٍ عظيمٍ ومعه ألف فارس، فعظّم على مجير
الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة. ولم يتجاسر على الخروج إلى
لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب،
وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يُعرفه بما جرى عليه.
فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقيّه، وكانت الحرب في
عاشر صفر، وتولّى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكسر عساكر دمشق إلى

(١) في قرية الخمسين، وهي من القرى الدائرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر:

٨١/٢، «ثمار المقاصد»: ١٠٨، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٥ من هذا الجزء.

(٢) انظر «غوة دمشق»: ٢٢٨.

(٣) في الأصل و (ل) أوتاراً، والمثبت من (م). وكانت هذه الأوتاد تستخدم من أجل قبة

النشر في جامع دمشق. انظر «المذيل على الروضتين» حوادث سنة (٦١٣ هـ).

(٤) «الباهر»: ١٠٧.

الأسوار من قبليّ البلد، ولم يكن أحدٌ من المقاتلة على السُور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقيّها، وجُلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجانديّة* والحلبين خُلُو السُور من المقاتلة، فتسرّعوا إلى السُور، وتعلّقوا به، وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال: إن امرأة كانت على السُور، فدلّت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السُور جماعة، ونصبوا السلالم، وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً، وصاحوا بشعار نور الدين، فوقع على أهل البلد الخذلان، وكسر باب البلد، ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها، وردّ إليه جميع أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرّحبة*.

وقال الرّئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد الدين شيركوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستيحاش منه، وإهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتكرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال، ولم تُسفر عن سداد ولا نيل مُراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات. ووصل نور الدين بعسكره إلى شيركوه ثالث صفر، وخيم بعيون الفاسريّا* عند دومة*، ورحل في الغد، ونزل بيت الآبار* من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيّه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير، ووقع الطراد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يوم، وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي، فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيّسان* والدّباغة من قبليّ البلد، وليس على السُور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفر يسير لا يؤّبه لهم، فتسرّع بعض الرّجال إلى السُور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلاً، فصعد فيه، وحصل على السُور، ولم يشعر به أحد، وتبعه

من تبعه، وأطلعوا علماً نصبوه على السور، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله، وحسن ذكره. وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي*، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم. وفتح باب توما* أيضاً ودخل [الناس]^(١) منه، ثم دخل نور الدين وخواصه، وسر كافة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازل الفرنج الكفار. وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، وأومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيب نفسه ووعدته الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرعية، والمنع من انتهاب شيء من دورهم، وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علي* وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيب نفوسهم، وأزال نفرتهم. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية؛ دار جدّه، وأقام أياماً، ثم تقدّم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عدة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جنده، وتوجّه إلى حمص على القضية المقررة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أمثال الرعية من القضاة والفقهاء والتجار، وخطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدعاء له، والثناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصاره^(٢) إليه. ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ*،

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ما أصاروه، وهو وهم.

وسوق البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونُصرة أعلامه^(١).

وقال ابن الأثير: لما استقل^(٢) نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً^(٣) عاماً.

قلت: قد تقدّم ذكره في أول الكتاب^(٤)، وسيأتي منه أشياء مفرقة فيما

بعد.

قال: وألقى الإسلام جِرَّانه^(٥) بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبور، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشَّام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين. وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشقُّ تلافيه، بل ربما تعذّر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعَوَّضه عنها مدينة بالس*، فلم يرضها، وسار عن الشَّام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النظامية*، وتوفي^(٦) بها^(٧).

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦ - ٣٢٩.

(٢) في «الباهر»: استقر.

(٣) «الباهر»: ١٠٧.

(٤) انظر ص (٣٨ - ٤٢) من هذا الجزء.

(٥) أي ثبت واستقر. انظر «أساس البلاغة» و«اللسان» (جرن).

(٦) وذلك سنة (٥٦٤ هـ). وكان ولي دمشق وهو حدث سنة (٥٣٤ هـ) كما مرَّ ص ١٢٨

من هذا الجزء. انظر ترجمته في «مرآة الزمان»: ١٧٢/٨، و«وفيات الأعيان»:

١٨٨/٥ - ١٨٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٣٦٥/٢٠ - ٣٦٦. و«العبر» للذهبي

١٨٥/٤ - ١٨٦، و«الوافي بالوفيات» ١٨٨/٦. وفي «تاريخ الفارقي» أنه كان مقيماً

في بغداد سنة (٥٧٢ هـ) انظر الحاشية رقم (١) ص (٣٢٨) من «ذيل تاريخ دمشق».

(٧) انظر «الباهر»: ١٠٧ - ١٠٨.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج كافةً، وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقرّبوا إليه. ثم إن مَنْ بَتْلَ بِأَشْرَ* راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حَسَّان المَنْبِجِي؛ وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه مَنَبِج*، فأمره أن يتسلّمها منهم. فسار إليها، وتسلّمها^(١)، وحصّنها، ورفع إليها ذخائر كثيرة^(٢).

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بُزَان أطلق يوم الفتح من الاعتقال^(٣)، وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مُؤَيَّد الدين المَسِيَّب إلى دمشق مع ولده النَّائب عنه في صَرَخَد* إلى داره، مُعَوَّلًا على لزومها، وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال. فبدأ منه من الأسباب المُعْرِبة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السَّدَاد والرُّشَاد، ما كان داعيًا إلى فساد النِّيَّة فيه. وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه^(٤)، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، وأسقط قوَّته، مع فهاق مُتَّصِل^(٥) وقُلاع في فيه زائد، فقضى نجه في رابع ربيع الأوَّل، ودُفن في داره، واستبشَرَ الناسُ بهلاكه، والرَّاحة من سوء أفعاله^(٦).

(١) مرَّ أنه تسلّمها سنة (٥٥٤٦هـ) ونور الدين يحاصر دمشق. انظر ص ٢٦٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر «الكامل»: ١٩٩/١١، والخبر غير موجود في «الباهر».

(٣) انظر ما تقدم من خبر اعتقاله ص ٢٩٠ من هذا الجزء.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩ «ونسر» أي نقض. انظر «معجم متن اللغة»: ٤٤٧/٥.

(٥) أي نزيف دائم. انظر «اللسان» (فهق).

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ^(١)، وأقيم ولده عيسى مقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز^(٢)، وعبّاس الوزير^(٣). ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس المسلمين^(٤) طلائع بن رزيك^(٥) - وهو من أكابر الأمراء المقدّمين، والشجعان المذكورين - لما انتهى إليه الخبر - وهو غائب عن مصر - قلق لذلك وامتنع، وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر. فلما عرف عبّاس بما جمع خاف الغلبة، فتأهّب للهرب في خواصّه وأسبابه وحُرّمه، وما تهياً من ماله، وسار مُغذّاً، فلما قَرّب من أعمال عسقلان وغزّة خرج إليه جماعة من خيالة الإفرنج، فاغترّ بكثرة من معه وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه، وانهزموا أقبح هزيمة، هو وابنه الصّغير^(٦)، وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السّلال، مع ولده وحُرّمه، وماله وكُرّاعه^(٧)، وحصلوا في أيدي الفرنج، ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من النّاس والدّوابّ، ووصل في أثر هروبهم فارس المسلمين، ووضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من نجّاه الهرب على أشنع صفة من العدم والعُري في آخر ربيع الآخر^(٨).

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٦ من هذا الجزء.

(٢) توفي سنة (٥٥٥هـ) انظر ص ٣٨٩ من هذا الجزء، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»:

٢٠٥/١٥ - ٢٠٧.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٤) في النسخ الخطية: فارس الدين، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٠، وسيأتي

على الصواب بعد عدة أسطر. وانظر «الاعتبار»: ٤٥.

(٥) سترد ترجمته ص ٣٩٠ من هذا الجزء، وأخباره مبثوثة في أثناؤه.

(٦) سيرد أن عباساً وابنه قتلا في المعركة. انظر ص ٣١٤ من هذا الجزء.

(٧) الكراع: اسم يجمع البغال والخيول والجمال. وقيل: الخيل والسلاح. انظر «اللسان»

(كرع)، و«صبح الأعشى»: ٤٧٨/٣.

(٨) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩ - ٣٣٠.

قلت: وفي ذلك يقول عُمارة اليميني^(١) من قصيدة له:

لکم یابني رُزیک لا زال ظِلُّکم مواطرُنْ، سَحَبُ الموتِ فیها مواطرُ
سَلَّتُم على عَبَّاسٍ بیضَ صوارمٍ قهرتم بها سُلطانَه وهو قاهرُ

وذكر الأمير أسامة بن مُنقذ في «كتاب الاعتبار» أن نصر بن عباس لما قَتَلَ ابن السَّلار وتوزَّر أبوه عَبَّاس كان نصر يُعاشِر الخليفة الظَّافر ويخالطه، وَعَبَّاس كارهٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القَوْمِ وَضَرْبِ بعض النَّاسِ ببعضٍ حتى يفنُوهم. وَشَرَعَ الظَّافر مع ابن عباس في حملة على أبيه^(٢)، ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك، فنهيتُه، فأطلع والدَه على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرَّر معه قتلَ الظَّافر، وكانا يخرجان متتكررين، وهما تَربَّان سُنَّهما واحد. فدعاه إلى داره، ورَتَّب من أصحابه معه في جانب الدَّار نفرًا، ثم لما استقرَّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سَلَخَ محرَّم سنة تسع وأربعين وخمس مئة، ورماه^(٣) في جُبِّ الدار. وأصبح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهارٍ للسلام، [فجلس]^(٤) في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظَّافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى زِمَام القصر^(٥)

(١) سيرد الحديث عنه في ٢/ ٢٨٢ وما بعدها. من هذا الكتاب..

(٢) كان الظافر يرمي إلى قتل عباس، وأن يصير ولده نصر في الوزارة مكانه. انظر «الاعتبار»: ٤٢.

(٣) في (م) وزره، أي حمله. يقال: وزر يزر: إذا حمل ما ينقل ظهره من الأشياء المثقلة. انظر «اللسان» (وزر).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) قال القلقشندي: «وظيفة زمام القصور بمثابة زمام الدور في زماننا». وزمام دار تعني الخادم الموكل بحفظ الحرم. ولفظ «زمام» أصلها زنان ومعناه: النساء، ودار: ممسك، فيكون المعنى: ممسك النساء، بمعنى الموكل بحفظ الحرم، إلا أن العامة والخاصة قلبوا النونين فيه بميمين وأصبح يطلق لقب زمام دار على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان، وهذه الوظيفة هي إحدى وظائف خدام الخليفة =

وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام؟ فتبَّلد^(١) الأستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: مالك لا تجاوبني؟ قال: يا مولاي، مولانا ما ندرى أين هو. قال: مثل مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع، فقال: ما وجدنا مولانا. فقال^(٢): يبقى الناس بلا خليفة! ادخل إلى الموالي إخوته يخرج منهم واحد لنبايعه. فمضى^(٣) وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء، والدنا عزله عنا، وجعله في الظَّافِر، والأمر لولده بعده. قال^(٤): أخرجوه حتى نبايعه^(٥).

٩٨/١

قال: وعَبَّاسٌ قد قتل الظَّافِر، وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه، ويقتلهم. فخرج ولدُ الظَّافِر، ولعلَّ عمره خمس سنين، يحمله الأستاذ، فأخذه عَبَّاسٌ فحملة وبكى، وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ^(٦).

قال ابن منقذ: ونحن في الرِّواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجلٍ من المِصْرِيِّين، فما راعنا إلَّا قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السُّيُوف تختلف على إنسانٍ، فقلت لَغلامٍ لي أَرَمَنِي: أبصر من هذا المقتول. فمضى وعاد [وقال]^(٧): ما هؤلاء مسلمين! هذا مولاي أبو

= من الأستاذين المحنكين — أي الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم — وهم من أجل الخدام، وأقربهم إلى الخليفة وأخصهم به. انظر «صبح الأعشى»: ٤٨١/٣، ٤٨٤ — ٤٨٥، ٤٥٩/٥ — ٤٦٠.

(١) في (م) فتبَّله.

(٢) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.

(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: زمام.

(٤) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.

(٥) انظر «الاعتبار»: ٤١ — ٤٤.

(٦) المصدر السابق.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، وواحدٌ قد شقَّ بطنه يجذب مصاريته. ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف، والدَّم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرد قال: وكان ذلك اليوم من أشدَّ الأيام التي جرت علي، لأنني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه^(١).

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في «ديوانه»^(٢) قال: كان لعبَّاس أربع مئة جمل تحمل أثقاله، ومثنا بغل، ومثنا جنيب^(٣)، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع [عشر]^(٤) ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمس مئة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريَّتها؛ فارسُهُم وراجلُهُم، تقدم بشدَّ خيله وبغاله وجماله ليتحمَّل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السُّلطان إلى الإيوان، خرج غلامٌ يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلماؤه كلُّهم تحت يده، فقال للجمَّالين والخربندية^(٥) والرَّكابية^(٦): روِّحُوا إلى بيوتكم وسيِّبُوا الدَّوَابَّ. ففعلوا ذلك، وانحاز هو إلى المصريين

(١) انظر «الاعتبار»: ٤١ - ٤٤.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولم أجد الخبر في «ديوانه» المطبوع، والخبر في «الاعتبار»، مع اختلاف في الإيراد.

(٣) جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها. انظر «تكملة المعاجم العربية». دوزي: ٢٩٦/١.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) هم المكارون، مفردها المكاري: الذي يكري دابته، أي يؤجرها. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي ٣٥٧/١، و«معجم متن اللغة»: ٥٩/٥.

(٦) هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه. انظر «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ١٦١.

يقاتله معهم . وكان ما جرى من تهميل^(١) الدواب لُطفًا من الله تعالى به ، فإنها سَدَّت الطريق بينَه وبين المصريين ، ومنعتهم من الوصول إليه ، وهم في خلقٍ كثير ، ونحن في قلة ما نبلغُ خمسين رجلاً ، وغلما ن عباس — مماليكه — في ألف ومِتي غلام بالخيول الجياد والسَّلاح التَّام ، وثمانِي مِئة فارس من الأتراك ، خرجوا كلهم من باب النُّصر ، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطَّابية فراراً من القتال . فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عَبَّاس من باب النصر ، وجاؤوا في إثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره . وكان عباس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتَقَوَّى بهم على المصريين ، واستحلفهم ، ووهبهم هباتٍ عظيمة . فلما خرج من باب مصر غدروا به وقتلوه أشدَّ قتال ستة أيام ، يقاتلهم من الفجر إلى الليل ، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ، ثم يركبون ويهدُّون خيلهم على جانب النَّاس ، ويصيحون صيحةً واحدة ، فتجفل الخيل وتقطع ، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنَّة وقوة فيأخذونه ، فكان ذلك سببُ هلاك خيله ، وتمكُّن الإفرنج منه ، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنج إليه^(٢) .

قال : ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضُحى نهار إلى آخر يوم الخميس ، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حَسَباً^(٣) على أموالهم وأنفسهم

(١) في الأصل : تمهيد ، وهو تصحيف ، والمثبت من (ل) و(م) . أي تركها مهملة ، انظر «الاعتبار» : ٤٨ .

(٢) انظر «الاعتبار» : ٤٧ — ٤٨ .

(٣) في «الاعتبار» : ٥٠ «ولما أراد العرب الذين يقاتلون الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا إذا عدنا» . قلت : لعلها بمعنى الأمان لهم .

وبيوتهم ظناً منهم أن له عودةً إليهم، وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صَبَّحَهُم الإفرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم، فقتلوا عباساً وابنه الأوسط^(١)، وأسروا ابنه الأكبر^(٢)، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صِغاراً وانصرفوا^(٣).

قلتُ: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتح بن تميم بن المعز بن باديس الحِميري، ويلقب بالأفضل رُكن الدين، ويكنى بأبي الفضل، ورأيتُ علامته في الكتب أيام وزارته: «الحمد لله وبه أثق». وفيه يقول أسامة بن منقذ:
لقد عمَّ جوْدُ الأَفْضَلِ السَّيِّدِ الْوَرَى وأغنى غِنَاءَ الْغَيْثِ حَيْثُ يَصُوبُ^(٤)
ومن أبيات لابن أسعد^(٥) فيه لما قَتَلَ الظَّافِرَ^(٦):

وَأَنْفَقَ مِنْ إِنْعَامِهِمْ فِي هَلَاكِهِمْ وَأَظْهَرَ مَا قَدْ كَانَ عَنْهُ يُنَافِقُ^(٧)
وَمَدَّ يَدَا هُمْ طَوَّلُوهَا إِلَيْهِمْ وَحَلَّتْ بِأَهْلِ الْقَصْرِ مِنْهُ الْبَوَائِقُ
سَقَى رَبَّهُ كَأْسَ الْمَنَايَا وَمَا انْقَضَى لَهُ الشَّهْرُ إِلَّا وَهُوَ لِلْكَأْسِ ذَائِقُ^(٨)

(١) في «الاعتبار»: ٥٠ حسام الملك.

(٢) هونصر بن عباس، ناصر الدين، وقد بعثه الفرنج في قفص من الحديد إلى أخت الظافر، وذلك سنة (٥٥٥٠هـ) ففُطِعت يده، وضُرب بالمقارعة، وقص لحمه، ثم صلب فمات، فبقي معلقاً شهوراً ثم أُحرق. انظر «وفيات الأعيان» ٤٩٣/٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠٧/١٥.

(٣) انظر «الاعتبار»: ٥٠.

(٤) البيت في «ديوانه»: ١٦٢. (٥) انظر ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٦) في هامش الأصل: «حاشية: أبيات ابن أسعد هذه من قصيدة مَدَحِ الصالح بن رزيك، أولها «أبرجع عصر بالجزيرة رائق».

(٧) هذا البيت هو في «الخريدة» صدر بيت وعجز بيت آخر:

ولما رأى عباس للغدر مذهباً وأظهر ما قد كان عنه ينافق
وأنفق من إنعامهم في هلاكهم جزاء به عمري خليق ولائق

(٨) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢٩٣/٢ - ٢٩٤، وهي في «تكملة ديوانه» مستدركة من المصدر المذكور.

وكان عبّاس قد تخيّل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصّالح من المودة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى نفّذ من أستاذيّ داره* من يدخل على حرّمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال له: قد حملتُ ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدكم ناصر الدين - يعني ولده ناصر الدين - وبإخوانه. فلما خرجوا، ونُهبت دورهم ودوابُّهم عَجَزَ عن حمل من يخصُّه، فأعادهم أسامة من بلبّيس*، ونفّذ إلى الملك الصّالح يقول له: قد نفّذت أهلي وأولادي إليك، وأنت وليّ ما تراه فيهم. فأنزلهم في دارٍ، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإحسان. وكان يكتابه في الرّجوع إلى مصر، وهو يتلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسبته إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فنفّذ إليه يقول له: تصل إلى مكّة في الموسم، ويلقاك رسولي إليها يسلمُ إليك مدينة أُسوان، وأنفذ إليك أهلك، وأمدك بالأموال، وهي - كما علمت - الثّغر بيننا وبين السودان، وما يسدُّ ذلك الثّغر مثلك. وأكثر من الوعد، وذكر رغبته في قُربه، ورعايته ما بينه وبينه من قديم الصّحبة. فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يا فلان، ما تساوي الحياة الشّتات والرّجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان. ومنعه من ذلك بإحسانه، ووعد أنه يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصّالح يعتذر ويسأله تسيير أهله. وتردّدت بينهما مكاتبات، وأشعار مُتّصلات، إلى أن سيّرهم، وهم نيّف وخمسون نسمة، في الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعضُ أصحابه من دمشق، وهو بالعسكر النّوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسر بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا

بأنفسهم، وأن ممتلك الإفرنج أعطاهم خمس مئة دينار أصلحوا منها حالهم،
واكثروا ظهراً إلى دمشق^(١)، فقال أسامة:

إلى الله أشكو فرقة دُميت لها جفوني وأذكت بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كل مطير
فلما قضى الله اللقاء تعرضت مسلة دهرى في طريق سُروري^(٢)

فصل

قال أبويعلى: وفي آخر ربيع الأول وصل الأمير مجد الدين أبوبكر
[محمد]^(٣) نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج،
وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى
أخوته، وسيكثر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد
مدحه الشعراء. قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا لما بعد فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمّت أوصافه لعفاته^(٤) قرائن كل اثنين^(٥) بينهما عقد
محيّاه والبشري وئمناه والندى ونجواه والدنيا وتقواه والزهد^(٦)

(١) انظر «الاعتبار»: ٤٦، ٤٩ - ٥١، ٥٦ - ٥٨.

(٢) الأبيات في «ديوانه»: ٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) العفاة: الأضياف وطلاب المعروف. «اللسان» (عفا).

(٥) في الأصل: اثنتين، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (م) ونجواه والتقوى وديناه والزهد.

ففي قربه الزُّلْفَى وفي وَعْدِهِ الْغِنَى وفي نَيْلِهِ الْحُسْنَى وفي رَأْيِهِ الرُّشْدُ
إذا وَجَّهَ نورَ الدين قابلَ مَجْدِهِ فَقُلْ في كمالِ الْبَدْرِ قابِلَهُ^(١) السَّعْدُ

وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فليته^(٢)، وولي
الحرمين ولده قاسم بن هاشم^(٣)؛ وهو الذي أرسل عُمارَةَ اليميني [الفقيه]^(٤)
الشَّاعر إلى الديار المِصْرِيَّة، وسيأتي ذكره^(٥).

قال أبو يعلى: وفي ثامن جُمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مِصْرَ بأن
عَدَّةً وافرة من مراكب الفرنج من صِقْلِيَّة وصلت إلى مدينة تَنْيَسَ* على حين
غَفْلَةٍ من أهلها، فهجمت عليها، وقتلت وأسرت، وسَبَّتْ ونهبت، وعادت
بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركها صِفْراً. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في
البحر بعد الحادثة، ومن سَلِمَ واختفى، وضاعت الصُّدُور عند استماع هذا
الخبر المكروه^(٦).

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين
أبي منصور محمد بن عبد الصَّمَد بن الطَّرْسُوسِي، وكان ذا هِمَّةٍ ماضية، ويقظة

(١) في (م) قارنه.

(٢) ولي هاشم بعد أبيه سنة (٥٢٧هـ)، وفي سنة (٥٣٩هـ) حدثت فتنة في الموسم بينه وبين
أمير الحاج، نهب فيها أصحاب هاشم الحاج وهم في المسجد يطوفون ويصلون. انظر
«النكت العصرية»: ٣١ - ٣٢، و«الكامل»: ١٠٣/١١، و«العقد الثمين»: ٣٦١/٧ -
٣٦٢ و«سمط النجوم العوالي»: ٢٠٤/٤، و«خلاصة الكلام»: ٢٠، وضبط «فليته» من
«تاج العروس» (فلت).

(٣) قتل سنة (٥٥٦هـ). انظر «العقد الثمين»: ٣٢/٧ - ٣٦ و«سمط النجوم العوالي»:
٢٠٤/٤، وفي «خلاصة الكلام»: ٢٠ قتل سنة (٥٥٧هـ).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) انظر ص ٣٢٢ من هذا الجزء. وص ٣٠٠ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١.

[مضيئة] ومروءة ظاهرة في داره وولده، ومن يلمُّ به من غريب ووافد، وقد نفذ أمره وتصرفه في أعمال حلب في الأيام النورية، وأثر في الوقوف أثراً حسناً توفّر به ارتفاعها^(١)، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال^(٢).

ثم دخلت سنة خمسين [وخمسة مئة]^(٣)

ففيها تسلّم نور الدين بعلبك من واليها ضحّاك، وذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان ضحّاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطّف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها^(٤).

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتّصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيت بعض المؤرّخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولّى القلعة رجلاً يقال له ضحّاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحّاكاً، وتوسّط أسد الدين [في]^(٥) أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيّره إلى دمشق، فأقام فيها، وردّ نظر دمشق إليه، وولّى ولده

١٠٠/١

(١) أي لإيرادها، انظر «معجم متن اللغة»: ٦٢١/٢.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١، وما بين حاصرتين منه، وانظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»: ٢٢٧/٤ - ٢٢٨.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) انظر «الكامل»: ٢٢٨/١١.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من مطبوع الروضتين طبعة وادي النيل: ١٠٠/١.

تُورانشاه شِخْنَكِيَّة* دمشق، فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن توفي،
[فولى] (١) صلاح الدين شِخْنَكِيَّة دمشق.

قلت: هذا وهم. تُورانشاه هو الملك المُعْظَم شمس الدولة (٢) الذي
فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي
صلاح الدين شِخْنَكِيَّة* دمشق؟ وأما كونه ولي الشِخْنَكِيَّة بدمشق قبل
صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكد. قرأت في «ديوان العرقلَة»:
وقال يهنئه (٣) بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه
ابن شاذي:

قُلْتُ لِحُسَادِكَ زِيدُوا فِي الْحَسَدِ قَدْ سَكَنَ الدَّارَ وَقَدْ حَازَ الْبَلَدُ
لَا تَعْجَبُوا إِنْ حَلَّ دَارَ عَمِّهِ أَمَا تَحُلُّ الشَّمْسُ فِي بُرْجِ الْأَسَدِ (٤)
وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لِصَوْصِ الشَّامِ تَوَبُوا مِنْ ذُنُوبِ تَكْفُرْهَا الْعُقُوبَةُ وَالصَّفَادُ
لَنْ كَانَ الْفَسَادُ لَكُمْ صَاحِبًا فَمَوْلَايَ الصَّلَاحُ لَكُمْ فَسَادُ (٥)
وله فيه:

رُؤْيِدَكُمُ يَا لَصَوْصِ الشَّامِ فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ فِي مَقَالِي
وَإِيَاكُمُ وَسَمِيَّ النَّبِيِّ (م) يَوْسَفَ رَبِّ الْحِجَا وَالْجَمَالِ
فَذَاكَ مَقْطَعُ أَيْدِي النِّسَاءِ وَهَذَا مُقْطَعُ أَيْدِي الرِّجَالِ (٦)

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧٥ من هذا الجزء. ومعنى تورانشاه: ملك الشرق. انظر

«وفيات الأعيان»: ٣٠٩/١.

(٣) أي يهنئ شمس الدولة تورانشاه.

(٤) «ديوان عرقلَة الكلبي»: ٣٦.

(٥) «ديوان عرقلَة»: ٣٥ - ٣٦.

(٦) «ديوان عرقلَة»: ٨٧.

قال ابن أبي طي: وولي صلاح الدين شَحْنَكِيَّة* دمشق والديوان، فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن هَمَّام^(١). فأنفذ نور الدين وأخذ ابن هَمَّام وحلَّقَ لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن هَمَّام هذا هو الذي ذكره الشنباشي^(٢) في قصيدته وأشار إلى حلَّقِ لحيته بقوله:

كأبي سالم بن هَمَّام لما قام للنُّصْحِ عاد يمشي مُلَثَّمٌ
ثم قال ابن أبي طي: واستخصَّ نورُ الدين صلاحَ الدين وألحقه بخواصِّه، فكان لا يفارقه في سَفَرٍ ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحبُّ لعب الكرة^(٣).

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج أرسلان بن الملك مسعود بن [قليج أرسلان بن] سليمان بن قتلش^(٤) ملك قونية* وما والاها، فملك عِدَّةً من قلاعها وحصونها بالسَّيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذوالنون ودولات مشغولين بمحاربة أولاد

(١) أبوسالم بن هَمَّام الحلبي، ولي مشاركة الديوان بدمشق بعناية أسد الدين شيركوه نائب دمشق وقتئذٍ، فظهرت منه جنائيات وسعايات فقبض عليه، واعتقل، ثم خرج أمر نور الدين سنة (٥٥١هـ) بالكشف عن سعاياته، فحلقت لحيته، وأركب حماراً مقلوباً، وخلفه من يعلوه بالدرّة، ثم طيف به في أسواق دمشق بعد سخام وجهه، ونودي عليه: هذا جزاء كل خائن وغام. ثم نفى إلى حلب. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦، وانظر عن وظيفة مشاركة الديوان «قوانين الدواوين»: ٣٠٢-٣٠٣، و«نهاية الأرب»: ٣٠٤/٨.

(٢) لم أهتم إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٣) هي ما كان يسمى وقتئذٍ بالجوكان. انظرها في كشف المصطلحات.

(٤) توفي سنة (٥٨٨هـ) وكان قد وزع بلاده على أولاده سنة (٥٨٦هـ) فارتكب بذلك سياسة خاطئة كانت سبباً في تفكك وحدة الحكم لأول مرة. انظر «الكامل»: ٨٧/١٢ - ٨٩، وما بين حاصرتين منه، و«الدول الإسلامية»: ٣١٤/١ وسيرد خبر وفاته ص ٣٤٩ =

الدانشمند^(١)، ونُصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا* في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان، وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عَظُمَ عليه هذا الأمر واستبشعه مع ما بينهما من المودة والمهادنة والصهر، وراسله بالمعاتب^(٢) والإنكار، والوعيد والتهديد، فأجابه نور الدين بحُسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال^(٣)، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق^(٤).

قال: وولي الأسطول المصري مقدّم شديد البأس، بصير بأشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهضَ بهم في عدّة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر له أنّ فيه شُخْطورة^(٥) روميّة [كبيرة]^(٦) فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقَتَلَ من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حُجّاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى^(٧).

قلت: وفي هذه السّنة ورد أمر الخليفة ببغداد - وهو المقتفي - إلى

= من الجزء الرابع.

(١) الدانشمنديون حكموا في الأناضول. انظر عن دولتهم باختصار كتاب «الدول

الإسلامية»: ٣٢٨/١ - ٣٣١.

(٢) في النسخ الخطية: بالمكاتبة، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٢.

(٥) هي سفينة تجارية كبيرة، ويقال شُخْطورة أيضاً للسفينة الصغيرة التي يسار واحد

أو بمجدافين. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٧٣٣/١.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل وفي (ل): كبيرة رومية، والمثبت من (م).

(٧) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٢.

أمير الحرمين قاسم بن هاشم^(١)، يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج^(٢) جديداً قد ألبس جميع خشبه فضة وطلّي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم، فتوجهت إلى زبيد وعدن من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحجبت في الموسم منها، فدفعت لأمرير الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام^(٣).

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين [وخمسة مئة]^(٤)

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم*، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج، من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم* وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصّة من أعمال حارم، فأبى أن

(١) سلف ذكره ص ٣١٧ من هذا الجزء.

(٢) الساج: الخشب الذي يجلب من الهند. انظر «اللسان» (سوج).

(٣) انظر «النكت العصرية»: ٤١ - ٤٢.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة. فذكر أبياتاً^(١) من قصيدة لابن منير. وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين^(٢). فإمّا أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإمّا أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأت في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غزاة

حارم:

ما فَوْقَ شَاوِكَ فِي الْعِلَا مَزْدَادُ	فَعِلَامَ يُقَلِّقُ عَزْمَكَ الْإِجْهَادُ
هِمَمٌ ضَرَبْنَ عَلَى السَّمَاءِ سُرَادِقًا	فَالشُّهْبُ أَطْنَابُ لَهَا وَعِمَادُ
أَنْتَ الَّذِي خَطَبْتَ لَهُ حُسَادُهُ	وَالْفُضْلُ مَا اعْتَرَفَتْ بِهِ الْحُسَادُ
قَامَ الدَّلِيلُ وَسَلَّمِ الْخَصْمُ الْيَلْنَ	لَدَدْ ^(٣) وَانْجَلَى لِلْآثَرِ الْإِسْنَادُ
زَهَرَتْ لِدَوْلَتِكَ الْبِلَادُ فَرَوْحُهَا	أَرْجُ الْمَهَبِّ وَدَوْحُهَا مِيَادُ
أَحْيَا رَبِيعَ الْعَدْلِ مَيِّتَ رُبُوعِهَا	فَالْبَرَضُ ^(٤) لُجٌّ وَالْهَشِيمُ مَرَادُ ^(٥)
فَالْعَيْشُ إِلَّا فِي جَنَابِكَ مَيِّتَةٌ	وَالنُّوْمُ إِلَّا فِي جِمَاكَ سُهَادُ
وَإِذَا الْعِدَى زَرَعُوا النِّفَاقَ وَأَحْصَدُوا	كَيْدًا فَعَزْمُكَ نَاقِضٌ حَصَادُ
بِالْمُقَرَّبَاتِ ^(٦) كَأَنَّ فَوْقَ مُتُونِهَا	جِنَّ الْمَلَا وَكَأَنَّهَا أَطْوَادُ
تَذَايَ وَمِنْ وَحْيِ الْكُؤْمَةِ صَفُورُهَا	فَالزَّجَرُ قَيْدٌ وَالنَّدَا قِيَادُ
سُحِبَ إِذَا سَحَبَتْ بِأَرْضٍ ذَيْلُهَا	فَالْحَزَنُ سَهْلٌ وَالْهَضَابُ وَهَادُ

(١) انظر «الباهر»: ١٠٩ - ١١٠، و«الكامل»: ٢٠٨/١١ - ٢٠٩.

(٢) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٣) اليلندد: الشديد الخصومة. «اللسان» (لدد).

(٤) البرض: الماء القليل. انظر «اللسان» (برض).

(٥) أي موضع ارتياد. انظر «اللسان» (ورد).

(٦) الخيل التي تكون قريبة معدة، التي ضمرت للركوب، مفردها: المقربة. انظر «معجم

متن اللغة»: ٥٢٢/٤.

يَهْدِي النَّوَظِرَ فِي دُجْنَةٍ نَقَعِهَا
 أَلْبَسَتْ دِينَ مُحَمَّدٍ يَانُورَهُ
 مَا زِلْتُ تَسْمُكُهُ^(٤) بِمِيَادِ الْقَنَا
 لَمْ يَبْقَ مُذْ أَرْهَفْتُ^(٥) عَزْمَكَ دُونَهُ
 إِنْ الْمَنَابِرَ لَوْ تُطِيقُ تَكَلُّمًا
 وَلَتَنْ حَمَتْ مِنْكَ الْأَعَادِي مُهْلَةً
 وَلَكُمْ لَكُمْ فِي أَرْضِهِمْ مِنْ مَشْهَدٍ
 مُلَقٍ بِأَطْرَافِ الْفَرَنْجَةِ كُلِّهَا
 حَامُوا فَلَمَّا عَايَنُوا حَوْضَ الرَّدَى
 وَرَجَا الْبَرَنْسِ* وَقَدْ تَبَرَنْسَ ذِلَّةً
 ضَجَّتْ ثَعَالِبُهُ فَأَخْرَسَ جَرَسَهَا
 وَسَوَاعِدُ ضَرَبَتْ بِهِنَّ وَبِالْقَنَا
 يُرْكُزْنَ فِي حَلَبٍ وَمِنْ أَفْنَانِهَا
 يَا مَنْ إِذَا عَصَفَتْ زَعَارُجُ بَأْسِهِ
 عَجَبًا لِقَوْمٍ حَاولوكُ وَحَاولوا^(٧)
 وَرَأَوْا لَوَاءَ النَّصْرِ فَوْقَكَ خَافِقًا

بَذَرٌ بِسِرْجِكَ نَيْرٌ وَقَادُ^(١)
 عِزًّا لَهُ فَوْقَ السُّهَا^(٢) إِسَادُ^(٣)
 حَتَّى تَشَقَّفَ عَوْدَهُ الْمُنَادُ
 عَدَدُ^(٦) يُرَاعُ بِهِ وَلَا اسْتِعْدَادُ
 حَمِدَتِكَ عَنْ خُطْبَائِهَا الْأَعْوَادُ
 فَلَهُمْ إِلَى الْمَرْعَى الْوَبِيِّ مَعَادُ
 قَامَتْ بِهِ لِطَبَاكُمُ الْأَشْهَادُ
 طَرَفَاهُ ضَرْبُ صَادِقٍ وَجِلَادُ
 حَامُوا بِرَائِشِ كَيْدِهِمْ أَوْ كَادُوا
 حَرَمًا بِحَارِمٍ* وَالْمَصَادُ مَصَادُ
 بِيضٌ تَنَاسَبَ فِي الْحَدِيدِ حِدَادُ
 مِنْ دُونِ مِلَّةٍ أَحْمَدُ الْأَسْدَادُ
 تَجَنَّى فَوَاكِهَ أَمْنِهَا بَغْدَادُ
 خَمَدَتْ جَحِيمُ الشَّرِكِ فَهِيَ رَمَادُ
 عَوْدًا فَوَاتَاهُمْ إِلَيْهِ مُرَادُ
 فَأَقَامَ مِنْهُمْ فِي الضُّلُوعِ فُؤَادُ

(١) هذا البيت والذي قبله ساقط من (م).

(٢) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. انظر «اللسان» (سها).

(٣) الإِسَادُ: سير الليل. انظر «اللسان» (سَاد).

(٤) في الأصل: تسكمه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) في (م) راهقت.

(٦) في (م) عددًا، وهو وهم.

(٧) في (ل) وجاولوا.

من مُنْكَرُ أَنْ يَنْسِفَ السَّيْلُ الزُّبَى^(١) وأبوه ذاك العارضُ المَدَّادُ
أو أن يعيدَ الشَّمْسَ كاسِفَةَ السَّنا نَارُ لها ذاك الشَّهابِ زِنَادُ
لا ينفعُ الآباء ما سمكوا من آل عُلَيَّاء حَتَّى ترفعَ الأولادُ
ملكٌ يُقَيَّدُ^(٢) خوفه ورجاؤه ولقَلَّمَا تتضافر^(٣) الأضدادُ

١٠٢/١

وقال يهثه بالنَّصر يوم حارِمٍ * قصيدةٌ أولها:

* لملكك ما نشاء^(٤) من الدَّوامِ *

[يقول فيها]^(٥):

حَظِيَّتْ من المعالي بالمعاني حَظِيَّتْ من المعالي بالمعاني
عزيز المُتَمَيَّ عالي المراقبي عزيز المُتَمَيَّ عالي المراقبي
فما أحدٌ إلى العلياء يُذلي فما أحدٌ إلى العلياء يُذلي
أبوك المُعْتَلِي قَمَمَ الأعادي أبوك المُعْتَلِي قَمَمَ الأعادي
زكا عِرْقُ العِراقِ وقد تَكْنَى زكا عِرْقُ العِراقِ وقد تَكْنَى
وجدك جدٌ حتى قال قَوْمٌ وجدك جدٌ حتى قال قَوْمٌ
فَحَرَّتْ فُتَّتْ آباءٌ عِظَاماً فَحَرَّتْ فُتَّتْ آباءٌ عِظَاماً
وقفنا والنَّوَاطِرُ مسجِجاتٍ وقفنا والنَّوَاطِرُ مسجِجاتٍ
أساطِرَ كالزُّبُورِ مَفْضَلَاتٍ أساطِرَ كالزُّبُورِ مَفْضَلَاتٍ
لدى ملكٍ سَجَاياه سِجَالٌ لدى ملكٍ سَجَاياه سِجَالٌ

(١) مفردها الزُّبَيَّة: الراية التي يعلوها الماء. انظر «اللسان» (زبي).

(٢) في (م) تقيد.

(٣) في الأصل: تتضافر، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في (م) تشاء.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) أي بالوق.

فَاهْلَلْنَا لِسَالِفَتَيْنِ هِلَالٍ
 ذَهَلْنَا وَالسَّمَاءُ يُخَالُ سِمْطاً
 هَلِ الدُّسْتُ اسْتَقْلَ بَلِيْثٍ غَابِ
 كَرِيْمٌ أَكْثَرَتْ يَدُهُ أَيْادِي الـ
 وَخَيْرُ سَمَاعِهِ ضَرْبُ مُدَامٍ
 تَطِيرُ بِهِ إِلَى الْعِلْيَاءِ نَفْسُ
 سَقَى اللَّهُ الْعَوَامِلَ مِنْ جِبَالِ
 فَكَمْ أَنْتَجَتْ مِنْ أَمَلٍ عَقِيمٍ
 بِإِنِّبَ* وَالرَّعَالُ كَأَنَّ ثَوْلًا
 وَأَيْدِي الْخَيْلِ تَذَرَعُ لُجَّ^(٤) بَحْرِ
 مَقَامٌ كُنْتَ قُطْبَ رِحَاهُ أَرْجَى
 أَحَلَّتِ الدِّينَ فِيهِ وَكَانَ هِمًّا^(٥)
 رَمِيَتْهُمْ بِأَرَعْنَ مَرْجَحَنْ
 وَفِي شَجَرَاءِ حَارِمٍ* شَاجِرَتَهُمْ
 نِظَائِرُ^(٦) حَمَمَتْ لَهُمْ جِمَاماً
 فَلَوْ قَدْ مُثِّلَ الْإِسْلَامُ شَخْصاً
 حَمَاهُ وَقَدْ تَنَاعَسَ كُلُّ رَاعٍ
 فَأَكْذَبَ مُدَّعِينَ هَفُؤَا وَغَرُّوْا

(١) العفاة: طلاب المعروف. «اللسان» (عفا).

(٢) في (م) عزوف.

(٣) الرعال: مفردهما رعلة، وهي الخيل. والثول: جماعة النحل. العير: الحمار الوحشي. وإيام: الدخان.

(٤) في الأصل: ثبيج، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) الهم: الشيخ الفاني. «القاموس المحيط» (هم).

(٦) في الأصل: مهملة، وفي (م) تطاير، والمثبت من (ل).

(٧) الأحجار «القاموس المحيط» (سلم).

أولي الأبصار كم هذا التعاشي
 عن القمر الذي يجلوه ظلُّ الـ
 هو المهدى لا مَنْ ضلَّ فيه
 وقائمٌ عصرنا لا ما تمنى
 بنور الدين أنشر كلُّ حقٍ
 وطالت قُبَّةُ الإسلامِ حتَّى اسـ
 تطابقَ لاسمِهِ لَفْظٌ ومعنى
 جرى قُدَّامِهِ ابنُ سُبُكْتِكِينَ^(٢)
 وكان من النجوم بحيث تومي
 وجئت فصارَ أشمخ ما بناه
 أطاعك إذ أَطَعْتَ اللهَ جَدُّ
 ألا يا رُبَّما اتفقَ الأسامي
 جنى شرفاً من استغواه حَتَفَ
 ترشفك الكُماةُ وأنتَ موتُ

عن النور المبين بل التعامي
 عواصم في ضيا الليل التهامي
 كثير واستخفَّ سوى^(١) هشام
 به من صَوغِ أَصْغَاثِ المَنَامِ
 أطيل ثواؤه تحت الرُّجامِ
 تتوت بين الفوارس والنَّعامِ
 أحلاه الطِّباق على الأنامِ
 وقبل الويلِ هَيْئَمَةُ الرُّهَامِ
 إليه من غِيَابَاتِ التَّكَامِي
 لما شَيَّدَتْ أَلْطَا من رُغَامِ
 رَكِبَتْ به الزُّمَانُ بلا زَمَامِ^(٣)
 وفاضل بينها دَرَجُ التَّسَامِي
 إليك وكم حياةٍ من جَمَامِ
 كأنك من طِعَانٍ في طَعَامِ

١٠٣/١

(١) في (م) هوى.

(٢) هو محمود بن سبكتكين. فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة. توفي سنة (٤٢١هـ)، وأخباره مشهورة مبثوثة في كتب التاريخ. انظر «وفيات الأعيان»: ١٧٥/٥ - ١٨١.

(٣) هذا البيت في (ل) و (م) يرد آخر الأبيات.

فصل

قال الرئيس أبويعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيشهم في أعمال حلب وإفسادهم، وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالفرنج المفسدين على حارم*، وقتل جماعة منهم وأسره، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الإفرنج المذكورين، وطيف بها في دمشق^(١).

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقد أحوالها، واستقرت المودعة بينه وبين ولد السلطان مسعود^(٢) صاحب قونية*، وزال ما كان حدث بينهما^(٣).

وفي شوال تقررت المودعة والمهادنة بينه وبين ملك الإفرنج^(٤) مدّة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريّة^(٥)، وكتبت المواقفة بذلك بعد تأكيدها بالإيمان والمواثيق المشددة^(٦).

قال: وفي العشر الأخير من ذي الحجة غدر الإفرنج، ونقضوا ما كان استقر من المودعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر،

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦.

(٤) هو Baldwin III، انظره في كشف الأعلام.

(٥) أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتنا بطرس وبولس. انظر «صبح الأعشى»: ٤٤١/٣.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦.

وقوة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس*، وقد اجتمع فيها من جشارات^(١) خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع، ومواشي الجلائين^(٢) والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر، للحاجة إلى الرعي بها والسكون إلى الهدنة المستقرة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير، فانتهزوا الفرصة، واستاقوا جميع ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين غانمين آثمين. والله عادل في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم^(٣).
وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية^(٤).

[قلت]^(٥) وفي هذه السنة توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس؛ كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في «الخريدة»^(٦)، وأثنى عليه. ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في أول^(٧) الصلاة:

وَفَاتِرِ النَّيَّةِ عَيْنِهَا مَعَ كَثْرَةِ الرُّعْدَةِ وَالْهَزَّةِ
مُكَبِّرٌ سَبْعِينَ فِي مَرَّةٍ كَأَنَّهُ صَلَّى عَلَى حَمَزَةٍ^(٨)

- (١) مفردها جشار، وهو مكان رعي الماشية وغيرها. انظر «صبح الأعشى»: ١١/١٧١، و«التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ٨٥، و«تكملة المعاجم العربية» لدوزي ١/١٩٥ وفي «تاج العروس» (جشر): الجشر: إخراج الدواب للرعي، وقد جشرها يجشرها جشراً.
- (٢) أي تجار الماشية الذين يجلبونها ويبيعونها. انظر «اللسان» (جلب).
- (٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٧.
- (٤) انظر ص ٣٤٠ من هذا الجزء.
- (٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م). وهذا الخبر يأتي في نسخة (م) بعد خبر وفاة أبي البيان.
- (٦) انظر «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: ٢٢٦/١ - ٢٣٤.
- (٧) في الأصل: آخر الصلاة، وفي (ل) سقطت الكلمتان، والمثبت من (م)، وفي «الخريدة» كان يكبر كثيراً في الصلاة.
- (٨) «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: ٢٢٦/١.

وله في صفة كتاب :

مِدَادُهُ فِي الطُّرْسِ لَمَّا بَدَا قَبْلَهُ الصَّبُّ وَمَنْ يَزْهَدُ
كَأَنَّمَا قَدْ حُلَّ فِيهِ اللَّيْمُ^(١) أَوْ ذَابَ فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ^(٢)
وَبَلَغَنِي أَنَّ الْقَاضِي الْفَاضِلَ كَانَ يَعْظُمُهُ كَثِيراً وَيُسَمِّيهِ ذَا الْبَلَاغَتَيْنِ،
وَهُوَ أَحَدُ مَنْ اشْتَغَلَ الْفَاضِلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ اقْتِبَاسِ فَوَائِدِهِ غَالِباً إِلَّا
فِي رُكُوبِهِ مِنَ الْقَصْرِ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمِصْرَ، وَمِنْ مَنْزِلِهِ إِلَى الْقَصْرِ، فَيَسَايِرُهُ الْفَاضِلُ
وَيَجَارِيهِ فِي فُنُونِ الْكِتَابَةِ وَالْأَدَبِ وَالشَّعْرِ.

قَالَ^(٣) : وَفِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ الثَّلَاثِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ تَوَفَّى الْفَقِيهَ
الزَّاهِدَ أَبُو الْيَمَانِ نَبَا بْنَ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْحَوْرَانِيِّ^(٤)، وَكَانَ حَسَنَ الطَّرِيقَةِ
مَذْنُوشاً صَبِيحاً^(٥) إِلَى أَنْ قَضَى، مَتَدِيناً تَقِيّاً، عَفِيفاً سَخِيّاً، مُحِبّاً لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ،
وَالْمُطَالَعَةِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِ. وَكَانَ لَهُ عِنْدَ خُرُوجِ سَرِيرِهِ لِقَبْرِهِ فِي مَقَابِرِ بَابِ
الصَّغِيرِ * الْمَجَاوِرَةِ لِقُبُورِ الصَّحَابَةِ مِنَ الشُّهَدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَوْمٌ مَشْهُودٌ،
مِنْ كَثْرَةِ الْمَتَأَسِّفِينَ لَهُ وَالْمُتَنِينَ عَلَيْهِ^(٦).

قُلْتُ : وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَالَّتِي بَعْدَهَا كَثُرَتْ الزَّلَازِلُ بِالشَّامِ.

قَالَ أَبُو يَعْلَى : فِي لَيْلَةِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ^(٧) وَافَتْ زَلْزَلَةٌ

(١) اللَّيْمُ : سَمَرَةُ الشَّفَتَيْنِ وَالثَّلَاثِ، يَسْتَحْسِنُ «اللسان» (لما).

(٢) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٢٣٠/١.

(٣) أَبُو يَعْلَى.

(٤) لَهُ تَرْجُومَةٌ فِي «مِرْآةِ الزَّمَانِ»: ١٣٩/٨، وَ«مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ»: ٢١٣/١٩ - ٢١٤، وَ«سِيرَ
أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ»: ٢٣٦/٢٠ - ٢٣٧، وَ«طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ» لِلْسَّبْكِ: ٣١٨/٧ - ٣٢٠،
وَ«مُخْتَصَرُ تَنْبِيهِ الطَّالِبِ»: ١٦٠ - ١٦١، انْظُرْ حَاشِيَتِنَا رَقْمَ ١ ص ٦٤ مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ.

(٥) فِي (م) صَبِيحاً، وَالْمُثَبَّتُ مِنَ الْأَصْلِ (ل)، وَفِي «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ» صَبِيحاً، وَهِيَ
تَصْحِيفٌ.

(٦) «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣٣٣.

(٧) فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ: رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَالْمُثَبَّتُ مِنْ «ذِيلِ تَارِيخِ دِمَشْقَ»: ٣٣٤.

هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنَّ، بحيثُ أحصين ستَّ مرَّاتٍ. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع النَّاسُ منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة، وانهدام بُرجٍ من أبراج أفامية* بهذه الزَّلَازِل المباركة^(١). وذكر أن الذي أحصى^(٢) عددهُ منها تقدير الأربعين، وما عُرِف مثل ذلك في السنين الماضية، والأعصار الخالية. وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانيةً في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلةٌ مروعة، وثانية، وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النَّيام، وروَّعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلةٌ هائلة أعظم مما سبق، وعند الصُّباح أخرى، وفي الليلة التي تليها زلزلتان أولُّها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفي ثاني^(٣) شوال زلزلة أعظم مما تقدَّم، وفي سابعه، وسادس عشره^(٤)، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم، فله الحمد والشكر. لكن وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وانهدام مساكنها. وأما شَيِّزَر* فإنَّ الكثير من مساكنها انهدم على سُكَّانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كَفَر طاب* فهرب أهلها منها خوفاً على

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي أصل «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥، فغيَّرها محققه إلى «الهائلة»، وما أدري ما وجه وصف هذه الزلازل بالمباركة، إلا أن يكون لما ألحقته بالفرنجة من أضرار أيضاً، والله أعلم.

(٢) في الأصل: وذكر أنه أحصى، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) ثالث.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥ الثالث عشر منه.

أرواحهم. وأما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشامية فما عُرف ما حدث فيها من هذه القُدرة الباهرة^(١).

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين [وخمس مئة]^(٢)

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة، وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال^(٣) بعظيم تأثير هذه الزلازل^(٤).

وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل، وضجَّ الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأنَّ هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكَفَر طاب* وأفامية*، وهدمت ما كان بُني من مهدوم الزلازل الأول، وحُكي أن تيماء* أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً^(٥).

وفي رابع رجب نهراً وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم يُر مثلاً فيما تقدّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدُّور والحوانيت والسَّقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فصّ الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله، ثم وافت عقيها زلزلة في الحال، ثم سكتتا بقدرة من حُرَّكهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٤ - ٣٣٦.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في النسخ الخطية: الشام، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢ - ٣٤٣.

المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين، وتتابع بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكّره، بحيث انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنسوان، وهم العدد الكثير والجَمّ الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير. وأما شَيْزَر* فَإِنْ رَبَضَهَا سَلِمَ إِلَّا مَا كَانَ خَرِبَ أَوَّلًا، وَأَمَّا حِصْنُهَا المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنْقَذ^(١) ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهُدمت بعضُ دورها، وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب* وأفامية* وما والاها ودنا منها وبعُدَ عنها من الحصون والمعقل إلى جَبَلَة* وجُبَيْل* [فأثرت بها الآثار المستبشعة]، وأتلفت سَلَمِيَّة* وما اتصل بها إلى ناحية الرّحبة* وما جاورها، ولو لم يدرك العبادَ والبلادَ رحمةُ الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخَطْبُ أفظع^(٢).

وقد نَظَمَ في ذلك من قال:

رَوَعَتْنَا زَلَزَلُ حَادَثَاتُ	بِقَضَاءِ قَضَاءِ رَبِّ السَّمَاءِ
هَدَمَتْ حِصْنَ شَيْزَرٍ وَحِمَاةَ	أَهْلَكَتْ أَهْلَهُ بِسُوءِ الْقَضَاءِ
وِبِلَاداً كَثِيرَةً وَحُصُوناً	وَتَغَوَّراً مُؤَثَّقَاتِ الْبِنَاءِ
فَإِذَا مَارَنْتَ عَيُونََ إِلَيْهَا	أَجْرَتِ الدَّمْعَ عِنْدَهَا بِالْذَّمَاءِ

(١) هو الأمير ناصر الدين محمد بن سلطان. انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٨، وسيرد ذكره ص ٣٥٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣ - ٣٤٤، وما بين حاصرتين منه.

وإذا ما قضى من الله أَمْرٌ سابقٌ في عباده بِالْمَضَاءِ
 حارَ قَلْبُ اللَّيْبِ فيه وَمَنْ كا نَ له فِطْنَةٌ وَحُسْنُ ذِكَاءِ
 وتراه مَسْبَحاً باكي العي من مَرُوعاً من سَخْطَةِ وبلاءِ
 جَلَّ ربي في ملكه وتعالى عن مقال الجُهَّال والسُّفهاءِ^(١)

١٠٥/١

قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، فَفُتِحَ الْبَلَدُ وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عِدَّةَ ليالٍ وأيامٍ على الخوف والجزع، يَسْبَحُونَ ويَهْلَلُونَ، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللُّطْفِ بهم والعفو عنهم^(٢).

قال: وفي الرَّابِعِ والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة رُوِّعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشَّام من تتابع الزَّلَازِلِ فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنَّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجُذِرَ أُناسُ العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها هدمت ما كان عُمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كُلِّ يوم عِدَّةُ وافرة من الرَّجَفَاتِ الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفي على أصوات الرُّعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات^(٣) متوالية أخف من غيرهنَّ. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزَّةٌ خفيفةٌ. وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة، وفي غدها

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٤.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥.

(٣) في (ل) رجفات، ومثلها في «ذيل تاريخ دمشق».

زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل، نفر الناس من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجُّوا بالتكبير والتهليل، والتسبيح والدُّعاء، والتضرُّع إلى الله تعالى. وفي يوم الجمعة، انسلخَ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس^(١).

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشَّام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخرجت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماة وحصن شِيزَر*، فإنهما خربا بمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين* والمعرة*، وغيرهما من البلاد والقرايا. وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدّمت الأسوار والدُّور والقلاع، ولولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع [العساكر] وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير حصار ولا قتال^(٢).

قال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنَّ بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لِمُهم، فجاءت الزلزلة فأخرجت الدُّور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب^(٣).

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيِّد الدولة أسامة بن مُرشد بن مُنقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام، وكان ابتداءها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسة مئة، وهلك بها من هلك من الخلق، فكان نحواً من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) «الباهر»: ١١٠، وما بين حاصرتين منه.

(٣) المصدر السابق.

بِحَنَّا نَظُنُّ الْيَقِينَ أَحْلَامَا
تَيْقُظُوا كَمْ يَنَامُ مَنْ نَامَا^(٢)

نَمْنَا عَنْ الْمَوْتِ وَالْمَعَادِ وَأَصْ
فَحَرَّكْتَنَا هَذَا الزَّلَازِلُ أَيْ^(١)

وَقَالَ أَيْضاً:

تِ وَإِذْ لَا يَسُوغُ فِي الْحَلْقِ رِيْقُ
لَهُ حَارِ السَّارِي وَضَلَّ الطَّرِيقُ
أَرْضَ بِالْغَافِلِينَ كَيْ يَسْتَيْقُظُوا^(٣)

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ عَنْ سَكْرَةِ الْمَوْتِ
كَمْ إِلَى كَمْ هَذَا التَّشَاغُلُ وَالْغَفْ
إِنَّمَا هَزَّتِ الزَّلَازِلُ هَذَا الـ

وَقَالَ فِي الزَّلَازِلِ أَيْضاً، وَقَدْ سَكَنَ النَّاسُ بَعْدَ الدُّورِ وَالتُّزْهَةِ فِي أَكْوَاخِ
عَمَلُوهَا بِالْأَخْشَابِ لَثَلَا تَهْدَاهَا الزَّلَازِلُ:

هَذَا الزَّلَازِلُ فِيهِ الْهَلْكَ وَالْعَطْبُ
رُكَّابُ بَحْرِ مَعَ الْأَنْفَاسِ تَضْطَرِبُ
لِمَصْرَعِ السَّلَفِ الْمَاضِينَ يَرْتَقِبُ
أَكْوَاخِ فِيهِ قُبُورٌ سَقَفُهَا خَشْبُ
فِيهَا فَلَا مَلْجَأَ مِنْهَا وَلَا هَرْبُ^(٤)

يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَرْحَمَ عِبَادِكَ مِنْ
مَاجَتْ بِهِمْ أَرْضُهُمْ حَتَّى كَانَتْهُمْ
فَنَصَفَهُمْ هَلَكُوا فِيهَا وَنَصَفَهُمْ
تَعَوَّضُوا مِنْ مَشِيدَاتِ الْمَنَازِلِ بِالـ
كَأَنَّهَا سُنُنٌ قَدْ أَقْبَلَتْ وَهُمْ

وَقَالَ يَرِثِي أَهْلَهُ الَّذِينَ هَلَكُوا بِالزَّلَازِلِ بِحَصْنِ شَيْزَرَ * قَصِيدَةً مِنْهَا^(٥):

وَلَا تَخْرَمُهُمْ^(٦) مِثْنَى وَوَحْدَانَا
وَأَحْمَلُ الْخَطْبِ فِيهِمْ عَزَّ أَوْهَانَا

مَا اسْتَدْرَجَ الْمَوْتُ قَوْمِي فِي هَلَاكِهِمْ
فَكُنْتُ أَصْبِرُ عَنْهُمْ صَبْرَ مُحْتَسِبٍ

(١) فِي «الديوان»: أَنْ.

(٢) الْبَيْتَانِ فِي «ديوانه»: ٢٩٠.

(٣) الْأَبْيَاتِ فِي «ديوانه»: ٢٨٧.

(٤) لَمْ أَجِدِ الْأَبْيَاتِ فِي «ديوانه» الْمَطْبُوعِ.

(٥) فِي هَامِشِ الْأَصْلِ: «حَاشِيَةٌ: هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الَّتِي تَقْدِمُ مِنْهَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بَيْتَانِ

تَمَثَّلَ بِهِمَا الْمُؤَلِّفُ بِالْخُطْبَةِ عِنْدَ ذِكْرِ نُورِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى».

قُلْتُ: انْظُرْ ص ٢٨ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٦) اقْتَطَعَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ. «اللِّسَانُ» (خَرَمَ).

وَأَقْتَدِي بِالْوَرَى قَبْلِي فَكَمْ فَقَدُوا
لَكِنْ سَقَبٌ^(١) الْمَنَايَا وَسَطَ جَمْعُهُمْ
وَفَاجَأَتْهُمْ مِنَ الْأَيَّامِ قَارِعَةٌ
مَاتُوا جَمِيعاً كَرَجَعِ الطَّرْفِ وَانْقَرَضُوا
أَعَزَزَ عَلَيَّ بِهِمْ مِنْ مَعْشَرٍ صَبِيرٍ
لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ لِي مِنْ بَعْدٍ فَقْدَهُمْ
فَلَوْ رَأَوْنِي لَقَالُوا مَاتَ أَسْعَدُنَا
لَمْ يَتْرِكِ الْمَوْتُ مِنْهُمْ مَنْ يَخْبِرُنِي
بَادُوا جَمِيعاً وَمَا شَادُوا فَوَا عَجَباً
هَذَا قَصُورُهُمْ أَمَسَتْ قُبُورُهُمْ
وَيْحَ الزَّلَازِلِ أَفْنَتْ مَعْشَرِي فَإِذَا
لَا أَلْقَى الدَّهْرُ مِنْ بَعْدِ الزَّلَازِلِ مَا
أَخْنَتْ عَلَى مَعْشَرِي الْأَذْنِينَ فَاصْطَلَمَتْ
لَمْ يَحْمِمْهُمْ حِصْنُهُمْ مِنْهَا وَلَا رَهْبَتْ
إِنْ أَفْقَرْتُ شَيْزَرٌ* مِنْهُمْ فَهَمْ جَعَلُوا
هُمْ حَمَوَهَا فَلَوْ شَاهَدْتَهَا^(٥) وَهُمْ
تَرَاهُمْ فِي الْوَعَى أَسْدًا وَيَوْمَ نَدَى
بَنُو أَبِي وَبَنُو عَمِّي دَمِي دَمُهُمْ

أَخَا وَكَمْ فَارَقُوا أَهْلًا وَجِيرَانَا
رَغَا فَخَرُّوا عَلَى الْأَذْقَانِ إِذْ عَانَا
سَقَتَهُمْ بِكَؤُوسِ الْمَوْتِ ذَيْفَانَا^(٢)
هَلْ مَاتَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا
عَلَى الْحَفِظَةِ إِنَّ ذُو لُوثَةٍ^(٣) لَنَا
قَلْبًا أُجْشِمُهُ صَبْرًا وَسَلَوَانَا
وَعَاشَ لِلَّهِمَّ وَالْأَحْزَانِ أَشْقَانَا
عَنْهُمْ فَيُوضِحُ مَا قَالُوهُ تَيَّيَانَا
لِلخَطْبِ أَهْلَكَ عُمَارًا وَعُمُرَانَا
كَذَاكَ كَانُوا بِهَا مِنْ قَبْلُ سُكَّانَا
ذَكَرْتُهُمْ خِلْتَنِي فِي الْقَوْمِ سَكْرَانَا
حَيْثُ إِلَّا كَسِيرَ الْقَلْبِ حَيْرَانَا
مِنْهُمْ كَهَوْلًا وَشُبَّانًا وَوِلْدَانَا
بِأَسَا تَنَازَرَهُ الْأَقْرَانُ أَزْمَانَا
مَنْعَ أَسْوَارِهَا بَيْضًا وَخِرْصَانَا^(٤)
بِهَا لَشَاهَدَتْ آسَادًا وَخَفَّانَا^(٦)
غَيْثًا مُغِيثًا^(٧) وَفِي الظُّلُمَاءِ رُهْبَانَا
وَإِنْ أَرَوْنِي مُنَاوَاةً وَشَنَانَا

(١) السقب: ولد الناقة. «اللسان» (سقب).

(٢) السم القاتل: «اللسان» (ذيف).

(٣) رجل ذلولثة: بطيء متمكث ذو ضعف. «اللسان» (لوث).

(٤) مفردا خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).

(٥) في الأصل: شاهدتهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) اسم مأسدة. انظر «اللسان» (خفن).

(٧) في «الديوان»: هتوتاً.

يُطَيِّبُ النَّفْسَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا وَخَلَّفُونِي عَلَى الْآثَارِ عَجَلَانَا^(١)

وكتب إليه الصَّالِحُ بْنُ رُزَيْكٍ قصيدةً يعزِّيهِ عَنْ أَهْلِهِ، مِنْهَا:

بأبي شَخْصُكَ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْ عِيَانِي فَهُوَ الْبَعِيدُ الْقَرِيبُ
يَا أَخِلَّائِي بِالشَّامِ لئنْ غِيبُ تُمْ فَشَوْقِي إِلَيْكُمْ لَا يَغِيبُ
غَضَبَتْنَا الْأَيَّامُ قُرْبَكُمْ مِنْ (م) لَا وَلَا بَدَّ أَنْ تُرَدَّ الْغُصُوبُ
كَرِهَ الشَّامُ أَهْلَهُ فَهُوَ مُحَقَّرُ قُ بِالْأُ يُقِيمَ فِيهِ لَبِيبُ
إِنْ تَجَلَّتْ عَنْهُ الْحُرُوبُ قَلِيلًا خَلَفَتْهَا زَلَايِلُ وَخُطُوبُ
رَقَصَتْ أَرْضُهُ عَشِيَّةً غَنَى الرَّ (م) عُدَّ فِي الْجَوِّ وَالْكَرِيمُ طَرُوبُ
وَتَشَنَّتْ حَيْطَانُهُ إِذْ أَمَالَتْ هِيَ شِمَالُ بَزْمِرِهَا وَجَنُوبُ
لَا هُبُوبٌ لِنَائِمٍ مِنْ أَمَانِي هِيَ وَلِلْعَاصِفَاتِ فِيهَا هُبُوبُ
وَأَرَى الْبَرْقَ شَامِتًا ضَاحِكُ السَّنِّ (م) وَلِلْجَوِّ بِالْغَمَامِ قُطُوبُ
ذَكَرُوا أَنَّهُ تَذُوبٌ بِهِ السُّخْرُ بُ فَمَا لِلصُّخُورِ أَيْضًا تَذُوبُ
أَبْذَنْبُ أَصَابَهَا قَدَرُ اللَّ (م) هِيَ فَلِلْأَرْضِ كَالْأَنَامِ ذُنُوبُ
إِنَّ ظَنِّي وَالظَّنُّ مِثْلُ سِهَامِ الرَّ (م) مِي مِنْهَا الْمُخْطِي وَمِنْهَا الْمُصِيبُ
إِنَّ هَذَا لَأَنْ غَدَتْ سَاحَةُ الْقُدِّ سِ وَمَا لِلْإِسْلَامِ فِيهَا نَصِيبُ
مَنْزَلُ الْوَحْيِ قَبْلَ بَعَثِ رَسُولِ اللَّ (م) هِيَ فَهُوَ الْمَحْجُوجُ وَالْمَحْجُوبُ
نَزَلَتْ وَسَطُهُ الْخَنَازِيرُ وَالْخَمُّ رُوبَارَى النَّاقُوسِ فِيهِ الصَّلِيبُ
لَوْ رَأَاهُ الْمَسِيحُ لَمْ يَرْضَ فَعَلًا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَهُ مَنْسُوبُ
أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّ الدِّ (م) سِاسِ قَوْمٍ إِلَهُهُمْ مَضْلُوبُ

١٠٧/١

(١) العجلان: الثاكل الواله. انظر «تاج العروس»: (عجل). والقصيدة بتمامها في

«ديوانه»: ٣٠٦ - ٣٠٩.

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى دِيَارٍ مِنَ السُّكِّ (م) إِنْ أَقْوَتْ (١) فَلَيْسَ فِيهَا غَرِيبٌ (٢)
فَاخْتَسِبَ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ مَجْدَ الدِّ (م) يَنْ وَاصْبِرْ فَالْحَادِثَاتُ ضُرُوبٌ
إِنْ تَخَصَّصْتُكُمْ نَوَائِبُ مَا زَا لَكُمْ دُونَ مِنْ سِوَاكُمْ تَنْوِبُ
فَكَذَلِكَ الْقَنَاءُ يُكْسِرُ يَوْمَ الرَّ (م) وَعِ مِنْهَا صَدْرٌ وَتَبْقَى الْكُعُوبُ (٣)

وَقَرَأْتُ فِي «دِيَوَانِ الْعِرْقَلَةِ»: كَانَ الْمَوْلَى صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ
مَعَ عَبِيدِ غَلَامِ الْمَوْلَى - وَكَانَ عَبِيدٌ هَذَا مُوصُوفًا بِالثَّقَلِ - فِي بَيْتٍ بِمَدِينَةِ
حِمَاةِ يَوْمِ الزَّلْزَلَةِ، فَوَقَعَتِ الْمَدِينَةُ بِأَسْرَها سِوَى ذَلِكَ الْبَيْتِ الَّذِي هُمَا فِيهِ.
فَقَالَ الْعِرْقَلَةُ:

قُلْ لِّصَلَاحِ الدِّينِ رَبِّ النَّدَى بَلِّغْ (٤) عُبَيْدًا كُلَّ مَا أَمَلَهُ
بِثِقَلِهِ لَمَّا تَصَاحَبْتُمَا سَلِّمْكَ اللَّهُ مِنَ الزَّلْزَلَةِ (٥)

وَقَرَأْتُ (٦) فِي بَعْضِ كُتُبِ أَبِي الْحُسَيْنِ الرَّازِي (٧) عَنْ شَيْوْخِهِ أَنَّهُ وَقَعَ
بِدِمَشْقَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِثْنِينَ زَلَّازِلَ عَظِيمَةٍ حُكِيَ عَنْهَا
نَحْوُ مِمَّا مَضَى ذِكْرَهُ وَأَكْثَرُ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَمَامَ الْعَافِيَةِ (٦).

(١) أَقْفَرْتُ وَخَلْتُ. «اللِّسَانُ» (قَوَا).

(٢) أَحَد. «اللِّسَانُ» (عَرَب).

(٣) فِي (م) كَعُوبٍ. وَالْقَصِيدَةُ فِي «دِيَوَانِ أَسَامَةِ بْنِ مَنْقُذٍ»: ٧، ١٥٣، ١٦٤، ٢٩٦.

(٤) فِي (م) نَوَّلَ.

(٥) الْبَيْتَانِ فِي «دِيَوَانِ عِرْقَلَةِ الْكَلْبِيِّ»: ٨٨، اسْتَدْرَكَهُمَا مُحَقِّقُهُ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا.

(٦ - ٦) مَا بَيْنَهُمَا سَاقِطٌ مِنْ (م).

(٧) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَنِيدِ - وَالِدُ تَمَامِ الرَّازِي الْمُحَدِّثِ
الْمَشْهُورِ - أَصْلُهُ مِنَ الرِّيِّ، وَاسْتَوطنَ دِمَشْقَ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الْمُحَدِّثِينَ، لَهُ
مُصَنَّفَاتٌ، مِنْهَا: تَسْمِيَةُ كُتَّابِ أَمْرَاءِ دِمَشْقَ، وَتَسْمِيَةُ أَمْرَاءِ دِمَشْقَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ،
وَمُؤَلَّفَاتُهُ لَمْ تَصِلْنَا، وَهِيَ مِنْ مَوَارِدِ ابْنِ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِ»، تُوُفِيَ سَنَةَ (٣٤٧ هـ)،
انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي «طَبَقَاتِ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ» لِابْنِ عَبْدِ الْهَادِي ٣/ ٩١ - ٩٢ وَ«مَعْجَمُ
الْمُؤَرِّخِينَ الدَّمَشْقِيِّينَ»: ١٧ - ١٨.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى : في ثالث عشر ربيع الأول توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاحين على تلك الأعمال^(١).

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المُبشّر من العسكر المنصور برأس الماء^(٢) بأن نصرة الدين أمير أميران^(٣) لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس* لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعدّتهم سبع مئة فارسٍ سوى الرّجالة، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حُماتها، فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كُمناء من شجعان الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلّا القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتلٍ وجريح، ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحُدُّ كثرةً، ومحقت السيوف عامّة رجّالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة^(٤) المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً. وأنفذ إلى نور الدين إلى بعلبك جماعةً من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً^(٥).

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨.

(٢) في حوران، شمالي درعا.

(٣) في النسخ الخطية: ناصر الدين، وهو تحريف، وهو الأخ الأصغر لنور الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب. انظر ص ١٥٥ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: عالمة، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨ - ٣٣٩.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البُشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسريّة وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطّف التركمان منهم من ظفروا به^(١).

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجَمّ الغفير، واجتمعوا بنور الدين، وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس*، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجّه. وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث* والمُطوّعة والفقهاء والصّوفية [و]^(٢) المتدينين خلّق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول^(٣).

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس* ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمّن كتابه الإعلام بورود المُبشّر من معسكر أسد الدين بناحية هُونين^(٤) في التركمان والعرب بأن الفرنج - خذلهم الله تعالى - أنهضوا سريّة من أعيان مُقدّمهم وأبطالهم تزيد على مئة فارس سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظناً منهم بأنهم في قل^(٥)، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنّوا منهم وثبوا إليهم كاللّيوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٩.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ١٠٧/١، و«ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بلد في جبال عاملة. انظر «معجم البلدان»: ٤٢٠/٥.

(٥) أي قلة. «اللسان» (قلل).

والسلب، ولم يبق منهم إلا اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة، والطَّوارق^(١)، والقُنطاريات^(٢) إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور^(٣).

قال: وتلاهذه الموهبة المتجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس بانياس* في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قَهراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقوط البُرج المنقوب وهجوم الرُجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونهب ما حواه، وانهزام من سَلِمَ إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطيء، والله يسهله ويعجله^(٤).

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمَّعوا من معاقلهم عازمين على استنفاذ الهنغري^(٥) صاحب بانياس* ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان، ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجبههم إلى ما سألوا ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والرَّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكِرَيْن؛ النَّازل على بانياس* لحصارها، والنَّازل على الطَّرِيق لمنع الواصل إليها، اقتضت السَّياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها، واستخلصوا من كان فيها، وحين

١٠٨/١

-
- (١) مفردا طارقة. وهي الترس. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٤١/٢.
 - (٢) مفردا قطارة، وهي الرمح. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٤١٣/٢.
 - (٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.
 - (٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠ - ٣٤١.
 - (٥) Humphry، انظره في كشاف الأعلام.

شاهدوا ما عمَّ بانياس من إخراج سورها ومنازل سُكَّانها يشسوا من عمارتها بعد خرابها^(١).

قال: وفي تاسع جُمادى الأولى سقطت الأُطيار بالكتب من المعسكر النُوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين - أعز الله نصره - لما عرف أن معسكر الكفرة الإفرنج على المَلَّاحَة؛ بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السير، فلما شارفهم وهم غارُون، وشاهدوا راياته قد أظَلَّتْهم، بادروا بلبس السَّلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترَجَّل الملك نور الدين، فترَجَّل معه الأبطال وأرهقوهم بالسَّهام وخِرْصان الرِّماح^(٢)، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والجِمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكَّنوا من فرسانهم قتلاً وأسرأ، واستأصلت السُّيُوف الرُّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم^(٣) لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُملة القتلى، ولم يعرف له خبر^(٤)، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم، وكراعهم^(٥) وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً. ووصلت

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١.

(٢) مفردا خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).

(٣) هو Baldwin III، انظره في كشف الأعلام.

(٤) أفلت بأعجوبة إلى صفد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما (الترجمة العربية):

٥٥٣/٢.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٣٠٩ من هذا الجزء.

الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رَتَّبُوا على كلِّ جملٍ فارسين من أبطالهم ومعهما رايةً من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عِدَّة، والمقدَّمون منهم وولاة المعازل والأعمال كل واحد منهم على فرسٍ، وعليه الزَّرْدِيَّة^(١) والخوذة، وفي يده راية، والرَّجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في جبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يُحصى لهم عدد، من الشيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله - تعالى ذِكْرُهُ - كافَّة المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثرُوا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرَّامِي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه^(٢).

وُنظِمَ في ذلك أبيات في هذا المعنى :

ما رأينا فيما تقدَّم يوماً	كامل الحُسنِ غايةً في البهاء
مثل يومِ الفرنج حين علَّتْهُم	ذِلَّةُ الأسرِ والبلا والفناء ^(٣)
وبراياتهم على العيسِ زُفُوا	بين ذُلٍّ وحَسرةٍ وعَناءٍ
بعد عزٍّ لهم وهيبةٍ ذُكِرِ	في مصافِ الحروب والهَيَّجاءِ
هكذا هكذا هلاكُ الأعادي	عند شنِّ الإغارة الشَّعْواءِ
شؤمُ أخذِ الجِشَّارِ ^(٤) كان وبالاً	عَمَّهُمُ في صَباحهم والمساءِ
نقضوا هُدنةَ الصَّلاحِ بجهلٍ	بَعْدَ تأكيدِها بحُسنِ الوفاءِ
فلقوا بَغْيهم بما كانَ منهم ^(٥)	من فسادٍ بجهلهم واعتداءِ

(١) درع مزخرف وتكملة المعاجم العربية: ٥٨٥/١.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) في المصدر السابق: والشقاء.

(٤) انظر ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

(٥) في «ذيل تاريخ دمشق» فيه، وهو تصحيف.

لا حمى الله شملهم من شتاتٍ بمَواضٍ تفوق حدَّ المضاءِ
فجزاء الكفور قتلٌ وأسرٌ وجزاء الشكور خيرُ الجزاءِ
ولربَّ العبادِ حمدٌ وشكرٌ دائمٌ مع تواصلِ النعماءِ^(١)

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق^(٢).

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين فأنهذ إليهم عسكرياً كثيفاً، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس*، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدَّ حصار، حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأول، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها، واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج، فلبس لأُمته^(٣)، وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أديبارهم، وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر، وغنم منهم غنيمةً حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجه في وجهته مؤيداً.

(١) الأبيات ما عدا البيت الأول في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأمة: الدرع، وقيل: السلاح، وإنما سمي لأمة لأنها تلائم الجسد وتلازمه. انظر «اللسان» (لأم).

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي العشر الثاني من جمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود^(١) في خلق كثير للتزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنج، وتكررت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر ولم يستقر على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقرّ باقيه ومقدّميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين^(٢).

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، والنظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها^(٣).

ثم قال بعد ذلك: قد تقدّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج - خذلهم الله تعالى - وقصدهم لها، وطمعهم [فيها]^(٤) - بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها - لحمايتها والذب عنها، وإيناس من سلّم من أهل حمص وشيّر*، وكفرطاب*، وحماة وغيرها، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجُم الغفير، من رجال المعازل والأعمال والتركمان، وخيّم بهم بإزاء جَمع الفرنج

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من هذا الجزء. وفي أصل «ذيل تاريخ دمشق» يوافق نسخنا، استعاض المحقق عنه بالسلطان محمود، وهو وهم منه، خلط فيه ما بين

سلاجقة العراق، وسلاجقة الروم.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣.

(٤) ما بين حاصرتين من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٨.

بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارسٌ منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حادٍّ، فلما اشتدَّ به، وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدِّمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كَوْنَ أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والسَّادَ لثُلْمة فقدته، لاشتهاره بالشَّهامة وشِدَّة البأس، ويكون مقيمًا بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة. فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض، فتوجَّه في مِحْفَةٍ* إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجَّه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج. وتواصلت الأراجيف بنور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرَّقت جموعُ المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيرَز*، وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. وتجمَّع من عدَّة جهات خَلْقٌ كثير من رجال الإسماعيليَّة وغيرهم، وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيرَز. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين^(١) في وجهه الأبواب، وعصى عليه، فثارت أحداثُ حلب، وقالوا: هذا صاحبنا وملكننا بعد أخيه. فزحفوا في السَّلاح إلى باب البلد، وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللُّوم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جُمَلتها إعادة رسمهم في التأذين «حَيَّ على خَيْرِ العَمَل، محمدٌ وعليٌّ خَيْرُ البَشَر»، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسنَ القولَ لهم والوعد، ونزل في داره وأنفَذَ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حَيٌّ في نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة. فقليل: الذَّنْب في ذلك للوالي. وصَعِدَ إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًّا

(١) هو مجد الدين ابن الداية.

يفهم ما يقول وما يقال له . فأنكر ما جرى وقال : [أنا] ^(١) أصفح للأحداث عن هذا الخطل ، ولا أواخذهم بالزلل ، وما طلبوا إلا صلاح حال أخي ووليّ عهدي من بعدي . وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته ، فأنست القلوب بعد الاستيحاش ، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج ، وتزايدت العافية ، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين ، بالعود إلى جهاد الملاعين . وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حرّان* وما أضيف إليها ، وتوجّه نحوها . ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزاه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد ، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ، ووصل إليها في خيله ، واجتمع بنور الدين فأكرم لقياءه ، وشكر مسّعه ، وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عُصَب الكفر والضلال ^(٢) .

قال : ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى :

لقد حسنت صفاتك يا زماني	وفزت بما رجوت من الأمان
فكم أصبحت مُرتاعاً لخوف ^(٣)	فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك	عظيم الشأن مسعود الزمان
فروغت القلوب من البرايا	وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة يخشى أذاها	على الإسلام في قاص ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق	بعافية المليك مع التهاني
فولّى الخوف منهدم المباني	وعاد الأمن معمور المغاني ^(٤)

قال ابن أبي طي : وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر* ،

١١٠/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل ، والمثبت من (ل) و(م) .

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق» : ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق» : ٣٥٠ مرعوباً مخوفاً .

(٤) الأبيات في المصدر السابق .

فخرج نور الدين وأخذها من بني مُنْقِذ، وسَلَّمها إلى مجد الدين ابن الدَّاية، وسار إلى سَرَمِينَ*، لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضه هناك مرض أشفى منه، فأحضر شيركوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نُصرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصُّفَر* خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنتاً له بالعافية. وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مُدَّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سَيره إلى حَرَّان*، وجعل وليَّ عهده أخاه قُطَب الدين صاحب المَوْصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه، فتحرَّم لأمره، وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطُّرقات والسُّبُل بالرَّجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين إليها.

قلت: ولا بن مُنير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرض غير هذا:

يا شمسُ لا كَسَفٌ ولا تَكْدَارُ	ولا خَلَتْ من نُورِكَ الأنوارُ
البَدْرُ مَنْقُوصٌ وأنتَ كاملُ	لك السَّرايا وله السَّرارُ
بروكُ للإسلام من أدوائه	بُرءٌ وفي أعدائه بَوارُ
ما أنتَ إلا السَّيْفُ صَدٌّ صدأٌ	عن مَتْنِهِ مَضْرِبُهُ البَتَّارُ
لو كان محمولاً أذَى عن مُنْفَسٍ	لَحَمَلَتْهُ دُونَكَ الأبْصارُ
ولو فَدَتْ أرضُ سماءٍ ساقَت الـ	مملوكٌ في فدائِكَ الأُمصارُ
أنتَ غياثُ محلهم إنْ أجذبوا	وخيرهم إنْ ذُكر الخِيارُ
وفي سرير الملك منها ملكُ	لله في سَرَائِهِ ^(١) أسرارُ

(١) في (م) أسواره.

خَيْرُ ملوكِ الأرضِ جَدًّا وأباً
مَدَّ على الدِّينِ رِواقَ دَوْلَةٍ
عَلَّتْ بناياه وَحَلَّتْ يَدَهُ
محمودُ المحمودُ عَصْرُ ملكه
يا نورَ دينٍ أَظْلَمْتَ آفاقه
اللهُ أَيَّامُكَ ما تَخْطُهُ
سَلِمْتَ للإسلامِ ترعى سَرْحَهُ
شكوتُ فالدُّنيا على سُكَّانِها
كَادَتْ تموتُ الأرضُ من إشفاقِها
زَرَّتْ عليك التُّركُ جَيْبَ نسب
لا عَدِمْتَ منك الأمانِي رَبِّها^(١)
ما سَمَحَ الدَّهْرُ بأنْ تَبقى لَنَا

وله من قصيدة أخرى:

لا نُؤَدِّي لأنعمِ الله شُكْراً
زَوَّرَ عَشِيرٍ وافى لإقْلاعِ داءِ
أَمْ مَغْنَاكَ ضامِناً أَنْ أَيْأَ
في محلٍّ له السَّماكانِ سَمَكُ
أَيُّها العادلُ الْمُظْفَرُ لا قَصْدَ (م)
جَعَلَ اللهُ ما استَهْلَ من الأشدِّ
أبداً ينشرُ التَّهْيانِي على سا

إِنْ هَزَّ عِظْفِي ما جِدَ نِجارُ
تَنازَعْتَ أَسْمارَها السُّمارُ
فَهِىَ عليه السُّورُ والسُّوارُ
فَلِلْحَيَا مِنْ مُزْنِهِ اِغْتِصارُ
لَوْ لَمْ تَبْلُجْ هَذِهِ الأَثارُ
بِالْمِسْكَ مِنْ إِسْفارِها الأَسْفارُ
إِذا وَنَى رُعاتِهِ وَجارُوا
قَرارَةً جَانِبَها القَرارُ
لولا شِفاءُ رَدِّها تُمارُ
يَحْسُدُها بِزِيهِ نزارُ
مَعْطَى مِنْ الإِقْبالِ ما يَخْتارُ
فَكُلُّ جُرحٍ مَسَّنَا جُبَّارُ

بَكَ يا أَعْظَمَ البَرِيَّةِ قَدْرًا
جَعَلَا المَنَّةَ المَمْناءَ^(٢) عَشْراً
مَكَ تُفْنِي الأَحْقابَ عَصْراً فَعَصْراً
وَجَدودُ لَها المَجْرَةُ مَجْرى
تَشَبَّاهُ الدَّهْرُ مِنْ شَباتِكَ ظُفْراً
هَرِينَهُلُ في مِغْازِيكَ نَصْراً
حَاتِكَ الرِّهْرُ في المَواصِمِ نَشْراً

(١) في الأصل و(م) ريبها، والمثبت من (ل).

(٢) في (ل) المهنة.

أَنْتَ أَسْرَى الْمُلُوكِ نَفْسًا وَقِنْسًا^(١)
 مَلِكٌ عِنْدَهُ الْمَشَارِبُ تُسْتَم
 فَلَكَ اللَّهُ مِنْ مِثْمَرِ بَذْرِ
 عَشٍ لِمُلْكٍ أَصْبَحَتْ فِي الدُّسْتِ مِنْهُ
 تَفْطَرُ الطَّيِّبَاتِ لِلْفَطْرِ فَطْرًا
 يَقْتَنِي مِنْ كُسَاكَ أَنْفَسٍ مَلْبُو
 أَنْتَ تُمْلِي وَنَحْنُ نَنْظُمُ مَا تَنْدُ
 صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ عَيْنَ زَمَانٍ
 وَتَوَالَتْ لَكَ الْفُتُوحُ إِلَى أَنْ
 كَلِمَا أَنْهَجَتْ^(٢) مَلَابِسُ نَعْمَى
 وَقَالَ الْقَيْسَرَانِي مِنْ قَصِيدَةٍ:

أَشْرَقَ الْبَهْوُ^(٣) يَا جَبِينَ الْهَلَالِ
 عَنْ لِيَالٍ حَجَبْنَ عُنَا سَنَاها
 لَمْ يَكُنْ مَا أَلَمَ بِالْجِسْمِ شَكْوَى
 لَا وَلَا كَانَ زَائِرًا مِنْ سَقَامٍ
 وَعَكَّةُ أَقْلَعَتْ^(٤) وَأَنْتَ صَحِيحٌ
 أَوْ مَا هَذِهِ السَّمَاءُ سَرَارِ الْ
 نِعْمَةُ اللَّهِ لَا يَخْصُ بِهَا الْخَا
 وَلِبَاسٌ مِنَ الْمُثُوبَةِ وَالْغُفْ
 فَهَنِيئًا لَكَ الْبَقَاءُ وَإِنْ كَا

وَالِي أَسْرِهِمْ مِنَ الطَّيْفِ أَسْرَى ١١١/١
 رَى وَأَخْلَافَ الْجُودِ تُمْرَى فَتَفْرَى
 يَصْطَفِي صَالِحًا وَيَحْصُدُ أَجْرًا
 فَوْقَ كَسْرَى عَذْلًا وَشَغْبًا وَكُسْرًا
 وَتَعْمُ الْأَعْدَاءُ فِي النَّحْرِ نَحْرًا
 سِ وَيُقْنِيكَ مِنْهُ أَطْوَلُ عُمْرًا
 شُرُهُ الْغُرِّ مِنْ مَسَاعِيكَ تُثْرَا
 بِكَ صَارَتْ بَعْدَ الْإِصَابَةِ عَبْرًا
 تَمَلُّ الْخَافِقِينَ نَهْيًا وَأَمْرًا
 وَتَمْلِيْتُهُنَّ جَدُّتَ أُخْرَى

فَحَلَاهُ لَوَجْهَكَ الْمُتَلَالِي
 إِنَّمَا غَيْبَةُ الْهَلَالِ لِيَالِي
 فَتُهُنَّا لِوَافِدٍ^(٤) الْإِقْبَالِ
 إِنَّمَا كَانَ طَائِفًا مِنْ خَيَالِ
 وَيُصْحُ النَّسِيمُ بِالْإِعْتِلَالِ
 سَبَدْرٍ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْكَمَالِ
 لَقَى إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُ بِبَالِ
 رَانَ أُلَيْسَتْ ضَافِي الْأَذْيَالِ
 نَ هِنَاءٌ يَخْصُ فِيهِ الْمَعَالِي

(١) فِي (ل) «حَاشِيَةُ: الْقِنْسُ: الْأَصْلُ». قُلْتُ: انْظُرِ «اللسان» (قنس).

(٢) أَيِ بَلِيَّتٍ. انْظُرِ «اللسان» (نَهج).

(٣) كَذَا فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي طَبْعَةِ وَادِي النَّيْلِ: ١١١/١ الْبَدْرِ.

(٤) فِي (م) لِنَافِدٍ.

(٥) فِي (م) أَقْلَعْتُ. وَأَقْلَعْتُ عَنْهُ الْحُمَى: تَرَكْتُهُ. «الْقَامُوسُ الْمَحِيْطُ» (قُلْع).

والتقى والندى ومقرّبة^(١) الخيـ
والخلال التي إذا ما تخلّت^(٢)
إن وقتك النفوس ماتتوقى
أوتحصنت في شعار من التقد
فشفى الله من أجل دوائـ
ملك أبدل المخافة بالأمر
وهو تاج الملوك فالملك العا
وإذا النيران غابا فنور الد^(م) ين شمس فجرية الأصل
قد أرت وجهك العلا ما يريها
وقضى الله أن نجمك في الأند
كل يوم هذا المحيا محيئ

لـ ويبض الطّبي وسمر العوالي
صدّرت منك عن كريم الخلال
فحقيق فدا الموالى^(٣) الموالى
سوى فما زلت منه في سربال
ه صريح الدعاء والإبتهال
ن وأضحى يعدّ في الأبدال
طل حال به على كل حال
ين شمس فجرية الأصل
وهي مرأة صالح الأعمال
جسم سام وأن جدك عال
بالتهاني على يد الإقبال

فصل

في ذكر حصن شيزر* وولاية بني مُنقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها، على حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قُطع الطريق في وسطه، وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قُطع ذلك الخشب^(٤) تعذر الصعود إليه. وكان لآل مُنقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام

(١) أي التي تكون قرية معدة، ضمرت للركوب. انظر «معجم متن اللغة»: ٥٢٢/٤ وفي (م) مقودة.

(٢) في الأصل و(ل) تخلت، والمثبت من (م).

(٣) الضبط من الأصل.

(٤) في «الباهر»: ١١٠ الجسر.

صالح بن مِرْدَاس^(١) إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المُقْلَد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم، بعد أبيه أبي الحسن علي^(٢)، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بِشَيْرٍ* سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وكان شجاعاً كريماً، صَوَّاماً قَوَّاماً. فلما حضره الموتُ استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي؛ وهو والد أسامة، فقال: والله لا وليتها، ولأُخْرِجَنَّ من الدُّنْيَا كما دخلْتُها. وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثير الصَّلاح، ١١٢/١
فولَّاهَا أخاه أبا العساكر سُلْطَان بن علي، وكان أصغر منه، فاصطحبها أجمَل صحبةٍ مُدَّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عِدَّة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا؛ منهم عِزُّ الدولة أبو الحسن علي^(٣)، ومُؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرشد، وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كَبِرَ فجاءه أولاد، فحسَدَ أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صِغَرَ أولاده وكَبِرَ أولاد أخيه وسيادتهم ساء ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما، فغيَّروا كلاً منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغتْه عنه، فأجابه بأبياتٍ جيدة في معناها، وكلُّهم كان أديباً شاعراً، فمنها:

ظُلُومٌ أَبَتْ فِي الظُّلَمِ إِلَّا تَمَادِيَا وَفِي الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ إِلَّا تَنَاهِيَا

(١) استولى على حلب سنة (٤١٤هـ) على الأرجح، وقتل سنة (٤٢٠هـ) انظر «الكامل»:
٢٢٧/٩ - ٢٣١، و«وفيات الأعيان»: ٤٨٧/٢ - ٤٨٨، و«زبدة الحلب»: ٢٢٧/١ - ٢٣٢.

(٢) سديد الملك، وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ وذلك سنة (٤٧٤هـ)، وكانت بيد الروم، وتوفي سنة (٤٧٥هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٤٠٩/٣ - ٤١٠.

(٣) قتل شهيداً في غزاة سنة (٥٤٥هـ) له كتاب في التاريخ مفقود هو «البداية والنهاية» نشر منه شذرات الدكتور إحسان عباس في «شذرات من كتب مفقودة في التاريخ»: ١٢٥. انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٥٤٨/١ - ٥٥١، و«معجم الأدباء»: ٢١٤/٥ - ٢٢٠، و«الوافي بالوفيات»: ١٩١/٢٢ - ١٩٢، وفيه أنه استشهد بعسقلان سنة (٥٤٦هـ).

شَكَتْ هَجَرْنَا فِي ذَاكَ وَالذَّنْبُ ذَنْبُهَا
وَطَاوَعَتِ الْوَاشِينَ فِيَّ وَطَالَمَا
وَمَالَ بِهَايَتِيهِ الْجَمَالَ إِلَى الْقَلَى
وَلَا نَاسِيًا مَا أَوْدَعْتُ مِنْ عُهْدِهَا
وَلَمَّا أَتَانِي مِنْ قَرِيضِكَ جَوْهَرُ
وَكُنْتُ هَجَرْتُ الشُّعْرَ حِينًا لِأَنَّهُ
وَأَيِّنَ مِنَ السَّتِينِ لَفْظُ مُفَوِّفٍ
وَقُلْتُ أَخِي يَرْعَى بَنِيَّ وَأُسْرَتِي
وَيَجْزِيهِمْ مَا لَمْ أَكْلَفْهُ فِعْلُهُ
فَمَا لَكَ لَمَّا أَنْ حَنِى^(١) الدَّهْرُ صَعْدَتِي^(٢)
تَنَكَّرْتُ حَتَّى صَارَ بِرُكِّ قَسْوَةٍ
فَأَصْبَحْتُ صِفْرَ الْكَفِّ مِمَّا رَجَوْتُهُ
عَلَى أَنِّي مَا حُلْتُ عَمَّا عَهْدْتُهُ
فَلَا غَرَوُ عِنْدَ الْحَادِثَاتِ فَإِنِّي
تَهَنَّنَ بِهَا عِذَاءً لَوْ قُرْنَتْ بِهَا
تَحَلَّتْ بِدُرٍّ مِنْ صِفَاتِكَ زَانَهَا
وَعَشَ بَانِيًا لِلْجُودِ مَا كَانَ وَاهِنًا

فِيَا عَجَبًا مِنْ ظَالِمٍ جَاءَ شَاكِيَا
عَصَيْتُ عَذُولًا فِي هَوَاهَا وَوَاشِيَا
وَهِيَهَاتَ أَنْ أَمْسِي لَهَا الدَّهْرَ قَالِيَا
وَأَنْ هِيَ أَبَدْتُ جَفْوَةً وَتَنَاسِيَا
جَمَعْتُ الْمَعَالِي فِيهِ لِي وَالْمَعَانِيَا
تَوَلَّى بِرَغْمِي حِينَ وَلَّى شَبَابِيَا
إِذَا رُمْتُ أَذْنَى الْقَوْلِ مِنْهُ عَصَانِيَا
وَيَحْفَظُ عَهْدِي فِيهِمْ وَذِمَامِيَا
لِنَفْسِي فَقَدْ أَعْدَدْتُهُ مِنْ تُرَاثِيَا
وَتَلَّمَّ مِنِّي صَارِمًا كَانَ مَاضِيَا
وَقُرْبُكَ مِنِّي جَفْوَةً وَتَنَائِيَا
كَذَا^(٣) الْيَأْسُ قَدْ عَفَى سَبِيلَ رَجَائِيَا
وَلَا غَيَّرْتُ هَذَا السَّنُونَ وَدَادِيَا
أَرَاكَ يَمِينِي وَالْأَنَامَ شِمَالِيَا
نَجُومُ السَّمَاءِ لَمْ تُعَدَّ دَرَارِيَا
كَمَا زَانَ مَنْظُومُ اللَّالِي الْغَوَانِيَا
مُشِيدًا مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ وَاهِيَا^(٤)

(١) في (م) حمى، وهو تصحيف.

(٢) الصُّعْدَةُ: القناة المستوية، يشبه بها القامة المستقيمة. انظر «اللسان» (صعد).

(٣) كذا في النسخ الخطية، وفي «الباهر»: أرى، ومثله في «تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«الخريدة»، و«معجم الأدباء».

(٤) انظر «الباهر»: ١١٠ - ١١١، والقصيدة في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س:
١٦/١٦٨ أ مع اختلاف في بعض الألفاظ، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم
شعراء الشام: ١/٥٦٠ - ٥٦١، و«معجم الأدباء»: ٥/٢٢٨ - ٢٣٠.

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجن، وبادأهم بما يسوؤهم، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهم من شيزر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم^(١) ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد قال: كنت من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس، فبينما أنا بشيزر وإذا قد أتاني إنسان فأخبرني أن بدجلة، يقاربها، أسداً ضارياً، فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلت عن فرسي وربطته، ومشيت نحوه، فلما رأني قصدني ووثب، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزت عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال. فقالت: يا بني، تجهز للخروج من شيزر، فوالله لا يُمكنك عمك من المقام، ولا أحداً من إخوانك، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجُرأة. فلما كان الغد أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه، فتفرقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين^(٢)، وشكوا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه من أن يسلم شيزر

(١) في ٤٣٢/٢ من هذا الكتاب ذكر العماد أن خروجهم كان سنة (٥٢٤ هـ)، وهو وهم منه، لأن خروجهم كان — كما ذكر — بعد وفاة مرشد أبي أسامة، ووفاته سنة (٥٣١ هـ).

(٢) رواية ابن الأثير هذه غير دقيقة، لأن أسامة حين خرج هذه المرة وهي سنة (٥٣٢ هـ) قصد دمشق وأقام بها ثمانين سنين، ثم رحل منها إلى مصر سنة (٥٣٩ هـ) ولم يكن نور الدين قد ملك بعد، وقد اتصل به بعد عوده من مصر سنة (٥٤٩ هـ) كما سلف ص ٣١٥ وانظر «الاعتبار» ط: حتي: ٤ — ٦، وط: قاسم السامرائي: ٢٧ — ٢٩ و «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٢/٣٥٢/أ.

إلى الفرنج، وبقي في نفسه. وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن، فبادر إليها وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها، وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة، وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت^(١). ١١٣/١

قلت: وسيأتي ذكر أسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين^(٢)؛ وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقه إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر؛ أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أولها:

وَلَوْ فَلَماً رَجَوْنَا عَدْلَهُمْ ظَلَمُوا	فَلْيَتَّهَمُ حَكَمُوا فِينَا بِمَا عَلِمُوا
مَا مَرَّ يَوْماً بِفَكْرِي مَا يَرِيهِمْ	وَلَا سَعَتْ بِي إِلَى مَا سَاءَهُمْ قَدَمُ
وَلَا أَضَعْتُ لَهُمْ عَهْداً وَلَا أَطْلَعْتُ	عَلَى وَدَائِعِهِمْ فِي صَدْرِي التَّهَمُ
فَلَيْتَ شِعْرِي بَمَ اسْتَوْجِبْتُ هَجْرَهُمْ	مَلُّوا فَصَدَّهُمْ عَن وَضْلِي السَّامُ
حَفِظْتُ مَا ضَيَّعُوا أَغْضَيْتُ حِينَ جَنَوْا	وَفَيْتُ إِذْ غَدَرُوا وَاصِلْتُ إِذْ صَرَمُوا
حُرِمْتُ مَا كُنْتُ أَرْجُو مِنْ وَدَادِهِمْ	مَا الرِّزْقُ إِلَّا الَّذِي تَجْرِي بِهِ الْقَسَمُ
وَبَعْدَ لَوْ قِيلَ لِي مَاذَا تَحِبُّ وَمَا	تَخْتَارُ ^(٣) مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا لَقُلْتُ هُمْ
لَهُمْ ^(٤) مَجَالُ الْكَرَى مِنْ مُقْلَتِي وَمِنْ	قَلْبِي مَحَلُّ الْمُنَى جَارُوا أَوْ اجْتَرَمُوا ^(٥)
تَبَدَّلُوا بِي وَلَا أَبْغِي بِهِمْ بَدَلاً	حَسْبِي هُمْ أَنْصَفُوا فِي الْحُكْمِ أَوْ ظَلَمُوا

(١) انظر «الباهر»: ١١٢.

(٢) انظر ٤٣٢/٢ من هذا الكتاب.

(٣) في «الديوان»: وما منك.

(٤) في «الديوان»: هم.

(٥) أذنبوا، انظر «اللسان» (جرم).

بَلَغَ أَمِيرِي مُعِينِ الدِّينِ مَأْلَكَةً^(١) وَقُلْ لَهُ أَنْتَ خَيْرُ التُّرْكِ فَضَّلَكَ الـ
هَلَّا أَنْفَتَ حَيَاءً أَوْ مَحَافِظَةً
أَسْلَمْتَنَا وَسَيُوفُ الْهِنْدِ مُغَمَّذَةً
وَكُنْتُ أَحْسَبُ مِنَ وَالَاكِ فِي حَرَمٍ
وَمَا طُمَانُ بِأَوَّلِي مِنْ أُسَامَةَ بِالـ
هَبْنَا جَنِينًا ذُنُوبًا لَا يَكْفُرُهَا
أَلْقَيْتَهُمْ فِي رِضَا^(٢) الْإِفْرَنْجِ مُتَبَعًا
جَرَّبَتْهُمْ مِثْلَ تَجْرِييِي لِتُخْبِرَهُمْ

مِنْ نَازِحِ الدَّارِ لَكِنْ وَدَّهَ أَمَمُ
حَيَاءٍ وَالذِّينَ وَالْإِقْدَامُ وَالْكَرَمُ
مِنْ فِعْلٍ مَا أَنْكَرْتَهُ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ
وَلَمْ يُرَوْ سِنَانُ السَّمْهَرِيِّ^(٣) دَمٌ
لَا يَعْتَرِيهِ بِهِ شَيْبٌ وَلَا هَرَمٌ
سُوفَاءٍ لَكِنْ جَرَى بِالْكَائِنِ الْقَلَمُ
عُذْرٌ فَمَاذَا جَنَى الْأَطْفَالُ وَالْحُرَمُ
رِضَا عِدَى يُسَخِطُ الرَّحْمَنَ فِعْلُهُمْ
فَلِلرَّجَالِ إِذَا مَا جُرِّبُوا قِيَمُ

وهي طويلة^(٤). وطُمان المذكور خادم تركي كان لأتابك* ملك الأمراء
زُنكي بن آق سُنقر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولجَّ فيه، فاشتمل
عليه مُعين الدين للجنسية وحماه، فلما لجَّ فيه سَيَّره إلى العرب، وقام له بما
يحتاجه إلى أن رَدَّه لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عَبَّاس — كما سبق ذكره^(٥) —
وأُسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مُرشد، وطلب من ابن عمه ناصر
الدين محمد بن سُلطان، صاحب شَيْزَر*، الإعانة في فكاكه فلم يفعل. قال:
وَأَذْخَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَجْرَ خِلَاصِهِ وَحُسْنَ ذِكْرِهِ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ نَوْرِ الدِّينِ، رَحِمَهُ

(١) رسالة. «اللسان» (ألك).

(٢) الرمح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).

(٣) في «الديوان»: يد.

(٤) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٤٠ — ٤١، ١٤٦ — ١٤٨، وانظر «خريدة

القصر» قسم شعراء الشام: ٥٣٤/١ — ٥٣٧.

(٥) انظر ص (٣١٠ — ٣١٦) من هذا الجزء.

الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدمي الدَّأَوِيَّة* يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر^(١).

وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري^(٢) أنشد نور الدين:

مُلْكُ بني مُنْقِذِ تَوَلَّى وكان فوقَ السَّمَاءِ سُمُكُهُ
فَاعْتَبِرُوا وانظُرُوا وقولوا سبحانَ مَنْ لا يَزُولُ مُلْكُهُ
والمعروف مُلكُ بني بَرَمَك، فغيره المنشد لما تمثّل به في غرضه،
فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكلُّ مُلْكٍ إلى زَوَالٍ لا يعتري ذا اليقين شَكُّهُ
إِنْ لم يَزُلْ بانتقالِ حالٍ أزال ذا المُلْكِ عنه هُلْكُهُ
والله ربُّ العِبَادِ باقٍ وهالكُ نَدُهُ وشِرْكُهُ
فَقُلْ لمن يَظْلِمُ البَرَايا عَرَّكَ إِمهالُهُ وتَرْكُهُ
تنسى ذنوباً عليك تُحصى يحصرها نَقْدُهُ وحَكُّهُ
كم ناسكٍ نُسِكُهُ رِياءً أوبَقَهُ في المعاد نُسْكُهُ
فاحذَرُ فما يختفي عليه مِنْ عبده صِدْقُهُ وإفْكُهُ^(٣) ١١٤/١

وما أحسنَ ما قال أسامة في كِبَرِهِ:

مع الثمانين عاَثَ الضَّعْفُ في جَلْدِي وساءَني ضَعْفُ رِجْلِي واضطرابُ يَدِي
إذا كَتَبْتُ فخطِّي جِدُّ مضطرب كخطِّ مُرْتَعِشِ الكَفِّينِ مُرْتَعِدِ
فاعجبْ لِضَعْفِ يَدِي عن حَمْلِها قَلَمًا مِنْ بَعْدِ حَظَمِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ

(١) انظر «الاعتبار»: ٥٠، و«ديوان أسامة»: ١٤٩.

(٢) سترد ترجمته في ٤٢٦/٢ من هذا الكتاب.

(٣) لم أجد الأبيات في «ديوانه».

وإنْ مَشَيْتُ وفي كَفِّي العصا ثَقُلْتُ رجلي كأنني أخوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُلْ لمن يَتَمَنَّى طولَ مُدَّتِهِ هذي عواقبُ طولِ العُمُرِ والمُدَدِ^(١)

فصل

في بواقى حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبارُ بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضمَّ إليه من عسكر الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين، بعد المضايقة والتَّناهي في المحاصرة والمصابرة^(٢).

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السُّلطان غياث [الدنياو]^(٣) الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشُّدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه^(٤)، وكان يحبُّ العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل، وقد علَّتْ سِنُّهُ وطال عمره^(٥). وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السَّنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماذ لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منَّ الله عليه به من خلاصه من الشُّدة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلة دَبَّرَها، وسياسةٍ

(١) الأبيات في «الاعتبار»: ١٨٢، مع اختلاف في اللفظ، و«سير أعلام النبلاء»: ١٦٧/٢١.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣.

(٣) ما بين حاصرتين من (م).

(٤) كان ذلك سنة (٥٥٤٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٧٦/١١، وما بعدها.

(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٢/٢٠ - ٣٦٥.

أحكمها وقرّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة، واجتماع
العساكر المتفرقة عنه إليه^(١).

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص
الدين أبي البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين
على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً، حسن البلاغة نظماً ونثراً،
مُسْتَحْسَنَ الفنون من التذهيب البديع، وحُسِّنَ الخط المحرر على الأصول
القديمة المستطرفة، مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء^(٢).

وقال: وفي رابع [عشر]^(٣) شوال ورد الخبر من ناحية بصرى* بأن
واليها فخر الدين سُرخاك^(٤) قُتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه
إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لا يُغالب ولا يدافع^(٥).

قال: وفي أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير
الملقب بصلاح الدين^(٦) وكان في أيام شببته قد حظي في خدمة عماد
الدين زنكي، وتقدّم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحُسِّنَ السفارة وصواب
الرأي، ولما علّت سِنُّهُ ضَعُفَ عن ركوب الخيل، وألجأته الضرورة إلى
الحمل في المحفّة* لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال، ولم ينقص من حسه

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤٢٧/٢ - ٤٢٨،
و«سير أعلام النبلاء»: ٣٦٢/٢ - ٣٦٥.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام:
٢١٩/٢ - ٢٢٣، وفيه منتخبات من شعره، وذكر أنه توفي بعد سنة خمس وخمسين،
وانظر «معجم الأدباء»: ١٦/١٦ - ١٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ سرخال، وهو تصحيف. والضبط من الأصل.

(٥) انظر المصدر السابق، وقد سلفت بعض أخباره في ص (٢٦٦، ٢٦٨) من هذا الجزء.

(٦) هو صلاح الدين محمد بن أيوب الباغبساني، مرت أخباره في أثناء هذا الجزء.

وفهمه ما يُنكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته^(١).

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة [فقهاء]^(٢) بُلُخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيتُ أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، ولا أسرع من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلماً في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر السُّلَمي^(٣)، ووعظ في جامع دمشق عدّة أيام، والنّاس يستحسنون وعظه، ويستظفون فنّه، وسلطة لسانه، وسرعة جوابه، وجِدّة خاطره، وصفاء جسّه^(٤).

قال ابنُ الأثير: وفيها في ذي الحِجّة توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدّيبسي صاحب جزيرة ابن عُمر، وكان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلاً حازماً، ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قُطب الدين مودود بن زُنكي، صاحب المَوْصِل، أخو نور الدين^(٥).

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين [وخمس مئة]^(٦)

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشّام - خذلهم الله تعالى - بمضايقتهم لحصن حارم

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) الضبط من (ل).

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٥) انظر «الباهر» ١١٢ - ١١٣. وقد سلف ذكر الديبسي ص ١٥٧ من هذا الجزء.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق^(١) إلى أن ضعف ومُلك بالسيف، وتزايد طمعهم في شُن الغارات في الأعمال الشَّامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرُّق العساكر الإسلامية، والخُلْف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقاييل المرض العارض له، والله المشيئة التي لا تُدافع والأقضية التي لا تُمانع^(٢).

وقال: وفي صفر ورد الخبر والمُبشِّر بنزول نور الدين من حلب للتوجُّه إلى دمشق، واتَّفَق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شُن الغارات على أعمال حُوران والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنَّهْب والسَّبي والأسر، وقَصْد داريا* والنزول عليها في انسلاخ صفر، ١١٥/١ وإحراق منازلها وجامعها، والتَّنْاهي في إخراجها، وظهر إليهم العسكريَّة والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفَّهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكُفَّار - خذلهم الله تعالى - كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول، سالماً في نفسه وجملته ولقي بأحسن زِيٍّ وترتيب وتجملٍ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدُّعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد، والتأهَّب للجهاد^(٣).

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق

(١) في (م) المناجيق، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»، وكلاهما صحيح، مفرداً منجنيق، وهو من أسلحة الحصار، يقذف به الأحجار والذهب. انظر «صبح الأعشى»: ١٣٦/٢ - ١٣٧.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ - ٣٥١.

وافر من عسكرها إلى غَزَّة وَعَسْقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بهما من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسرًا، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين. وقيل: إن مقدّم الغَزاة في البحر ظفر بعدّة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعُدّدهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً^(١).

قلت: وأرسل إلى مؤيّد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصّالح أبو الغارات طلائع بن رُزَيْك قصيدة يشرح فيها حال هذه الغَزاة، ويحرّض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ الله تعالى عليه من العافية والسّلامة من تلك المرُضة المقدّم ذكرها^(٢). وكان كثيراً ما يكتابه طالباً منه إعلام نور الدين بالغَزاة لحثه عليها، وأوّل هذه القصيدة:

وَتُنْضَى ^(٣) لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ	أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ تَمْضِي الْعِزَائِمُ
وَلَيْسَ سِوَى سُمْرِ الرَّمَاكِ سَلَالِمُ	وَتُسْتَنْزَلُ الْأَعْدَاءُ مِنْ طَوْدِ عِزِّهِمْ
وَيُوطَا جِمَاهَا وَالْأَنْوْفُ رَوَاغِمُ	وَتُغْزَى جِيوشُ الْكُفْرِ فِي عُقْرِ دَارِهَا
وَأِنْ بُذِلَتْ فِيهَا النُّفُوسُ الْكَرَائِمُ	وَيُوفِي الْكِرَامُ النَّادِرُونَ بِنَذِيرِهِمْ
مَضَى نِصْفُهُ حَتَّى أَثْنَى وَهُوَ غَانِمُ	نَذَرْنَا مَسِيرَ الْجَيْشِ فِي صَفَرٍ فَمَا
مَفَاوِزَ وَخَذَ الْعِيسُ فِيهِنَّ دَائِمُ ^(٤)	بِعَثْنَاهُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى الشَّامِ قَاطِعاً
عَزِيمَتَهُ جُهْدُ الظُّمَأِ وَالسَّمَائِمُ ^(٥)	فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيَارِ وَلَا ثَنَى

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.

(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.

(٣) في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٢٠ تمضي. ونضا السيف من غمده وانتضاه: إذا أخرجه. «اللسان» (نضا).

(٤) أي إسراع الإبل فيهن دائم. انظر «معجم متن اللغة»: ٧٢٢/٥.

(٥) مفردها سموم، وهي الريح الحارة. «اللسان» (سمم).

يَهْجُرُ وَالْعُصْفُورُ فِي قَفَرٍ وَكَرِهَ
تُبَارِي خَيْولًا مَا تَزَالُ كَأَنَّهَا
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامٌ^(٣) فِي كُلِّ مَازِقٍ
وَرَفَقَتُهُ عَيْنُ الزَّمَانِ وَحَاتِمٌ
وَوَاجِهَهُمْ جَمْعُ الْفَرَنْجِ بِحَمَلَةٍ
فَلَقَوْهُمْ زُرْقَ الْأَسِنَّةِ وَأَنْطَوُوا
وَمَا زَالَتِ الْحَرْبُ الْعَوَانُ^(٦) أَشَدُّهَا
يُشَبِّهُهُمْ مِنْ لَاحِ جَمْعُهُمْ لَهُ
وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السُّيُوفِ فَقُطِّعَتْ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَاكَ مُخَبِّرٌ
نُقْتُلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا وَتَارَةً
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَا قُلَّ حَدُّهُ

وَيَسْرِي إِلَى الْأَعْدَاءِ وَاللَّيْلُ^(١) نَائِمٌ
إِذَا مَا هِيَ انْقَضَتْ نُسُورٌ قَشَاعِمُ^(٢)
وَمَا يَصْحَبُ الضَّرْغَامَ إِلَّا الضَّرَاغِمُ
وَيَحْيَى وَإِنْ لَاقَى الْمَنِيَّةَ حَاتِمٌ^(٤)
تَهَوُّنٌ عَلَى الشُّجْعَانِ فِيهَا الْهَزَائِمُ
عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَرْجِعْ^(٥) مِنَ الْكُفْرِ نَاجِمٌ
إِذَا مَا تَلَاقَى الْعَسْكَرُ الْمُتَضَاجِمُ^(٧)
بَلْجَةً بِخَرٍ مَوْجَهَا مَتَلَاطِمٌ
رُؤُوسٌ وَحَزَّتْ لِلْفَرَنْجِ غَلَاصِمٌ^(٨)
وَلَا قِيلَ هَذَا وَحَدَّهُ الْيَوْمَ سَالِمٌ
تَدُوسُهُمْ مِنَ الْمَذَاكِي^(٩) الصَّلَادِمُ^(١٠)
وَلَا حَكَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي الْغَوَاشِمُ

(١) في «ديوان أسامة»: والنجم.

(٢) مفردها قشعهم، وهو من النسور المسن الضخم. انظر «اللسان» (قشعهم).

(٣) هو ضرغام بن عامر بن سوار، تولى وزارة مصر سنة (٥٥٨هـ) وقتل سنة (٥٥٩هـ) وسيرد ذكره في حوادثها. انظر «الكامل»: ٢٩٠ - ٢٩١، ٢٩٨ - ٢٩٩، و«وفيات الأعيان»: ٤٤٠/٢، و«التكت العصرية»: ٣٥: وص ٤٠٧ وما بعدها من هذا الجزء..

(٤) عين الزمان، وحاتم، ويحيى، أسماء قواد في الجيش الفاطمي.

(٥) في «ديوان أسامة» ينجم.

(٦) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة. انظر «اللسان» (عون).

(٧) أي المختلف. وفي «ديوان أسامة» المتصادم.

(٨) مفردها الغلصمة: اللحم الذي بين الرأس والعنق. «اللسان» (غلصم).

(٩) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد انتهاء قروحها سنة أو ستان وذلك استتمام القوة، وقروحها: أي انتهاء أسنانها، وإنما تنتهي في خمس سنين. انظر «اللسان» (ذكا، قرح).

(١٠) مفردها: الصلّيم والصلّاد، وهو الشديد الحافر، وقيل: القوي الشديد من الحافر. «اللسان» (صلدم).

تَجَهَّزْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَا تَهِنْ
فَمَا مِثْلُهَا تُبْدِي احتفالاً به ولا
فَعْنَدَكَ مِنَ الْطَافِ رَبُّكَ مَا بِهِ
أَعَادَكَ حَيًّا بَعْدَ أَنْ زَعَمَ الْوَرَى
بِوَقْتِ أَصَابِ الْأَرْضِ مَا قَدْ أَصَابَهَا
وَحَيْمٌ جَيْشُ الْكَفْرِ فِي أَرْضِ شَيْزِرٍ*
وَقَدْ كَانَ تَارِيخُ الشَّامِ وَهْلَكَهُ
فَقُمْ وَاشْكُرِ اللَّهَ الْكَرِيمَ بِنَهْضَةٍ
فَتَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَاهَدْتَ نَرْوِعُهُمْ
وَعَارَاتُنَا لَيْسَتْ تَفْتَرُّ عَنْهُمْ
فَاسْطَوْلُنَا أَضْعَافُ مَا كَانَ سَائِرًا
وَنَرْجُو بَأْنَ نَجْتَاحَ بَاقِيَهُمْ بِهِ

وكتب إليه أيضاً:

يَا سَيِّدًا يَسْمُو بِهِمْ (م) تَه إِلَى الرُّتَبِ الْعَلِيَّةِ
فِيْنَآلٍ مِنْهَا حِينَ يُحْدِ
أَنْتَ الصَّدِيقُ وَإِنْ بَعْدُ
نُنَبِّيكَ (٢) أَنْ جِيْوشَنَا
سَارَتْ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ
فَتُغْيِرُ هَذِي بُكْرَةً
فَالْوَيْلُ مِنْهَا لِلْفَرَسِ
تَه إِلَى الرُّتَبِ الْعَلِيَّةِ
رَمْ غَيْرُهُ أَوْفَى مَزِيَّةِ
تَ وَصَاحِبُ الشِّيمِ الرُّضِيَّةِ
فَعَلْتَ فِعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ
أَبْطَالَهَا مِثْلًا سَرِيَّةِ
وَتُعَاوِدُ الْأُخْرَى عَشِيَّةِ
ج فَقَدْ لَقُوا جَهْدَ الْبَلِيَّةِ

(١) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٢٠ - ٢٢٤، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٣٥ - ١٤٢.

(٢) في «ديوان طلائع بن رزيك»: ١٧٣ يهنيك، وهو تحريف.

جاءت رؤوسهم تلو
وقلائع^(٢) قد قُسمت
وخلائق. كَثُرَتْ من الـ
فانهض فقد أنبيت مجـ
والمم بنور الدين وأعد
فهو الذي ما زال يخـ
ويبيد جمع الكُفر بالـ
فعساه ينهض نهضة
إمّا لنصرة دينه

ح على رؤوس السّمهرية^(١)
بين الجنود على السّوية
أسرى تقاد إلى المنيّة
دّ الدين بالحال الجليّة
للمه بهاتيك القضيّة
لص منه أفعالاً وزيّة
يبض الرّقاق المشرفيّة^(٣)
يفني بها تلك البقيّة
أو ملكه أو للحميّة^(٤)

وكتب إليه أيضاً:

أياها المنقذي^(٥) لأنّ على البُع
ليس فيما نأتيه من برّ أفعـ
فلهذا نرى مواصلة الكتـ
ونناجيك بالمهمّات إذ أنـ

د صديق لنا ونعم الصديق
لك للطالب الحقوق عُقوق^(٦)
ب تباعاً إليك مما يليق
ت بإلقائها إليك خليق

(١) السّمهري: الرمح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).

(٢) هي الخيل المجنوبة، ففي «النكت العصرية»: ٤٦ «وخيّلهم قلائع مجنوبة»، وفي «ديوان طلائع»: بدائع، وهي تحريف.

(٣) السيوف المشرفية منسوبة إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. انظر «اللسان» (شرف).

(٤) الأبيات في «ديوان طلائع بن رزيك»: ١٧٣، وأشار جامعه في هامشه أن الأبيات في «ديوان أسامة بن منقذ»، ولم أجدّها في المطبوع منه.

(٥) نسبة إلى منقذ، وهو أحد أجداد أسامة.

(٦) هذا البيت والذي يليه وردا في نسخة الأصل في آخر القصيدة. وأثبتناهما بما يتناسب مع نسختي (ل) و (م) و «الديوان».

وَأَهْمُ الْمُهْمِ^(١) أَمْرُ جِهَادِ الْ
وَأَصْلَتْهُمْ مِنَّا السَّرَايَا فَأَشْجَا
وَأَبَاحَتْ^(٢) دِيَارَهُمْ فَأَبَادَ الْ
وَانْتَظَرْنَا بِزَحْفِنَا بُرْءَ نَوْرِ الدِّ (م) يَنْ عَلِمًا مِنَّا بِأَنْ سِيُفِيقُ
وَهُوَ الْآنَ فِي أَمَانٍ مِنَ الدِّ هَ وَمَا يَعْتَرِيهِ أَمْرٌ يَعُوقُ
مَا لِهَذَا الْمُهْمِ مِثْلُكَ مَجْدَ الدِّ (م) يَنْ فَاَنْهَضْ بِهِ فَأَنْتَ حَقِيقُ
قُلْ لَهُ لَا عَدَاةَ رَأْيِي وَلَا زَا لَ لَدِيهِ لِكُلِّ خَيْرٍ طَرِيقُ
أَنْتَ فِي حَسْمٍ دَاءِ طَاغِيَةِ الْكُفْرِ (م) أَرَا ذَاكَ الْمَرْجُوَّ وَالْمَرْمُوقُ
فَاغْتَنِمَ بِالْجِهَادِ أَجْرَكَ كَيْ يَلِ قَى^(٣) رَفِيقًا لَهُ وَنَعَمَ الرَّفِيقُ^(٤)
فَأَجَابَهُ أَسَامَةُ بِقَصِيدَةٍ مِنْهَا:

يَا أَمِيرَ الْجِيُوشِ مَا زَالَ لِلْإِسْلَامِ
أَسْمَعَتْ دَعْوَةَ الْجِهَادِ فَلَبَّا
مَلِكٌ عَادِلٌ أَنَارَ بِهِ الدِّيَّ
مَا لَهُ عَنْ جِهَادِهِ الْكُفْرَ وَالْعَدُوَّ
هُوَ مِثْلُ الْحُسَامِ صَدْرٌ صَقِيلُ
ذُو أُنَاةٍ يَخَالُهَا الْغُرُّ إِهْمَا
فَاسْتَلَمَا لِلْإِسْلَامِ كَهْفَيْنِ مَا طَرَّ (م) زَ ثَوْبَ الظَّلَامِ بَرَقَ خَفُوقُ^(٥)
وَالدِّينَ مِنْكَ رُكْنٌ وَثِيقُ
هََا مَلِكٌ بِالْمَكْرُمَاتِ خَلِيقُ
نُ فَعَمَّ الْإِسْلَامَ مِنْهُ الشُّرُوقُ
لِ وَفَعَلَ الْخَيْرَاتِ شُغْلُ يَعُوقُ
لَيْنُ مَسْهُ^(٥) وَحَدُّ ذَلِيقُ^(٦)
لَا وَفِيهَا حَنْفُ الْأَعَادِي الْمُحِيقُ
زَ ثَوْبَ الظَّلَامِ بَرَقَ خَفُوقُ^(٧)

(١) في «الديوان» الأمور.

(٢) في الأصل: فأباحته، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «ديوان أسامة»: تُلْفَى.

(٤) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٠٣.

(٥) في (ل) متته.

(٦) حاد «اللسان» (ذلق).

(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦ - ١٣٧، ١٨٨ - ١٨٩.

وكتب الصَّالح إليه أيضاً:

قُلْ لَابِنِ مُنْقِذِ الَّذِي
فَلِذَاكَ قَدْ أَضْحَى الْأَنَا
كَمْ قَدْ بَعَثْنَا نَحْوَكَ الْ
وَصَدَدَتْ عَنْهَا حِينَ رَا
هَلَّا بَذَلْتَ لَنَا مَقَا
مَعَ أَنَّنَا نُؤَلِّيكَ صَبْ
وَنَبِثُكَ الْأَخْبَارَ إِنْ
سَارَتْ سَرَايَانَا لِقَضْ
تُزْجِي إِلَى الْأَعْدَاءِ جُرْ
تَمْضِي خِفَافاً لِلْمَغَا
حَتَّى لَقَدْ رَامَ الْأَعَا
وَعَلَى الْوُعَيْرَةِ^(٤) مَغْشَرُ
لَمَّا نَأَتْ عَمَّنْ يَحْفُ
نَهَضَتْ إِلَيْهَا خَيْلُنَا
وَالْبَيْضَ لَامِعَةً وَبِي
فَغَدَتْ كَأَنَّ لَمْ يَعْهَدُوا
هَذَا وَفِي تَلُّ الْعَجْو

[قد]^(١) حاز في الْفَضْلِ الْكَمَالَا
مُ عَلَى مَكَارِمِهِ^(٢) عِيَالَا
أَشْعَارَ مُسْرِعَةً عِجَالَا
مَتْ مِنْ مُحَاسِنِكَ الْوِصَالَا
لَا حِينَ لَمْ تَبْذُلْ فِعَالَا
رَأً فِي الْمَوْدَةِ وَاحْتِمَالَا
أَضَحْتَ قِصَاراً أَوْ طَوَالَا
بِ الشَّامِ تَعْتَسِفُ الرُّمَالَا
ذَ الْخَيْلِ أَتْبَاعاً تَوَالِي
رِ^(٣) بِهَا وَتَأْتِينَا ثِقَالَا
دِي مِنْ دِيَارِهِمْ ارْتِحَالَا
لَمْ يَعْهَدُوا فِيهَا الْقِتَالَا
(م) بِهَا يَمِيناً أَوْ شِمَالَا
مِنْ مِضَرَ تَحْتَمِلُ الرُّجَالَا
ضَ الْهَنْدِ وَالْأَسْلَ النَّهَالَا
فِي أَرْضِهَا حَيًّا جِلَالَا^(٥)
لِ^(٦) مَلَأَنَّ بِالْقَتْلِ التَّلَالَا^(٧)

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) في «ديوان أسامة»: فضائله.

(٣) المغار: الإغارة. «اللسان» (غور).

(٤) حصن قرب وادي موسى، قبلي بيت المقدس. «معجم البلدان»: ٣٤٦/٥، ٣٨٠.

(٥) الحلال: جمع بيوت الناس، واحداً: حلة. «اللسان» (حلل).

(٦) في الأصل و (ل): العجال، والمثبت من (م). ومثلها «ديوان أسامة».

(٧) في (م) القلالا. مفرداً قلة، وهي أعلى الجبل. «اللسان» (قل).

إِذْ مَرَّ مُرِّي* لَيْسَ يَلُ
وَاسْتَأَقَ عَسْكَرُنَا لَهُ
وَسَرِيَّةُ ابْنِ فُرَيْجِ الطِّ (م)
سَارَتْ إِلَى أَرْضِ الْخَلِيلِ
فَلَوْ أَنَّ نَوْرَ الدِّينِ يَجِدُ
وَيُسَيِّرُ الْأَجْنَادَ جَهْدُ
وَوَفَى^(١) لَنَا وَلَأَهْلَ دَوْلِ
لَرَأَيْتَ لِلْإِفْرَنْجِ طُرًّا (م)
وَتَجَهَّزُوا لِلسَّيْرِ نَحْنُ
وَإِذَا أَبِي إِلَّا أَطْرَا
عُدْنَا بِتَسْلِيمِ الْأُمُورِ

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يَا أَشْرَفَ الْوُزَرَاءِ أَخِي
نَبَّهْتُ عَبْدًا طَالَمَا
وَعَتَبْتُهُ فَأَنْلَيْتُهُ
لَكِنْ ذَاكَ الْعَتَبَ يُشَدُّ
أَسْفًا لَجَدُّ مَالٍ عِنْدَ
أَمَّا السَّرَايَا حِينَ تَرَى
فَكَذَاكَ عَادَ وَفُودُ بَا

لِقَاءً وَأَكْرَمَهُمْ فَعَالَا
نَبَّهْتُهُ قَدْرًا وَحَالَا
فَخِرًّا وَمَجْدًا لَنْ يُنَالَا
عِلٌّ فِي جَوَانِحِهِ اشْتَعَالَا
هَ إِلَى مَسَاءَتِهِ وَمَالَا
جُعْ بَعْدَ خِفَّتِهَا ثِقَالَا^(٣)
بِكَ مَثْقَلِينَ ثَنَاءً^(٤) وَمَالَا

(١) في «الديوان» وفي.

(٢) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢١٣ - ٢١٥، و«ديوان طلائع بن رزيك»:

١٢٤ - ١٢٦.

(٣) هذا البيت والذي يليه ساقطان من (م).

(٤) في «الديوان» ثناء.

ضِ تَبْتَغِي فِيهَا الْمَجَالَا
لِكَ فِي الدُّنَا سَارَا وَجَالَا
لِكَ فِي بَنِي الدُّنْيَا مِثَالَا
رِ الدِّينِ وَالْقَى بِهِ الرُّجَالَا
دِ الشَّامِ جَمْعاً أَنْ تُذَالَا (٢)
جِ وَجَمْعَهُمْ حَالاً فَحَالَا
نِيَا بِدَوْلَتِهِ اخْتِيَالَا (م)
تِ فَلَمْ يَدْعَ مِنْهَا خِلَالَا
نَ رَأَتْ عَيُونُهُمُ الْكَمَالَا
نَ حِمَى وَلِلدُّنْيَا جَمَالَا (٣)

وَمَسِيرُهَا فِي كُلِّ أَرْ
فَكَذَاكَ فَضْلُكَ مِثْلُ عَذْ
فَاسَلَّمْ لَنَا حَتَّى نَرَى (١)
وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِوَدِّ نَوِ
فَهُوَ الْمُحَامِي عَنْ بِلَا
وَمُبِيدُ أَمْلَاكِ الْفِرَنْ
مَلِكُ يَتِيهِ الدَّهْرُ وَالْدُّ
جَمَعَ الْخِلَالَ الصَّالِحَا
فَإِذَا بَدَا لِلنَّظِيرِ
فَبَقِيَتُمَا لِلْمُسْلِمِ

وَكُتِبَ إِلَيْهِ الصَّالِحُ فِي الْقَصِيدَةِ الْمَقْدَّمِ ذِكْرُهَا (٤) فِي الزَّلَازِلِ:

نِ (٥) عَلَى اللَّهِ أَجْرُهُ مَحْسُوبُ
لِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَكْتُوبُ
رَيْنَ مُذْ كُنْتَ إِذْ تَشَبَّ الْحُرُوبُ
نِ وَلَا فِي الضَّرَابِ يَوْمًا ضَرْبُ
لِقُ فِيمَا تَقُولُهُ وَالْخَطِيبُ
كِرُ أَنْ التَّذْبِيرَ مِنْكَ مُصِيبُ
يُ عَلَى حَامِلِي الصَّلِيبِ صَلِيبُ

وَلَعَمْرِي إِنْ الْمُنَاصِحَ فِي الدِّيدِ
وَجِهَادُ الْعَدُوِّ بِالْفِعْلِ وَالْقُوِ
وَلَكِ الرَّتْبَةُ الْعَلِيَّةُ فِي الْأَمِ
أَنْتَ فِيهَا الشُّجَاعُ مَا لَكَ فِي الطَّعْ
وَإِذَا مَا حَرَضْتَ فَالشَّاعِرُ الْمُفِ
وَإِذَا مَا أَشْرْتَ فَالْحَزْمُ لَا يُنْ
لَكَ رَأْيِي يَقْطَانُ (٦) إِنْ ضَعُفَ الرَّأْ

(١) فِي (ل) تَرَى.

(٢) أَيِ تَهَانَ. انْظُرِ «اللسان» (ذَيْل).

(٣) «دِيوان أسامة بن منقذ»: ٢١٥ - ٢١٧.

(٤) انْظُرِ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٥) فِي «دِيوان أسامة» لِلدِّينِ.

(٦) فِي «دِيوان أسامة»: مَذْقَطُ.

فانهض الآن مُسرِعاً فبأمثا
أَلْتِي مِنَّا^(١) رسالةً عند نور الدِّ (م)
قُلْ لَهُ دَامَ مُلْكُهُ وَعَلَيْهِ
أَيُّهَا الْعَادِلُ الَّذِي هُوَ لِلدَّيْرِ
وَالَّذِي لَمْ يَزَلْ قَدِيمًا عَنِ الْإِسْمِ
وَعَدًا مِنْهُ لَلْفَرَنْجِ إِذَا لَا
إِنْ يَرْمُ نَزَفَ حَقْدِهِمْ فَلَأَشْطَا
غَيْرُنَا مَنْ يَقُولُ مَا لَيْسَ يُمضِي
قَدْ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَا وَضَحَ الْآ
قَصْدُنَا أَنْ يَكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ
فَلَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ مَاضَا
وَعَلَيْنَا أَنْ يَسْتَهْلَ عَلَى الشَّا
أَوْ تَرَاهَا مِثْلَ الْعُرُوسِ تَرَاهَا
لِطَيْنِ السُّيُوفِ فِي فَلَقِ الصُّبِّ
وَلِجَمْعِ الْحَشُودِ مِنْ كُلِّ حِصْنِ

لِكَ مَا زَالَ يُذْرِكُ الْمَطْلُوبُ
يَنْ مَا فِي إِلْقَائِهَا مَا يُرِيبُ
مِنْ لِبَاسِ الْإِقْبَالِ بُرْدُ قَشِيبُ
مِنْ شِبَابٍ وَلِلْحُرُوبِ شَيْبُ^(٢)
سَلَامٍ بِالْعَزْمِ مِنْهُ تُجَلَّى الْكُرُوبُ
قُوَّةُ يَوْمٍ مِنَ الزَّمَانِ عَصِيبُ
ن^(٣) قَنَاهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ قَلِيبُ
بِفَعْلٍ وَغَيْرِكَ الْمَكْذُوبُ
ن^(٤) بِمَاذَا عَنِ الْكِتَابِ تَجِيبُ
أَجَلٌ فِي مَسِيرِنَا مَضْرُوبُ
قَ بِأَدْنَاهُمْ الْفَضَاءُ الرَّجِيبُ
مَ مَكَانَ الْغِيُوثِ مَالٌ صَيْبُ
كُلُّهُ مِنْ دَمِ الْعِدَى مَخْضُوبُ
حَ عَلَى هَامِ أَهْلِهَا تَطْرِيبُ
سَلْبُ مُهْمَلٌ لَهُمْ وَنُهُوبُ

١١٩/١

(١) في «ديوان أسامة»: وألّق عنا.

(٢) هو شبيب بن يزيد الشيباني، أحد كبار ثوار الخوارج، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان مشهوراً بقوته وشجاعته، كان يصبح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. غرق سنة (٥٧٧هـ) على أحد الأقوال. انظر أخباره في «الكامل»: ٣٩٣/٤ وما بعدها، و«وفيات الأعيان»: ٤٥٤/٢ - ٤٥٨، و«البيان والتبيين»: ١٢٨/١ - ١٢٩.

(٣) مفردها شطن، وهو الحبل الطويل، الشديد القتل يستقى به، وتشد به الخيل. «اللسان» (شطن).

(٤) في «ديوان أسامة» فأوضح لنا الآن.

وبحولِ الإله ذاكَ وَمَنْ غَا
لَبَ رَبِّي فَإِنَّهُ مَغْلُوبٌ^(١)
وكتب إليه أيضاً:

أَيُّهَا السَّائِرُ الْمَجْدُ إِلَى الشَّأ
خُذْ عَلَى بِلْدَةٍ بِهَا دَارُ مَجْدِ الدِّ (م) مِ تَبَارَى^(٢) رِكَابُهُ وَالْخِيُولُ
وَتَعَرَّفْ أَخْبَارَهُ وَأَقْرِهْ مِنْ (م) مَا سَلَاماً فِيهِ الْعِتَابُ يَجُولُ
قُلْ لَهُ أَنْتَ نِعَمَ ذُخْرُ الصَّدِيقِ الـ
يَوْمَ لَكُنْكَ الصَّدِيقُ الْمَلُولُ
مَا ظَنَّنَا بِأَنْ حَالِكَ فِي الْقُرْ
بِ وَلَا الْبُعْدِ بِالْمَلَالِ يَحُولُ
لَا كِتَابٌ وَلَا جَوَابٌ وَلَا قَوْلُ
لُ بِهِ لِلْيَقِينِ مَنَا حُصُولُ
غَيْرَ أَنَا نُوَاصِلُ الْكُتُبَ إِذْ قَصَّ (م) رَ مِنْكَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ الْوُصُولُ
ذَاكِرِينَ الْفَتْحَ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ
هَ عَلَيْنَا فَالْفَضْلُ^(٣) مِنْهُ جَمِيلُ
جَاءَنَا بَعْدَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي كُتْ
بِ أَتَاكُم بِهِنَّ مَنَا رَسُولُ
أَنْ بَعْضَ الْأَسْطُولِ نَالَ مِنَ الْإِفْ
سَارَ فِي قِلَّةٍ وَمَا زَالَ بِاللَّ
وَبَقَايَا الْأَسْطُولِ لَيْسَ لَهُ بَعْدُ
فَحَوَى مِنْ عَكَا وَأَنْطَرَسُوس^(٥)
جَمَعَ دِيْوِيَّةً^(٦) بِهِمْ كَانَتْ الْإِفْ
قَيْدَ فِي وَسْطِهِمْ مُقَدَّمُهُمْ مَهْ
لَدَى^(٧) إِلَيْنَا وَجَيْدُهُ مَغْلُولُ

(١) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٦٥ - ١٦٦، و«ديوان طلائع بن رزيك»:
٦٣ - ٦٥.

(٢) في (م): تبارك.

(٣) في «ديوان أسامة»: فالصنع.

(٤) في «ديوان أسامة»: ساحل.

(٥) في «ديوان أسامة»: انظرطوس، وكلاهما صحيح. انظرها في كشف الأماكن.

(٦) هم الداوية، انظر كشف المصطلحات.

(٧) في (م) و«ديوان أسامة»: يهدى.

بعدَ مَثَوَى جماعَةٍ هلكوا بالسَّـ (م) سيفِ منها الغريقُ والمفلولُ^(١)
 هذه نعمةُ الإله وتعديدُ أيادي الإله شيءٌ يَطُولُ
 أبلغنَ قولنا إلى الملك العا دلِ فهو المرجو والمأمولُ
 قلْ له كم تماطلُ الدِّينَ في الكُفِّ (م) ارِ فاحذرُ أن يغضبَ الممطولُ
 سِرِّ إلى القدسِ واختسبْ ذاك في اللِّـ هِ فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليلُ
 وإذا ما أبطا مَسِيرُكَ فاللِّـ هُ إذا حَسَبْنَا ونعمَ الوكيلُ^(٢)

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أميرَ الجيوشِ يا أَعْدَلَ الحُكِّ (م) امِ في فِعْلِهِ وفيما يقولُ
 أنتَ حلَّيتَ بالمكارمِ أهلَ الـ عَصْرِ حَتَّى تَعَرَّفَ المَجْهُولُ
 وقَسَمْتَ الفرنجَ بالغزوِ شَطْرِيـ نِ فهذا عانٍ وهذا قَتِيلُ
 بالغَ العَبْدُ في النِّيابَةِ والتَّحـ رِيضِ وهو المُفَوِّهَ المَقْبُولُ
 فرأى من عَزِيمَةِ الغزوِ ما كا دَتْ له الأرضُ والجبالُ تميلُ
 وإذا عاقَتِ المقاديرُ فاللِّـ هُ إذا حَسَبْنَا ونعمَ الوكيلُ^(٣)

وكتب الصَّالِحُ إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها:

هي البَدْرُ لكنَّ الثِّريا لها قُرْطُـ ومنَ أنجُمِ الجَوَازِاءِ في نَحْرِها سِمَطُـ
 ثم قال بعد وصف السُّيوف:

دَخَرْنَا سَطاها للفرنجِ لأنَّها بهم دونَ أهلِ الأرضِ أَجْدَرُ أن تَسْطُو

(١) في (م) و«ديوان أسامة»: والمقتول.

(٢) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٠، ٢١٧ - ٢١٨، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٢٨ - ١٣٠.

(٣) في «ديوان أسامة»: ١٤٠ - ١٤١ أبيات من القصيدة، لم يرد فيه مما عندنا إلا البيت الأول.

١٢٠/١ وقد كاتبوا في الصُّلح لكنَّ جَوَابَهُمْ
سُطُورٌ خِيُولٌ لَا تُغِبُّ دِيَارَهُمْ
إِذَا أَرْسَلْتَ فَرَعًا^(٢) مِنَ النَّقْعِ فَاحْمًا
رَدَدْنَا بِهِ ابْنَ الْفُنْشِ عَنَّا وَإِنَّمَا
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَيْسَ لِحَافِيهِ الْ-
وَحْسَمُ أَصُولِ الدَّاءِ أَوْلَى بِعَاقِلٍ
فَدَغَ عَنكَ مِيلاً لِلْفَرْنِجِ وَهَذَنَّةٌ
تَأْمَلُ فِكْمَ شَرْطٍ شَرْطَتْ عَلَيْهِمْ
وَشَمَّرَ فَإِنَّا قَدْ أَعْنَا بِكُلِّ مَا

بحضرتنا مَا تُنَبِّئُ الْخَطُّ^(١) لَا الْخَطُّ
لَهَا بِالْمَوَاضِي وَالْقَنَا الشُّكْلُ وَالنَّقْطُ
أَثِيثًا^(٣) فَاسْنَانُ الرِّمَاحِ لَهَا مُشْطُ
يُثْبِتُهُ فِي سَرْجِهِ الشَّدُّ وَالرَّبْطُ
جِرَاحَاتٍ^(٤) إِلَّا الْكِيَّ فِي الطَّبِّ وَالْبِطُّ^(٥)
لِيَبَّ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْمُذْنَفِ الْخِلْطُ^(٦)
بِهَا أَبَدًا يُخْطِي سِوَاهُمْ وَلَمْ يُخْطُوا
قَدِيمًا وَكَمْ غَدِرٍ بِهِ نَقَضَ الشَّرْطُ
سَأَلْتَ وَجَهَزْنَا الْجِيوشَ وَلَنْ يُبْطُوا^(٧)

قال العماد في كتاب «الخريدة»: الصَّالِح أَبُو الْغَارَاتِ طَلَّاحُ بْنُ رُزَيْكٍ
سُلْطَانُ مِصْرَ فِي زَمَانِ الْفَائِزِ، وَأَوَّلُ زَمَانِ الْعَاضِدِ، مَلِكُ مِصْرَ، وَاسْتَوَلَى عَلَى
أَمْرِ صَاحِبِ الْقَصْرِ، وَنَفَقَ فِي زَمَانِهِ النَّظْمُ وَالشَّرُّ، وَقَرَّبَ الْفَضْلَاءَ، وَاتَّخَذَهُمْ
جُلَسَاءَ، وَرَحَلَ إِلَيْهِ ذَوُو الرِّجَاءِ، وَأَفَاضَ عَلَى الدَّانِي وَالْقَاصِي الْعَطَاءَ. وَلَهُ
قِصَائِدُ كَثِيرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ نَفَّذَهَا إِلَى الشَّامِ، يَذْكُرُ فِيهَا قِيَامَهُ بِنِصْرِ الْإِسْلَامِ، وَمَا
يُصَدِّقُ أَحَدٌ أَنَّ ذَلِكَ شِعْرُهُ؛ لَجُودَتِهِ، وَإِحْكَامِ مَبَانِي حِكْمَتِهِ، وَأَقْسَامِ مَعَانِي

(١) الخط: أرض ينسب إليها الرماح الخطية في البحرين. انظر «اللسان» (خطط).

(٢) الفرع: الشعر التام. «اللسان» (فرع).

(٣) شعر أثيث: غزير طويل. «اللسان» (أثث).

(٤) الجائفة: الطعنة التي تنفذ إلى الجوف. «اللسان» (جوف).

(٥) بَطُّ الجرح: شقه. انظر «اللسان» (بطط).

(٦) رجل خِلْط: مغالط العقل. انظر «اللسان» (خلط).

(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٥ - ١٧٨، و«ديوان طلائع بن

رزيك»: ٨٤ - ٨٧، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٦/١ -

بلاغته، فيقال: إن المهذَّب ابن الزُّبير^(١) كان ينظم له، وأن الجليس بن الجَبَّاب^(٢) كان يُعِينه، وله ديوان كبير^(٣) وإحسان كثير^(٤).

ولما جلس في دَسْت الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انْظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حَلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرُ
وَلَكُمْ تَبَخَّرَ آمِنًا وَشَطَّ الصُّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ
ذَهَبُوا فَلَا وَاللَّهِ مَا يَبْقَى الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ
وَلِمِثْلِ مَا صَارُوا إِلَيَّ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ^(٥)

فصل

قال أبويعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزلة رَوَعَتْ أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من مساكنها، ثم سكنت بقدرة محرَّكها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق رَوَعَتْ وأقلقت، ثم سكنت^(٦).

(١) هو أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير، توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسيرد ذكره في ٢٥/٢ من هذا الكتاب. عند ذكر أخيه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير.

(٢) توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسترده ترجمته في ٦/٢ من هذا الكتاب.

(٣) يبدو أن ديوانه فُقد، وقد جمع شعره الدكتور أحمد أحد بدوي، وطبعه في مصر سنة (١٩٥٨م)، ثم استدرج عليه محمد هادي الأميني، وطبع ديوانه في النجف سنة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م) وعلى هذه الطبعة كانت إحالاتنا فيما ورد من شعره.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٣/١ - ١٧٤.

(٥) الأبيات في المصدر السابق، والقصيدة بتمامها في «ديوان طلائع بن رزيك»: ٧٦ -

٧٨.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.

وفي التاسع من ربيع الآخر بَرَزَ نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب* في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قَرَبَ منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم فغنمهم، وقُتل أكثرهم وأسر الباقون، وفيهم^(١) ولد المقدّم المتولي حصن حارم*، وعادوا سالمين^(٢) بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارسٍ واحد^(٣).

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جُمادى الآخرة من السّنة وافي في البقاع مطر هَطَّال بحيث حَدَثَ منه سيلٌ أحمر كما جَرَتْ به العادة في تنبوك^(٤) الشتاء، ووصل إلى بَرَدَى، ووصل إلى دمشق، وكَثُرَ التعجب من آثار قُدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت^(٥).

قال: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أُخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغَدَاة. وورد^(٦) الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان، واتَّفَقَ أن عسكر الإسلام حَدَثَ فيه فشل لبعض المقدّمين، فاندفعوا وتفرّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانه في عِدَّةِ يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصّه

(١ - ١) ما بينها ساقط من (م).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١ - ٣٥٢.

(٣) في اللغة: انتبك: ارتفع، فلعل المعنى في ارتفاع الشتاء، أي في شدته. انظر «معجم متن اللغة»: ٣٨٨/٥.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٢.

(٥) في الأصل: ووصل، والمثبت من (ل) و(م).

في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السَّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولُّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله - وله الحمد - نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولأَم من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرَّق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدت بين الفريقين مراسلات، ولم يستقرَّ بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً^(١).

قلت: وذكر أبو الفتح بنَجير بن أبي الحسن بن بنَجير الأشتري^(٢)؛ المعيد - كان - بالمدرسة النظامية*، في سيرة مختصرة جمَّعها لنور الدين، وقد تقدَّم شيء منها، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست^(٣) وخمسين وخمس مئة، ففضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شزيمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكُفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكُفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه، مناجياً ربَّه بسرِّه يقول: يا ربَّ العباد، أنا العبد الضَّعيف، ملَّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّياية، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُم بما أمرتني به، ونهيتُهُم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبِيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبِيِّك. فاستجاب الله

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٢.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦٢ من هذا الجزء.

(٣) كذا قال بنَجير، وقد وهم، والصواب سنة ثلاث وخمسين كما ساقه أبو شامة في حوادثها.

تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإنَّ أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا ذلك الإلهام^(١) من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفِّين يطْلُبَان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد^(٢)؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحدٍ منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعته، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدَّثنا الشيخ داود المَقْدِسِي خادِم قبر شعيب، على نبينا وعليه السَّلَام، قال: كَانَ أعطاني مَلِكُ القُدس بغلة كُنْتُ رَاكِباً عليها - يعني في ذلك اليوم - واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكُفَّار وقربوا منا شَمْتُ بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلَّبُ خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا: هذا داود راکب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشَّرْذِمَة القليلة، والطَّائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه قال: فترجَّل كلُّ من كان مع الملك العادل وتشقَّعوا إليه، وباسوا الأرض بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الإقليم، فإن جرى - والعياذ بالله - وَهْنٌ وَضَعْفٌ من استيلاء الكُفَّار على المسلمين من الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلَّف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان

(١) في الأصل و (ل): إلهام، والمثبت من (م).

(٢) سيرد ذكره في حوادث سنة (٥٦٥ هـ) حين استولى الفرنج على حصن عكار، وكان

له. انظر ١٤١/٢ من هذا الكتاب.

فرسه كرهاً، ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع. فلما عرف الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامةً عظيمة.

قال: وكان قبل هذه الواقعة بسنة كسر الملك العادل الكُفَّارَ وقتل منهم مقتلةً عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً، على ما حكى عن صلاح الدين^(١) صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة^(٢) ألف أسير مع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعة؛ فلما جنَّ عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمَّع قومٌ من السُّفهاء العوام، وعزموا على التحريض لنور الدين على إعادة ما كان أَبْطَلَ وسامَحَ به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ* وعرصه البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضُّمَّان وحوالة الأجناد*. وكرَّروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتمدوا إلى صواب، ولا نجح لهم قصدٌ في خطاب ولا جواب، وعسفوا النَّاسَ بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضُّجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همُّه إلى النَّظر في هذا الأمر، فتتجت له السعادة وإيثار العدل في الرعية لإعادة إلى ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المعادة إلى ما كانت عليه، من إمامتها وتعفية أثر ضُمَّانها، وأضاف إلى ذلك تبرُّعاً من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجبن

(١) انظر ترجمته ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

(٢) الجريدة: العسكر الحiale لا رجالة فيهم. انظر «اللسان» (جرد).

واللبن، ورَسَمَ بكتابة منشورٍ يُقرأ على كافّة الناس بإبطال هذه الرُسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه، والنّشر لمحاسنه^(١).

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المُستَرشدي من ناحية مصر بجواب ما تحمّله من المراسلات من الملك الصّالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدّمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النورية، وأنواع الأثواب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقة من الإفرنج - خذلهم الله - قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النّزر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربع مئة فارس، وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الجفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب^(٢). ١٢٢/١

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القُسطنطينية في ذي الحِجّة ببروز ملك الروم^(٣) منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الدّيباج^(٤) وتخيمه فيها، وبثّ سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوماً من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتح من أعمال لاوين - ملك الأرمن - عدّة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويعثهم^(٥) على استعمال التيقّظ، والتأهّب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم^(٦).

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو الأمبراطور Manuel، انظر كشاف الأعلام.

(٤) واد بين الجبال، بينه وبين المصيصة عشرة أميال. انظر «معجم البلدان»: ١٠١/٥.

(٥) في (م) ويعثّهم.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٤.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود، فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرَة^(١)، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا، ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه مَلِكْشاه قصد هَمْدَان، ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه^(٢) وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا، وعاد محمد نحو هَمْدَان، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعّوا دار السلطان^(٣).

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأول المحدث المنفرد بعلو رواية كتاب «الجامع الصحيح» للبخاري، رحمه الله تعالى^(٤).

ثم دخلت سنة أربع وخمسين [وخمس مئة]^(٥)

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها^(٦).

(١) سترد ترجمته ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: كان معه، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «الباهر»: ١١٣ - ١١٤.

(٤) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم، السجزي، الهروي، الماليني، سماه أبوه محمداً، فغيره شيخه عبد الله الأنصاري إلى عبد الأول، وكناه بأبي الوقت، وقال له: الصوفي ابن وقته. ولد عبد الأول سنة (٤٥٨هـ)، وقدم بغداد سنة (٥٥٢هـ) وقد انتهى إليه علو الإسناد، وتوفي فيها عن خمس وتسعين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٠٣/٢٠ - ٣١١، وقد ذكر فيه الإمام الذهبي قصة رحلته ماشياً وهو دون العاشرة من هراة إلى بوشنج مع والده طلباً للحديث الشريف.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٤.

وكان قد عرض لنور الدين مرضٌ تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حُسّاد دولته، والمُفسّدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان^(١) الأجناد، وضائق صدور قُطان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصل إليه، لا سيما مع أخبار الرُوم والفرنج، ولما أحسّ من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواصّ أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمْتُ على وصيّةٍ إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. إنني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظلمة الجائرين، فإن أخي نُصرة الدين أعرفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قُطب الدين مودود؛ متولّي الموصِل، لما يرجعُ إليه من عقلٍ وسَداد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رُسُلَه إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً. ثم تفضّل الله تعالى بإيلائه من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس^(٢)، وجلس للدخول إليه والسّلام عليه. وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتّب في الطرقات من يحفظ السّالّكين فيها، فظفر المقيم في منبج* برجلٍ حمّال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولّي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحمّلها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم؛ متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حُجّابه، إلى أخيه نُصرة الدين أمير أميران صاحب حرّان* بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لِتُسَلِّمَ إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ وأعوان.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: والجسم.

عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جَعْبَر* يخبر بقطع نُصْرَةِ الدين الفرات مُجَدًّا إلى دمشق، فأنهض أسد الدين في العسكر المنصور لرده ومنعه من الوصول، فاتَّصل به خبرُ عوده إلى مقره عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسد الدين إلى دمشق، ووصلت رُسُلُ الملك العادل من ناحية المَوْصِلِ بجواب ما تحمّلوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجّهاً إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن المَوْصِلِ اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو، وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد بن علي^(١) لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زِيٍّ وأبهى تجمُّلٍ، وخرج إلى لقائه الخَلْقُ الكثير^(٢).

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله [تعالى]^(٣) من جميل الأفعال وحميد الخلال^(٤)، وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البرِّ والصَّلات، والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السَّلام، ومكَّة ذات الحرم، والبيت المعظَّم، شَرَّفَه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمده وشُكره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاضات والتقريبات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقَّه من الاحترام، وأضحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجّه معه الأمير أسد الدين^(٥).

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب^(٦) تلقَّاه

(١) سترد ترجمته ص ٤٢٠ من هذا الجزء.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: الأخلاق.

(٥) المصدر السابق: ٣٥٦.

(٦) في (ل) كتب فوقها بخط دقيق: صح.

١٢٣/١
 موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار
 ابن الصوفي، وأكرم غاية الإكرام، وأُعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين،
 وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولاً إلى قطب الدين بالشكر له والثناء
 عليه، وأنفذت معه هدايا سنّية، فسار وعاد إلى حلب مُكرّماً، فوجد نور الدين
 عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حوران،
 فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناس بالتجهز لقتال
 الفرنج، ثم أنهض^(١) أسد الدين في قطعة من العسكر للإغارة على بلد
 صيدا، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده، ولم يشعر الفرنج
 إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسرَ عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة،
 وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلتُ: وهذا هو ما تقدّم ذكره بعد المرضة الأولى^(٢) وكان ابن أبي طي
 جعل المرضتين واحدةً بحلب، وأبويعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية
 بدمشق، وهو الأصح، والله أعلم.

فصل

قال أبويعلى: كان قد وصل من ملك الروم رسولٌ من معسكره ومعه
 هدية أتخف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب
 وفعال^(٣)، وقوبل بمثل ذلك. وحكى عن ملك الفرنج - خذله الله - أن
 المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت؛ والمهادنة انعقدت، والله يردُّ بأس كل

(١) في (ل) و(م) أنهد، وكلاهما بمعنى. انظر «اللسان» (نهد).

(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٦، وبغال، وهو تصحيف.

واحدٍ منهما إلى نحره، ويذيقه عاقبة غدره ومكره^(١).

قال: ووردت أخبار من ناحية ملك الروم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعامل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشامية لإيناس أهلها من استيحاشرهم من شر الروم والإفرنج - خذلهم الله تعالى - فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشيْزُر*^(٢).

قال: وفي ثالث ربيع الأول^(٣) وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النيام وأزعجت اليقظي، وخاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه^(٤).

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هَبَّت ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار، صيفيها وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت^(٥).

قال: وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقارير، وأجيب ملك الروم إلى ما التمه من إطلاق مقدمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم^(٦). وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاعفه من الإتحاف بأثواب الدِّباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجواهر النفيس، وخيمة من الدِّباج لها قيمة وافرة، وما استحسّن من الخيول الجبلية. ثم رحل عقيب ذلك

(١) «ذيل تاريخ دمشق» ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ في ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر ص ١٩٦ من هذا الجزء.

في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً - ولم يؤذ أحداً من المسلمين - في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها^(١).

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قُطْب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والإفرنج سِماطاً عظيماً هائلاً تنهى فيه، وفَرَّق من الحُصْن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخَلْع من أنواع الدِّياج المختلف وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحُسْن والتجَمُّل. واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من النَّاس غفلة باشتغالهم بالسِّمَاط وانتباهه، فغاروا على العرب من بني سامة^(٢) وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في أثرهم فريقاً وافراً من العسكر، فأدركوهم واستخلصوا منهم جميع ما أخذوه، وأُعيد إلى أربابه^(٣).

قال: وتقرَّر الرأي النُّوري على التوجه إلى مدينة حَرَّان* لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نُصْرَة الدين حسبما رآه في ذلك من الصُّلاح، فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرَّر الحال على أمان^(٤) من بها، وسلِّمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقُرِّرت أحوالها، وأُحسن النظر في أحوال

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: أسامة، وهو تصحيف، وسامة هو ابن لؤي بن غالب، أحد أجداد العرب. انظر «جهرة أنساب العرب»: ١٧٣، وما بعدها.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨ إيمان، وهو تصحيف.

أهلها، وسلّمها للأمير زين الدين [عليّ]^(١) على سبيل الإقطاع، وفوض إليه تدبير أمورها^(٢).

ثم دخلت سنة خمس وخمسين [وخمس مئة]^(٣)

قال الرئيس أبويعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بُزّان بن مامين؛ أحد مقدّمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفٌ بالشجاعة والبسالة والسّماحة، مواظبٌ على بث الصّلات والصّدقات في المساكين والضعفاء والفقراء، مع الزمان في كلّ عصر ينقضي وأوان، جميل المحيّا، حسن البشر في اللّقاء. وحمل من داره بباب الفراديس* إلى الجامع للصّلاة، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه^(٤)، فدفن فيها في اليوم، ولم يخلُ من باكٍ عليه، ومؤيّن له، ومتأسّف على فقده؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله^(٥).

قلتُ: وله أوقاف على أبواب^(٦) البر منه المدرستان المنسوتان إليه، إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة

(١) ما بين حاصرتين من (ل)، وانظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) هي المدرسة المجاهدية البرانية، وتسمى الآن مسجد السادات المجاهدية، يقع في سوق العمارة الجوانية على باب العمارة، وهو ما كان يسمى بباب الفراديس قديماً. انظر «ثمار المقاصد»: ٢٢٣، و«منادمة الأطلال»: ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩، وقد سلفت بعض أخباره في أثناء هذا الجزء.

(٦) في الأصل: وجوه، وكتب فوقها بخط دقيق: أبواب، وكأنه تصحيح لها، وهو المثبت في (ل) و (م).

١٢٤/١ [باب^(١)] دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين^(٢) رحمه الله تعالى. وله وقفٌ على من يقرأ السُّبع كلَّ يوم بمقصورة الخَضِر بجامع دمشق؛ وغير ذلك. وقد مدحه العَرَقْلَةُ^(٣) وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهلِّ صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي^(٤)؛ قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين رقعةً يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله، وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري^(٥)؛ وهو المشهور بالتقدم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده^(٦).

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصَّدقة الجارية بعده على الفقراء كل يوم جمعة وإليه ينسب الشُّبَّاك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مُدَّة، ويصلُّون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله تعالى^(٧).

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وسيرد ذكره دار سيف ص ٤١٥ من هذا الجزء.

(٢) هي المدرسة المجاهدية الجوانية، انظر كشف الأماكن.

(٣) انظر «ديوان عرقلة الكلبي» ٧٨ - ٨٠، وغيرها.

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣ من هذا الجزء.

(٥) سترد ترجمته ٤٢٦/٢ من هذا الكتاب.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٨ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: وفي سنة خمس وخمسين توفي أمير المؤمنين المقتفي بن المستظهر، ومولده سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبوالمظفر يوسف، ولقب المستنجد بالله. فأقرَّ ابن هُبيرة^(١) على وزارته^(٢).

قال: وفيها حجَّ زين الدين عليُّ وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخلعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمدَّ يده إلى كمراته^(٣) وأخرج ما شدَّ به وسطه، وقصَّر الجُبَّة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

قلت: وفي هذه السنة توفي المستخلف بمصر، الملقَّب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ؛ وهو آخر خلفاء مصر. ووصل من الصَّالح بن رُزَّيْكَ كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه:

هنا بنعمي قلَّ عن قَدْرِها الشُّكْرُ وصبراً لِرُزْءٍ لا يقومُ به الصَّبْرُ
مضى الفائز الطُّهر الإمام وقام بالـ إمامة فينا بعده العاضدُ الطُّهرُ
إماماً هُدى، لله في نَقْلِ ذَا إلى كرامته وفي إقامة ذَا سِرُّ
فَعش أبداً واسلم لهم يا كفيْلهم تدافعُ عنهم كلُّ حادثةٍ تَعْرُو^(٤)

(١) في هامش (ل): «حاشية: وكان الوزير ابن هبيرة رجلاً عالماً، صار صاحب قول في مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله».

(٢) انظر «الباهر»: ١١٤.

(٣) كمرات جمع، مفردا كمر كلمة فارسية تعني الحزام، وكان زين الدين يشد على وسطه كل ما يحتاج إليه. انظر «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي (الترجمة العربية): ٣١٣ - ٣١٤، و «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» المجلد ٤٨٨/٥٠ و ٤٠/٢ من هذا الكتاب.

(٤) لم أجد الأبيات في المطبوع من «ديوان أسامة».

ثم دخلت سنة ست وخمسين [وخمس مئة] (١)

قال ابن أبي طي (٢): في هذه السنة حَجَّ أسد الدين من الشام، وخرج في تجمل (٣) عظيم وشارة رائعة، واستصحب معه من الأزواد والكسَى أشياء عظيمة ويقال: إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب. وحَجَّ علي كوجك المعروف بزين الدين من العراق، وحَجَّ ملهم (٤) أخو ضِرْغام وزير مصر، فكان الموسم (٥) بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً، وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوماً عظيماً.

وقال أيضاً: فيها قُتل الصَّالح بن رُزَيْك بمصر (٦)، وكان سبب قتله أن عمّة العاضد عملت على قتله، ونفّذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصَّالح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمّة العاضد. قال: وإنما كرهته عمّة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحِفْظِهِ للأموال، وقَتْلِ الصَّالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبتهم، وتمكّن من الدولة تمكناً حسناً. ثم إن عمّة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقومٍ من السُّودان مالاً جزيلاً

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في (م) الحلبي.

(٣) في الأصل: محمل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: معه، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٦٤ من هذا الجزء، ومن حج أيضاً في هذا العام الأمير أسامة بن منقذ. انظر ص ٣٩٦ من هذا الجزء وص ٨٤ من الجزء الثاني.

(٥) في الأصل: الموكب، وعلى هامشه: الموسم، وكأنه تصحيح له، وهو المثبت في (ل) و (م).

(٦) سلفت بعض أخباره وأشعاره، وفي «كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية»

لعمارة اليميني أخبار وافية عنه، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر:

١٧٣/١ - ١٨٥، و«وفيات الأعيان»: ٥٢٦/٢ - ٥٣٠، و«سير أعلام النبلاء»:

٣٩٧/٢٠ - ٣٩٩، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٧٥ من هذا الجزء.

حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلّم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة، فغثر الصّالح بأذياله، فطعنه أحدُهم بالسيف في ظاهر رقبته، فقطع أحد عمودي الرّقبة، وحُمِل إلى باب القصر، وأصيب ولده رُزّيك في كتفه. ولما حصل الصّالح في داره أوصى ولده رُزّيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورُخِصَ سعر الشعر، وانخفض عِلْمُ العِلْم، وضاق فضاء الفضل، وعمَّ رُزءُ ابن رُزّيك، وملك صَرْفُ الدّهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ، منحوسة الجَد^(١)، منكوسة الرّاية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني^(٢)، وجعلها مغاني المعاني، وأنشر رميمها، وعطّر نسيمها، وتسلم قصرها، والتزم خصرها^(٣). قال زين الدين الواعظ^(٤): عمل فارسُ المسلمين؛ أخو الصّالح دعوةً في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلّمها إلي:

أَنْسَتْ بِكُمْ دَهْرًا فَلَمَّا ظَعَنْتُمْ اسْمًا تَقَرَّرْتُ بِقَلْبِي وَحْشَةً لِلتَّفَرُّقِ
ومنها:

وَأَعْجَبَ شَيْءٌ أَنَّنِي يَوْمَ بَيْنِكُمْ بَقِيتُ وَقَلْبِي بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا بَقِيَ
أَرَى الْبُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَبَّتِي كَبُعْدِ الْمَدَى مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ

(١) كذا أعجمت الكلمتان في (ل) و(م)، وفي «الخريدة». قرأها المحقق منحوسة الحظ، ثم غير الكلمة الثانية من عنده إلى «منسوخة الجَد» مخالفاً أصله من دون نص يؤيده.

(٢) يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٤/١ - ١٧٥.

(٤) هو علي بن إبراهيم بن نجا، أبو الحسن، المعروف بابن نُجَيْة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة (٥٩٩ هـ) بمصر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في سنة وفاته. وهو الذي نَمَّ على عمارة اليمني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنعهم صلاح الدين كما سيمر في ٢٨٢/٢، وانظر ٢١٣/٣، ٣٨٠.

ألا جَدَّدي يا نفسُ وجداً وحسرةً فهذا فراقٌ بعده ليسَ نلتقي

قال: فلم يبقَ بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقُتل في شهر رمضان^(١).

قلت: ولعمارة اليميني ولغيره في الصالح مدائح ومراثٍ جلييلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب «الوزراء المصرية» وقال: لم يكن مجلس أنسه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضاً، قد شَمَّ أطراف المعارف، وتميَّز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحبُّ الأدب وأهله، يُكرم جلسيه، ويسُطُّ أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السُّنة وسمع كلامهم^(٢).

قال: ودخلتُ عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس قد كتبَ فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة، وهما:

نحنُ في غَفْلَةٍ ونومٍ وللمو تِ عيُونُ يقظانةٌ لا تنامُ
قد رحلنا إلى الجِمامِ سنيناً ليت شِعْري متى يكونُ الجِمامُ^(٣)

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدتُ ابنه مجد الإسلام في دار سعيد السُّعداء، ليلة السَّادس عشر من شهر رمضان، أو السَّابع عشر، قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه وأنت يمينُ إن سطا وشِمالُ
لرُبُّنْبُهُ العُظمى وإن طالَ عُمرُهُ إليك مصيرٌ واجبٌ ومآلُ
تخالسك اللَّحْظُ المصُونُ ودونها حجابُ شريفٌ لا انقضى وحجالُ

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٨٤/١.

(٢) انظر «النكت العصرية»: ٤٥، ٤٨.

(٣) «النكت العصرية»: ٤٨ - ٤٩.

قال: فانتقل المُلْكُ بعد ثلاثٍ^(١) إليه.

قال: ومما رثيته به - وإن [كان]^(٢) كثيراً - قولي:

أفني أهل ذا النّادي عليمٌ أسائِلُهُ سمعتُ حديثاً أحسّدُ الصّمَّ عنده فقد رابني من شاهدِ الحال أنني وأني أرى فوقَ الوجوه كآبَةً دعوني فما هذا بوقتِ بكائه ولم لا نبكيه ونندبُ فقده فياليت شعري بعد حُسنِ فعّاله أيكرّم مثوى ضيفكم وغريبكم	فإني لما بي ذاهبُ اللَّبِّ ^(٣) ذاهِلُهُ ويذهلُ وإعيه ويخرسُ قائلُهُ أرى الدّستَ منصوباً وما فيه كافِلُهُ تدلُّ على أنّ الوجوه ثواكِلُهُ سيأتيكم طُلُ البكاءِ ووابِلُهُ وأولادنا أيتامُهُ وأرامِلُهُ وقد غاب عَنّا ما بنا الدّهْرُ فاعِلُهُ فيسكن أم تُطوى بينَ مراجِلِهِ ^(٤)
---	---

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طَمَعُ المرءِ في الحياةِ غرورُ وطويلُ الآمالِ فيها قصيرُ

ومنها:

ولكم قَدَرُ الفتى فأتته فضّ ختمَ الحياةِ عنك جِمامُ ما تخطى إلى جلالِكَ إلا يا أميرَ الجيوشِ هل لك عِلْمُ إنّ قبراً خلّته لَغني انطوى ذلك البِساطُ وعهدي	نُوبٌ لم يُحطَ بها التّقديرُ لا يراعي إذناً ولا يستشيرُ قَدَرُ أمره علينا قديرُ أنّ حرَّ الأسى علينا أميرُ إنّ دهرأ فارقته لفقيرُ وهو بالعلمِ والنّدى مغمورُ
---	---

(١) «النكت العصرية»: ٤٩.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل (ل)، والمثبت من (م).

(٣) في (م) القلب.

(٤) «النكت العصرية»: ٥٠.

لَمْ يَمُتْ مَنْ ثَنَاؤُهُ مَنْشُورُ
أَوْزِيرُ يَغْبُ فِهَذَا وَزِيرُ
دَوْلَةٍ عَادِلِيَّةٍ لَا تَجُورُ
رُبَّ حُزْنٍ فِي الطَّيِّ مِنْهُ سُرُورُ
قِيلَ فِي الْحَالِ كَسْرُكُمْ مَجْبُورُ
وَلَنْعَمَ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ

لَا تَنْظُرِ الْأَنَامُ أَنَّكَ مَيِّتُ
إِنْ مَضَى كَافِلٌ فَهَذَا كَفِيلُ
دَوْلَةٍ صَالِحِيَّةٍ خَلَفَتْهَا
أَعْقَبَ الدَّهْرُ بِؤْسَهُ بَنَعِيمِ
مَا شَكُونَا كَسَرَ النَّوَائِبِ حَتَّى
نَصَرَ النَّاصِرَ الْعُلَا بِالْعَوَالِي

١٢٦/١

وقال أيضاً يرثيه، ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده
بالقرفة، قصيدة طويلة، منها:

أَسْفَاً فَكَيْفَ وَقَدْ طَمَى التِّيَّارُ
خَطْبُ بَأْنَفِ الدَّهْرِ مِنْهُ صَغَارُ
قُطْباً رَحَى الدُّنْيَا عَلَيْهِ تُدَارُ
عَمَرَتْ بِهِ الْأَجْدَاثُ وَهِيَ قِفَارُ
عَشِيَتْ بِرُؤْيَةٍ نَعَشِهِ الْأَبْصَارُ
وَنَظَامُهَا أَسْفَاً عَلَيْهِ نِشَارُ
خَفِضَتْ لِرَفْعَةٍ قَدَرِهَا الْأَقْدَارُ
قَدْ شَيَّعَتْهَا الْخَمْسَةُ الْأَبْرَارُ
حَفَّتْ مَلَائِكَةُ بِهَا أَطْهَارُ
فِي جَانِبِهِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ
إِسْلَامٍ وَهُوَ الصَّالِحُ الْمُخْتَارُ
بُنِيَتْ لِنَقْلَتِهِ الْكَرِيمَةِ دَارُ
تَابُوتِهِ وَعَلَى الْكَرِيمِ يُغَارُ
حَسَدَتْ قَرَأَتْهَا لَهُ الْأَمْصَارُ
تَرْجُو مِثَابَةَ قَصْدِهَا الزُّوَارُ

قَدْ كُنْتُ أَشْرَقُ مِنْ ثِمَادٍ مَدَامَعِي
عَمَّ الْوَرَى يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَصَّنِي
مَا أَوْحَشَ الدُّنْيَا غَدِيَّةً فَارَقَتْ
خَرِبَتْ رِبُوعُ الْمَكْرَمَاتِ لَوَاحِدِ
نَعَشُ الْجُدُودِ الْعَائِرَاتِ مُشَيِّعُ
نَعَشٍ تَوَدُّ بَنَاتُ نَعَشٍ لَوْ عَدَّتْ
شَخَصَ الْأَنَامُ إِلَيْهِ تَحْتَ جِنَازَةٍ
سَارَ الْإِمَامُ أَمَامَهَا فَعَلِمْتُ أَنَّ
وَمَشَى الْمُلُوكُ بِهَا حُفَاةً بَعْدَمَا
فَكَأَنَّهَا تَابُوتُ مُوسَى أُوْدِعَتْ
لَكِنَّهُ مَا ضَمَّ غَيْرَ بَقِيَّةِ الْـ
أَقْطَنْتَهُ دَارَ الْوِزَارَةِ رِيثَمَا
وَتَغَايَرَ الْهَرَمَانُ وَالْحَرَمَانِ فِي
أَثَرَتْ مِضْراً مِنْهُ بِالشَّرَفِ الَّذِي
وَجَعَلَتْهَا أَمْنًا بِهِ وَمِثَابَةً

قَدْ قُلْتُ إِذْ نَقَلُوهُ نَقْلَةً ظَاعِنٍ
 مَا كَانَ إِلَّا السَّيْفَ جَدَّدَ غِمْدَهُ
 وَالْبَذَرَ فَارَقَ بُرْجَهُ مَبْدَلًا
 وَالْغَيْثَ رَوَى بِلْدَةً ثُمَّ انْتَحَى
 يَأْمُسِبِلَ الْأَسْتَارِ دُونَ جَلَالِهِ
 مَا لِي أَرَى الزُّوَارَ بَعْدَ مَهَابَةٍ
 غَضِبَ إِلَاهِهِ عَلَى رِجَالٍ أَقْدَمُوا
 لَا تَعْجَبَا لِقُدَارِ نَاقَةٍ صَالِحٍ
 وَاجْتَلَيْتَا لِلْبَيْضِ كَيْفَ تَطَاوَلَتْ
 وَاحْشَرْتَا كَيْفَ انْفَرَدَتْ لِأَعْبُدِ
 رَصْدُوكَ فِي ضَيْقِ الْمَجَالِ بَحِثْ لَا إِلَهَ
 مَا كَانَ أَقْصَرَ بَاعَهُمْ عَنْ مِثْلِهَا
 وَلَقَدْ ثَبَّتْ ثَبَاتَ مُقْتَدِرٍ عَلَى
 وَتَعَثَّرَتْ أَقْدَامُهُمْ بِكَ هَيْئَةً
 أُحْلِلْتَ دَارَ كَرَامَةٍ لَا تَنْقُضِي
 يَا لَيْتَ عَيْنِكَ شَاهَدَتْ أَحْوَالَهُمْ
 وَقَعَ الْقِصَاصُ بِهِمْ وَلَيْسُوا مَقْنَعًا
 ضَاقَتْ بِهِمْ سَعَةُ الْفِجَاجِ وَرَبَّمَا
 وَتَوَهَّمُوا أَنْ الْفِرَارَ مَطِيَّةً
 طَارُوا فَمَدَّ أَبُو الشَّجَاعِ لَصِيدَهُمْ
 فَتَهُنَّ بِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَمِيتَةٍ

نَزَحَتْ بِهِ دَارٌ وَشَطٌّ مَزَارُ
 بِسَوَاهِ وَهُوَ الصَّارِمُ الْبِتَّارُ
 بُرْجًا بِهِ تَتَشَعَّشَعُ الْأَنْوَارُ
 أُخْرَى فَنَوُّ سَحَابِهِ مِذْرَارُ
 مَاذَا الَّذِي رُفِعَتْ لَهُ الْأَسْتَارُ
 فَوْضَى وَلَا إِذْنٌ وَلَا اسْتِثْمَارُ
 جَهْلًا عَلَيْكَ وَآخِرِينَ أَشَارُوا
 فَلِكُلِّ دَهْرٍ نَاقَةٌ^(١) وَقُدَارُ^(٢)
 سَفَهَا بِأَيْدِي السُّودِ وَهِيَ قِصَارُ
 وَعَبِيدُكَ السَّادَاتُ وَالْأَحْرَارُ
 خَطِيئٌ مَتَسَعٌ وَلَا الْخَطَّارُ
 لَوْ كُنْتَ مَتْرُوكًا وَمَا تَخْتَارُ
 خِذْلَانَهُمْ لَوْ سَاعَدَ الْمَقْدَارُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِالذُّيُولِ عِثَارُ
 أَبَدًا وَحَلَّ بِقَاتِلِكَ بَوَارُ
 مِنْ بَعْدِهَا وَرَأَتْ إِلَى مَا صَارُوا
 يُرْضِي وَأَيْنَ مِنَ السَّمَاءِ غُبَارُ
 نَامَ الْعَدُوُّ وَلَا يَنَامُ الثَّارُ
 تَنْجِي وَأَيْنَ مِنَ الْقَضَاءِ فِرَارُ
 شَرَكُ الرَّدَى فَكَأَنَّهُمْ مَا طَارُوا
 دَرَجَتْ عَلَيْهَا قَبْلَكَ الْأَخْيَارُ

(١) فِي هَامِشِ الْأَصْلِ وَ (ل) خ صَالِحٌ، وَهِيَ رَوَايَةُ (م).

(٢) انْظُرْ حَاشِيَتَنَا رَقْمَ ٣ ص ٨٨ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

مات الوصي بها وحمزة عمه وابن البتول وجعفر الطيار
نلت السعادة والشهادة والعلا حياً وميتاً إن ذا لفخار
ولقد أقر العين بعدك أروع لولاه لم يك للعلا استقرار
الناصر الهادي الذي حسنته عن سيئات زماننا أعدار
لما استقام لحفظ أمة أحمد عمرت به الأوطان والأوطار^(١)

ثم دخلت سنة سبع وخمسين [وخمسة مئة] ^(٢)

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم* وحصرها، وجد في قتالها، فامتنعت عليه؛ لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج؛ فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك مئة عليّ وفصل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت^(٣) العيس في عامي الذي مضى نحو بيت الله ذي الركن والحجر^(٤)
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما تحملت من وزر الشببية عن ظهري^(٥)

(١) وردت بعض أبيات من القصيدة في «النكت العصرية»: ٦٣ - ٦٥. مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في (م) دخلت.

(٤) في (م) مضى نحو بيت الله والركن والحجر.

(٥) انظر «الباهر»: ١١٦.

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها، فكتب على لوحٍ من رُخام:

احذَرِ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا تَغْتَرَّ بِالْعُمَرِ الْقَصِيرِ
وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَنْ صَرَعَتْهُ مِنَّا بِالْغُرُورِ
عَمَرُوا وَشَادُوا مَاتُوا هُ مِنْ الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ
وَتَحَوَّلُوا مِنْ بَعْدِ سُكُنَاهَا إِلَى سُكْنَى الْقُبُورِ^(١)

قلت^(٢): ابنُ أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقب عين الدولة، مات سنة خمسٍ وستين وأربع مئة، واستولى على صور ابنه النفيس^(٣).

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين [وخمس مئة]^(٣)

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقعة تحت حصن الأكراد*، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج من ظهر خيمته عجلًا بغير قَبَاء، فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رِجله شِبْحة^(٤)، فنزل

(١) «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٨١.

(٢ - ٢) ما بينها ساقط من (م).

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه. انظر «تكملة المعاجم العربية»

لدوزي: ٧١٩/١، و«معجم متن اللغة»: ٢٦٦/٣.

إنساناً من الأكراد فقطعها، فنجنا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلّفي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوق والغلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة قَدَس* على فرسخٍ من حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً. ولما نزل على بحيرة قَدَس اجتمع إليه كلُّ من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوَبَّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قُلُوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدُّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُند، فأكثر، وفرَّق ذلك جميعه على من سَلِمَ، وأما من قُتل^(١) فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

١٢٨/١

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة؛ لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر الخرج إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك. وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادَّعى شيئاً كثيراً

(١) في «الباهر»: وأما من قتل أو أسر.

علم بعضُ النواب كذبه فيما أدّعه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنّهون إليه القضية، ويستأذنونَه في تحليف الجندي على ما أدّعه. فأعاد الجواب: لا تكذّروا عطاءنا، فإنني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارتٍ كثيرةً وصلاتٍ عظيمةً للفقهاء والفقراء والصّوفية والقُرّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل. فغضب من هذا وقال: والله^(١) إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، «فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»^(٢). كيف أقطع صلّات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لا تخطيء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رأيته بسهام قد تخطيء وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرّفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها^(٣)، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرّقوا^(٤).

قلتُ: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد* يقول أبو الفرج

(١) في (ل) إني والله.

(٢) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذا حديث حسن صحيح، أورده الترمذي عن أبي الدرداء، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: أبغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون أو تنصرون بضعفائكم. وأخرج النسائي من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها: بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم. وفي «صحيح البخاري» عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم. والله أعلم.

قلت: حديث أبي الدرداء عند الترمذي في «جامعه» (١٧٠٢)، وحديث سعد عند النسائي في «المجتبى» (٣١٧٨) وعند البخاري في «صحيحه» (٢٨٩٦).

(٣) إليها: ليست في (م).

(٤) انظر «الباهر»: ١١٦ - ١١٨.

عبد الله بن أسعد^(١) الموصلي نزيل حمص، من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله^(٢) تعالى، أولها:

طَبِي المَواضِي وأَطرافُ القَنَا الذُّبُلِ	ضَوامِنُ لك ما حازوه من نَفَلِ ^(٣)
وكافِلُ لك كافٍ ما تحاولُه	عِزٌّ وعِزٌّ وبأسٌ غير مُتَحَلِّ ^(٤)
وما يَعيِّيكُ ما حازوه ^(٥) من سَلَبِ	بالخَتَلِ قد تُؤسِرُ ^(٦) الأَسادُ بِالجِئَلِ
ولَئِما أَخَلَدُوا جُبْنًا إلى خُذَعِ	إِذْ لم يَكن لَهُمُ بالجِيشِ من قَبَلِ
واستيقظوا وأرادَ اللَّهُ غَفَلَتُكُمْ	لَيَنفُذَ القَدَرُ المَحْتومُ في الأَزَلِ
حتى أتوكم ولا المَاضِي ^(٧) من أَمَمِ	ولا الطَّبِي كَتَبُ من مُرَهَقِ عَجَلِ
قَنًا لَقِيَ وقِسي غيرُ مُوتَرَةٍ	والخَيْلُ عازِبَةٌ تَرعى مع الهَمَلِ ^(٨)
ما يصنَعُ اللَّيْثُ لا نَابٌ ولا ظُفْرُ	بِما حَوالِيهِ من عُفْرِ ومن وُغَلِ
هَلًا وقد رَكِبَ الأَسَدُ الصُّقُورَ وقد	سَلُّوا الطَّبِي تحتَ غاباتٍ من الأَسَلِ
ولَئِما هُمُ أَضاعوا حَزَمَهُمُ ثِقَةً	بِجَمْعِهِمُ وَلَكُمُ من واثِقِ خَجَلِ
بِني الأَصافِرِ ^(٩) ما نِلْتُمُ بِمَكْرِكُمْ	والْمَكْرُ في كُلِّ إنسانٍ أَخو الفَسَلِ
وما رَجَعْتُمُ بِأَسرى خابَ سَعْيُكُمْ	غيرَ الأَرادِلِ ^(١٠) والأَتباعِ والسَّفَلِ

(١) في الأصل أبو الفرج أبو عبيد الله، وفي (ل) عبيد الله، والمثبت من (م) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٢) في (م) رحمه الله.

(٣) في (ل) ثَقَل.

(٤) في (ل) و(م) منتقل، وعلى هامش (ل) خ منتحل.

(٥) في «الديوان» و«الخريدة»: ما نالوه.

(٦) في «الديوان» و«الخريدة» توتر.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٤ من هذا الجزء.

(٨) في «الخريدة» الحمل.

(٩) في «الديوان»: بني الأصيفر.

(١٠) في «الديوان» الأصاغر.

وَالسُّمَرُ مَرْكُوزَةٌ وَالْبَيْضُ فِي الْخِلَلِ
مِثَالُ آخِذِهَا فِي الشَّكْلِ وَالطُّوْلِ
وَالْحَرْبُ دَائِرَةٌ مِنْ كَفِّ مُعْتَقِلِ
يَخْلُو مِنَ الْعَيْنِ إِلَّا غَيْرُ مُكْتَمِلِ
خَيْرُ الْأَنَامِ وَفِيهِمْ خَاتَمُ الرُّسُلِ
الْبَيْضُ كَالْبَيْضِ وَالْأَذْرَاعُ كَالْحُلَلِ
بِالصَّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ

سَلَبْتُمْ الْجُرَدَ مُعْرَاةً^(١) بِلَا لُجْمٍ
هَلْ آخَذَ الْخِيلَ قَدْ أَرَدَى فَوَارِسَهَا
أَمْ سَالِبُ الرَّمْحِ مَرْكُوزًا كَسَالِبِهِ
جَيْشُ أَصَابَتُهُمْ عَيْنُ الْكَمَالِ وَمَا
لَهُمْ بِيَوْمِ حُنَيْنٍ أَسْوَةٌ وَهُمْ
سَيَقْتَضِيكُمْ بِضَرْبٍ عِنْدَ أَهْوَنِهِ
مَلِكٌ بَعِيدٌ مِنَ الْأَذْنَانِ ذُو كَلْفٍ
ومنها:

وَالسَّيْفُ مَا فُلَّ وَالْأَطْوَادُ لَمْ تَزُلْ
لِلظُّلَمِ وَإِنْجَابٌ لِلْإِضْلَالِ مِنْ ظُلَلِ
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَغَضُّوا الطَّرْفَ مِنْ خَجَلِ
لُذْتُمْ بِمَلِكِكُمْ لُذْتُمْ إِلَى جَبَلِ
بِثْبَتِهِ لَوْ^(٤) بَغَاها الطُّوْدُ لَمْ يَنْلِ
فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي جَحْفَلٍ رَجَلِ
خَرَّتْ لِأَقْدَانِهَا مِنْ شِدَّةِ الْوَهْلِ^(٥)
طَارَتْ قُلُوبٌ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْوَجَلِ^(٦)
بِهِمْ وَقَدْ كَرَّرَ فِيهِمْ غَيْرَ مُحْتَفِلِ
أَنَّ التَّأَخَّرَ لَا يَحْيِي^(٧) مِنَ الْأَجَلِ

فَالسُّمَرُ^(٢) مَا أَصْبَحَتْ وَالشَّمْسُ مَا أَفَلَتْ
كَمْ قَدْ تَجَلَّتْ بِنُورِ الدِّينِ مِنْ ظُلَمٍ
قُلْ لِلْمُؤَلِّينِ كُفُّوا الطَّرْفَ مِنْ جُبْنِ
طَلَبْتُمْ السَّهْلَ تَبْعُونَ النِّجَاةَ وَلَوْ
أَسْلَمْتُمُوهُ وَوَلَّيْتُمْ فَسَلَّمَكُمُ^(٣)
فَقَامَ فَرْدًا وَقَدْ وَلَّتْ جَحَافِلُهُ
فِي مَشْهَدٍ لَوْ لُبِثُ الْغِيلِ تَشْهَدُهُ
وَسَطَ الْعِدَى وَحْدَهُ ثَبَّتَ الْجَنَانِ وَقَدْ
يَعُودُ عَنْهُمْ رُؤَيْدًا غَيْرَ مُكْثَرِثِ
يَزْدَادُ قُدْمًا إِلَيْهِمْ مِنْ تَيْقُنِهِ

(١) في (م) أعراء.

(٢) في «الخريدة» فالشمس، وإخاها تصحيفاً.

(٣) في الأصل و(ل) فأسلمكم، والمثبت من (م) و«الديوان» و«الخريدة».

(٤) في (م) أو.

(٥) في «الديوان» الوجل.

(٦) في «الديوان» الوهل.

(٧) في (ل) لا ينجي.

ما كان أقربهم من أسرٍ أبعدكم
ثباته في صدور الخيل أنقذكم
ما كل حين تصاب الأسد غافلة
والله عونك فيما أنت مُزيعه
كم قد ملكت لهم ملكاً بلا عوض
وكم سقيت العوالي من طلى ملك
لا نكبت سهمك الأقدار عن غرض
لو أنهم لم يكونوا منه^(١) في شغل
لا تحسبوا وثبات الضمر الدل
ولا يصيب الشديداً البطش ذو الشلل^(٢)
كما أعانك في أيامك الأول
وحزت من بلدٍ منها بلا بدل
وكم قرئت العوافي من قرا بطل
ولا ننت يدك الأيام عن أمل^(٣)

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع - القصيدة^(٤)

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً، عفا الله عنهما.

وعبد الله بن أسعد^(٥) هذا فقيه فاضل وشاعر مُفلق، كان مدرّساً بجمص يعرف بابن الدّهان، وله ترجمة في «تاريخ دمشق»^(٦). وقد ذكره العماد

(١) في «الديوان»: عنه.

(٢) في هامش نسخة (ل): لو قال:

بعض الأحايين تلقى الأسد غافلة وقد يصيب القويّ البطش ذو الشلل.

لكان أقرب إلى المراد. نبه عليه محمد البُصروي.

(٣) القصيدة بتمامها في «ديوان ابن الدهان»: ٧٠ - ٧٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢٨٩/٢ - ٢٩٢، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠/أ - ٨/٥٢١.

(٤) انظر «ديوان المتنبي» بشرح أبي البقاء العكبري: ٢٢١/٢ - ٢٣٤.

(٥) في الأصل: عبيد الله بن أسعد، وفي (ل) عبيد بن أسعد، والمثبت من (م) وهو ما ذكرته مصادر ترجمته.

(٦) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠/أ - ٨/٥٢١/ب.

الكاتب في «خريدته»^(١)، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضاً في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى^(٢).

وفي هذه السنة - أعني سنة ثمان وخمسين - توفي عبد المؤمن بن علي؛ خليفة المهدي محمد بن تومرت؛ صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف^(٣).

ثم دخلت سنة تسع وخمسين [وخمسة مئة]^(٤)

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرة الأولى؛ وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية.

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب - وهو الأكبر - ابنا شاذي، من بلد دُونين؛ وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم، وأصلهما من الأكراد الروادية^(٥)؛ وهذا القبيل من أشرف^(٦) الأكراد، وقدموا العراق، وخدموا

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢٧٩/٢ - ٢٩٤، وانظر ترجمته أيضاً في «وفيات الأعيان»: ٥٧/٣ - ٦١، و«سير أعلام النبلاء» ١٧٦/٢١ - ١٧٧، وقد حقق ديوانه، وأعد تكملته عبد الله الجبوري، وطبع في بغداد سنة ١٣٨٨/٥١٩٦٨م. وكانت وفاة ابن أسعد سنة (٥٨١ هـ) على أصح الأقوال كما سيأتي ٢٤٧/٣ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ٣٥٥/٢، ٥٧/٣، ١١١، ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر عن ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، ويوسف بن علي كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: ١٧٨ وما بعدها.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٥) بطن من الهذليين، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. انظر «وفيات الأعيان»: ١٣٩/٧. في (ل) و(م) هو أشرف.

مجاهد الدين بِهَرُوز الخادم^(١)، وهو شحنة* العراق، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً* بَتَكْرِت*، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زَنْكِي الشهيد؛ والد نور الدين، بالعراق من قِراجة السَّاقِي؛ وهو أتابك داود بن السُّلطان محمود^(٢)، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ست وعشرين وخمس مئة، وصل إلى تَكْرِت، فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجْلَةَ هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين صُحْبَتَهُمْ وسيرهم. ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بَتَكْرِت* لملاحاةِ جَرَتَ بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تَكْرِت^(٣).

وقيل: إن أيوب كان يحسن الرِّمَاية، فرمى شخصاً من ممالك بِهَرُوزَ بسهمٍ فقتله، فخشى على نفسه، فتوجّه نحو الشام وخدم مع زَنْكِي. وقيل:

(١) في هامش الأصل «حاشية، قال المؤلف: في «تاريخ ابن الديلمي» بهروز بن عبد الله أبو الحسن، الخادم الأبيض الملقب بمجاهد الدين، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، ولي الإمارة بالعراق نيفاً وثلاثين سنة، وبنى رباطاً للصوفية على دجلة عند سوق المدرسة النظامية، ورباطاً آخر للخدم أعلى البلد، وعمر النهروان، وأجرى فيه الماء بعد أن كان قد خرب سنين، وكان حسن السيرة، توفي ببغداد في رجب سنة أربعين وخمس مئة، ودفن برباط الخدم الذي أنشأه بعد أن صُلِّيَ عليه بجامع السلطان بظاهر البلد، والله أعلم». قلت: انظر «المختصر المحتاج إليه من تاريخ الديلمي»: ٢٦٥/١ وبهروز: بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء، وضم الراء، وسكون الواو وي بعدها زاي، وهو لفظ أعجمي، معناه: يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام المعجم. انظر «وفيات الأعيان»: ١٤٢/٧، وانظر ٢٥٢/٢ من هذا الكتاب.

(٢) في «الكامل»: ٦٧٥/١٠، أن قِراجة الساقِي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان

محمد.

(٣) انظر «الباهر»: ١١٩.

لما قَتَلَ أسدُ الدين شيركوه النُصْراني - وكان عزيزاً عند بهرُوز - هرب إلى المَوْصِل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمانٍ وستين^(١).

ثم إن أيوب وشيركوه قصداً أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جُملة جُنْده. فلما فتح حصن بَعْلَبَك جعل نجم الدين دُزداراً* فيه. فلما قُتل الشهيد حَصَرَ عسكرُ دمشق نجم الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي - وقد قام بالملك بعد والده - يُنهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عَنَوَةٌ ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسَلَّمَ القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع^(٢)، والتقدَّم، وصار عنده من أكابر الأمراء^(٣).

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد - وكان يخدمه في أيام والده - فقرَّبه نور الدين وأقطعته، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجزُ عنها غيره لشجاعته وجُراته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى ١٣٠/١ صارت له حمص والرحبة* وغيرهما؛ وجعله مقدِّم عسكره.

فلما تعلَّقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين، فراسل أخاه نجم الدين - وهو بها - في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيَّما نجم الدين، فإن

(١) انظر ٢٥٢/٢ من هذا الكتاب.

(٢) في (م) بما حلف عليه له من الإقطاع.

(٣) انظر ص ١٧٤ من هذا الجزء.

جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك،
إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.
فلما كان سنة تسع وخمسين عزم^(١) نور الدين على إرسال العساكر
إلى مصر، ولم^(٢) ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين،
فسَّيره^(٣).

وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أبا شجاع السَّعدي^(٤)، وهو الملقَّب
أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من جُملة قصيدة:

ضَجَرَ الحديدُ من الحديد وشاورُ في نَصْرِ آلِ محمدٍ لم يَضْجِرْ
حَلَفَ الزَّمانُ ليأتينَّ بمثله حَتَّى تَ يَمِينُكَ يا زَمانُ فَكَفَّرِ^(٥)
وهو وزير الملقَّب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين^(٦) بمصر، كان قد
وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين [في]^(٧) سادس ربيع الأول، إلى
نور الدين مستنجداً به على من أخذ منه منصبه قهراً.

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصُ صاحبَ المنصب وعجز
صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَّعوا للقاهر منهم ورثَّوه ومكَّنَّوه،
فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقَّب عندهم بالسُّلطان،
وما كانوا يرون المكاشفة^(٨)، وأغراضهم مستتبَّة وقواعدهم مستقرَّة من أول
زمانهم على هذا المثال.

وكان شاورُ قد غلب على الوزارة، وانتزعها من بني رُزَّيك، وقتلَ

(١) في (م) وعزم.

(٢) في (م) لم.

(٣) انظر «الباهر»: ١١٩ - ١٢٠.

(٤) انظر نسبه في «وفيات الأعيان»: ٤٣٩/٢.

(٥) انظر «النكت العصرية»: ٧٣.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٢٦ من هذا الجزء.

(٧) ما بين حاصرتين من (ل).

(٨) في الأصل و(ل) الكاشفة، والمثبت من (م). وانظر «النوادر السلطانية»: ٣٦.

العدل بن الصالح بن رزّيك الذي وزر بعد أبيه، [واسمُهُ] ^(١) رزّيك، ويلقب بالناصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عمارة اليميني في كتاب «الوزراء المصرية». وقال: غرس منه للدولة، بل للملّة، شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء ^(٢).

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغام بن سيّار ويلقب ^(٣) بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل، فغلبه وأخرجّه من القاهرة وقتل ولده طيثاً، واستولى على الوزارة.

فرحل شاور إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها، ويكون له فيها حصّة - ذكرهاله - ويتصرّف على أمره ونهيه واختياره. ونور الدين يُقدّم في ذلك رجلاً ويؤخّر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البرّ فيتعرّضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً. ثم استخار الله تعالى، وأمر أسد الدين بالتجهّز للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ، وجساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يُبالي بمخافة. فتجهّز وسار مع شاور في جمادى الآخرة ^(٤) من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير، والعماد الكاتب ^(٥). وقال القاضي

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «النكت المصرية»: ٥٤.

(٣) في (م) وتلقب.

(٤) عند ابن الأثير والعماد الكاتب: جمادى الأولى.

(٥) انظر «الباهر»: ١٢٠ - ١٢١، و«الكامل»: ٢٩٨/١١ - ٢٩٩، «وسنا البرق

الشامي» ٦٠/١.

ابن شدّاد: كان ذلك سنة ثمانٍ وخمسين^(١)، والقول في ذلك قولهما، فقد بيّنا أنّ قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره لِيَشْغَلَهُمْ عن التعرّض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاور في الوزارة، وقُتل، وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكّن من منصبه^(٢).

وكان عمارة قد مدح ضَرْغاماً بقصيدةٍ منها:

وأحقُّ من وَزَرَ الخلافةَ مَنْ نشأ في حَضْرَةِ الإكرام والإجلالِ
واختصَّ بالخُلَفَاءِ وانكشفتْ له أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرّفَ الوزراءُ عن آرائه كتصرّفِ الأسماءِ بالأفعالِ^(٣)

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكنُ صفَّ الخليج بالقاهرة، قلتُ ارتجالاً:

أرى حَنَكَ الوزارة صار سيفاً يَجُذُّ بحدّه صيدَ الرُّقابِ
كأنّك رائدُ البلوى وإلا بشيرٌ بالمنيةِ والمُصابِ^(٤)

ولعمارة اليمني من قصيدةٍ مدح بها شاور، وذكر وزارته:

١٣١/١

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٦.

(٢) انظر «الباهر»: ١٢١، و«الكامل»: ٢٩٩/١١.

(٣) «النكت المصرية»: ٧٦.

(٤) «النكت المصرية»: ٧٧.

فَنصَرْتُ^(١) فِي الْأُولَى بِضَرْبٍ^(٢) زَلْزَلِ الْ-
وَنصَرْتُ فِي الْآخَرَى بِضَرْبٍ صَادِقٍ أَصْحَى يَطِيرُ بِهِ غُرَابُ الْهَامِ^(٣)
أَدْرَكَتْ ثَأْرًا وَارْتَجَعَتْ وَزَارَةٌ نَزْعًا بِسَيْفِكَ مِنْ يَدَيَّ ضِرْغَامٍ^(٤)
وَكَانَ ضِرْغَامٌ أَوَّلًا مِنْ أَصْحَابِ شَاوَرٍ وَأَتْبَاعِهِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ عُمَارَةُ
فِي قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ:

كَانَتْ وَزَارَتُكَ الْقَدِيمَةُ مَشْرَعًا صَفْوًا وَلَكِنْ كُدِّرَتْ غُدْرَانُهَا
غَصَبَتْ رَجَالًا تَاجَهُ وَسَرِيرَهُ مِنْ بَعْدِ مَا سَجَدَتْ لَهُ تَيْجَانُهَا^(٥)
وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى فِي شَاوَرٍ:

وَزِيرٌ تَمَنَّتْهُ الْوَزَارَةُ أَوَّلًا وَثَانِيَةً عَفْوًا بَغِيرِ طِلَابِ
فَخَانَتْهُ فِي الْأُولَى بَطَانَةٌ وَدَّهَ وَرَبٌّ حَبِيبٌ فِي قَمِيصِ حُبَابٍ^(٦)
وَجَاءَتْهُ تَبْغِي الصُّلْحِ ثَانِي مَرَّةً فَلَمْ يَرْضَ إِلَّا بَعْدَ ضَرْبِ رِقَابِ
وَلَمْ يُغْلِبْ وَزِيرٌ لَهُمْ وَعَادَ غَيْرِ شَاوَرٍ. وَكَانَ مَدَّةَ أَخْذِ الْوَزَارَةِ مِنْهُ إِلَى أَنْ
عَادَتْ إِلَيْهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ سِوَاءٍ، وَهِيَ مُدَّةُ الْحَمْلِ. نَصَّ عُمَارَةُ عَلَى ذَلِكَ،
وَقَالَ: قُتِلَ وَلَدُهُ طَيِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ^(٧) وَالْعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، وَجَازَ رَأْسَهُ
عَلَى رُمْحٍ تَحْتَ الطِّيْقَانِ، وَالنِّسَاءُ يُولُونِ بِالصُّرَاخِ، وَكَانَ فِيهِنَّ وَاحِدَةٌ تَحْفَظُ
قَوْلِي فِي الصَّالِحِ:

(١) فِي الْأَصْلِ وَ(م): وَنصرت، والمثبت من (ل).

(٢) فِي «النكت العصرية» برعب.

(٣) فِي هَامِش الْأَصْلِ: بَلْغ.

(٤) «النكت العصرية»: ٨٩.

(٥) «النكت العصرية»: ٨٤.

(٦) الْحُبَابُ: الْحَيَّةُ، وَالْحُبَابُ: شَيْطَانٌ. انْظُرْ «اللِّسَانُ» (حَبَب).

(٧) فِي (م) الثَّانِي، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

أَيْنَسَى فِي الْعَيْنِينَ صُورَةً وَجْهَهُ الْكَرِيمَ وَعَهْدُ الْإِنْتِقَالِ قَرِيبُ
فَمَا زَالَتْ تَكَرَّرُهُ^(١) حَتَّى رَأَتْ رَأْسَ ضِرْغَامٍ^(٢).

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى
الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر^(٣).

قال: وَقُلْتُ فِي ذَلِكَ:

وَنَزَعْتَ مُلْكَكَ مِنْ رِجَالٍ نَارَعُوا فِيهِ وَكُنْتَ بِهِ أَحَقُّ وَأَقْعَدَا
جَذَبُوا رِدْءَكَ غَاصِبِينَ فَلَمْ تَزَلْ حَتَّى كَسَوْتَ الْقَوْمَ أُرْدِيَةَ الرَّدَى
وَبَرَدْتَ قَلْبَكَ مِنْ حَرَارَةِ حُرْقَةٍ أَمَرْتُ نَسِيمَ اللَّيْلِ أَلَّا يَبْرَدَا^(٤)
تَارِيخُ هَذَا^(٥) نِلْتُهُ فِي مِثْلِهِ يَوْمًا بِيَوْمٍ عِبْرَةً لِمَنِ اهْتَدَى
حَمَلْتُ بِهِ الْأَيَّامُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى جَعَلَنْ لَهْ جُمَادَى مَوْلَدَا^(٦)
وَلَهُ فِيهِ أَيْضًا فِي ذَلِكَ:

لِلَّهِ دُرُكٌ مَوْتُورًا أَقْضَى بِهِ دَسْتُ وَسَرَجُ^(٧) وَأَجْفَانُ وَمُضْطَجَعُ
مَا غِيبَتْ إِلَّا يَسِيرًا ثُمَّ لُحِتَ لَنَا وَالْثَّارُ مُسْتَدْرِكُ وَالْمُلْكُ مُرْتَجِعُ
قَضِيَّةٌ لَمْ يَنْلُ مِنْهَا ابْنُ ذِي يَزِينَ إِلَّا كَمَا نِلْتُ وَالْآثَارُ تُتَبَّعُ
فَافْخَرْ عَلَى الْحَيِّ مِنْ قَيْسٍ وَمَنْ يَمَنِ أبا شُجَاعٍ فَلَيْسَ الْحَقُّ يَنْدَفِعُ^(٨)

(١) في الأصل: مكررة، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «النكت العصرية»: ١٢٩.

(٣) «النكت العصرية»: ٨١.

(٤) في (م) تبردا.

(٥) في «النكت» تأريخ دين.

(٦) «النكت العصرية»: ٨١.

(٧) في الأصل سرج ودست، والمثبت من (ل) و(م) و«النكت العصرية».

(٨) «النكت العصرية»: ٨٥.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرَّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فَأَنِفَ أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقرَّ، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلَّموا مدينة بلبس*، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدُّهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلبُ منهم أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرَجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نُصْرته، وطمِعُوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهَّزوا وساروا. فلما بلغ نور الدين خَبَرَ تجهُّزهم للمسير^(١) سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مُقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القُدس^(٢) في الباقيين إلى مصر. وكان قد وصل إلى السَّاحل جمعٌ كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعانَ بهم ملك الإفرنج، فأعانوه، وسار بعضهم معه، وأقام بعض في البلاد يحفظُها.

فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصَّن به، فاجتمعت العساكر المصرية ١٣٢/١ والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنع أسد الدين بها وسورها من طين، قصير جداً، وليس له خندق

(١) في (ل) إليه.

(٢) هو الملك Amalric وتسميه المراجع أيضاً: أموري أو عموري أو مري. انظر كشف الأعلام.

ولا فصيل^(١) يحميها، وهو يُغاديهم القتال ويرأوهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبيناهم كذلك إذ أتاهم الخبرُ بهزيمة الفرنج بحارم*، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلى بانياس*. فحينئذ سقط في أيديهم، وأرادوا العودَ إلى البلاد^(٢) ليحفظوها، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يُدركوها إلا وقد ملكها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(٣). وراسلوا أسد الدين في الصُّلح، والعود إلى الشام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك، لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في السَّاحل^(٤).

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبس*، قال: رأيتُه وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم ويده لَت^(٥) من حديدٍ يحمي ساقَتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون قال: فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية! فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله، كنتُ والله أضع سيفي، فلا أقتل حتى أقتل رجالاً، وحينئذ يقصدُهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم، ويُفني من بقي منهم، والله لو أطاعني هؤلاء — يعني أصحابه — لخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا، فصَلَّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٦ من هذا الجزء.

(٢) في (م) بلادهم.

(٣) انظر ص ٤٣٧ من هذا الجزء.

(٤) انظر «الباهر»: ١٢١ - ١٢٢، و«الكامل»: ٢٩٩/١١ - ٣٠٠.

(٥) الفأس العظيمة، وهي فارسية معربة. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٤١.

صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالماً^(١).

وقال العماد الكاتب: وصل شاور إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه معدياً مشكياً، وسير معه أسد الدين على قرار عينه، وأمر بينه، وبغية يدركها، وخطة يملكها، ومحجة واضحة في الملك يسلكها. فمضى معه ونصره، وأصفى له مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهره بعلوه، وأظفره بعدوه، فلما باد خصمه، بدا وصمه، وغدر بعده، وأخلف في وعده. وكان قد راسل الفرنج وهذاهم في حرب الإسلام، فوصلوا، فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبس*، فحاصره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهل رمضان إلى ذي الحجة، فبدلوا له قطعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام وفي قلبه من شر شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك الميخنة^(٢).

قلت: وقد أشار إلى ذلك عمارة في قوله في مدح شاور، وذكر الإفرنج، فقال:

فله من ظفرٍ فلكت وناب	وأنقذت من مصر عدواً بمثله
أقمت بها للقوم سوق ضراب	صدمت جموع الكفر والشام صدمة
مضاربها في الصخر غير نوابي	وقد جردت أجناد مصر عزائماً
ودارت رحاها منهم بهضاب	تولوا عن الإفرنج فادح ثقلها
ثياباً لهم ما بدلت بثياب	أقامت دروع الجند تسعين ليلة
وبين مصيب خصمه ومصاب	وهم بين مطروح هناك وطارج

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه

(١) انظر «الباهر»: ١٢٢، و«الكامل»: ٣٠٠/١١ - ٣٠١.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦٠ - ٦١، ٦٢.

ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مُقَدِّمَ عسكره وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرّر حالاً إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة، والفكرة الصّحيحة، واقتراح النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وَقْعٌ عظيم، وخافه أهل مصر، ونَصَرَ شاور على خصمه، وأعادته إلى منصبه ومرتبته، وقرّر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال.

وكان ابتداء رحيله عنها متوجّهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مُدَبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثاً بذلك نفسه، مقرّراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين^(١).

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره، وبقي متخوفاً من أسد الدين. فقال عرقلة الكلبي من جُملة قصيدة له:

وهَلْ هَمَّ يوماً شِيرْكُوهُ^(٢) بِجَلْقٍ إلى الصَّيْدِ إلا ارتاعَ في مِصْرَ شاورُ
هو المَلِكُ المنصورُ والأَسَدُ الذي شذا ذِكْرُهُ في الشَّرْقِ والغَرْبِ سائِرُ^(٣)

في ذي الحِجَّة من هذه السنة احترقت جيرون* بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جارَ صَرْفُ الرَّدَى على جَيْرُونِ وسَقَى أهلها كؤوسَ المُنُونِ

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٣٦ - ٣٧، والنص مضطرب لتقديم وتأخير فيه، لم يتنبه له المحقق.

(٢) بتحريك الراء لضرورة الشعر.

(٣) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٥٢.

تَتَلَطَّى بِكُلِّ قَلْبٍ حَزِينٍ
وَهِيَ فِي الشَّامِ نَزْهَةٌ لِلْعَيُونِ
نَ جَمَالاً لِكُلِّ حِصْنٍ حَصِينِ
وَزُبُونٍ أَتَى بِحَرْبٍ زُبُونِ
نَارَ لَيْلَى تَلُوحُ لِلْمَجْنُونِ
وَفَقِيرٍ أَمْسَى غَنِيَّ الْيَمِينِ
لَيْتَ شُعْرِي مَاذَا لَهَا بَعْدَ حِينِ
قِي وَشُرْبِ الْخَمُورِ وَالتَّلْحِينِ
أَسْدُ الدِّينِ غَايَةَ الْمَسْكِينِ^(١)
هَذَا مِنْ جَمَرِهَا بِمَاءٍ مَعِينِ
بِفَعَالِ الْإِمَامِ فِي صِفِّينِ^(٢)

أَصْبَحَتْ جَنَّةً وَأَمْسَتْ جَحِيمًا
كَيْفَ لَا تُذَرَفُ الدُّمُوعُ عَلَيْهَا
حَبَّذَا حِصْنُهَا الْحَصِينُ لَقَدْ كَا
أَيُّ سَيْفٍ سَطَا عَلَى دَارِ سَيْفِ
خِلْتُ نِيرَانَهَا وَكُلَّ ظَلَامِ
كَمْ غَنِيَّ الْيَمِينِ أَمْسَى فَقِيرًا
كُلَّ حِينٍ لَهَا حَرِيقٌ جَدِيدُ
كُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ عَاقِبَةُ الْفُسْ
وَلَقَدْ رَدَّهَا بِعِزِّ وَحَزْمِ
وَحَمَى الْجَامِعَ الْمُقَدَّسَ وَالْمَشْ
مَلِكٌ فِعْلُهُ بِدَلْجَةٍ^(٣) وَالْبَا

فصل

في فَتْحِ حَارِمِ*

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة - يعني سنة تسع وخمسين -
اغتنم نور الدين خُلُو الشَّامِ من الفرنج وقصدهم، واجتمعوا على حارِمِ،
فصَرَبَ معهم المصافِّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم،

(١) في الأصل: المسلمين، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) قرية بصعيد مصر من غربي النيل في الجبل بعيدة عن الشاطئ. انظر «معجم البلدان»: ٤٦٠/٢.

(٣) انظر «ديوان عرقلة»: ١٠٥ - ١٠٦، والقصيدة مستدركة فيه من كتابنا هذا.

ووقع في الإِسار إِبْرَنس أنطاكية^(١)، وقومص طرابلس^(٢)، وابنُ لجوسلين، ودُوك الرُّوم^(٣)، وذلك في رمضان^(٤).

وقال في «الخريدة»: كانت نوبة البقيعة نوبةً عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في قُلٍّ^(٥) من عسكره، ثم كسر الإفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأسر من نجا، وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبیناً^(٦).

قال ابن الأثير: والسَّبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق^(٧)، من غزوة ناحية حصن الأكراد*، أقبل على الجِد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثاره، وغزو العدو في عقر داره، وليرتق ذلك الفَتق، ويمحو سِمَة الوَهْن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قُطَب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن^(٨) ونجم الدين ألسي بماردين*، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

(١) هو Bohemond III بوهمند الثالث. انظر كشف الأعلام.

(٢) هو Raymond III ريموند الثالث. انظر كشف الأعلام وص ٣٥١ من الجزء الثاني.

(٣) هو القائد البيزنطي قسطنطين كولومان. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما (الترجمة العربية): ٥٩٧/٢. وقد أطلق سنة (٥٦٩ هـ) انظر ٢٧٦/٢ من هذا الكتاب.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦١ - ٦٢.

(٥) أي قلة. انظر «اللسان» (قلل). وفي طبعة وادي النيل ١/١٣٣: في أقل من عشرة من عسكره، وهي زيادة مقحمة ليست في نسخنا الخطية، وما أدري كيف أثبتها د. محمد حلمي في نشرته للكتاب، وهي لا توجد في الأصل الذي اعتمد عليه! وهذه الزيادة أريكت د. شكري فيصل في تحقيقه لنص «الخريدة».

(٦) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٨٨، ٢٩٠.

(٧) انظر ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

(٨) أي حصن كيفا. انظر كشف الأماكن.

أما قطب الدين أتاك فإنه جمع عساكره وسار مجدداً، وعلى مقدمة
عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على
أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة
الصّوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك. وكلّهم وافقه على
ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهّز للغزاة، فقال له أولئك:
ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدّها! فقال: إن
نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي،
وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعُبادها والمنقطعين عن الدنيا،
يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنهب،
ويستمدّ منهم الدّعاء، ويطلبُ منهم أن يحثّوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد
كلّ واحدٍ من أولئك ومعه^(١) أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتبَ نور الدين^(٢)
ويكونون، ويلعنونني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته. ثم تجهّز أيضاً
وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبی فإنه سیر عسكراً. فلما اجتمعت العساكر سار نحو
حارم*، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر
إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية*، والقمص
صاحب طرابلس* وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدّوك
معهم وهورئيس الروم ومقدّمها، وجمعوا من الرّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، قد
ملؤوا الأرض وحجّبوا بقسطلهم^(٣) السماء، فحرّض نور الدين أصحابه، وفرّق
نفائس الأموال على شُجعان الرجال. فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى
أرتاح^(٤)، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم

(١ - ١) ما بينها ساقط من (م).

(٢) القسطل: الغبار الساطع. انظر «اللسان» (قسطل).

(٣) حصن منيع كان من أعمال حلب. انظر «معجم البلدان»: ١٤٠/١ - ١٤١.

إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمَّ^(١)، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبددوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، ووللوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه، ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من باقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على ما دبروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسرًا، وعادت خيالتهم ولم يثمنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين، وبدمائهم مضرجين؛ فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وخضعت رقابهم وذلوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب، فحينئذ حمى الوطيس، وباشر الحرب المرووس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة. وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضا الصقور على بُغاث الطيور، فمزقوهم بدداً، وجعلوهم قدداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف.

(١) قرية بين حلب وأنطاكية، انظر «معجم البلدان»: ١٥٧/٤.

وأما الأسرى فلم يحصوا كثرةً، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا^(١).

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيمند^(٢) أحب إلي من مجاورة ملك الروم.

وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء^(٣) وغير ذلك، وعادوا سالمين. ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمالٍ جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم^(٤).

وقال الحافظ أبو القاسم: كَسَرَ نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم*، وكان عدَّتْهم ثلاثين ألفاً. قال: ووقع بيمنت في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمالٍ عظيم أنفقَه في الجهاد^(٥).

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أوقبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرَّ وجهه وتضرَّع، وقال: يارب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك،

(١) انظر ص ٤١٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤١٦ من هذا الجزء.

(٣) كذا في النسخ الخطية، ولعلها السويدية، مدينة فوق اللاذقية على الساحل السوري.

(٤) «الباهر»: ١٢٢ - ١٢٥، و«الكامل»: ٣٠١/١١ - ٣٠٤.

(٥) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٤٧/١٦ ب.

فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى أنك يارب إن نصرتَ المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحقٍ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم، انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمسٍ وستين عند رحيل الفرنج عن دِمياط بعد نزولهم عليها^(١)، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذٍ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

فصل

في ذكر وزير المَوْصل جمال الدين، الجَوَاد الممدَّح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله [تعالى]^(٢).

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً. فمما ذكره في كتابه الموسوم «بُنصرة الفترة وعُصرة الفِطرة، في أخبار الوزراء السُلجوقية»^(٣) أن قال: ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي؛ وهو صاحب^(٤) الوزير شمس المُلْك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور

(١) انظر ١٤٣/٢ من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين من (ل).

(٣) اختصره الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، وسماه «تاريخ دولة آل سلجوق» طبع المختصر غير مرة. ونحن نحيل في توثيق هذه الأخبار على طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٨م).

(٤) في (م) حاجب، ومثله في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣.

فَهَادًا فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ مَلِكُشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ، وَابْنَهُ الْكَامِلَ^(١) أَدِيبٌ لَيْبِ، وَزَادَتْ أَيَامُهُ فِي السَّمَوِ [وَأَيَامُهُ فِي النَّمَوِ]^(٢) حَتَّى تَنَافَسَ فِي اسْتِخْدَامِهِ الْمُلُوكُ وَالْوُزَرَاءُ، وَاسْتِضَاعَتْ بِرَأْيِهِ فِي الْحَوَادِثِ الْآرَاءُ. وَقَدْ كَانَ زَوْجَ بِنْتًا لَهُ بِيَعُضِ أَوْلَادِ أَحْوَالِ الْعَزِيزِ - يَعْنِي عَمَّ الْعِمَادِ الْكَاتِبِ - قَالَ: فَاشْتَمَلَ لِذَلِكَ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَلَدِهِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدٍ، وَخَرَّجَهُ فِي الْأَدَبِ وَدَرَّجَهُ فِي الرُّتَبِ، فَأُولَ مَا رَتَّبَهُ فِي دِيْوَانِ الْعَرْضِ السُّلْطَانِي الْمَحْمُودِي، وَغَلَبَ فِي تَحْلِيَّتِهِ [ذِكْرُ]^(٣) الْأَبْلَجِ، فَنَعَتَهُ الْأَتْرَاكُ بِالْأَبْلَجِ، وَاسْتَقَامَ فِي نَجَابَتِهِ عَلَى الْمَنْهَجِ. وَاتَّفَقَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَلَّى زَنْكِي بْنُ آقِ سُنْقَرِ الشَّامِ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةِ الْأَمِيرِ كُنْدُغْدِي^(٤) وَوَلَدَهَا خَاصِبَكَ^(٥) بَنَ كُنْدُغْدِي؛ مِنْ أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاءِ الْمَمْلَكَةِ، وَهُوَ يَسِيرُ مَعَهَا، فَرتَّبَهُ الْعَزِيزُ لَخَاصِبَكَ وَزِيْرًا، فَسَارَ فِي الصَّحْبَةِ، وَكَانَ مَقْبَلُ الْوَجَاهَةِ، مَقْبُولُ الْفَكَاهَةِ، شَهِي الْهَشَاشَةِ، بِهِي الْبِشَاشَةِ؛ فَتَوَفَّرَتْ مُنَى زَنْكِي عَلَى مَنَادِمَتِهِ، وَقَصَرَ صَبَاحُهُ وَمَسَاءُهُ عَلَى مَسَاهِمَتِهِ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي آخِرِ عَمْرِهِ فِي إِشْرَافِ دِيْوَانِهِ، وَزَادَ الْمَالُ وَزَانَ الْحَالُ بِتَمَكُّينِهِ وَمَكَانِهِ، فَلَمْ يَظْهَرْ لَجَمَالِ الدِّينِ فِي زَمَانِ زَنْكِي جُودٌ، وَلَا عُرفَ لَهُ مَوْجُودٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْتَنِعُ بِأَقْوَاتِهِ، وَتَرْجِيَةِ أَوْقَاتِهِ، وَيَرْفَعُ جَمِيعَ مَا يُحْصَلُ لَهُ إِلَى خَزَانَةِ زَنْكِي اسْتِبْقَاءً لِحَاجَتِهِ، وَاسْتِعْلَاءً بِهِ عَلَى أَشْبَاهِهِ، فَمَكَّنَهُ زَنْكِي مِنْ أَصْحَابِ دِيْوَانِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَضَرَّ بِإِسَاءَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْتَفَعَ بِإِحْسَانِهِ.

وَلَمَّا قُتِلَ زَنْكِي صَارَ لِلدَّوْلَةِ الْأَتَاكِیَةِ مَلَاذًا، وَلِلْبَيْتِ الْآقِ سُنْقَرِي مَعَاذًا،

(١) فِي «دَوْلَةِ آلِ سَلْجُوقٍ»: وَابْنَهُ الْكَامِلُ نَجِيبٌ.

(٢) مَا يَبِينُ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي الْأَصْلِ، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (ل) وَ(م).

(٣) مَا يَبِينُ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي الْأَصْلِ، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (ل) وَ(م).

(٤) الضَّبْطُ مِنَ الْأَصْلِ وَ(م).

(٥) الضَّبْطُ مِنَ الْأَصْلِ.

١٣٥/١ واستوزره الأمير غازي بن زكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعااضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة المَوْصِل واستولى، فعاش بنداؤه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به المَوْصِل قِبْلَةَ الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سُعوته، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعَمَّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبرِّ أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيَّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظُ الفِصاح، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وقُصد من كل بلد سحيق، وقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد [بن] (١) الصيفي، المعروف بحيصَ بيص (٢). قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها:

يا لِلصَّوَارِمِ والرِّمَاحِ الذُّبُلِ	نَصْرًا ومن أنجدتما لم يُخَذَلِ
لو شَتُمَا ومشيتُ بمشيئةٍ	جاذ الزمانُ وبالعُلا لم يَخَلِ
فاقني فخارك يا مُجاشعُ واعلمي	أني لكم من هِمَّتِي في جَحْفَلِ
أنا فارسُ اليومين يومَ مقالةٍ	ووغىَّ أصولُ بصارمي وبِمَقُولِي (٣)
ظَلَمْتُ فضائلي المَقَاوِلُ مثلما	ظَلَمْتُ جمالَ الدين ماوى العُيَلِ
مَدَحُوهُ كي يحووا مناقبَ نَفْسِهِ	فَطَمْتُ فسالتُ بالمدائحِ من عَلِ
فأتيتُ أبدلُ ما استطعتُ ومن يُرِدُ	نَقَلَ الخِصَمَّ إلى المَزَادَةِ يَخْجَلِ
شَمْسُ من الإحسانِ عَمَّ ضياؤها	بل آيةٌ جاءت بحُجَّةٍ مُرْسَلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣ - ١٩٤.

يُعْطِي الْجَزِيلَ لِسَائِلِي مَعْرُوفَهُ
وَتَزِيدُهُ شَوْسُ الْخُطُوبِ طَلَاقَةً
ثَقُلْتُ بِهِ الْأَعْنَاقُ مِنْ مَنَنِ النَّدَى
فَإِذَا تَلَاقَى النَّاسُ كَانَ حَدِيثُهُمْ
أَسْرَاءَ مَعْرُوفِ الْوَزِيرِ فَكُلُّهُمْ
مِنْ سَمَرَقَنْدَ^(١) إِلَى تِهَامَةِ شَاهِدُ
السُّحْبُ تُمْطِرُ مَا تُظِلُّ وَجُودَهُ
وَتَقَرُّ عَيْنُ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ
مَعْمَارُ مَرْقَدِهِ وَحَافِظُ دِينِهِ
جَعَلَ الْمَدِينَةَ مِصْرَ رَيْفٍ^(٢) آهلاً
فَكَأَنَّهَا^(٣) بِالْخِصْبِ مِنْ قُرْبَاتِهِ
فَلَوْ أَنَّهُ فِي عَصْرِهِ نَزَلَتْ لَهُ
عَبْدُ أَخٍ فِي ضَيْفِهِ وَوَدَادِهِ
خِرْقٌ يُنَاطُ قَمِيصُهُ وَرَدَاؤُهُ

وَقَالَ الْعِمَادُ [الكَاتِبُ]^(٤). وَكَنتُ أَنَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ مُتَفَقِّهًا بِبَغْدَادَ،
وَاتَّفَقَ حَضُورِي بِالْمَوْصِلِ [فِي ذِي الْقَعْدَةِ]^(٥) سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ
مِئَةٍ، فَحَضَرْتُ عِنْدَ جَمَالِ الدِّينِ بِالْجَامِعِ فِي جُمُعَتَيْنِ، وَتَكَلَّمْتُ عِنْدَهُ مَعَ
الْفُقَهَاءِ فِي مَسْأَلَتَيْنِ. وَمِمَّا مَدَحْتَهُ بِهِ قَصِيدَةٌ، أَوَّلُهَا:

- (١) سَكَنْتُ الْمِيمَ لِمُضَرَّةِ الشَّعْرِ.
(٢) فِي «خَرِيدَةِ الْقَصْرِ»: شَرَعَهُ.
(٣) فِي الْأَصْلِ وَ (ل): رِبْعًا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م) وَهُوَ يَوَافِقُ مَا فِي «الْخَرِيدَةِ».
(٤) فِي الْأَصْلِ وَ (ل) فَكَأَنَّمَا، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (م).
(٥) انْظُرِ الْأَبْيَاتَ فِي «خَرِيدَةِ الْقَصْرِ» قِسْمَ شَعْرَاءِ الْعِرَاقِ: ج ٢/ ٣٠١ - ٣٠٣. وَفِي
«دِيَوَانِهِ» ٣١٠/ ٢ - ٣١٥.
(٦) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ لَيْسَ فِي الْأَصْلِ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ل) وَ (م).
(٧) مَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْ (م).

أَظْهَرُهُمْ وَقَدْ عَزَمُوا ارْتِحَالَا
سَرَوْا وَالصُّبْحُ مُبَيِّضُ الْحَوَاشِي
هَمَّ اعْتَادُوا الْمَلَالَ فَكَيْفَ مَلُّوا
أَحَادِي عِيْسِهِمْ بِاللَّهِ رِفْقًا
وَعُجْ نَحْوِ الْأَرَاكِ بِهَا فَإِنِّي
سَقَى صَوْبُ الْحَيَا تَلْعَاتٍ نَجْدٍ
أَخْلَاتِي وَهَلْ فِي النَّاسِ خِلٌّ
لَنْ لَمْ أَشْفِ صَدْرِي مِنْ حَسُودِي
فَلَا أَذْرَكْتُ مِنْ أَدْبِي مُرَادًا
وَلَا وَخَدْتُ إِلَيْكُمْ بِي جِمَالَ^(١)
هُوَ الْمُغْنَى إِذَا مَا الْمَرْءُ أَقْوَى
وَقَائِلَةٌ أَفَى الدُّنْيَا كَرِيمٌ
أَطْلَتْ عَلَى الْوَرَى كَرَمًا وَفَخْرًا
وَحُزْتُ الْمَجْدَ عَنْ كَسْبٍ وَإِرْثٍ
خُصِصْتُ بِكُلِّ مَنْقَبَةٍ وَفُضِّلَ

١٣٦/١

تَنَوْنَا عَنَّا جَمَالًا لَا جَمَالَا
فَلَمَّا حَالَ عَهْدُ الْوَصْلِ حَالَا
وَصَالَهُمْ وَمَا مَلُّوا الْمَلَالَا
فَإِنَّ السَّيْرَ أَوْرَثَهَا الْكَلَالَا
أَرَاهُ لِاجْتِمَاعِ الشُّمْلِ فَلَا
وَحْيًا بِالْحَمَى تِلْكَ التَّلَالَا
بِهِ أُخْلِي مِنَ الْأَحْزَانِ بِالَا
وَلَمْ أَذِقِ الْعِدَى دَاءً غُضَالَا
وَلَا صَادَقْتُ مِنْ حَسْبِي مَنَالَا
وَلَا وَالَيْتُ مَوْلَانَا الْجَمَالَا
هُوَ الْمُنْجِي إِذَا مَا الْخَطْبُ هَالَا
سِوَاهُ فَقُلْتُ لَا وَأَبِي الْعُلَا لَا
كَذَلِكَ مِنْ حَوَى هَذِينَ طَالَا
فِيَا صَدْرَ الْوَرَى حُزْتُ الْكَمَالَا
تَعَالَى مِنْ حَبَاكَ بِهِ تَعَالَى^(٢)

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة:

[يَهْوَى تَجَنِّيَهُ وَالصُّدُودَ كَمَا
جَمَالَ دِينَ الْإِلَهِ خَيْرُ فَتَى
مُعْطِي الْقُرَى وَالْقُرَى لِقَاصِدِهِ
مِثْلُ فَتُوحِ الْفَارُوقِ نَائِلُهُ
يَهْوَى الْمَعَالِي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ^(٣)
لِلرُّزْقِ أَقْلَامُهُ وَلِلْأَجَلِ
مِنْ غَيْرِ مَنْ وَالْخَيْلِ وَالْخَوْلِ
شَرْقًا وَغَرْبًا فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

(١) في الأصل: جمالاً، وفي (ل) ولا وخذت بي إليكم جمال، والمثبت من (م).

(٢) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وفي «الديوان» أهوى.

من قال لم يَحْوَ ذا ويسكن ذي أصبح مما يقول في خجل
محمد خاتم الكرام كما سميه كان خاتم الرُّسل^(١)

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:

كسا الحرَمين لبسة عبْد شمسٍ وهاشم غُرَّتِي نسل الخليل
ولبلد الأمين أجدأً أمنأً تكنف مثله جدت الرسول
عشيتم يا ولادة الأمر عَمَّا أتيح له من الأثر الجميل
وطار لها وأشفقتم فشدَّ الـ سيدن على عرى المجد الأئيل
بيوت بالحجاز مقدَّسات رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان أذالهنَّ فصاب صوناً لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يُجنى الـ مقال ويُجتنى^(٢) طيب المقيـل
وكم للموصل الحذباء مما تُنيل يداه من ريفٍ ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشي مهيب البطش فرأس الدخول

ولأبي المجد [بن]^(٣) قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغر تبصرُ منه النَّاسَ في رَجُلٍ والليث في بشرٍ والبدر في غُضنٍ^(٤)
سما بهمته في المكْرُماتِ إلى علباء تقصُرُ عنها همّة الزَّمنِ
يلقاك واضح ليل الفكرِ راجح نـيـ ل الكف طاهر ذيل السرِّ والعلنِ
ماضي العزيمة ميمون النقية، رثـ بال الكتبية عَيْنُ القائل اللّسنِ
إذا تكلم واستجليت غُرَّتـه في محفل رُحت حالي العين والأذنِ

(١) انظر «ديوان عرقلة الكلبي»: ٨٥ - ٨٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

(٢) في (م) ويشترى.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩١ من هذا الجزء.

(٤) الغضن: الدرر. انظر «اللسان» (غضن).

كَأَنَّ فِي الدُّسْتِ مِنْهُ حِينَ تَنْظُرُهُ شَمْسَ النَّهَارِ وَصَوْبَ الْعَارِضِ الْهَيْتِ

قال ابن الأثير: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وخمس مئة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وكان قد خدَمَ الشهيد، فولاه نصيبين*، وظهرت كفايته، فأُضَافَ إليه الرُّحبة*، فأبان عن كفاية وعِفَّة، وكان من خواصِّه فجعله مشرف مملكته كُلِّها، وحكَّمه تحكيمياً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي^(١) يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى الشهيد أتابك قبلي ويخرجُ بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قُتِلَ الشهيد، ثم وزر لولدَيِ الشهيد سيف الدين ثم قُطِبَ الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهدٌ وموathيق على المصافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين، فنهاهم.

١٣٧/١

وكانت المَوْصِلُ في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنًا لكل خائف، فسعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدَّق بها^(٢). فلم يمكنه أن يغيِّرَ عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع على زين الدين من غيِّره عن مصافاته ومؤاخاته، فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المَوْصِلِ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواصَّ قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسَّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين^(٣). فبقي جمال الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض، ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر،

(١) نسبة إلى كفرتوثا: قرية من أعمال الجزيرة، قرب ماردين. انظر «معجم البلدان»:
٤٦٨/٤، و«اللباب»: ٤٥/٣.

(٢) في «الباهر»: فيتصرف بها.

(٣) «الباهر»: ١١٨ - ١١٩.

كريم الورد والصدّر، عديم النظير، في سعة نفسٍ، لم يُروَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروءة^(١).

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي - وهو رجلٌ من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه - قال: لم يزل الجمال^(٢) مشغولاً بأمر آخرته مُدَّة حبسه، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أنقل من الدُّست إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعض الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني. فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل. فلما كان الغد أكثر السؤال عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ له: جاء الطائر. فاستبشر، ثم قال: جاء الحق. وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى، وتوفي. فلما توفي طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً؛ من مات منا قبل صاحبه حمّله الحي إلى المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - فدفن به في الثُّربة التي عملتها، فإن أنا مُت فامض إليه وذكره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمّله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحجَّ معه جماعة من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك، فكان يُصلِّي عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة* اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شابٌ قد ارتفع على موضع عالٍ، ونادى بأعلى صوته:

(١) «الباهر»: ١٢٧.

(٢) في (ل) جمال الدين.

سَرَى نَعْشُهُ فَوْقَ الرَّقَابِ وَطالَمَا سَرَى بِرْهُ^(١) فَوْقَ الرُّكَابِ وَنَائِلُهُ
يَمُرُّ عَلَى الْوَادِي فَتُشْنِي رَمَالُهُ عَلَيْهِ وَفِي النَّادِي فَتَبْكِي أَرَامِلُهُ^(٢)

فلم يُرْ باكِياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول
الكعبة، وصلُّوا عليه بالحَرَم، وحملوه إلى المدينة فصلُّوا عليه أيضاً، ودفنوه
بالرُّباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً^(٣).

قلت: كذا قال ابن الأثير، وقد^(٤) رأيت المكان^(٤) ولعله أراد الحائط
الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفسَ القبر الشريف^(٥)، زاده الله شرفاً
وصلّى على ساكنه^(٥).

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاءً وبذلاً
للمال، رحيماً بالنَّاس، متعظفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد

(١) في (م) جوده، ومثله في «الباهر».

(٢) في هامش الأصل «حاشية»، قال المؤلف: وجرى نحو هذا للوزير أبي الفضل
جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِزْبَةِ، كان أبوه وزيراً للمقتدر، ووزر هو
لكافور الإخشيدى بمصر، ومات بها سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، وحمل منها إلى
الحرمين، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة، فحجوا به وردوه إلى المدينة في الدار التي
كان أعدها لذلك جوار مسجد النبي ﷺ، وكان مكرماً لأهل العلم، وله معروف كثير.
ذكرت ما جاء عنه في ذلك في ترجمته في «تاريخ دمشق»، رحمه الله. فجرى للوزير أبي
جعفر ما كان قد جرى للوزير جعفر، رحمه الله تعالى. وبلغني أن الحيص بيص الشاعر
[لما] رأى نعش الوزير جمال الدين، وأنشد البيتان، ارتجل هو بيتين:

سَرَى نَعْشُهُ فَوْقَ الرَّقَابِ وَإِنَّهُ لَأَجْدَرُ مِنْ يَسْرِي عَلَيْهَا وَمَنْ يَرَقَى
فَمَا عَنَقَ إِلَّا لَهُ فِيهِ مِئْتَةٌ تَلَايْمُهُ كَالطُّوقِ فِي عُقَى الْوَرْقَا

قلت: ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٣) «الباهر»: ١٢٧ - ١٢٨.

(٤ - ٤) ما بينها ساقط من (م).

(٥ - ٥) ما بينها ساقط من (م).

بناء مسجد الخَيْف بِمَنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّرَ وَبُنِيَ غيره سنة ست وسبعين وخمس مئة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة^(١)، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وست مئة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتني لأمر الله هدية جليلة حتى أذن [له]^(٢) فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن [أبي] هاشم^(٣) خَلْعاً سنّية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاسُ يلقون شدةً في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمَان^(٤) في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً. وكان يعطي أهل نَعْمَان كُلَّ سنة مالاً كثيراً ليركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة^(٥).

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام^(٦)، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْكٍ وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترخَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من

(١) الفضة. انظر «قاموس الفارسية»: ٧٤٧، و«معجم متن اللغة»: ٥٢٧/٥.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) وهو عيسى بن فليته، وجده الأعلى أبو هاشم محمد بن جعفر، تولى مكة بعد قتل ابن أخيه قاسم بن هاشم، وذلك سنة (٥٥٦هـ) وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة (٥٧٠هـ). انظر «العقد الثمين»: ٤٦٥/٦ - ٤٧٠، و«خلاصة الكلام»: ٢٠ - ٢١، وما بين حاصرتين من «الباهر»: ١٢٨، وانظر حاشيتنا رقم ٣، ص ٣١٧ من هذا الجزء.

(٤) واد بين مكة والطائف، على ليلتين من عرفات، انظر «معجم البلدان» ٥/٢٩٣.

(٥) «الباهر»: ١٢٨.

(٦) في (ل) و (م) صلى الله عليه وسلم. وقد أكمله من بعده نور الدين، انظر ص ٣٣ من هذا الجزء.

بالمدينة أن يدعو له، لأنَّا كُنَّا في ضَرْ وضيق ونكد عيشٍ مع العرب، لا يتركون لأحدنا^(١) ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبني علينا سوراً احتميناً به ممن يريدنا بسوء، فاستغنيناً؛ فكيف لا ندعوه له^(٢)! ١٣٨/١

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتَوَلِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهُّدات، قال: كان [له]^(٣) كل يوم مئة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره^(٤).

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دِجْلَةٍ عند جزيرة ابن عمر* بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبِضَ قبل فراغه. وبني أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً. وبني الرُّبْط بالمَوْصِل، وسِنْجَار*، ونَصِيبين*، وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي^(٥)؛ رئيس

(١) في الأصل: لأحد، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «الباهر»: ١٢٨.

(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و(م).

(٤) «الباهر»: ١٢٨ - ١٢٩.

(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: لما رجع الخجندى من عنده مدحه بأبيات، منها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعتُ من نعماك في قافله»

ثم أتبعها الناسخ بالحاشية التالية: «ليس في أصل الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى الذي نقلت منه هذه النسخة الذي هو بخطه غير هذه الحاشية الصغيرة، وهذه الحاشية التي أذكرها - إن شاء الله تعالى - وجدتها في نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد =

أصحاب الشافعي، رضي الله عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة
همذان، قصدها، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصدّور
والعلماء ومشايخ الصّوفية، وصارت الموصّل في أيامه مقصداً وملجأ^(١).

وكان أحبّ الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات، وكان يضيق على
نفسه وبيته ليتصدّق. حكى لي والدي قال: كنت يوماً عنده وقد أحضر بين

= الكاتب، وهي منقولة من أصل المؤلف الذي بخطه ومقروءة عليه، وأظن المؤلف سها
عن إثباتها في نسخته، وهي: قال العماد في «كتاب السلجوقية»: لما نهد بوزابة من فارس
ومعه الملكان محمد بن محمد [كذا] وملكشاه ابنا محمود بن ملكشاه؛ يعني لأخذ السلطنة
من عمهما مسعود بن محمد بن ملكشاه، فلما قرب من أصفهان تلقاه صدر الدين
الخجندي، وفتح له أبوابها، فدخل دار مملكتها، وأجلس الملكين على السرير الألب
أرسلاني، ثم خرج بهما على سمت همذان. فذكر الحديث في كسره وقلته، ثم بعث إلى
أصفهان - يعني السلطان مسعود - بالإيقاع بمن خرج على السلطان، فخرج منها -
يعني الخجندي - وزحف العوام إلى المدينة فأحرقوها، ونهبوا دار كتبها، وتشتت بنو
الخجندي، فقصده صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل، فأوردهما جمال
الدين الوزير من إنعامه وإكرامه المنهل المنهل، ومضى جمال الدين إلى الحج، وأقام صدر
الدين، ويحر جود الوزير له متلاطم اللجج، ثم انصرف عنه مملوء الحقائق، محبواً
بالمواهب، فعمل في جمال الدين الوزير أبياتاً من جملتها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعت من نعماك في قافله
ووصل إلى أصفهان، فتوفر أهلها على خدمته، وافترضوا إقامة حرمة، وعاد أخوه جمال
الدين من الحج، وسار مع قافلة همذان، ثم وصل الخبر بأن السلطان - يعني مسعوداً -
قد رضي عنه وعن أخيه، وأعاد إليهما الرياسة بأصفهان.

هذه الحاشية كلها نقلتها على صورتها من النسخة المذكورة وذلك بعد فراغي من نقل
هذه النسخة من أصل الشيخ المؤلف الذي بخطه، والله الحمد، وصلاته على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلامه. اهـ. قلت: انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»:
٢٠١ - ٢٠٣، وترجمة صدر الدين الخجندي محمد بن عبد اللطيف في «سير أعلام
النبل»:
٣٨٦/٢٠ - ٣٨٧، وفيه توفي سنة (٥٥٢ هـ).

(٥٥٢هـ).

(١) «الباهر»: ١٢٨ - ١٢٩.

يديهِ قُنْدُزٌ^(١)، لِيُعْمَلَ عَلَى وَبَرٍ لِيَلْبِسَهُ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ، فَقَالَ: هَذَا الثَّمَنُ كَثِيرٌ، اشْتَرُوا لِي قُنْدُزًا بِدَيْنَارَيْنِ وَتَصَدَّقُوا بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرٍ. قَالَ: فَرَاغَعْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ فَلَمْ يَفْعَلْ^(٢).

قَالَ: وَحَكَى لِي مِنْ أَثَقَ إِلَيْهِ مِنَ الْعُدُولِ بِالْمَوْصِلِ أَنَّ الْأَقْوَاتَ تَعَذَّرَتْ فِي بَعْضِ السِّنِينَ بِهَا وَغَلَّتِ الْأَسْعَارُ، وَكَانَ بِالْمَوْصِلِ رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ الشَّيْخُ عَمْرُ الْمَلَأَ^(٣)، فَأَحْضَرَهُ جَمَالَ الدِّينِ وَسَلَّمُ إِلَيْهِ مَالًا، وَقَالَ لَهُ: تَخْرُجُ هَذَا الْمَالُ عَلَى مُسْتَحَقِّهِ، وَكَلِمَا فَرَّغَ أَرْسَلَ إِلَيَّ لِأَنْفِذَ غَيْرِهِ، فَلَمْ تَمْضِ إِلَّا أَيَّامٌ يَسِيرَةٌ حَتَّى فَرَّغَ ذَلِكَ الْمَالُ لِكثَرَةِ الْمُحْتَاجِينَ، فَأَنْفِذَ لَهُ شَيْئًا آخَرَ فَفَنِي، ثُمَّ أَرْسَلَ يَطْلُبُ مَا يَخْرُجُهُ، فَقَالَ جَمَالَ الدِّينُ لِلرَّسُولِ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَكِنْ خَذْ هَذِهِ الْمُحَافِرَ الَّتِي فِي دَارِي فَيَبِيعُوهَا وَتَصَدَّقُوا بِثَمْنِهَا إِلَى أَنْ يَأْتِينَا شَيْءٌ آخَرَ فَنُرْسِلُهُ إِلَى الشَّيْخِ عَمْرٍ. فَبِيعَتِ الْمُحَافِرُ وَتَصَدَّقُوا بِثَمْنِهَا وَعَرَّفُوهُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يُرْسِلُهُ، فَأَعْطَاهُ ثِيَابَهُ الَّتِي كَانَ يَلْبِسُهَا مَعَ الْعِمَامَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَرْسَلَ الْجَمِيعَ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ: قُلْ لِلشَّيْخِ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الطَّلَبِ فَهَذِهِ أَيَّامُ مَوَاسَاةٍ. فَلَمَّا وَصَلَتِ الثِّيَابُ إِلَى الشَّيْخِ عَمْرٍ بَكَى وَبَاعَهَا وَتَصَدَّقَ بِثَمْنِهَا^(٤).

قَالَ: وَحَكَى لِي بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ مِمَّنْ كَانَ يَصْحَبُ الشَّيْخَ عَمْرَ النَّسَائِيَّ؛ شَيْخَ الشُّيُوخِ^(٥) بِالْمَوْصِلِ قَالَ: أَحْضَرَنِي الشَّيْخُ فَقَالَ لِي: انْطَلِقْ

(١) هُوَ الْقُنْدُسُ، ثَعْلَبُ الْمَاءِ، تَتَخَذُ مِنْ جِلْدِهِ فَرَاءً فَاخِرَةً يَلْبِسُهَا السُّلَاطِينُ. انْظُرْ «الْأَلْفَاظُ الْفَارْسِيَّةُ الْمَعْرُوبَةُ»: ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) «الْبَاهَرُ»: ١٢٩.

(٣) انْظُرْ حَاشِيَتِنَا رَقْمَ ١ ص ٤٥ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٤) «الْبَاهَرُ»: ١٢٩.

(٥) شَيْخُ الشُّيُوخِ، لَقِبُ يَطْلُقُ عَلَى مَتَوَلِي الْإِشْرَافِ عَلَى رِجَالِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ. انْظُرْ «الْأَلْقَابُ الْإِسْلَامِيَّةُ» لِلدَّكْتُورِ حَسَنِ الْبَاشَا: ٣٦٦ - ٣٦٧.

إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمّالين يحملون أحمالاً من النّصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعدّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرّحبة*، فتوصل هذه الرّزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي، فتوصل إليه هذه الرّزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها السّلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى، فرأينا به نحو مئة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا^(١).

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيراً، فطلب منه شيئاً، وتردّد إليه عدّة أيام، ثم انقطع، فسأل عنه، فقيل: إنه سافر. فشقّ ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. وردّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو ماردين*. فأرسل إليه خلعاً ونفقة إلى ماردين^(٢).

(١) «الباهر»: ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) «الباهر»: ١٣٠.

قال: ولورُمتُ شرحَ مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها^(١).

[قلت]^(٢): وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين في الموصل^(٣) سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وأنا متوجّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض عليّ الدخول إلى دارٍ في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي [كل]^(٤) يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى^(٥)، وأتأبك قد ركب إلى الميدان، وينفذ إليّ يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فتحدث. فوجدتُ يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق [لي]^(٦) خلوة، وقد خلونا الساعة. قال: قل. قلت: أقول [لك]^(٧) ما قاله الشريف الرضي:

١٣٩/١ ما ناصحتك خفايا الودّ من أحدٍ ما لم يُصِيبك بمكروهٍ من العَدَلِ
مودّتي لك تأبى أن تُسامحني بأن أراك على شيءٍ من الزَّلَلِ

وقد بسطتَ يدك في إنفاق المال في الصّدقات ووجوه البرّ والمعروف،
والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أنّ
الإنسان يخرج من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف

(١) في الأصل (ول) تركناها، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ١٣٠.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (ل) و (م): الموصلي.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) قرية بالموصل، وتسمى قرية يونس بن متى. انظر «معجم البلدان»: ٣٣٩/٥.

(٦) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

(٧) ما بين حاصرتين من (م).

المخرج مما قد دخلت فيه. فاطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَّر عما تخافه. ففارقته وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس^(١).

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني^(٢) في هذا الوزير الجَوَاد لما نكب:

كلا ولا غَيَّرْتَ أفعالَكَ الْغَيْرُ	ما حَطَّ قَدْرَكَ من أوج العُلا الْقَدْرُ
ولم يَنْلُ شَأْوَهُ في سُودِدِ بَشَرُ	أنت الذي عَمَّ أَهْلُ الْأَرْضِ نَائِلُهُ
وَصَدَّقَ السَّمْعُ عنها ما رَأَى الْبَصَرُ	سَارَتْ صِفَاتُكَ في الْأَفَاقِ وَأَتَضَحَّتْ
فَأَخِرُ الصَّبْرِ يا طَوْدَ النَّهْيِ الظُّفْرِ	فاصْبِرْ لِصَرْفِ زَمَانٍ قد مُنِيَتْ به
صروفِ دَهْرٍ له في أَهله غَيْرُ	فما تَرَى أَحَدًا في الْخَلْقِ يَسْلَمُ مِنْ
ولو سَعَوْا نحوه جَهْرًا لِمَا قَدَرُوا	سَعَوْا بِقَصْدِكَ سِرًّا واستَبَّ لَهُم
لَمْتُ من لَوْعَةٍ في الْقَلْبِ تَسْتَعِرُ ^(٣)	لولا الْأَمَانِي التي تحيا النُّفُوسُ بها

ومنها في ذِكر الشيخ عمر المَلَأ:

مَيَّزَتْ بِالْفِكْرِ أحوالَ الْوَرَى عُمُرُ	وَأَصْدَقُ النَّاسِ في حِفْظِ الْعُهُودِ إِذَا
يزوره وَيَقْوِي أزرَهُ الْخَضِرُ ^(٤)	الزَّاهِدُ الْعَابِدُ الْبَرُّ التَّقِيُّ ومن

(١) النص في القسم المفقود من كتاب الاعتبار، استدركه محققه من كتابنا هذا. انظر «الاعتبار»: ٢١ - ٢٢. طبعة د. السَّامرائي.

(٢) نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر، ولد سنة (٥١٠هـ)، وتوفي سنة (٥٧٩هـ) وكان فقيهاً أديباً شاعراً، انظر ترجمة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٣٦١/٢ - ٣٨٤، و«وفيات الأعيان»: ١١٣/٢ - ١١٤، وفيه توفي سنة (٥٩٩هـ) وهو وهم. و«المختصر المحتاج إليه»: ٢٧٩/١ - ٢٨٠. وانظر ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣٧٢/٢.

(٤) المصدر السابق: ٣٧٣/٢. وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من هذا الجزء.

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزّيك:

لا خَيْرَ في الدُّنْيَا ولا أَهْلِهَا بعد جمالِ الدِّينِ والصَّالِحِ
بَحْرانِ لولا دَمْعُ باكيهما ما كانَ ماءُ البَحْرِ بالمالحِ^(١)

قال ابن الأثير: وقال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشَّهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاqqة فيها، ما يدلُّ على تمكُّنه من الكفاية^(٢). فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشَّهيد، وجمال الدين وزيره حينئذٍ، وقد تمكَّن زين الدين عليُّ بن بُكْتِكِين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدَّم عند قطب الدين جماعة من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكُّنه وعلوِّ محلِّه يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام^(٣) الشَّهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء. فقال: أنت صبي غرٌّ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه، ذلك الوقت كان لنا صاحب^(٤) متمكن قوي العزم، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يَتَلَوَّن بأقوال أصحابه، فحفظناه، فكان ما أفعله هو الكفاية. وأما الآن فلنا سُلطان غير متمكن، وهو محكومٌ عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية^(٥).

(١) البيتان ليسا في «ديوانه».

(٢) في الأصل و(ل) الكفاة، والمثبت من (م).

(٣) في الأصل: أيام، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) أي عماد الدين زنكي.

(٥) «الباهر»: ٨٢ - ٨٣.

ثم دخلت سنة ستين وخمس مئة

قال ابن الأثير: فيها فتح نور الدين قلعة بانياس* من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم*، وأذن لعسكر الموصِل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلمه بقلّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيق عليها وقتلها. وكان في جُملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهمٌ أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى.

[قلت: وفي نصرة الدين هذا يقول أحمد بن منير من قصيدة له:

يا نُصْرَةَ الدِّينِ الَّذِي عَزَمُهُ مِنْهُ تُرَجَّى نَصْرَةُ الدِّينِ
وابن الذي زَلَزَلَ مِنْ خَوْفِهِ ما بين أغماتٍ إلى الصَّيْنِ

قال ابن الأثير^(١): وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا [له]^(٢)، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم* وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدّة، ورجالاً عُدّة.

وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتمُ بَقْصُ ياقوت من أحسن الجواهر^(٣)، فسقط من يده في شِعْراء بانياس* — وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان — فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفَصُّ عَلمَ به، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلّهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع. فعادوا إليه ١٤٠/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل)، والمثبت من (م). قلت: أغمات، قرب مراکش في المغرب. انظر «معجم البلدان»: ٢٢٥/١.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (ل) الجواهر.

فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشَّاميين، وأظنه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحُه بها ويهنته بهذه الغَزاة وعود الفَصِّ الياقوت:

إن يَمْتَر الشُّكَّاك فيك فإنَّك الـ مَهْدِيٌّ مَطْفِيٌّ جَمْرَةَ الدَّجَالِ
فلعودةِ الجَبَلِ الذي أضلَّته بِالْأَمْسِ بين غياطلٍ^(١) وجبالِ
مسترجعاً لك بالسَّعادةِ آيةً رَدَّتْ مَطالَ الفالِ غيرَ مُطالِ
لم يُعْطَها إلا سَليمانٌ وقد نِلْتَ الرِّفَاءَ بموشِكِ الإِعْجالِ
زَجَرُ جَرَى لسريرِ مُلْكِكَ أنه كسريره عن كُلِّ جَذْرِ عالِ
فلو البَحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْنَهُ وَأَمَرْتَهُنَّ قَذَفْنَهُ في الحالِ^(٢)

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغَزاة؛ فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين^(٣)، وفتحُ بانياس* كما تراه في سنة ستين وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنته بالعود من غزاة وضياح فصَّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شرَّاه ألف ومئة دينار. وفي نسخة: وَوَجَدَانِ خَاتِمٍ ضَاعَ مِنْهُ فِي الصَّيْدِ قِيَمَتُهُ أَلْفٌ وَمِئَةٌ دِينَارٍ، وأنشده إياها بقلعة حمص. فذكر القصيدة، وأولها:

* يوماك يوم ندى ويوم نزال *

يقول فيها:

أَخْرَسَتْ شِقْشِقَةَ الضَّلَالِ وَقُدَّتْهُ قَوْدَ الدَّلُولِ أَطَاعَ بَعْدَ صِيَالِ
ورميت دارَ المشركين بصيْلَمٍ أَلْقَحَتْ فِيهَا الْحَرْبَ بَعْدَ حِيَالِ
وسَعَرَتْ بين تربيهم وترابهم دُغْرًا يُشِيبُ نَوَاصِي الأَطفَالِ
فوق الخطيم وقد خَطَمَتْ رَعِيمَهُمْ ضَرْبًا سَوَابِقُهُ بغيرِ تَوَالِي

(١) مفردا غيطلة، وهي اجتماع الشجر والتفافه. انظر «اللسان» (غطل).

(٢) انظر «الباهر»: ١٣٠ - ١٣١، و«الكامل»: ٣٠٤/١١ - ٣٠٥.

(٣) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

ضَرْباً مَلَأَتْ فَرَنْجَةً مِنْ حَرِّهِ
 وَبَفَّجَ حَارِمَ أَحْرَمَتْ لِقْرَاعِهِمْ
 عَجَمُوا عَلَى الْجِسْرِ الْحَدِيدِ حَدِيدِهَا
 زَلَزَلَتْ أَرْضَهُمْ بِوَقْعِ صَوَاعِقِ
 فِي مَازِقِ شَمَّرَتْ ذِيكَ تَحْتَهُ
 فِي دَوْلَةٍ غَرَاءَ مَحْمُودِيَّةٍ
 تُنْسِي الْفَتْوحَ بِهَا الْفَتْوحَ، وَتَجْتَنِي
 لَبَسَتْ بَنُورُ الدِّينِ نُورَ حَدَائِقِ
 مَلِكُ تَحَجَّبَ فِي السَّرِيرِ بِزَارَةِ
 تَنَجَّابُ عَنْ ذِي لَبْدَتَيْنِ شَذَاتِهِ
 رَفَعَ الرُّوَّاقَ بِرُوقِ أَنْطَاكِيَّةٍ
 بَدَّرَ لِأَرْبَعِ عَشْرَةَ اقْتَبَسَ السَّنَا
 فَوَزُّ الْمَالِ أَخَاضَهُ مَاءُ الطُّلَى
 مَتَقَسَّمُ بَيْنَ الْقَسِيمِينَ الْعُلَا
 لَا زِلَتْ تَطْلُعُ مِنْ ثَنَايَا جَحْفَلٍ
 تَغْزُو فَتَنْهَبُ أَوْ تَوْبُ فَتَنْهَبُ الـ
 لَكَ أَنْ تَطْلُ عَلَى الْكَوَكِبِ رَاقِياً

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك
 والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم
 القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع،
 فألح عليه فيه، فحقن الرشيد ومراً على جسر بغداد فرماه في دجلة. فلما مات
 الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص
 فرماه ثم، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأول،
 فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصنَ بانياس* كان ولد معين الدين أنر الذي سلّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من [نار] (١) جهنم (٢).

وقد تقدّم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها (٣).

وفيها (٤) توفي (٥) وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن. وكان عالماً ديناً مدبراً حنبليّ المذهب، وزر للمقتفي ثم للمستجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: «الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح» (٦). وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة. توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث

(١) ما بين حاصرتين من (م). (٢) انظر «الباهر»: ١٣١.

(٣) كان ذلك سنة (٥٥٤٣هـ) انظر ص ١٩١ من هذا الجزء.

(٤) خبر وفاة ابن هبيرة ساقط من (م).

(٥) في «المنتظم»: ٢١٦/١٠ مات مسموماً.

(٦) هو شرح للجمع بين الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة (٤٨٨هـ)، طبع باسم الإفصاح عن معاني الصحاح، طبعت قطعة منه، فيها شرح حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، نشرها الطباخ في حلب سنة (١٩٢٨م)، طبع الجزء الأول منه، وهو شرح مسانيد العشرة المشهود لهم بالجنة، بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد سنة (١٩٨٦م) انظر ترجمة الوزير ابن هبيرة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٩٦/٢ - ١٠٠ و «المنتظم»: ٢١٤/١٠ - ٢١٧، و «مرآة الزمان»: ١٥٩/٨، وما بعدها و «وفيات الأعيان»: ٢٣٠/٦ - ٢٤٤، و «الفخري في الآداب السلطانية» ٣١٢ - ٣١٥ (ط. دار صادر) و «سير أعلام النبلاء»: ٤٢٦/٢٠ - ٤٣٢، و «ذيل طبقات الحنابلة» ٢٥١/١ - ٢٨٩، و «المنهج الأحمد» ٣٣٢/٢ - ٣٦٢، و «المقصد الأرشد» ١٠٥/٣ - ١١٠. وقد صنف ابن المارستانية كتاباً في سيرته، لم يصلنا انظر ٢٠٠/٢ من هذا الكتاب، وقد ذكرت ولادته في أغلب المصادر سنة تسع وتسعين وأربع مئة، والأصح ما هو مثبت، انظر «وفيات الأعيان» ٢٤٢/٦.

عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة. ورثيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربع مئة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور^(١)، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

[نجز الجزء الأول من كتاب الروضتين،

ويليه الجزء الثاني

ويبدأ بحوادث سنة (٥٦١)]

(١) من نواحي بغداد. انظر «معجم البلدان»: ٤٤٣/٢، ٤٨١.

المحتوى

٥ مقدمة المحقق
٢١ خطبة المؤلف ومقدمته
٣١ فصل / الدولة النورية
٣٣ زهد نور الدين وعبادته وعلمه
٣٨ عدل نور الدين
٤٣ شجاعة نور الدين وحسن رأيه
٤٤ ما فعله نور الدين من المصالح
٤٨ هبة نور الدين ووقاره
٤٩ حفظ نور الدين أصول الديانات، ومحاربته للبدع
٥١ أوقاف نور الدين وصدقاته
٦٢ نظر نور الدين في أمور الرعية
٦٧ إبطال نور الدين للمكوس
٧٨ فصل / أشعار في مدح نور الدين
	فصل / أصل البيت الأتابكي قسيم الدولة آق سنقر جد
٩٣ نور الدين، وذكر ما تم في أيامه
٩٧ فصل / مقتل الوزير نظام الملك
١٠٠ فصل / وفاة السلطان ملكشاه
١٠١ بداية ظهور الفرنج
١٠٢ مقتل قسيم الدولة آق سنقر
١٠٣ ذكر أخبار زنكي
١٠٥ مقتل مودود أمير الموصل
١٠٧ فصل / ولادة نور الدين
١٠٧ وفاة السلطان محمد بن ملكشاه
١٠٨ ولاية السلطان محمود بن محمد

١٠٩ وفاة الخليفة المستظهر بالله	
١١١ فصل / خروج مسعود على أخيه السلطان محمود	
١١٢ ولاية آق سنقر البرسقي الموصل	
١١٣ ولاية زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة	
١١٤ ولاية زنكي شحنكية بغداد	
١١٥ فصل / ولاية زنكي الموصل	
١١٧ ما استولى عليه الفرنج من البلاد، وحال المسلمين وقتئذٍ	—
١١٨ فصل / في فتوح عماد الدين زنكي	
١١٩ وفاة السلطان محمود بن محمد	
١٢٠ وفاة السلطان طغرل بن محمد	
١٢٠ مقتل الخليفة المسترشد بالله	
١٢٠ خلافة الراشد بالله	
١٢١ «خلافة المقتضي لأمر الله	
١٢١ مقتل الخليفة الراشد بالله	
١٢٢ زواج زنكي بالختاتون صفوة الملك	
١٢٢ فصل / في جهاد زنكي للفرنج	—
١٢٢ محاصرة امبراطور الروم شيزر ورجوعه عنها	
١٢٦ وفاة الأمير مرشد بن علي والد أسامة بن منقذ	
١٢٦ فتح زنكي حصن عرقه وقلعة دارا	—
١٢٦ وفاة القاضي بهاء الدين الشهرزوري	
١٢٦ ولادة صلاح الدين يوسف بن أيوب	
١٢٧ فصل / فتح زنكي شهرزور وبعليك وحصاره دمشق	—
١٢٧ ولادة تقي الدين عمر بن شاهنشاه	
١٢٨ وفاة محمد بن بوري صاحب دمشق	
١٢٨ ولاية مجير الدين أبق بن محمد دمشق	
١٣٠ فصل / فتح زنكي حصن بارين والمعرة وكفر طاب	—
١٣١ حصار الفرنج حلب ورجوعهم عنها	
١٣٥ فصل / فتح زنكي قلاع الأكراد	
١٣٦ فتح زنكي حمص	
١٣٨ مسير زنكي إلى ديار بكر وفتح عدة بلاد منها	
١٣٨ فصل / فتح مدينة الرها	

١٤٩	فصل / مقتل جقر نائب الموصل
١٥٤	فصل / وفاة زنكي
١٥٧	فصل / ذكر بعض سيرة زنكي
	فصل / فيما جرى بعد زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه
١٦٧	غازي ومحمود
	فصل / فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والإفرنج
١٧٣	المخدولين
١٧٩	فصل / توقيع كتب عن الحافظ لدين الله
	عقد الصلح بين نور الدين ومعين الدين أنر، وزواج نور الدين
١٨٠	من ابنته
	استنصار التونتاش والي صرخد وبصرى بالفرنج وتوجه معين الدين
١٨٠	ونور الدين إليه
١٨١	حوادث سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة
١٨١	تسلم معين الدين بصرى وصرخد وانهمز الإفرنج
١٨١	اعتقال التونتاش في دمشق، وسمل عينيه اقتصاصاً
١٨٢	ولادة العادل أبي بكر بن أيوب
١٨٢	وفاة الفقيه الشافعي أبي الفتح نصر الله بن محمد المصيبي بدمشق
١٨٢	ولاية الأمير بزان حصن صرخد
١٨٣	فتح نور الدين حصن أرتاح وباراة وبسرفوث وكفرلانا
١٨٤	فصل / في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم عنها
١٨٥	حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة
١٨٦	استشهاد الفندلاوي والحلحولي
١٩٥	فتح نور الدين حصن العريمة
١٩٦	فتح نور الدين بأسوطا وهاب
١٩٧	وقعة يغرا بين نور الدين والفرنج
٢٠٤	حوادث سنة أربع وأربعين وخمس مئة
٢٠٤	وقعة إنب بين نور الدين والفرنج وتسمى أيضاً وقعة الخطيم
٢١٧	فصل / فتح نور الدين حصن أفامية
	فصل / وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس
٢٢٢	ابن الصوفي
٢٢٧	فصل / وفاة غازي بن زنكي صاحب الموصل

٢٣١	فصل / ولاية قطب الدين مودود بن زنكي الموصل
٢٣٣	فصل / مسير نور الدين إلى سنجار، وصلحه مع مودود، وتسلمه حصص
٢٤١	فصل / تحالف حكام دمشق مع الفرنج، ومحاصرة نور الدين دمشق
٢٤١	حوادث سنة خمس وأربعين وخمس مئة
٢٤١	عقد الصلح بين نور الدين وحكام دمشق ورفع حصاره عن دمشق
٢٤٣	فصل / فتح نور الدين عزاز
٢٤٦	فصل / أسر جوسلين
٢٥٥	فصل / استيلاء نور الدين على دلك
٢٥٧	استيلاء نور الدين على حصن خالد
٢٥٨	وقوع نفرة بين مجير الدين صاحب دمشق والرئيس ابن الصوفي
٢٥٨	مقتل الوزير ابن مصال في مصر، وتسلم العادل بن السلار الوزارة
٢٥٨	وفاة القاضي بهاء الدين بن عبد الوهاب الحنبلي
٢٥٩	وفاة الشريف فخر الدولة بن أبي الجن
٢٥٩	حوادث سنة ست وأربعين وخمس مئة
٢٥٩	حصار نور الدين دمشق لمعاودة حكامها للفرنج
٢٧٢	فصل / في باقي حوادث هذه السنة حدوث فناء في دمياط
٢٧٢	وفاة القاضي ابن أبي الحديد خطيب دمشق
٢٧٢	حدوث زلزلة في أعمال بصرى وحوران
٢٧٣	توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب، واجتماعه بنور الدين
٢٧٤	إغارة التركمان على ظاهر حصن بانياس
٢٧٤	إغارة الفرنج على ناحية من البقاع
٢٧٥	مفارقة صلاح الدين لوالده، وانضمامه إلى عمه أسد الدين في حلب
٢٧٥	حدوث زلزلة في دمشق
٢٧٥	وصول الخلع من الخليفة إلى نور الدين
٢٨٠	حوادث سنة سبع وأربعين وخمس مئة
٢٨٠	فتح نور الدين حصن أنطرسوس وبمحمور
٢٨٥	ولادة ابن لنور الدين ووفاته
٢٨٥	توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حصن بصرى
٢٨٦	وفاة الأمير سعد الدولة
٢٨٦	وفاة السلطان مسعود بن محمد
٢٨٦	ولاية السلطان محمد بن محمود، ومقتل خاصبك

٢٨٨	حوادث سنة ثمان وأربعين وخمس مئة
٢٨٨	سقوط عسقلان بيد الفرنج
٢٨٩	وقوع نزاع بين الرئيس ابن الصوفي وأخويه ومقتل الوزير حيدرة
٢٩٠	قدوم عطاء الخادم من بعلبك نائباً عن مجير الدين في دمشق
٢٩٠	سجن بزان صاحب صرخد في قلعة دمشق
٢٩١	ولاية رضي الدين التميمي رياسة دمشق
٢٩١	مقتل عطاء الخادم
٢٩٢	مقتل العادل بن السلار وزير مصر
٢٩٢	وفاة الفقيه برهان الدين البلخي
٢٩٣	وفاة الشاعر ابن منير الطرابلسي
٢٩٣	وفاة الشاعر القيسراني
٣٠٠	وفاة حسام الدين تمر تاش صاحب ماردین وولاية ابنه نجم الدين ألبی
٣٠١	حوادث سنة تسع وأربعين وخمس مئة
٣٠١	فتح نور الدين دمشق
٣٠٥	تولي أسد الدين شيركوه أمور دمشق بعد فتحها
	خروج مجير الدين صاحب دمشق إلى حمص ثم إلى بالس،
٣٠٦	ومسيره إلى العراق ووفاته ببغداد
٣٠٨	إطلاق بزان من الاعتقال
٣٠٨	وفاة الرئيس مؤيد الدين المسيب بن الصوفي
٣٠٩	مقتل الخليفة الظافر بن الحافظ
٣٠٩	قدوم طلائع بن رزيك إلى القاهرة، وهرب عباس الوزير منها
٣١٤	مقتل عباس الوزير بيد الإفرنج
٣١٥	التحاق أسامة بن منقذ بنور الدين، ووصول أهله من مصر
٣١٦	فصل / وصول الأمير مجد الدين ابن الداية إلى دمشق عقيب عوده من الحج
٣١٧	وفاة هاشم بن فليته أمير الحرمين
٣١٧	هجوم الفرنج على مدينة تنيس
٣١٧	وفاة القاضي فخر الدين الطرسوسي بحلب
٣١٨	حوادث سنة خمسين وخمس مئة
٣١٨	تسلم نور الدين بعلبك
٣١٩	ولاية تورانشاه بن أيوب شحنية دمشق
٣١٩	ولاية صلاح الدين يوسف بن أيوب شحنية دمشق

٣٢٠	التحاق صلاح الدين بنور الدين في حلب
٣٢٠	امتلاك نور الدين عدة قلاع من أعمال قليج أرسلان
٣٢١	هجوم الأسطول المصري على ميناء صور
٣٢٢	طلب المقتفي من أمير الحرمين أن يركب للكعبة المكرمة باباً جديداً
٣٢٢	حوادث سنة إحدى وخمسين وخمس مئة
٣٢٢	محاصرة نور الدين قلعة حارم
٣٢٨	فصل / توجه نور الدين إلى حلب وظفر العسكر الحلبي بالفرنج
٣٢٨	عودة نور الدين إلى دمشق
٣٢٨	الهدنة بين نور الدين والفرنج
٣٢٨	نقض الفرنج للهدنة
٣٢٩	وفاة القاضي محمود بن إسماعيل بن قادوس، كاتب الإنشاء بمصر
٣٣٠	وفاة الزاهد أبي البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحوراني
٣٣٠	حدوث الزلازل في الشام
٣٣٢	حوادث سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة
٣٣٢	حدوث الزلازل في الشام
٣٤٠	فصل / توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها
٣٤٠	انتصار أمير أميران أخي نور الدين على الفرنج قرب بانياس
٣٤١	ظفر أسد الدين شيركوه بسرية من الفرنج
٣٤١	وصول أسد الدين شيركوه إلى بعلبك للجهاد، واجتماعه بنور الدين
	محاصرة نور الدين بانياس، وانتصار أسد الدين شيركوه على سرية
٣٤١	من الفرنج
٣٤٢	فتح نور الدين مدينة بانياس
٣٤٣	انتصار نور الدين على الفرنج في الملاحه بين طبرية وبانياس
٣٤٦	فصل / توجه نور الدين إلى حلب، وقرب الملك ابن مسعود منها
٣٤٧	ابتداء مرض نور الدين وهو مخيم قرب أنطاكية
٣٤٧	تعيين نور الدين أخاه أمير أميران ولياً لعهد
٣٤٨	شفاء نور الدين، وتوجه أمير أميران إلى حرّان
	عزل أمير أميران من ولاية العهد، وتعيين نور الدين أخاه
٣٤٩	قطب الدين بدلاً عنه
٣٥٢	فصل / ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ
٣٥٥	سبب خروج أسامة بن منقذ وإخوته من شيزر

٣٥٩	فصل / في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين
٣٥٩	انتصار المفتفي على عسكر السلطان
٣٥٩	وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه
	وفاة الشيخ مخلص الدين عبد القاهر بن عيسى ابن أبي جرادة
٣٦٠	الخلبي، أمين خزائن مال نور الدين
٣٦٠	مقتل فخر الدين سرخاك والي بصرى
٣٦٠	وفاة الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الياغساني والي حمص
	ورود الإمام أبي الحياة محمد بن أبي القاسم السلمي من بلخ
٣٦١	ووعظه في جامع دمشق
٣٦١	وفاة الأمير عز الدين أبي بكر الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر
٣٦١	حوادث سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة
٣٦١	استيلاء الفرنج على حصن حارم
	عيث الفرنج بحوران، وقصدهم داريا، وتوجه نور الدين من حلب
٣٦٢	إلى دمشق للجهاد بعد شفائه من المرض العارض له
٣٦٢	هجوم عسكر مصر على غزة وعسقلان ورجوعهم ظافرين غائمين
٣٧٥	حدوث زلزلة في حلب ودمشق
٣٧٦	إغارة أسد الدين شيركوه على أعمال صيدا
٣٧٦	انهزام المسلمين أمام الفرنج
	فصل / مطالبة بعض سفهاء العوام بإرجاع الكوس والرسوم، ثم إبطال
٣٧٩	نور الدين لها ثانية
٣٨٠	انتصار العسكر المصري على الفرنج
٣٨٠	مهاجمة امبراطور الروم مانويل أعمال أنطاكية وما والاها
٣٨١	محاصرة السلطان محمد بن محمود بغداد
٣٨١	وفاة المحدث أبي الوقت عبد الأول بن عيسى
٣٨١	حوادث سنة أربع وخمسين وخمس مئة
٣٨١	حدوث زلزلة في دمشق
٣٨٢	مرض نور الدين في دمشق وإياله منه
٣٨٤	فصل / وصول رسول امبراطور الروم إلى نور الدين
	مسير نور الدين إلى حمص وحماة وشيزر لقرب امبراطور الروم من
٣٨٥	أنطاكية واعتزامه قصد المعقل الإسلامية
٣٨٥	حدوث زلزلة في دمشق

٣٨٥ الهدنة بين نور الدين وإمبراطور الروم
٣٨٦ صنع نور الدين سماطاً لأخيه ولن معه من العساكر
٣٨٦ تسلم نور الدين حران، واستعادتها من أمير أميران
٣٨٧ حوادث سنة خمس وخمسين ومئة
٣٨٧ وفاة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين
	استعفاء القاضي زكي الدين القرشي من قضاء دمشق، وتولية
٣٨٨ كمال الدين بن الشهرزوري
٣٨٩ وفاة المفتي وولاية ابنه المستنجد
٣٨٩ وفاة الفائز بن الظاهر وولاية ابن عمه العاضد
٣٩٠ حوادث سنة ست وخمسين ومئة
٣٩٠ خروج أسد الدين شيركوه إلى الحج
٣٩٠ مقتل الصالح بن رزيك
٣٩٦ حوادث سنة سبع وخمسين ومئة
٣٩٧ هزيمة نور الدين تحت حصن الأكراد
٤٠٣ حوادث سنة تسع وخمسين ومئة
	مجيء شاور وزير مصر إلى نورالدين مستنجداً وإرسال شيركوه
	إلى مصر المرة الأولى ورجوعه عنها، وذكر بداية أمره وأمر
٤٠٣ أخيه نجم الدين أيوب
٤١٤ حريق محلة جيرون في دمشق
٤١٥ فصل / فتح نور الدين حارم
٤٢٠ فصل / ذكر وزير الموصل جمال الدين ووفاته
٤٣٧ حوادث سنة ستين وخمسين ومئة
٤٣٧ فتح نور الدين قلعة بانياس
٤٤٠ وفاة الوزير ابن هبيرة